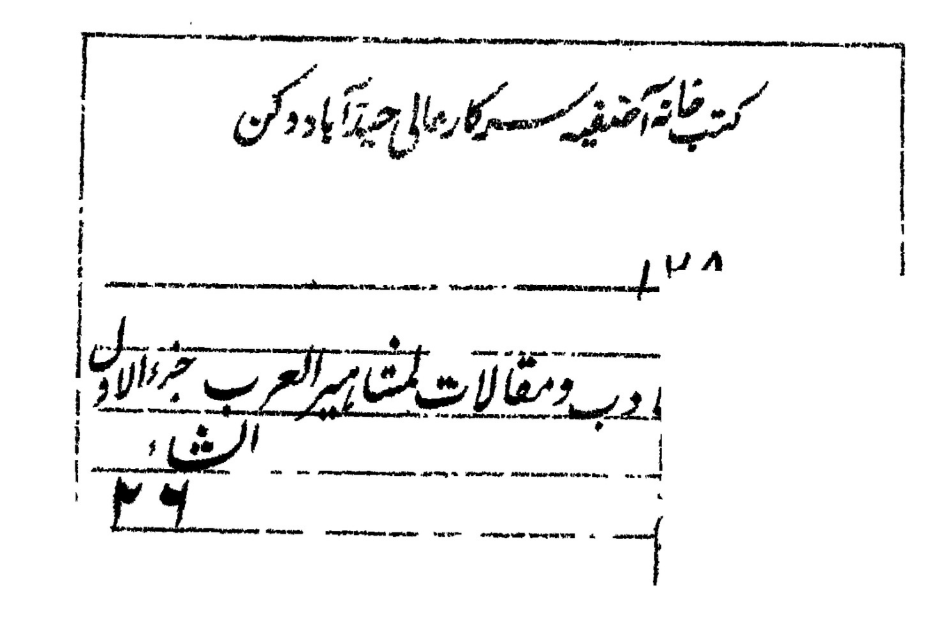
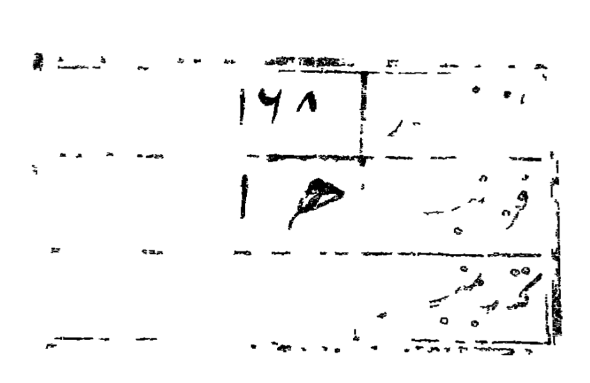






مقالات

لبعض مشاهير كتّاب العرب

في الانشاء

توطئة

فصل في حقيقة علم الادب واقسامه واركانه

البحث الاول

في حدّ علم الادب

(عن الزمخشري والجرجاني وغيرهما بتصرف)

(راجع الجزء الاول من علم الادب صفحة ١ من التمهيد)

علم الادب علم يحترز به عن جميع انواع الخطا في كلام العرب لفظا وكتابة. وذلك ان فائدة التخاطب والمحاورات في افادة العلوم واستفادتها لمّا لم تتبيّن للطالبين الّا بالالفاظ والكتابة واحوالهما كان ضبط احوالهما مما اعتنى به العلماء. فاستخرجوا من احوالهما علوما سمّوها بالعلوم الادبية لتوقّف ادب الدرس عليها بالذات وادب النفس بالواسطة ويتعرّف بها تفاهم ما في الضمائر

البحث الثاني

في تقسيم الادب وانواع العلوم الادبيّة

(عن الوطواط والجرجاني)

(راجع صفحة ٢ و٣ من تهيد علم الادب)

اَلْأَدَبُ نَوْعَانِ نَفْسِيٌّ وَكَسْبِيٌّ . فَٱلنَّفْسِيُّ بِتَوْفِيقِ ٱللّٰهِ يَهَبُهُ لِمَنْ يُرِيدُ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلدَّالَّةِ عَلَى كَرَمِ ٱلطِّبَاعِ . وَٱلْكَسْبِيُّ مَا ٱسْتَفَادَتْهُ ٱلْأَنْفُسُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْأَقْوَالِ ٱلْأَخِذَةِ بِأَعِنَّةِ ٱلْقُلُوبِ وَٱلْأَسْمَاعِ وَهُوَ ٱلَّذِي تَرْجَمْتُ عَلَيْهِ فِي هذَا ٱلْمَوْضِعِ يَقَعُ ذِكْرُهُ فِي ٱلنُّفُوسِ أَحْسَنَ مَوْقِعٍ لِتَرْمُقَهُ لِأَجْلِهِ ٱلْعُيُونُ بِٱلْإِجْلَالِ وَتَجْمَحُ ٱلنُّفُوسُ بِهِ لِمَيْلِهَا إِلَيْهِ بِتَتَابُعِ ٱلْإِذْلَالِ

وَأَمَّا تَقْسِيمُ ٱلْأَدَبِ ٱلْكَسْبِيِّ فَإِنَّهُمْ ٱخْتَلَفُوا فِي أَقْسَامِهِ فَذَكَرَ ٱبْنُ ٱلْأَنْبَارِيِّ أَنَّهَا ثَمَانِيَةٌ وَقَسَمَهُ ٱلْعَلَّامَةُ ٱلْجُرْجَانِيُّ إِلَى ٱثْنَيْ عَشَرَ قِسْمًا قَالَ : لِعِلْمِ ٱلْأَدَبِ أُصُولٌ وَفُرُوعٌ . أَمَّا ٱلْأُصُولُ فَٱلْبَحْثُ فِيهَا : (١) عَنِ ٱلْمُفْرَدَاتِ) مِنْ حَيْثُ جَوَاهِرِهَا وَمَوَادِّهَا وَهَيْئَاتِهَا فَعِلْمُ ٱللُّغَةِ . وَمِنْ حَيْثُ صُوَرِهَا وَهَيْئَاتِهَا فَقَطْ فَعِلْمُ ٱلصَّرْفِ . أَوْ مِنْ حَيْثُ ٱنْتِسَابِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ بِٱلْأَصَالَةِ وَٱلْفَرْعِيَّةِ فَعِلْمُ ٱلْٱشْتِقَاقِ . (٢) وَ(عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ) . فَإِمَّا بِٱعْتِبَارِ هَيْئَاتِهَا ٱلتَّرْكِيبِيَّةِ وَتَأْدِيَتِهَا لِمَعَانِيهَا ٱلْأَصْلِيَّةِ فَعِلْمُ ٱلنَّحْوِ . وَإِمَّا بِٱعْتِبَارِ إِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ مُغَايِرَةٍ لِأَصْلِ ٱلْمَعْنَى فَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَإِمَّا بِٱعْتِبَارِ كَيْفِيَّةِ تِلْكَ ٱلْإِفَادَةِ فِي مَرَاتِبِ ٱلْوُضُوحِ فَعِلْمُ

اَلْبيَانِ.وَعِلمُ اَلبَدِيعِ ذَيلٌ لِعِلمَي اَلمعَانِي وَاَلبيَانِ دَاخِلٌ تحتَهما.(٣) وَامَّا (عَنِ اَلمرَكبَاتِ اَلموزُونَةِ). فَامَّا مِنْ حَيْثُ وَزنِها فَعِلمُ اَلعَرُوضِ اَوْ مِنْ حَيثُ اَوَاخِرِهَا فَعِلمُ اَلقوَافِي

وَاما اَلفرُوعُ فَاَلبحثُ فِيها اِمَّا اَنْ يَتعَلق بِنقوشِ اَلكِتَابَةِ فَعِلمُ اَلخطِّ او يختصُّ بِاَلمَنظومِ فَاَلعِلمُ اَلمسَمَّى بِقَرضِ اَلشِّعْرِ. اَوْ بِاَلنَّثرِ فَعِلمُ اَلاِنْشَاءِ. اَوْ لايختصُّ بشيْءٍ فَعِلمُ اَلمحَاضَرَاتِ وَمِنهُ اَلتَّوَارِيخُ

البحث الثالث

في موضوع علم الادب واركانهِ

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٣ من تمهيد علم الادب)

هٰذَا اَلعِلْمُ لَا مَوضُوعَ لَهُ يُنظَرُ فِي اِثبَاتِ عَوارِضِهِ اَوْ نفيِهَا وَاِنَّمَا اَلمقصُودُ مِنهُ عِنـدَ اَهلِ اَللِّسَانِ ثمَرَتهُ وَهِيَ اَلاِجَادَةُ فِي فَنَّي اَلمنظُومِ وَاَلمنثُورِ عَلى اَسَالِيبِ اَلعَربِ وَمَنَاحِيهِمْ. فَيَجْمَعُونَ لِذٰلكَ من كَلَامِ اَلعَربِ مَا عَسَاهُ تحصَلُ بِهِ اَلكَلِمَةُ مِنْ شِعْرٍ عَالِي اَلطَّبَقَةِ وَسَجعٍ مُتَسَاوٍ فِي اَلاِجَادَةِ وَمَسَائِلَ مِنَ اَللُّغَةِ وَاَلنَّحوِ مَبثُوثَةٍ اَثنَاءَ ذٰلِكَ مُتَفَرِّقَةٍ يَستَقرِي مِنهَا اَلنَّاظِرُ فِي اَلغَالِبِ مُعْظَمَ قوَانِينِ اَلعَرَبِيَّةِ مَعَ ذِكرِ بَعضٍ مِنْ اَيَّامِ اَلعَرَبِ لِيفهَمَ بِـهِ ما يَقَعُ فِي اَشعَارِهِمْ مِنهَا وَكَذٰلِكَ ذِكْرُ اَلمهِمِّ مِنَ اَلاَنسَابِ اَلشَّهِيرَةِ وَاَلاَخبَارِ اَلعَامَّةِ. وَاَلمقصُودُ بِذٰلِكَ كُلِّهِ اَنْ لَايخفَى عَلَى اَلنَّاظِرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ اَلعَرَبِ وَاَسَالِيبِهِمْ

وَمَنَاحِي بَلَاغَتِهِمْ إِذَا تَصَفَّحَهُ . لِأَنَّهُ لَا تَحْصُلُ ٱلْمَلَكَةُ مِنْ حِفْظِهِ إِلَّا بَعْدَ فَهْمِهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيمِ جَمِيعِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ فَهْمُهُ . ثُمَّ إِنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا حَدَّ هٰذَا ٱلْفَنِّ قَالُوا : ٱلْأَدَبُ هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَأَخْبَارِهَا وَٱلْأَخْذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِطَرَفٍ يُرِيدُونَ مِنْ عُلُومِ ٱللِّسَانِ أَوِ ٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ مُتُونُهَا فَقَطْ إِذْ لَا مَدْخَلَ لِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعُلُومِ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ إِلَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ عِنْدَ كَلَفِهِمْ بِصِنَاعَةِ ٱلْبَدِيعِ مِنَ ٱلتَّوْرِيَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَتَرَسُّلِهِمْ بِٱلِاصْطِلَاحَاتِ ٱلْعِلْمِيَّةِ . فَٱحْتَاجَ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْفَنِّ إِلَى ٱصْطِلَاحَاتِ ٱلْعُلُومِ لِيَكُونَ قَائِمًا عَلَى فَهْمِهَا : وَسَمِعْنَا مِنْ شُيُوخِنَا فِي مَجَالِسِ ٱلتَّعْلِيمِ أَنَّ أُصُولَ هٰذَا ٱلْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةُ دَوَاوِينَ وَهِيَ : أَدَبُ ٱلْكَاتِبِ لِٱبْنِ قُتَيْبَةَ وَكِتَابُ ٱلْكَامِلِ لِلْمُبَرَّدِ وَكِتَابُ ٱلْبَيَانِ وَٱلتَّبْيِينِ لِلْجَاحِظِ وَكِتَابُ ٱلنَّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ ٱلْقَالِي ٱلْبَغْدَادِيِّ وَمَا سِوَى هٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ فَتَبَعٌ لَهَا وَفُرُوعٌ عَنْهَا وَكُتُبُ ٱلْمُحْدَثِينَ فِي ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ . وَكَانَ ٱلْغِنَاءُ فِي ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ أَجْزَاءِ هٰذَا ٱلْفَنِّ لِمَا هُوَ تَابِعٌ لِلشِّعْرِ إِذِ ٱلْغِنَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَلْحِينُهُ . وَكَانَ ٱلْكُتَّابُ وَٱلْفُضَلَاءُ مِنَ ٱلْخَوَاصِّ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ وَفُنُونِهِ فَلَمْ يَكُنِ ٱنْتِحَالُهُ قَادِحًا فِي ٱلْعَدَالَةِ وَٱلْمُرُوءَةِ وَقَدْ أَلَّفَ ٱلْقَاضِي أَبُو ٱلْفَرَجِ ٱلْأَصْبَهَانِيُّ كِتَابَهُ فِي ٱلْأَغَانِي جَمَعَ فِيهِ أَخْبَارَ ٱلْعَرَبِ وَأَشْعَارَهُمْ وَأَنْسَابَهُمْ وَأَيَّامَهُمْ وَدُوَلَهُمْ . وَجَعَلَ مَبْنَاهُ عَلَى ٱلْغِنَاءِ فِي ٱلْمِائَةِ صَوْتٍ ٱلَّتِي ٱخْتَارَهَا ٱلْمُغَنُّونَ لِلرَّشِيدِ فَٱسْتَوْعَبَ فِيهِ ذٰلِكَ أَتَمَّ ٱسْتِيعَابٍ وَأَوْفَاهُ . وَلَعَمْرِي

إِنَّهُ دِيوَانُ ٱلْعَرَبِ وَجَامِعُ أَشْتَاتِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلتَّارِيخِ وَٱلْغِنَاء وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ . وَلَا يُعْدَلُ بِهِ كِتَابٌ فِي ذٰلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ ٱلَّتِي يَسْمُو إِلَيْهَا ٱلْأَدَبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا

البحث الرابع

في شرف الادب ومنافعهِ

(عن الثعالبي وابن عبد ربّهِ والوطواط)

(راجع صفحة ٢ من تمهيد علم الادب)

قَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلرَّجُلُ بِلَا أَدَبٍ شَخْصٌ بِغَيْرِ آلَةٍ وَجَسَدٌ بِلَا رُوحٍ . وَقِيلَ : ٱلْأَدَبُ أَكْرَمُ ٱلْجَوَاهِرِ طَبِيعَةً وَأَنْفَسُهَا قِيمَةً فَٱطْلُبُوهُ فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلنَّبَاهَةِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَدَلِيلٌ عَلَى ٱلْمُرُوءَةِ وَمَنْبَهَةٌ لِلرَّأْيِ وَلِلصَّوَابِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلْغُرْبَةِ وَأَنِيسٌ فِي ٱلْوَحْدَةِ وَجَمَالٌ فِي ٱلْمَحَافِلِ وَصِلَةٌ فِي ٱلْمَجَالِسِ . وَإِذَا أَكْرَمَكَ ٱلنَّاسُ لِمَالٍ أَوْ سُلْطَانٍ فَلَا يُعْجِبْكَ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلْكَرَامَةَ تَزُولُ بِزَوَالِهِمَا وَلْيُعْجِبْكَ إِذَا أَكْرَمُوكَ لِدِينٍ أَوْ أَدَبٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا ٱلْفَتَى فَاتَهُ مَالٌ يُجَمِّلُهُ ... فَفِي ٱلتَّأَدُّبِ مِمَّا فَاتَهُ خَلَفُ
هُوَ ٱللِّبَاسُ ٱلَّذِي لَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ ... وَٱلْمَفْخَرُ ٱلدَّيِّنُ فِيهِ ٱلْفَضْلُ وَٱلشَّرَفُ

قَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ لِبَنِيهِ : تَأَدَّبُوا فَإِنْ كُنْتُمْ مُلُوكًا بَرَزْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ أَوْسَاطًا فُقْتُمْ وَإِنْ أَعْوَزَكُمُ ٱلْمَعَاشُ عِشْتُمْ . وَقِيلَ : إِنَّ ٱلْأَدَبَ يُفِيدُ ٱلرَّغَائِبَ ٱلْجَلِيلَةَ وَيُعِزُّ بِلَا عَشِيرَةٍ وَيُكَثِّرُ ٱلْأَنْصَارَ بِغَيْرِ

رزيّةٍ. قال بزرجمهر: من كثُر ادبُهُ كثُر شرفُهُ وان كان وضيعاً. وبعُد صيتُهُ وان كان خاملاً. وساد وإن كان غريباً وكثُرت حوائجُ النّاس اليه وان كان فقيرًا. وقالوا: من دأب في طريق الأدب ادرك حاجتهُ وملك ناصيتهُ ونبل قدرهُ ونبه ذكرهُ. ينوب الأدبُ عن النّسب ولا ينفعُ نسبٌ بلا ادبٍ وقال الشاعرُ:

كم من خسيسٍ وضيعِ القدرِ ليس لهُ ... في العزّ بيتٌ ولا يُنمى إلى نسبِ
قد صار بالأدبِ المحمودِ ذا شرفٍ ... عالٍ وذا حسبٍ محضٍ وذا نشبِ
يُعلي التأدُّبُ اقواماً ويرفعهم ... حتّى يُساووا ذوي العلياء في الرُّتبِ

وما احسن قول بعض الأعاجم يفتخر ويعتذر:

مالي عقلي وهمّتي حسبي ... ما انا مولًى ولا انا عربي
وإذا انتمى منتمٍ إلى احدٍ ... فإنني منتمٍ إلى ادبي

فالبسوا إذًا الأدب حُلّةً وتزيّنوه حليةً فإنّهُ انفقُ معاشٍ واجملُ رياشٍ إن احتجتم اليه كان لكم مالاً وإن استغنيتم عنهُ كان لكم جمالاً

فصلٌ في قوى العقل الغريزيَّة

البحث الاوَّل

في العقل وشرفهِ واصل تسميتهِ وتقسيمهِ

(عن الماوردي باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٣ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ لِكلِّ فَضِيلةٍ اُسًّا وَلِكلِّ اَدبٍ يَنْبُوعًا. وَاُسُّ ٱلفَضَائِلِ وَيَنْبُوعُ ٱلآدَابِ هُوَ ٱلعَقْلُ ٱلَّذِي جعَلَهُ ٱللهُ تَعَالَى لِلدِّينِ اَصْلًا وَلِلدُّنْيَا عِمَادًا فَاَوْجَبَ ٱلدِّينَ بِكَمَالِهِ وَجَعَلَ ٱلدُّنْيَا مُدَبَّرَةً بِاَحْكَامِهِ وَاَلَّفَ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ مَعَ اَخْتِلَافِ هِمَمِهِمْ وَمَآرِبِهِمْ . قَالَ بَعْضُ ٱلبُلَغَاءِ : ٱلعَقْلُ خَيْرُ ٱلمَوَاهِبِ وَٱلجَهْلُ شَرُّ ٱلمَصَائِبِ. قَالَ اِبرَاهِيمُ بْنُ حَسَّانَ :

يَزِينُ ٱلفَتَى فِي ٱلنَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ وَاِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيهِ مَكَاسِبُهْ
يَشِينُ ٱلفَتَى فِي ٱلنَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ وَاِنْ كَرُمَتْ اَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ
يَعِيشُ ٱلفَتَى بِٱلعَقْلِ فِي ٱلنَّاسِ اِنَّهُ عَلَى ٱلعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ
وَاَفْضَلُ قَسْمِ ٱللهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ فَلَيسَ مِنَ ٱلاَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ
اِذَا اَكْمَلَ ٱلرَّحْمَانُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ فَقَدْ كَمُلَتْ اَخْلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ

وَقَالَ مُطَرِّفٌ : مَا اُوتِيَ ٱلعَبْدُ بَعْدَ ٱلاِيمَانِ بِٱللهِ تَعَالَى اَفْضَلَ مِنَ ٱلعَقْلِ. وَيُقَالُ: مَا تَمَّ دِينُ ٱمْرِئٍ حَتَّى يَتِمَّ عَقْلُهُ. قَالَ بُزُرْجُمِهْرُ: ٱلعَقْلُ كَٱلمِسْكِ اِنْ خَبَأْتَهُ عَبِقَ وَاِنْ بِعْتَهُ نَفَقَ . وَقَالُوا : ٱلعَقْلُ كَنُورٍ وَضَعَهُ ٱللهُ طَبْعًا وَغَرَزَهُ فِي ٱلقَلْبِ كَٱلنُّورِ فِي ٱلعَيْنِ وَهُوَ ٱلبَصَرُ.

وَكَمَا يُدرَكُ بِٱلبَصرِ شَوَاهِدُ ٱلأُمورِ كَذٰلِكَ يُدرَكُ بِنُورِ ٱلعقلِ كَثيرٌ مِنَ ٱلمَحجُوبِ وَٱلمَستُورِ. وَعَمى ٱلقَلبِ كَعَمَى ٱلبَصَرِ. قال بزرجمهر: ٱلإِنسَانُ صُورَةٌ فِيهَا عَقلٌ فَإِنْ اَخطَأَهُ ٱلعَقلُ وَلَزِمَتهُ ٱلصُورَةُ فليس بِإِنسَانٍ . قَالَ ٱلمُتَنَبّي :

لَوْلَا ٱلعُقُولُ لَكَانَ اَدنَى ضَيغَمٍ   اَدنَى إِلَى شَرَفٍ مِن ٱلإِنسانِ

وَسُمّيَ ٱلعَقلُ عَقلًا تَشبِيهًا بِعَقلِ ٱلنَاقةِ (١) لأَنَّ ٱلعقلَ يَمنَعُ ٱلإِنسَانَ مِنَ ٱلإِقدَامِ عَلَى شَهوَاتِهِ إِذَا قَبُحَت كَمَا يَمنَعُ ٱلعِقَالُ ٱلنَاقةَ مِنَ ٱلشُرُودِ إِذَا نَفَرَتْ . وَلِذَلِكَ قَالَ عَامِرُ بنُ قَيس : اِذَا عَقَلَكَ عَقلُكَ عَمَّا لَا يَنبَغِي فَأَنتَ عَاقِلٌ

البحث الثاني

في تقسيم العقل الى غريزيّ ومكتسَب

(عن الوطواط والماوردي)

اِعلَمْ اَنَّ بِٱلعَقلِ تُعرَفُ حَقَائِقُ ٱلامورِ وَيُفصَلُ بَينَ ٱلحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ وَقَدْ يَنقَسِمُ قِسمَينِ غَرِيزِيٌّ وَمُكتَسَبٌ . قَالَ اَحَدُهُم : ٱلعَقلُ عَقلَانِ عَقلٌ تَفَرَّدَ ٱللهُ بِصُنعِهِ وَهُوَ ٱلاَصلُ . وَعَقلٌ يَستَفِيدُهُ ٱلمَرءُ بِهِ وَهُوَ ٱلفَرعُ فَإِذَا ٱجتَمَعَا قَوَّى كُلٌّ وَاحِدٍ مِنهُمَا صَاحِبَهُ تَقوِيَةَ ٱلنَّارِ فِي ٱلظُّلمَةِ . وَلِذَلِكَ قَالَ اَمِيرُ ٱلمُؤمِنِينَ عَلِيُّ بنُ اَبِي طَالِبٍ :

رَأَيتُ ٱلعَقلَ عَقلَينِ   فَمَطبُوعٌ وَمَسمُوعُ

١ يُقَال عَقَلَ النَاقة عقلا اي ربطها في وسط ذراعها بحبل ويسمّى العقال

فَلَا يَنفَعُ مَسْمُوعٌ إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعُ
كَمَا لَا تَنفَعُ الشَّمْسُ وَضَوْءُ الْعَيْنِ مَمْنُوعُ *

البحث الثالث

في العقل الغريزيّ وتعريفه

(عن الماوردي باختصار)

إِنَّ الْعَقْلَ الْغَرِيزِيَّ هُوَ الْعَقْلُ الْحَقِيقِيُّ وَلَهُ حَدٌّ يَتَعَلَّقُ بِهِ التَّكْلِيفُ لَا يُجَاوِزُهُ إِلَى زِيَادَةٍ وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ إِلَى نُقْصَانٍ • وَبِهِ

---

* قد قسّم القزوينيّ القوى العقلية الى اربعة اقسام مرجعها الى هذين القسمين قال:القوى العقلية اربعة اقسام.(الاول) القوة التي بها يفارق الانسان البهائم وهي التي بها استعدّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الفكريّة فيقال انها القوة الغريزيّة بها يستعدّ الانسان لادراك العلوم النظريّة.فكما ان الحياة هي الجسم للحركات الاختياريّة والادراكات الحسيّة فكذلك هذه القوّة الغريزيّة تهيئة الانسان للعلوم النظريّة والصناعات الفكريّة والحكماء يقولون لها العقل الهيولاني وهي مجرّد الاستعداد الذي هو موجود في الطفل وغير موجود في ولد البهيمة.(الثاني)القوّة التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميّز جواز الجائزات وا ستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين اكثر من الواحد والشخص الواحد لا يكون في مكانين فيقال لها التصوّرات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة والحكماء يسمونهُ العقل بالملكة . (والثالث) قوّة تحصل بها العلوم المستفادة من التجارب بمجاري الاحوال فمن اتصف بها يقال انهُ عاقل في العادة ومن لم يتّصف بها يقال انهُ غبيّ غمر .فيقال لها معانٍ مجتمعة في الذهن من مقدّمات تستنبط بها المصالح في الاعراض . (والرابع) قوّة بها تُعرف حقائق الامور وعواقبها فتقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة وتحتمل المكروه العاجل لسلامة الآجل . فاذا حصلت هذه القوّة يسمّى صاحبها عاقلا من حيث ان اقدامهُ واحجامهُ بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة.والأوَّلان بالطبع والأخيران بالاكتساب

يَمْتَازَ ٱلْإِنْسَانُ عَنْ سائِرِ ٱلْحَيَوَانِ فَإِذَا تَمَّ فِي ٱلْإِنْسَانِ سُمِّيَ عَاقِلًا وَخَرَجَ بِهِ إِلَى حَدِّ ٱلْكَمَالِ كَمَا قَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ ٱلْقُدُّوسِ :

اذا تَمَّ عَقْلُ ٱلْمَرْءِ تَمَّتْ أُمُورُهُ وَتَمَّتْ أَمَانِيهِ وَتَمَّ بِنَاؤُهُ

وَٱخْتَلَفَ ٱلنَّاسُ فِي حَدِّ ٱلْعَقْلِ وَفِي صِفَتِهِ عَلَى مَذَاهِبَ شَتَّى فَقَالَ قَوْمٌ : هُوَ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ يُفْصَلُ بِهِ بَيْنَ ٱلْحَقَائِقِ ٱلْمَعْلُومَاتِ .. وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْعَقْلِ بِأَنَّهُ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ فَاسِدٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّ ٱلْجَوَاهِرَ مُتَمَاثِلَةٌ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُوجِبَ بَعْضُهَا مَا لَا يُوجِبُ سَائِرُهَا وَلَوْ أَوْجَبَ سَائِرُهَا مَا يُوجِبُ بَعْضُهَا لَٱسْتَغْنَى ٱلْعَاقِلُ بِوُجُودِ نَفْسِهِ عَنْ وُجُودِ عَقْلِهِ(١). (وَٱلثَّانِي) أَنَّ ٱلْجَوْهَرَ يَصِحُّ قِيَامُهُ بِذَاتِهِ فَلَوْ كَانَ ٱلْعَقْلُ جَوْهَرًا لَجَازَ أَنْ يَكُونَ عَقْلٌ بِغَيْرِ عَاقِلٍ كَمَا جَازَ أَنْ يَكُونَ جِسْمٌ بِغَيْرِ عَقْلٍ . فَٱمْتَنَعَ بِهٰذَيْنِ أَنْ يَكُونَ ٱلْعَقْلُ جَوْهَرًا . وَقَالَ آخَرُونَ : ٱلْعَقْلُ هُوَ ٱلْمُدْرِكُ لِلْأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقِ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ مِمَّا قَبْلَهُ فَبَعِيدٌ مِنَ ٱلصَّوَابِ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ وَهُوَ : أَنَّ ٱلْإِدْرَاكَ مِنْ صِفَاتِ ٱلْحَيِّ (٢) وَٱلْعَقْلُ عَرَضٌ يَسْتَحِيلُ ذَلِكَ مِنْهُ كَمَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مُتَلَذِّذًا أَوْ آلِمًا أَوْ مُشْتَهِيًا (٣). وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ

(١) يُرِيدُ انَّهُ لو كان العقل جوهراً مختلفاً عن جوهر النفس ملازماً لها في جميع اجزائها لان النفس والعقل بسيطان متماثلان في ذلك واذا تمَّ الاتفاق كان جوهر النفس وجوهر العقل واحداً فيستغني الانسان عن عقلهِ بوجود نفسه وهذا باطل

(٢) يُريد هنا بالادراك على ما حدَّهُ الحكماء تمثل حقيقة الشيء وحده من غير حكم عليهِ او اثبات ويُسمى ايضاً التصوُّر وهذا يعمُّ كل حيّ لا يختص بالانسان فقط

(٣) اي ان العقل لا يمكنهُ ادراك هذه الجزئيات كما يستحيل عليهِ ان يكون متلذذاً او آلماً او مشتهياً . لان اللذَّة والألم والشهوة من الانفعالات الطارئة على المركب

ٱلْمُتَكَلِّمِينَ : ٱلعَقلُ هُوَ جُمْلَةُ عُلُومٍ ضَرُورِيَّةٍ. وَهٰذَا ٱلْحَدُّ غَيْرُ مَحْصُورٍ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ ٱلإِجْمَالِ وَيَتَأَوَّلُهُ مِنَ ٱلِاحْتِمَالِ . وَٱلْحَدُّ إِنَّمَا هُوَ بَيَانُ ٱلْمَحْدُودِ بِمَا يَنْفِي عَنْهُ ٱلإِجْمَالَ وَٱلِاحْتِمَالَ . وَقَالَ آخَرُونَ وَهُوَ ٱلقَوْلُ ٱلصَّحِيحُ : إِنَّ ٱلْعَقْلَ هُوَ ٱلعِلْمُ بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ. وَذٰلِكَ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا مَا وَقَعَ عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ وَٱلثَّانِي مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ. فَأَمَّا مَا كَانَ وَاقِعًا عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ فَمِثْلُ ٱلْمَرْئِيَّاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلنَّظَرِ وَٱلأَصْوَاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلسَّمْعِ وَٱلطُّعُومِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلذَّوْقِ وَٱلرَّوَائِحِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلشَّمِّ وَٱلأَجْسَامِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱللَّمْسِ . فَإِذَا كَانَ ٱلإِنْسَانُ مِمَّنْ لَوْ أَدْرَكَ بِحَوَاسِّهِ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءَ ثَبَتَ لَهُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ . لِأَنَّ خُرُوجَهُ فِي حَالِ تَغْمِيضِ عَيْنَيْهِ مِنْ أَنْ يُدْرِكَ بِهِمَا وَيَعْلَمَ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ ٱلْعَقْلِ مِنْ حَيْثُ عَلِمَ مِنْ حَالِهِ أَنْ لَوْ أَدْرَكَ لَعَلِمَ . وَأَمَّا مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ فَكَٱلْعِلْمِ بِأَنَّ ٱلشَّيْءَ لَا يَخْلُو مِنْ وُجُودٍ أَوْ عَدَمٍ . وَأَنَّ ٱلْمَوْجُودَ لَا يَخْلُو مِنْ حُدُوثٍ أَوْ قِدَمٍ . وَأَنَّ مِنَ ٱلْمُحَالِ ٱجْتِمَاعَ ٱلضِّدَّيْنِ. وَأَنَّ ٱلْوَاحِدَ أَقَلُّ مِنَ ٱلِاثْنَيْنِ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَفِيَ عَنِ ٱلْعَاقِلِ مَعَ سَلَامَةِ حَالِهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ. فَإِذَا صَارَ عَالِمًا بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ فَهُوَ كَامِلُ ٱلْعَقْلِ

الانساني . ولإدراك العقل يقتضي ان تجرّد مادّته عن المحسوسات وهذا ما يصعه العقل بالفعل فتنتقل المفردات بذلك الى حالة الكليات

البحث الرابع

في العقل المكتسب

(عن الماوردي)

إنَّ ٱلعقلَ ٱلمكتسبَ هُوَ نتيجةُ ٱلعقلِ ٱلغريزيِّ وهو نهايةُ ٱلمعرفةِ وصحةِ ٱلسياسةِ وإصابةِ ٱلفكرةِ وليس لهذا حدٌّ لأنهُ ينمي إنِ ٱستُعمِلَ وينقصُ إنْ أُهمِلَ . ونمّاؤهُ يكونُ بأحد وجهينِ :

(ٱلوجهُ ٱلأوّلُ) بكثرةِ ٱلاستعمالِ إذا لم يعارضهُ مانعٌ من هوى ولا صادٌّ من شهوةٍ كالذي يحصلُ لذوي ٱلأسنانِ من ٱلحنكةِ وصحةِ ٱلرويّةِ لكثرةِ ٱلتجاربِ وممارسةِ ٱلأمورِ . ولذلكَ حمدتِ ٱلعربُ آراءَ ٱلشيوخِ حتّى قالَ بعضهُم : ٱلمشايخُ أشجارُ ٱلوقارِ . ومناجمُ ٱلأخبارِ . لا يطيشُ لهم سهمٌ . ولا يسقطُ لهم وهمٌ . إنْ رأوكَ في قبيحٍ صدّوكَ . وإنْ أبصروكَ على جميلٍ أمدّوكَ . وقيلَ : عليكم بآراءِ ٱلشيوخِ فإنّهم إنْ فقدوا ذكاءَ ٱلطبعِ فقد مرّتْ على عيونهم وجوهُ ٱلعبرِ . وتصدّتْ لأسماعهم آثارُ ٱلغيرِ . وقيلَ في منثورِ ٱلحكمِ : مَنْ طالَ عمرُهُ نقصتْ قوّةُ بدنهِ وزادتْ قوّةُ عقلهِ . وقالَ فيهِ : لا تدعُ ٱلأيّامُ جاهلاً إلّا أدّبتْهُ . وقالَ بعضُ ٱلحكماءِ : كفى بٱلتجاربِ تأدُّبًا وبتقلّبِ ٱلأيّامِ عظةً . وقالَ بعضُ ٱلبلغاءِ : ٱلتجربةُ مرآةُ ٱلعقلِ . وٱلغِرّةُ ثمرةُ ٱلجهلِ . وقالَ بعضُ ٱلأدباءِ : كفى مخبرًا عمّا بقيَ ما مضى وكفى عبرًا لأولي ٱلألبابِ ما جرّبوا . وقالَ بعضُ ٱلشعراءِ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْعَقْلَ زَيْنٌ لِأَهْلِهِ ... وَلَٰكِنْ تَمَامُ ٱلْعَقْلِ طُولُ ٱلتَّجَارِبِ

وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا طَالَ عُمْرُ ٱلْمَرْءِ فِي غَيْرِ آفَةٍ ... أَفَادَتْ لَهُ ٱلْأَيَّامُ فِي كَرِّهَا عَقْلَا

(وَأَمَّا ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) فَقَدْ يَكُونُ بِفَرْطِ ٱلذَّكَاءِ وَحُسْنِ ٱلْفِطْنَةِ وَذٰلِكَ جُودَةُ ٱلْحَدْسِ فِي زَمَانٍ غَيْرِ مُهْمَلٍ لِلْحَدْسِ. فَإِذَا ٱمْتَزَجَ بِٱلْعَقْلِ ٱلْغَرِيزِيِّ صَارَتْ نَتِيجَتُهُمَا نُمُوُّ ٱلْعَقْلِ ٱلْمُكْتَسَبِ. كَٱلَّذِي يَكُونُ فِي ٱلْأَحْدَاثِ مِنْ وُفُورِ ٱلْعَقْلِ وَجُودَةِ ٱلرَّأْيِ حَتَّى قَالَ هَرِمُ بْنُ قُطْبَةَ حِينَ تَنَافَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ ٱلطُّفَيْلِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَلَاثَةَ: عَلَيْكُمْ بِٱلْحَدِيثِ ٱلسِّنِّ. ٱلْحَدِيدِ ٱلذِّهْنِ. وَلَعَلَّ هَرِمًا أَرَادَ أَنْ يَدْفَعَهُمَا عَنْ نَفْسِهِ فَٱعْتَذَرَ بِمَا قَالَ. لٰكِنْ لَمْ يُنْكِرَا قَوْلَهُ إِذْعَانًا لِلْحَقِّ فَصَارَا إِلَى أَبِي جَهْلٍ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ وَحِدَّةِ ذِهْنِهِ. فَأَبَى أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمَا فَرَجَعَا إِلَى هَرِمٍ فَحَكَمَ بَيْنَهُمَا. وَفِيهِ قَالَ لَبِيدٌ:

يَا هَرِمُ ٱبْنَ ٱلْأَكْرَمِينَ مَنْصِبَا ... إِنَّكَ قَدْ أُوتِيتَ حُكْمًا مُعْجِبَا

وَقَدْ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ: عَلَيْكُمْ بِمُشَاوَرَةِ ٱلشَّبَابِ فَإِنَّهُمْ يُنْتِجُونَ رَأْيًا لَمْ يَنَلْهُ طُولُ ٱلْقِدَمِ. وَلَا ٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ رُطُوبَةُ ٱلْهَرَمِ. وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

رَأَيْتُ ٱلْعَقْلَ لَمْ يَكُنِ ٱنْتِهَابًا ... وَلَمْ يُقْسَمْ عَلَى عَدَدِ ٱلسِّنِينَا

وَلَوْ أَنَّ ٱلسِّنِينَ تَقَاسَمَتْهُ ... حَوَى ٱلْآبَاءُ أَنْصِبَةَ ٱلْبَنِينَا

وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ قَالَ: قُلْتُ لِغُلَامٍ حَدَثٍ مِنْ أَوْلَادِ ٱلْعَرَبِ كَانَ يُحَادِثُنِي فَأَمْتَعَنِي بِفَصَاحَةٍ وَمَلَاحَةٍ: أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ

مِئَةُ أَلفِ دِرْهَمٍ وَأَنتَ أَحمَقُ. قَالَ: لَا. قُلْ: فَقُلْتُ: وَلِمْ. قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَجْنِيَ عَلَيَّ حُمْقِي جِنَايَةً تَذْهَبُ بِمَالِي وَيَبْقَى عَلَيَّ حُمْقِي. فَانْظُرْ إِلَى هٰذَا الصَّبِيِّ كَيْفَ اسْتَخْرَجَ بِفَرْطِ ذَكَائِهِ وَاسْتَنْبَطَ بِجُودَةِ قَرِيحَتِهِ مَا لَعَلَّهُ يَدِقُّ عَلَى مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنًّا وَأَكْثَرُ تَجْرِبَةً. وَأَحْسَنُ مِنْ هٰذَا الذَّكَاءِ وَالْفِطْنَةِ مَا حَكَى ابْنُ قُتَيْبَةَ: إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مَرَّ بِصِبْيَانٍ يَلْعَبُونَ وَفِيهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فَهَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا عَبْدَ اللهِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا لَكَ لَا تَهْرُبُ مَعَ أَصْحَابِكَ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ أَكُنْ عَلَى رِيبَةٍ فَأَخَافَكَ وَلَمْ يَكُنِ الطَّرِيقُ ضَيِّقًا فَأُوسِعَ لَكَ. فَانْظُرْ مَا تَضَمَّنَهُ هٰذَا الْجَوَابُ مِنَ الْفِطْنَةِ وَقُوَّةِ الْمُنَّةِ وَحُسْنِ الْبَدِيهَةِ كَيْفَ نَفَى عَنْهُ اللَّوْمَ وَأَثْبَتَ لَهُ الْحُجَّةَ فَلَيْسَ لِلذَّكَاءِ غَايَةٌ. وَلَا لِجُودَةِ الْقَرِيحَةِ نِهَايَةٌ

البحث الخامس

في التصوُّر والتمثُّل

(من كتاب زجر النفس لهرمس)

يَا نَفْسُ إِنَّ مُبْدِعَ الْأَشْيَاءِ وَمُنْشِئَهَا جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ أَبْدَعَكِ وَجَعَلَكِ ذَاتَ التَّصَوُّرِ وَالتَّمَثُّلِ. فَأَمَّا التَّصَوُّرُ فَتَصَوُّرُكِ الشَّيْءَ عَلَى حَقِيقَةِ مَا أَبْدَعَهُ مُبْدِعُهُ. وَأَمَّا التَّمَثُّلُ فَتَمَثُّلُكِ مَا خَفِيَ عَنْكِ مِنْ عَالَمِ الْعَقْلِ بِمَا شَاهَدْتِهِ فِي عَالَمِ الْحِسِّ مِثْلًا بِمِثْلٍ وَمَعْنًى بِمَعْنًى كَمَا أَنْ تَدُلَّ ذَاتُ الصُّورَةِ الْمَطْبُوعَةِ فِي الشَّمْعِ عَلَى مَعْنَاهُ وَحَقِيقَتِهِ فِي الطَّابِعِ وَكَمَا تَدُلُّ الصُّورَةُ الْمُمَثَّلَةُ فِي الطَّابِعِ عَلَى مَعْنًى حَقِيقَتُهُ فِي نَفْسِ مُمَثِّلِهَا وَمُصَوِّرِهَا وَكَمَا يُؤَثِّرُ الْآنُ فِي الزَّمَانِ مَعْنَى حَرَكَاتِهِ وَتَوَجُّهِ

البحث السادس

الخيال والخيالي

(عن الحاج خلفا بتصرف)

(راجع صفحة ٥ من توطئة علم الادب)

اَلْخَيَالُ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى اَلشَّخْصِ وَعِنْدَ اَلْحُكَمَاءِ يُطْلَقُ عَلَى إِحدَى اَلْحَوَاسِّ اَلْبَاطِنَةِ. وَهُوَ قُوَّةٌ تَحْفَظُ اَلصُّوَرَ اَلْمُرْتَسِمَةَ فِي اَلْحِسِّ اَلْمُشْتَرَكِ إِذَا غَابَتْ تِلْكَ اَلصُّوَرُ عَنِ اَلْحَوَاسِّ اَلْبَاطِنَةِ . وَمَحَلُّهُ مُؤَخَّرُ اَلتَّجْوِيفِ اَلْاَوَّلِ مِنَ اَلتَّجَاوِيفِ اَلثَّلَاثَةِ لِلدِّمَاغِ عِنْدَ اَلْجُمْهُورِ(١).وَاَسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُود اَلْخَيَال بِاَنَّا إِذَا شَاهَدْنَا صُورَةً ثُمَّ ذَهِلْنَا عَنْهَا زَمَانًا ثُمَّ نُشَاهِدُ مَرَّةً أُخْرَى نَحْكُمُ عَلَيْهَا بِاَنَّهَا هِيَ اَلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذَٰلِكَ . فَلَوْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ اَلصُّورَةُ مَحْفُوظَةً فِينَا زَمَانَ اَلذُّهُولِ لَاَمْتَنَعَ اَلْحُكْمُ بِاَنَّهَا هِيَ اَلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْل ذَٰلِكَ.(وَالْخَيَالِيُّ) يُطْلَقُ عَلَى اَلصُّورَةِ اَلْمُرْتَسِمَة فِي اَلْخَيَالِ اَلْمُتَأَدِّيَةِ إِلَيْهِ مِنْ طُرُقِ اَلْحَوَاسِّ.وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى اَلْمَعْدُوم اَلَّذِي اَخْتَرَعَتْهُ اَلْمُتَخَيِّلَةُ وَرَكَّبَتْهُ مِنَ اَلْاُمُورِ اَلْمَحْسُوسَةِ اَيِ اَلْمُدْرَكَةِ بِالْحَوَاسِّ اَلظَّاهِرَةِ . وَبِقَوْلِنَا مِنَ اَلْاُمُورِ اَلْمَحْسُوسَةِ خَرَجَ اَلْوَهْمِي بِمَعنى مَا اَخْتَرَعَتْهُ اَلْقُوَّةُ اَلْمُتَخَيِّلَةُ اَخْتِرَاعًا صِرْفًا عَلَى نَحْوِ اَلْمَحْسُوسَاتِ وَبِهَذَا اَلْمَعْنَى يُسْتَعْمَلُ فِي بَابِ اَلتَّشْبِيهِ كَمَا فِي قَوْلِ اَلشَّاعِرِ :

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ اَلشَّقِيقِ م إِذَا تَصَوَّبَ اَوْ تَصَعَّدْ
اَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

---

(١) ليس هذا الرأي بمقرر

فَإِنَّ ٱلْأَعْلَامَ ٱلْيَاقُوتِيَّةَ ٱلْمَنْشُورَةَ عَلَى ٱلرِّمَاحِ ٱلزَّبَرْجَدِيَّةِ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ ٱلْحِسُّ لِأَنَّ ٱلْحِسَّ إِنَّمَا يُدْرِكُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي ٱلْمَادَّةِ حَاضِرَةً عِنْدَ ٱلْمُدْرِكِ عَلَى هَيْئَاتٍ مَحْسُوسَةٍ مَخْصُوصَةٍ بِهِ. لَكِنَّ مَادَّتَهُ ٱلَّتِي يَتَرَكَّبُ هُوَ مِنْهَا كَٱلْأَعْلَامِ وَٱلْيَاقُوتِ وَٱلرِّمَاحِ وَٱلزَّبَرْجَدِ كُلٌّ مِنْهَا مَحْسُوسٌ بِٱلْبَصَرِ

البحث السابع

في الحافظة

(عن الماوردي باختصار)

(راجع صفحة ٥٩٦ من توطئة علم الادب)

رُبَّمَا ٱسْتَثْقَلَ ٱلْمُتَعَلِّمُ ٱلدَّرْسَ وَٱلْحِفْظَ وَٱتَّكَلَ بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱلرُّجُوعِ إِلَى ٱلْكُتُبِ وَٱلْمُطَالَعَةِ فِيهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ فَلَا يَكُونُ الا كَمَنْ اطْلَقَ مَا صَادَهُ ثِقَةً بِٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ ٱلِامْتِنَاعِ مِنْهُ فَلَا تُعْقِبُهُ ٱلثِّقَةُ إِلَّا خَجَلًا وَٱلتَّفْرِيطُ إِلَّا نَدَمًا . وَهٰذِهِ حَالٌ قَدْ يَدْعُو إِلَيْهَا احَدُ ثَلَاثَةِ اَشْيَاءَ : ٱلضَّجَرُ مِنْ مُعَانَاةِ ٱلْحِفْظِ وَمُرَاعَاتِهِ وَطُولُ ٱلْأَمَلِ فِي ٱلتَّوَفُّرِ عَلَيْهِ عِنْدَ نَشَاطِهِ وَفَسَادُ ٱلرَّأْيِ فِي عَزِيمَتِهِ وَلَيْسَ يَعْلَمُ انَّ ٱلضَّجُورَ خَائِبٌ وَانَّ ٱلطَّوِيلَ ٱلْأَمَلِ مَغْرُورٌ وَانَّ ٱلْفَاسِدَ ٱلرَّأْيِ مُصَابٌ. وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ فِي اَمْثَالِهَا: حَرْفٌ فِي قَلْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ فِي كُتُبِكَ. وَقَالُوا : لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَعْبُرُ مَعَكَ ٱلْوَادِي وَلَا يَعْمُرُ بِكَ ٱلنَّادِيَ. وَأُنْشِدْتُ عَنِ ٱلرَّبِيعِ لِلشَّافِعِيِّ :

عِلْمِي مَعِي حَيْثُ مَا يَمَّمْتُ يَنْفَعُنِي
قَلْبِي وِعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقِي

إِنْ كُنْتُ فِي ٱلْبَيْتِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِيهِ مَعِي
أَوْ كُنْتُ فِي ٱلسُّوقِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِي ٱلسُّوقِ

وَرُبَّمَا ٱعْتَنَى ٱلْمُتَعَلِّمُ بِٱلْحِفْظِ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرٍ وَلَا فَهْمٍ حَتَّى يَصِيرَ حَافِظاً لِأَلْفَاظِ ٱلْمَعَانِي قَيِّماً بِتِلَاوَتِهَا وَهُوَ لَا يَتَصَوَّرُهَا وَلَا يَفْهَمُ مَا تَضَمَّنَهَا يَرْوِي بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ وَيُخْبِرُ عَنْ غَيْرِ خِبْرَةٍ فَهُوَ كَالْكِتَابِ ٱلَّذِي لَا يَدْفَعُ شُبْهَةً وَلَا يُؤَيِّدُ حُجَّةً وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: هِمَّةُ ٱلسُّفَهَاءِ ٱلرِّوَايَةُ. وَهِمَّةُ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلرِّعَايَةُ . وَرَوَى ٱبْنُ مَسْعُودٍ : كُونُوا لِلْعِلْمِ رُعَاةً . وَلَا تَكُونُوا لَهُ رُوَاةً . فَقَدْ يَرْعَوِي مَنْ لَا يَرْوِي . وَيَرْوِي مَنْ لَا يَرْعَوِي . وَحَدَّثَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ بِحَدِيثٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : يَا أَبَا سَعِيدٍ عَمَّنْ . قَالَ : مَا تَصْنَعُ بِعَمَّنْ . أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ نَالَتْكَ عِظَتُهُ وَقَامَتْ عَلَيْكَ حُجَّتُهُ

وَرُبَّمَا ٱعْتَمَدَ عَلَى حِفْظِهِ وَتَصَوُّرِهِ وَأَغْفَلَ تَقْيِيدَ ٱلْعِلْمِ فِي كُتُبِهِ ثِقَةً بِمَا ٱسْتَقَرَّ فِي ذِهْنِهِ وَهٰذَا خَطَأٌ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلشَّكَّ مُعْتَرِضٌ وَٱلنِّسْيَانَ طَارِقٌ . وَقَالَ ٱلْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ : ٱجْعَلْ مَا فِي ٱلْكُتُبِ رَأْسَ ٱلْمَالِ وَمَا فِي ٱلْقَلْبِ ٱلنَّفَقَةَ . وَقَالَ مَهْبُودٌ : لَوْلَا مَا عَقَدَتْهُ ٱلْكُتُبُ مِنْ تَجَارِبِ ٱلْأَوَّلِينَ لَانْحَلَّ مَعَ ٱلنِّسْيَانِ عُقُودُ ٱلْآخِرِينَ

البحث الثامن

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٦ من توطئة علم الادب)

اعلم ان لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان. ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان التي هي مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في افادة ذلك. فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على اساليب العرب وانحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده. فاذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه امر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب. وان سمع تركيبا غير جار على ذلك المنحى مجه ونبا عنه سمعه بادنى فكر بل وبغير فكر الا بما استفاده من حصول هذه الملكة. فان الملكات اذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل. ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات ان الصواب للعرب في لغتهم اعرابا وبلاغة امر طبيعي ويقول: كانت العرب تنطق بالطبع. وليس كذلك. وانما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادي الرأي انها جبلة وطبع وهذه

الملكة كما تقدم انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه . وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها اهل صناعة اللسان . فان هذه القوانين انما تفيد علما بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محالها . واذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ الى وجوه النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم . ولو رام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا واقعه عليه لسانه لانه لا يعتاده ولا تهديه اليه ملكته الراسخة عنده . واذا عرض عليه الكلام حائدا عن اسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم اعرض عنه ومجه وعلم انه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم . وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع اهل القوانين النحوية والبيانية . فان ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء وهذا امر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم . ومثاله لو فرضنا صبيا من صبيانهم نشأ وربي في جيلهم فانه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الاعراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها وليس من العلم القانوني في شيء وانما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه . وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم واشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربي بين

اَحيائِهِمْ.وَالْقَوانِينُ بِمَعْزِلٍ عَنْ هٰذَا.وَاسْتُعِيرَ لِهٰذِهِ الْمَلَكَةِ عِنْدَمَا تَرْسَخُ وَتَسْتَقِرُّ اسْمُ الذَّوْقِ الَّذِي اصْطَلَحَ عَلَيْهِ اَهْلُ صِنَاعَةِ الْبَيَانِ. وَالذَّوْقُ اِنَّمَا هُوَ مَوْضُوعٌ لِإِدْرَاكِ الطُّعُومِ لٰكِنْ لَمَّا كَانَ مَحَلُّ هٰذِهِ الْمَلَكَةِ فِي اللِّسَانِ مِنْ حَيْثُ النُّطْقِ بِالْكَلَامِ كَمَا هُوَ مَحَلٌّ لِإِدْرَاكِ الطُّعُومِ اسْتُعِيرَ لَهَا اسْمُهُ وَايْضًا فَهُوَ وِجْدَانِيٌّ لِلِّسَانِ كَمَا اَنَّ الطُّعُومَ مَحْسُوسَةٌ لَهُ فَقِيلَ لَهُ ذَوْقٌ. وَاِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذٰلِكَ عَلِمْتَ مِنْهُ اَنَّ الْاَعَاجِمَ الدَّاخِلِينَ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الطَّارِئِينَ عَلَيْهِ الْمُضْطَرِّينَ اِلَى النُّطْقِ بِهِ لِمُخَالَطَةِ اَهْلِهِ كَالْفُرْسِ وَالرُّومِ وَالتُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَكَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ فَاِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ هٰذَا الذَّوْقُ لِقُصُورِ حَظِّهِمْ فِي هٰذِهِ الْمَلَكَةِ الَّتِي قَرَّرْنَا اَمْرَهَا. لِاَنَّ قُصَارَاهُمْ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُمْرِ وَسَبْقِ مَلَكَةٍ اُخْرَى اِلَى اللِّسَانِ وَهِيَ لُغَاتُهُمْ اَنْ يَعْتَنُوا بِمَا يَتَدَاوَلُهُ اَهْلُ الْمِصْرِ(١) بَيْنَهُمْ فِي الْمُحَاوَرَةِ مِنْ مُفْرَدٍ وَمُرَكَّبٍ لِمَا يَضْطَرُّونَ اِلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ وَهٰذِهِ الْمَلَكَةُ قَدْ ذَهَبَتْ لِاَهْلِ الْاَمْصَارِ وَبَعُدُوا عَنْهَا كَمَا تَقَدَّمَ. وَاِنَّمَا لَهُمْ فِي ذٰلِكَ مَلَكَةٌ اُخْرَى وَلَيْسَتْ هِيَ مَلَكَةَ اللِّسَانِ الْمَطْلُوبَةَ. وَمَنْ عَرَفَ تِلْكَ الْمَلَكَةَ مِنَ الْقَوَانِينِ الْمُسَطَّرَةِ فِي الْكُتُبِ فَلَيْسَ مِنْ تَحْصِيلِ الْمَلَكَةِ فِي شَيْءٍ اِنَّمَا حَصَّلَ اَحْكَامَهَا كَمَا عَرَفْتَ وَاِنَّمَا تَحْصُلُ هٰذِهِ الْمَلَكَةُ بِالْمُمَارَسَةِ وَالْاِعْتِيَادِ وَالتَّكَرُّرِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ. فَاِنْ عَرَضَ لَكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ اَنَّ سِيبَوَيْهِ وَالْفَارِسِيَّ وَالزَّمَخْشَرِيَّ وَاَمْثَالَهُمْ مِنْ فُرْسَانِ الْكَلَامِ كَانُوا اَعْجَامًا مَعَ حُصُولِ هٰذِهِ الْمَلَكَةِ لَهُمْ فَاعْلَمْ اَنَّ اُولٰئِكَ الْقَوْمَ

(١) وفي نسخة : اهل المُضَر

ٱلَّذِين تَسمعُ عَنْهمْ إنَّمَا كَانُوا عَجَمًا فِي نسبِهِمْ فَقَطْ وَامَّا ٱلْمَرْبَى وَٱلنَّشأَةُ فَكَانَتْ بَيْنَ اهلِ هٰذه ٱلْمَلَكَةِ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَهَا مِنْهُمْ فَٱسْتَوْلَوْا بِذلكَ مِن ٱلْكَلَامِ عَلَى غَايَةٍ لَا وَرَاءَهَا . وَكَأَنَّهُم فِي اوَّل نَشْأَتِهِمْ من ٱلعرَب ٱلَّذين نَشَأُوا في احيائهِمْ(١) حَتَّى ادرَكُوا كُنْهَ ٱللُّغَةِ وصَارُوا منْ اهْلها. فَهمْ وانْ كَانُوا عجمًا فِي ٱلنَّسبِ فَلَيْسُوا بِاعْجَامٍ فِي ٱللغة وٱلكلامِ لِانهمْ ادركُوا ٱلمِلَّةَ فِي عُنْفُوانِهَا وَٱللُّغَةَ فِي شَبَابِهَا وَلَمْ تَذْهَبْ آثارُ ٱلملَكَةِ ولا مِنْ اهْلِ ٱلْامصارِ. ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى ٱلممارسَةِ وٱلْمدراسَةِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَب حَتَّى ٱسْتَوْلَوا عَلَى غَايَتِهِ. وَٱلْوَاحِدُ ٱليوْمَ مِنَ ٱلعَجَمِ اِذا خَالطَ اهْلَ ٱللِّسانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْامْصارِ فَاوَّلُ مَا يَجِدُ تِلْكَ ٱلْملكَةَ ٱلْمَقْصودةَ من ٱللِّسانِ ٱلعرَبِيِّ مُمْتَحِيَةَ ٱلْآثارِ وَيجدُ مَلَكَتَهمْ ٱلْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً أُخرَى مُخَالِفَةً لِمَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ. ثُمَّ اِذَا فَرضْنا انَّهُ اقْبلَ عَلَى ٱلْمَارسَةِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَب وَاشْعَارهِمْ بِٱلْمدارسَةِ وَٱلْحِفْظِ يَستَفيدُ تَحْصِيلَهَا فَقَلَّ انْ يَحْصُلَ لَهُ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ انَّ ٱلْمَلَكَةَ اذا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ اخرَى فِي ٱلمحلِّ فَلَا تَحْصُلُ اِلَّا نَاقِصةً مَخْدُوشَةً . وإنْ فَرَضْنَا عَجَمِيًا فِي ٱلنَّسَب سَلِمَ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَجَمِيِّ بِٱلْكُلِّيَّةِ وَذَهَبَ اِلَى تَعَلُّمِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْحِفْظِ وٱلمدارَسَةِ فَرُبَّمَا يَحْصُلُ له ذلِكَ لَكِنَّهُ مِنَ ٱلنُّدُورِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ بِمَا تَقرَّرَ. وَرُبَّمَا يَدَّعِي كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْبيانِيَّةِ حُصُولَ هٰذَا ٱلذَّوْق لَهُ بِهَا وَهُوَ غَلَطٌ اوْ مُغَالَطَةٌ وَإنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ ٱلْمَلَكَةُ اِنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْبيانِيَّةِ

---

(١) وفي نسخة : في اجيالهم

وَلَيسَتْ مِنْ مَلَكَةِ ٱلعِبَارَةِ فِي شَيْءٍ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

البحث التاسع

في المطالعة

(المثل السائر لابي الفتح بن الاثير الموصلي)

(راجع صفحة ٨ من توطئة علم الادب)

إِنَّ فِي ٱلإِطِّلَاعِ عَلَى كَلَامِ ٱلمُتَقَدِّمِينَ مِنَ ٱلمَنظُومِ وَٱلمَنثُورِ فَوَائِدَ جَمَّةً لِأَنَّهُ يُعلَمُ مِنهُ أَغرَاضُ ٱلنَّاسِ وَنَتَائِجُ أَفكَارِهِمْ وَيُعرَفُ بِهِ مَقَاصِدُ كُلِّ فَرِيقٍ مِنهُمْ وَإِلَى أَينَ تَرَامَتْ بِهِ صَنعَتُهُ فِي ذَلِكَ . فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلأَشيَاءَ مِمَّا تَشحَذُ ٱلقَرِيحَةَ وَتُذَكِّي ٱلفِطْنَةَ . وَاذَا كَانَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِهَا تَصِيرُ ٱلمَعَانِي ٱلَّتِي ذَكَرَتْ وَتَعِبَ فِي اسْتِخْرَاجِهَا كَٱلشَّيْءِ ٱلمُلْقَى بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْخُذُ مِنهُ مَا أَرَادَ . وَأَيضًا فَإِنَّهُ اذَا كَانَ مُطَّلِعًا عَلَى ٱلمَعَانِي ٱلمَسْبُوقِ إِلَيْهَا قَدْ يَنْقَدِحُ لَهُ مِنْ بَيْنِهَا مَعْنًى غَرِيبٌ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ . وَمِنَ ٱلمَعْلُومِ انَّ خَوَاطِرَ ٱلنَّاسِ وَإِنْ كَانَتْ مُتَفَاوِتَةً فِي ٱلجُودَةِ وَٱلرَّدَاءَةِ فَإِنَّ بَعْضَهَا لَا يَكُونُ عَالِيًا عَلَى بَعْضٍ أَوْ مُنْحَطًّا عَنْهُ إِلَّا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ . وَكَثِيرًا مَا تَتَسَاوَى ٱلقَرَائِحُ وَٱلأَفْكَارُ فِي ٱلإِتْيَانِ بِٱلمَعَانِي حَتَّى إِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَأْتِي بِمَعْنًى مَوْضُوعٍ بِلَفْظٍ ثُمَّ يَأْتِي ٱلآخَرُ بَعْدَهُ بِذَلِكَ ٱلمَعْنَى وَٱللَّفْظِ بِعَيْنِهِمَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنهُ بِمَا جَاءَ بِهِ ٱلأَوَّلُ وَهٰذَا ٱلَّذِي يُسَمِّيهِ أَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وُقُوعَ ٱلحَافِرِ عَلَى ٱلحَافِرِ

البحث العاشر

في الارتياض والممارسة

(المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٩ و١٠ من توطئة علم الادب)

اعلم ايها الناظر في كتابي ان مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو انفع من ذوق التعليم. وهذا الكتاب وان كان فيما يلقيه اليك استاذا او اذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا فان الدربة والادمان اجدى عليك نفعا واهدى بصرا وسمعا. وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسرك من القول امكانا وكل جارحة منك قلبا ولسانا . فخذ من هذا الكتاب ما اعطاك واستنبط بادمانك ما اخطاك . وما مثلي فيما مهدته لك من هذا الطريق الا كمن طبع سيفا ووضعه في يمينك لتقاتل به وليس عليه ان يخلق لك قلبا فان حمل النصال غير مباشرة القتال

وانما يبلغ الانسان غايته ما كل ماشية بالرحل شملال

وان صاحب الكتابة لا يرى في امره الا صعوبة ووعورة وطريقا متشعبة المذاهب كثيرة الشعاب . فاذا اكره خاطره على سلوكها وشجعه على تورّدها فما مضى به هنيهة حتى يستتب به الطريق ويتضح لديه . والتعب على منازل العلياء امارة

——————

البحث الحادي عشر

في طرائق مختلفة من الممارسة والتمرين

(المثل السائر باختصار)

(راجع صفحة ١٠ من توطئة علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ هُوَ كَنْزُ ٱلْكِتَابَةِ وَمَنْبَعُهَا وَمَا رَأَيْتُ احدا يَتَكلم فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَمَّا حُبِبَتْ إِلَيَّ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةُ وَبَلَّغَنِي ٱللهُ منها مَا بَلَّغَنِي وَجَدتُّ ٱلطَّرِيقَ يَنْقَسِمُ فِيهَا إِلَى ثَلَاثِ شُعَبٍ : (ٱلْاولى) ان يتصفح ٱلْكَاتِبُ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَيَطَّلِعَ عَلَى اوضاعِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْالفاظ وَٱلْمَعَانِي ثُمَّ يَحْذُو حَذْوَهُمْ . وَهٰذِهِ ادنى ٱلطَّبَقَاتِ عِنْدِي . (ٱلثانية) اَنْ يَمْزُجَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِمَا يَسْتَجِيدُهُ لِنَفْسِهِ مِن زِيَادَةٍ حسنة او فِي تَحْسِينِ ٱلْالْفَاظِ اوْ فِي تَحْسِينِ ٱلْمَعَانِي. وَهٰذِهِ ٱلطَّبَقَةُ ٱلْوُسْطَى وَهِيَ اَعْلَى مِنَ ٱلَّتِي قَبْلَهَا . (ٱلثالثة) اَنْ لَا يَتَصَفَّحَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَلَا يَطَّلِعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا بَلْ يَصْرِفُ هَمَّهُ إِلَى حِفْظِ ٱلْحَدِيثِ وَٱلْاخبار وعدة مِنْ دَوَاوِينِ فُحُولِ ٱلشُّعَرَاءِ مِمَّنْ غَلَبَ عَلَى شِعْرِهِ ٱلْإِجَادَةُ فِي ٱلْمَعَانِي وَٱلْالْفَاظِ . ثُمَّ يَأْخُذُ فِي ٱلْاقْتِبَاسِ مِنْ هٰذِهِ فَيَقُومُ وَيَقَعُ وَيُخْطِئُ وَيُصِيبُ وَيَضِلُّ وَيَهْتَدِي حَتَّى يَسْتَقِيمَ عَلَى طَرِيقَةٍ يَفْتَتِحُهَا لنفسه. واخلق بِتِلْكَ ٱلطَّرِيقِ اَنْ تَكُونَ مُبْتَدَعَةً غَرِيبَةً لَا شَرِكَةَ لِاَحَدٍ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فِيهَا . وَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ طَرِيقُ ٱلْاجْتِهَادِ وَصَاحِبُهَا يُعَدُّ إِمَامًا فِي فَنِّ ٱلْكِتَابَةِ . إِلَّا اَنَّهَا مُسْتَوْعِرَةٌ جِدًّا وَلَا يَسْتَطِيعُهَا إِلَّا مَنْ رَزَقَهُ ٱللهُ

تَعالَى لِسانًا مُجًا ما وخاطِرًا رَقَّاما وَاِنَّمَا تَكُونُ نَفَاسَةُ ٱلْاَشياء بِعِزَّةِ حُصُولِها وَمَشَقَّةِ وُصُولِهَا :

لَيسَ حُلوا وُجودُكَ ٱلشيءَ تَبغيهِ م طِـلَابًا حَتَّى يَعِزَّ طِـلَابُهْ

وهٰذهِ ٱلطَّرِيقُ يَجهلُها كَثِيرٌ مِن مُتعَاطِي هٰذهِ ٱلصِّناعةِ وٱلَّـذي يَعلَمُها مِنهم يَرْضَى بِٱلحَواشِي وَٱلاَطْرَافِ وَيَقْنَعُ مِن لَآلِيهَا بِمَعْرِفَةِ مَا فِي ٱلاصْدَافِ . وَلَا أُرِيدُ بِهٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ اَنْ يَكُونَ ٱلْـكَاتِبُ مُرْتَبِطًا فِي كِتَابَتِهِ بِمَا يَسْتَخْرِجُهُ بِحَيْثُ اَنَّهُ لَا يُنْشِئُ كِتَابًا اِلَّا مِنْ ذٰلِكَ بَلْ اُرِيدُ اَنَّهُ اِذَا حَفِظَ مِمَّا قَدَّمْنَا شَيْئًا ثُمَّ نَقَّبَ عَنْ ذٰلـكَ تَنْقِيبَ مُطَّلِعٍ عَلَى مَعَانِيهِ مُفَتِّشٍ عَن دَفَائِنِهِ وَقَلَّبَهُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ عَرَفَ حِينَئِذٍ مِنْ اَيْنَ تُؤْكَلُ ٱلْـكَتِفُ فِيمَا يُنْشِئُهُ مِن ذَاتِ نَفْسِهِ وَٱسْتَعَانَ بِٱلْمَحْفُوظِ عَلَى ٱلْغَرِيزَةِ ٱلطَّبِيعِيَّـةِ . اَلَا تَرَى صَاحِبَ ٱلِاجْتِهَادِ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ يَفْتَقِرُ اِلَى مَعْرِفَةِ اَخْبَارِ ٱلْاَحْكَامِ وَاِلَى مَعْرِفَةِ عِلْمِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْفَرَائِضِ وَٱلْحِسَابِ مِنَ ٱلْمَعْلُومِ وَٱلْمَجْهُولِ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي ٱلْـكَاتِبِ اِذَا اَحَبَّ ٱلتَّرَقِّي اِلَى دَرَجَةِ ٱلِاجْتِهَادِ فِي ٱلْـكِتَابَةِ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ اِلَى اَدَوَاتٍ كَثِيرَةٍ سَنَذْكُرُهَا

فصلٌ في صفة الكاتب وما يحتاج اليهِ من المعارف

البحث الاوَّل

في صفة الكاتب الظاهرة

(عن ابراهيم الشيباني وآثار الاول للحسن بن عبدالله)

قِيلَ إِنَّهمْ قَدِ ٱسْتَحْسَنُوا فِي ٱلْكَاتِبِ ٱعْتِدَالَ ٱلْقَامَةِ وَصِغَرَ ٱلْهَامَةِ وَخِفَّةَ ٱللَّهَازِمِ وَصِدْقَ ٱلْحِسِّ وَلُطْفَ ٱلْمَذْهَبِ وَحَلَاوَةَ ٱلشَّمَائِلِ وَحُسْنَ ٱلْإِشَارَةِ وَمَلَاحَةَ ٱلزِّيِّ حَتَّى قَالَ بَعْضُ ٱلْمَهَالِبَةِ لِوُلْدِهِ : تَزَيَّوْا بِزِيِّ ٱلْكُتَّابِ فَإِنَّ فِيهِمْ ادَبَ ٱلْمُلُوكِ وَتَوَاضُعَ ٱلسُّوقَةِ . وَقِيلَ : إِنَّ مِنْ كَمَالِ آلَةِ ٱلْكِتَابَةِ ان يَكُونَ ٱلْكَاتِبُ نَقِيَّ ٱلْمَلْبَسِ نَظِيفَ ٱلْمَجْلِسِ ظَاهِرَ ٱلْمُرُوءَةِ دَقِيقَ ٱلذِّهْنِ حَسَنَ ٱلْفَهْمِ وَافِرَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعَقْلِ صَادِقَ ٱلْحِسِّ حَسَنَ ٱلْبَيَانِ صَحِيحَ ٱلرَّأْيِ وَٱلْعِبَارَةِ مَلِيحَ ٱلتَّأَنِّي فِي نَظْمِ ٱلْمَعَانِي وَنَثْرِهَا دَقِيقَ حَوَاشِي ٱللِّسَانِ حُلْوَ ٱلْإِشَارَةِ مَلِيحَ ٱلِٱسْتِعَارَةِ لَطِيفَ ٱلْمَسَالِكِ مُسْتَقِرَّ ٱلتَّرْكِيبِ . وَلَا يَكُونَ مَعَ ذٰلِكَ قَدْمَ ٱلْمَنْظَرِ مُتَفَاوِتَ ٱلْأَجْزَاءِ مُضْطَرِبَ ٱلْخَلْقِ . فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا انَّ هٰذِهِ ٱلصُّورَةَ لَا يَلِيقُ بِصَاحِبِهَا ٱلذَّكَاءُ وَٱلْفِطْنَةُ. وَإِنِ ٱتَّفَقَ انْ يَكُونَ حَسَنَ ٱلْخَطِّ فَهُوَ كَمَالُهُ وَإِلَّا فَيَكُونُ هُوَ ٱلْمُنْشِئَ وَغَيْرُهُ ٱلْكَاتِبَ . وَنَظَرَ احْمَدُ ٱبْنُ خَصِيبٍ إِلَى رَجُلٍ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةِ فَقَالَ : لَأَنْ يَكُونَ هٰذَا قِنْطَاسَ مَرْكَبٍ اشْبَهُ مِنْ انْ يَكُونَ كَاتِبًا . قَالَ بَعْضُهُمْ :

عَلَيْكَ بِكَاتِبٍ لَبِقٍ رَشِيقٍ ذَكِيٍّ فِي شَمَائِلِهِ حَذَارَهْ

تُناجيه بطرفك مِن بعيد   فيفهم رجع لحظك بالاشاره

فاذا اجتمعت للكاتب هذه الخلال وانتظمت فيه هذه الخصال فهو الكاتب البليغ والاديب النحرير وان قصرت به آلة من هذه الآلات وقعدت به اداة من هذه الادوات فهو منقوص الجمال منكسف الحسن منحوس النصيب

البحث الثاني

في ادوات علم الكتابة

(عن المثل السائر لابن الاثير الموصلي باختصار)

اعلم ان صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر الى آلات كثيرة . وقد قيل : ينبغي للكاتب ان يتعلق بكل علم حتى قيل : كل ذي علم يسوغ له ان ينسب نفسه اليه فيقول : فلان النحوي وفلان الفقيه ولا يسوغ له ان ينسب نفسه الى الكتابة فيقول : فلان الكاتب وذلك لما يفتقر اليه من الخوض في كل فن . وملاك هذا كله الطبع فانه اذا لم يكن ثم طبع فانه لا تغني تلك الآلات شيئا . ومثال ذلك كمثال النار الكامنة في الزناد والحديدة التي يقدح بها . الا ترى انه اذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئا . وكثيرا ما رأينا من غرائب الطباع في تعلم العلوم حتى ان بعض الناس يكون له نفاذ في تعلم علم مشكل المسلك صعب المأخذ فاذا كلف تعلم ما هو دونه من سهل العلوم نكس

عَلَى عَقِبَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ نَفَاذٌ . وَاَغْرَبُ مِنْ ذٰلِكَ اَنَّ صَاحِبَ اَلطَّبْعِ فِي اَلْمَنْظُومِ يُجِيدُ فِي اَلْمَدِيحِ دُونَ اَلْهِجَاءِ اَوْ فِي اَلْهِجَاءِ دُونَ اَلْمَدِيحِ اَوْ يُجِيدُ فِي اَلْمَرَاثِي دُونَ اَلتَّهَانِي اَوْ فِي اَلتَّهَانِي دُونَ اَلْمَرَاثِي . وَكَذٰلِكَ صَاحِبُ اَلطَّبْعِ فِي اَلْمَنْثُورِ . هٰذَا اَبْنُ اَلْحَرِيرِيِّ صَاحِبُ اَلْمَقَامَاتِ قَدْ كَانَ عَلَى مَا ظَهَرَ عَنْهُ مِنْ تَنْمِيقِ اَلْمَقَامَاتِ وَاحِدًا فِي فَنِّهِ فَلَمَّا حَضَرَ بِبَغْدَادَ وَوُقِفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ قِيلَ هٰذَا يَسْتَصْلِحُ لِكِتَابَةِ اَلْاِنْشَاءِ فِي دِيوَانِ اَلْخِلَافَةِ وَيَحْسُنُ اَثَرُهُ فِيهِ . فَأُحْضِرَ وَكُلِّفَ كِتَابَةَ كِتَابٍ فَأُفْحِمَ وَلَمْ يَجْرِ لِسَانُهُ فِي طَوِيلَةٍ وَلَا قَصِيرَةٍ . . . . وَبَلَغَنِي عَنِ اَلشَّيْخِ اَبِي مُحَمَّدٍ اَحْمَدَ بْنِ اَلْخَشَّابِ اَلنَّحْوِيِّ اَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : اَبْنُ اَلْحَرِيرِيِّ رَجُلُ مَقَامَاتٍ اَيْ اِنَّهُ لَمْ يُحْسِنْ مِنَ اَلْكَلَامِ اَلْمَنْثُورِ سِوَاهَا وَاِنْ اَتَى بِغَيْرِهَا لَا يَقُولُ شَيْئًا . فَٱنْظُرْ اَيُّهَا اَلْمُتَأَمِّلُ اِلَى هٰذَا اَلتَّفَاوُتِ فِي اَلصِّنَاعَةِ اَلْوَاحِدَةِ مِنَ اَلْكَلَامِ اَلْمَنْثُورِ وَمِنْ اَجْلِ ذٰلِكَ قِيلَ : شَيْئَانِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا اَلْبَيَانُ وَاَلْجَمَالُ

البحث الثالث

فيما يجب على الكاتب معرفته

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

وَمِمَّا يَجِبُ عَلَى اَلْكَاتِبِ اَنْ يَتَرَشَّحَ بِهِ لِلْكِتَابَةِ قِرَاءَةُ مَا يَتَّفِقُ مِنْ (كُتُبِ اَلنَّحْوِ) اَلَّتِي يَحْصُلُ بِهَا اَلْمَقْصُودُ مِنْ مَعْرِفَةِ اَلْعَرَبِيَّةِ بِحَيْثُ يَجْمَعُ بَيْنَ طَرَفَيِ اَلْكِتَابِ اَلَّذِي يَقْرَأُهُ وَيَسْتَكْمِلُ اَسْتِشْرَاحَهُ وَيُكِبُّ عَلَى

ٱلإِعْرَابِ وَيُلَازِمُهُ وَيَجْعَلُهُ دَأْبَهُ لِيَرْتَسِمَ فِي فِكْرِهِ وَيَدُورَ عَلَى لِسَانِهِ وَيَنْطَلِقَ بِهِ عِقَالُ قَلْبِهِ وَكَلِمِهِ وَيَزُولَ بِهِ ٱلْوَهْمُ عَنْ سَجِيَّتِهِ وَيَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ عِبَارَتِهِ . فَإِنَّهُ لَوْ أَتَى مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِأَتَمِّ مَا يَكُونُ وَلَحَنَ ذَهَبَتْ مَحَاسِنُ مَا أَتَى بِهِ وَٱنْهَدَّتْ طَبَقَةُ كَلَامِهِ وَأُلْغِيَ جَمِيعُ مَا يُحْسِنُهُ وَوَقَفَ بِهِ عِنْدَ مَا جَهِلَهُ . وَيَتَعَلَّقُ بِذٰلِكَ قِرَاءَةُ مَا تَهَيَّأَ مِنْ مُخْتَصَرَاتِ (كُتُبِ ٱللُّغَةِ) كَٱلْفَصِيحِ لِثَعْلَبٍ وَكِفَايَةِ ٱلْمُتَحَفِّظِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ كُتُبِ ٱلْأَلْفَاظِ لِيَتَّسِعَ عَلَيْهِ نِطَاقُ ٱلنُّطْقِ وَيَنْفَسِحَ لَهُ مَجَالُ ٱلْعِبَارَةِ وَيَنْفَتِحَ لَهُ بَابُ ٱلْأَوْصَافِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَى وَصْفِهِ مِنْ خَيْلٍ أَوْ سِلَاحٍ أَوْ حَرْبٍ أَوْ سَيْرٍ أَوْ قِتَالٍ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى وَصْفِهِ وَيُضْطَرُّ إِلَى نَعْتِهِ . وَيَتَّصِلُ بِذٰلِكَ حِفْظُ (خُطَبِ ٱلْبُلَغَاءِ) مِنَ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ وَمُخَاطَبَاتِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ وَمُرَاجَعَاتِهِمْ وَمَا ٱدَّعَاهُ كُلٌّ مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ أَوْ لِقَوْمِهِ وَمَا نَقَضَهُ عَلَيْهِ خَصْمُهُ لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْوَقَائِعِ بِنَظَائِرِهَا وَتَلَقِّي ٱلْحَوَادِثِ بِمَا شَاكَلَهَا وَٱلِاقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ مَنْ فَلَجَ عَلَى خَصْمِهِ وَٱقْتِفَاءِ آثَارِ مَنِ ٱضْطُرَّ إِلَى عُذْرٍ أَوْ إِبْطَالِ دَعْوَى أَوْ إِثْبَاتِهَا فَلَحَنَ بِحُجَّتِهِ وَتَخَلَّصَ بِلُطْفِ مَأْخَذِهِ وَدِقَّةِ مَسْلَكِهِ وَحُسْنِ عِبَارَتِهِ . . . فَٱنْظُرْ فِي هٰذَا وَأَمْثَالِهِ وَٱلْحِفْظُ مِنْهُ وَٱلْإِكْثَارُ مِنْ مُطَالَعَتِهِ مِمَّا يَشْحَذُ ٱلْقَرَائِحَ وَيَفْتُقُ ٱلْأَذْهَانَ وَيَرْتَسِمُ فِي ٱلْخَوَاطِرِ وَيَكْمُنُ فِي ٱلْأَفْكَارِ حَتَّى يَفِيضَ مَا غَاضَ مِنْهُ عَلَى لِسَانِ ٱلْقَلَمِ وَيَبْدُو مِنْهُ لِكُلِّ وَاقِعَةٍ مِنْوَالٌ يُنْسَجُ عَلَيْهِ وَمِثَالٌ يُنْظَرُ فِي نَظَائِرِ ٱلْأُمُورِ إِلَيْهِ

ثُمَّ ٱلنَّظَرُ فِي (أَيَّامِ ٱلْعَرَبِ) وَوَقَائِعِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ وَتَسْمِيَةِ ٱلْأَيَّامِ

ٱلَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَمَعْرِفَةِ يَوْمِ كُلِّ قَبِيلَةٍ عَلَى ٱلْأُخْرَى وَمَا جَرَى بَيْنَهُمْ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْمُنَاقَضَاتِ . لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِمَا يُسْتَشْهَدُ بِهِ مِنْ وَاقِعَةٍ قَدِيمَةٍ اَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي مُكَاتَبَةٍ مِنْ ذِكْرِ اَيَّامٍ مَشْهُورَةٍ اَوْ ذِكْرِ فَارِسٍ مُعَيَّنٍ . . . وَاَمْثَالُ ذٰلِكَ فِي نَظَائِرِهِ كَثِيرَةٌ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ فَاِذَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِكُلِّ يَوْمٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَيَّامِ عَالِمًا بِمَا جَرَى فِيهَا لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ عَمَّا يَرِدُ اِلَيْهِ مِنْ مِثْلِهَا وَلَا مَا يَقُولُ اِذَا سُئِلَ عَنْهَا وَحَسْبُهُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي صِنَاعَتِهِ وَقُصُورًا عَمَّا يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَحُسْنِ ٱلْجَوَابِ فِيهِ عِنْدَ ٱلسُّؤَالِ عَنْهُ

ثُمَّ (ٱلنَّظَرُ فِي ٱلتَّوَارِيخِ) وَمَعْرِفَةُ اَخْبَارِ ٱلدُّوَلِ مِنَ ٱلِاطِّلَاعِ عَلَى سِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَسِيَاسَاتِهِمْ وَذِكْرِ وَقَائِعِهِمْ وَمَكَائِدِهِمْ فِي حُرُوبِهِمْ وَمَا اتَّفَقَ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّجَارِبِ ٱلَّتِي بَلَغُوا بِهَا اَقْصَى ٱلْمَآرِبِ وَغَدَتْ لِمَنْ بَعْدَهُمْ كَٱلْمِرْآةِ ٱلَّتِي تُصَوِّرُ لَهُمْ وُجُودَ ٱلتَّدْبِيرِ وَتُرِيهِمْ مَا ٱسْتَتَرَ عَنْهُمْ مِنْ صَغِيرِ اَحْوَالِهِمْ وَٱلْكَبِيرِ . فَاِنَّهُ قَدْ يُضْطَرُّ اِلَى ٱلسُّؤَالِ عَنْ اَحْوَالِ مَنْ سَلَفَ مِنْ اَوَّلِ ٱلْعَصْرِ وَاِلَى ٱلْآنَ وَيُسْتَخْبَرُ كَيْفَ كَانَ ٱلْاَمْرُ بَيْنَ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَكَيْفَ ٱنْتَصَرَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ . اَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي كِتَابٍ ذِكْرُ وَاقِعَةٍ بِعَيْنِهَا اَوْ يُحْتَجُّ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ قَدِيمَةٍ فَلَا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهَا مِنْ مَجَازِهَا وَلَا صِدْقَهَا مِنْ مَيْنِهَا

ثُمَّ (حِفْظُ اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ) وَمُطَالَعَةُ شُرُوحِهَا وَاسْتِكْشَافُ غَوَامِضِهَا وَٱلتَّوَفُّرُ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْهَا كَٱلْحَمَاسَةِ وَٱلْمُفَضَّلِيَّاتِ وَٱلْاَصْمَعِيَّاتِ وَدِيوَانِ ٱلْهُذَلِيِّينَ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ لِمَا فِي

ذٰلِكَ مِنْ غَزَارَةِ ٱلْمَوَادِّ وَصِحَّةِ ٱلِاسْتِشْهَادِ وَكَثْرَةِ ٱلنَّقْلِ وَصَقْلِ مِرْآةِ ٱلْعَقْلِ وَانْتِزَاعِ ٱلْأَمْثَالِ وَٱلْأَخْذِ فِي ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي عَلَى أَصَحِّ مِثَالٍ وَٱلْاطِّلَاعِ عَلَى أُصُولِ ٱللُّغَةِ وَشَوَاهِدِهَا وَٱلِاضْطِلَاعِ مِنْ نَوَادِرِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَشَوَارِدِهَا . وَقَدْ كَانَ ٱلصَّدْرُ ٱلْأَوَّلُ يَعْتَنُونَ بِذٰلِكَ غَايَةَ ٱلِاعْتِنَاءِ . وَذُكِرَ أَنَّ عُمَرَ كَانَ يُقَدِّمُ زُهَيْرَ بْنَ أَبِي سُلْمَى فِي ٱلشِّعْرِ فَقِيلَ لَهُ : بِمَ ٱسْتَحَقَّ ذٰلِكَ عِنْدَكَ . فَقَالَ : كَانَ لَا يُعَاظِلُ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ وَلَا يَتَّبِعُ حُوشِيَّ ٱلْكَلَامِ وَلَا يَصِفُ ٱلرَّجُلَ إِلَّا بِمَا يَكُونُ فِي ٱلرِّجَالِ . فَإِذَا أَكْثَرَ ٱلْمُتَرَشِّحُ لِلْكِتَابَةِ مِنْ حِفْظِ خِيَارِ ٱلشِّعْرِ وَتَدَبَّرَ مَعَانِيَهُ يَسْهُلُ عَلَيْهِ حَلُّهُ وَظَهَرَتْ لَهُ مَوَاضِعُ ٱلِاسْتِشْهَادِ بِهِ وَسَاقَهُ ٱلْكَلَامُ إِلَى إِبْرَازِ مَا فِي ذَخِيرَةِ حِفْظِهِ وَوَضْعِهِ فِي مَكَانِهِ وَنَقْلِهِ فِي ٱلِاسْتِشْهَادِ أَوِ ٱلتَّضْمِينِ إِلَى مَا كَأَنَّهُ وُضِعَ لَهُ . . . .

وَكَذٰلِكَ حِفْظُ جَانِبٍ جَيِّدٍ مِنْ شِعْرِ ٱلْمُحْدَثِينَ كَأَبِي تَمَّامٍ وَمُسْلِمِ ابْنِ ٱلْوَلِيدِ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ وَٱلْمُتَنَبِّي لِلُطْفِ مَأْخَذِهِمْ وَدَوَرَانِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كَلَامِهِمْ وَدِقَّةِ تَوْلِيدِ ٱلْمَعَانِي فِي أَشْعَارِهِمْ وَقُرْبِ أُسْلُوبِهِمْ مِنْ أُسْلُوبِ ٱلْخِطَابَةِ وَٱلْكِتَابَةِ وَخُصُوصًا ٱلْمُتَنَبِّي ٱلَّذِي كَأَنَّهُ يَنْطِقُ عَنْ أَلْسِنَةِ ٱلنَّاسِ فِي مُحَاوَرَاتِهِمْ . وَكَثُرَ ٱلِاسْتِشْهَادُ لِشِعْرِهِ حَتَّى قَلَّ مَنْ يَجْهَلُهُ وَحَتَّى ٱكْتُفِيَ بِٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْقَصْدِ وَبُلُوغِ ٱلْغَرَضِ فِي ٱلْجَوَابِ كَمَا كَتَبَ بَعْضُ مُلُوكِ ٱلْعَرَبِ إِلَى مَنْ كَرَّرَ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِ بِقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَلَا كُتْبَ إِلَّا ٱلْمَشْرَفِيَّةُ عِنْدَهُ ... وَلَا رُسُلٌ إِلَّا ٱلْخَمِيسُ ٱلْعَرَمْرَمُ

وَكَذٰلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي رَسَائِلِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ دُونَ حِفْظِهَا لِمَا فِي ٱلنَّظَرِ فِيهَا مِنْ تَنْقِيحِ ٱلْقَرِيحَةِ وَإِرْشَادِ ٱلْخَاطِرِ وَتَسْهِيلِ ٱلطُّرُقِ وَٱلنَّسْجِ عَلَى مِنْوَالِ ٱلْمُجِيدِ وَٱلِاقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ ٱلْمُحْسِنِ وَٱسْتِجْلَاءِ مَا ٱنْتَجَتْهُ ٱلْقَرَائِحُ مِنْ أَبْكَارِ ٱلْأَفْكَارِ وَٱسْتِجْلَاءِ مَا رَوَّقَتْهُ ٱلْخَوَاطِرُ مِنْ حِيَاضِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَ ٱلْقَاصِرَ وَٱلِاحْتِرَازِ مِمَّا أَظْهَرَهُ ٱلنَّقْدُ وَرَدِّ مَا بَهْرَجَهُ ٱلسَّبْكُ . فَأَمَّا ٱلنَّهْيُ عَنْ حِفْظِ ذٰلِكَ فَلِئَلَّا يَكِلَّ ٱلْخَاطِرُ عَمَّا فِي حَاصِلِهِ وَيَسْتَنِدَ ٱلْفِكْرُ إِلَى مَا فِي مُودَعِهِ وَيَكْتَفِيَ بِمَا لَيْسَ لَهُ وَيَتَلَبَّسَ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ . . . .

وَكَذٰلِكَ (ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلْأَمْثَالِ) ٱلْوَارِدَةِ عَنِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا كَأَمْثَالِ ٱلْمَيْدَانِيِّ وَٱلْمُفَضَّلِ بْنِ سَلَمَةَ ٱلضَّبِّيِّ وَحَمْزَةَ ٱلْأَصْبَهَانِيِّ وَغَيْرِهِمْ وَأَمْثَالِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلْوَارِدَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ كَأَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ وَأَبِي تَمَّامٍ وَٱلْمُتَنَبِّي وَأَمْثَالِ ٱلْمُوَلَّدِينَ وَٱلْأَمْثَالِ ٱلْمَوْضُوعَةِ عَلَى أَلْسُنِ ٱلْحَيَوَانِ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ لِيَسْتَشْهِدَ بِٱلْمَثَلِ فِي مَوْضِعِهِ وَيُورِدَهُ فِي مَكَانِهِ وَيَكُونَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِأَصْلِهِ وَأَوَّلِ مَنْ أَرْسَلَهُ مَثَلًا وَمَنِ ٱسْتَشْهَدَ بِهِ وَذِكْرِ سَبَبِهِ . . . .

وَأَمَّا (ٱلتَّمَثُّلُ بِٱلشِّعْرِ) فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ تَمَثَّلَ يَوْمًا بِقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

ثُمَّ قَالَ : لِمَنْ هٰذَا . فَقِيلَ لَهُ : لِلنَّابِغَةِ . فَقَالَ : ذَاكَ أَشْعَرُ شُعَرَائِكُمْ . وَسَأَلَ عُمَرُ ٱبْنَ عَبَّاسٍ عَنْ شَيْءٍ فَأَجَابَهُ عَنْهُ فَأَعْجَبَهُ جَوَابُهُ فَقَالَ :

شِنْشِنَةٌ أَعرِفُها مِنْ أَخزَمِ . وَأَمثالُ ذٰلِكَ مِمَّا تَمَثَّلَ بِهِ ٱلصَّحابَةُ كَثِيرٌ .

وَكَذٰلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي (ٱلأَحكامِ ٱلسُّلطانِيَّةِ) فَإِنَّهُ قَدْ يُؤْمَرُ بِأَمرٍ فَيَعرِفُ بِها كَيفَ يُخَلِّصُ قامَةُ عَلى حُكمِ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلمُطَهَّرَةِ مِنْ وِلايَةِ ٱلقَضاءِ وَٱلحِسبَةِ وَغَيرِ ذٰلِكَ . فَهٰذِهِ أُمورٌ كُلِّيَّةٌ لا بُدَّ لِلمُتَرَشِّحِ لِهٰذِهِ ٱلصِّناعَةِ مِنَ ٱلتَّصَدِّي لِلاطِّلاعِ عَلَيها وَٱلإِكبابِ عَلى مُطالَعَتِها وَٱلاستِكثارِ مِنها . يَنفُقُ مِنْ تِلكَ ٱلمَوادِّ وَيَسلُكُ فِي ٱلوُصولِ إِلى تِلكَ ٱلصِّناعَةِ بِذٰلِكَ ٱلجَوادِ وَإِلّا فَليَعلَمْ أَنَّهُ فِي وادٍ وَٱلكِتابَةُ فِي وادٍ

وَأَمّا ٱلأُمورُ ٱلخاصَّةُ ٱلَّتِي تَزِيدُ مَعرِفَتُها قَدرَهُ وَيُزَيِّنُ ٱلعِلمُ بِها نَظمَهُ وَنَثرَهُ فَإِنَّها مِنَ ٱلمُكَمِّلاتِ لِهٰذا ٱلفَنِّ وَإِنْ لَمْ يَضطَرَّ إِلَيها ذُو ٱلذِّهنِ ٱلثّاقِبِ وَٱلطَّبعِ ٱلسَّلِيمِ وَٱلقَرِيحَةِ ٱلمُطاوِعَةِ وَٱلفِكرَةِ ٱلمُنقَّحَةِ وَٱلبَدِيهَةِ ٱلمُجِيبَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ ٱلمُتَصَرِّفَةِ . لٰكِنَّ ٱلعالِمَ بِها مُتَمَكِّنٌ مِنْ أَزِمَّةِ ٱلمَعانِي يَقُولُ عَنْ عِلمٍ وَيَتَصَرَّفُ عَنْ مَعرِفَةٍ وَيَنتَقِدُ بِحُجَّةٍ وَيَتَخَيَّرُ بِدَلِيلٍ وَيَستَحسِنُ بِبُرهانٍ وَيَصُوغُ ٱلكَلامَ بِتَرتِيبٍ

فَمِنْ ذٰلِكَ (عِلمُ ٱلمَعانِي وَٱلبَيانُ وَٱلبَدِيعُ) وَما يَلحَقُ بِها وَأَنا أُشِيرُ ٱلآنَ إِلى نُكَتٍ مِنها تَدُلُّ عَلى جَلالَةِ قَدرِ هٰذا ٱلعِلمِ وَعِظَمِ ٱلفائِدَةِ بِهِ وَأَنَّ ٱلأَدِيبَ وَٱلكاتِبَ ٱلعارِيَيْنِ مِنهُ قاصِرانِ عَنْ أَدنى رُتَبِ ٱلكَمالِ يُجِيدانِ وَلا يَدرِيانِ كَيفَ يُجِيبانِ . فَلَوْ سُئِلَ عَنْ عِلَّةِ مَعنًى ٱستَحسَنَهُ أَوْ لَفظٍ ٱستَحلاهُ أَوْ تَركِيبٍ ٱستَجادَهُ لَمْ يَقدِرْ عَلى ٱلإِتيانِ بِدَلِيلٍ عَلى ذٰلِكَ كَما قالَ بَعضُهُمْ :

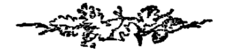
يا أَبا جَعفَرٍ أَتَحكُمُ فِي ٱلشِّعرِ م وَما فِيكَ آلَةُ ٱلحُكّامِ

إِنَّ نَقْدَ ٱلدِّينَارِ إِلَّا عَلَى ٱلصَّ ... رْ فِي صَعْبٌ فَكَيْفَ نَقْدُ ٱلْكَلَامِ
قَدْ رَأَيْنَاكَ لَسْتَ تَفْرِقُ فِي ٱلْأَ ... م شْعَارِ بَيْنَ ٱلْأَرْوَاحِ وَٱلْأَجْسَامِ

وَحَكَى ٱلْإِمَامُ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ ٱلْجُرْجَانِيُّ قَالَ : رَكِبَ ٱلْكِنْدِيُّ ٱلْمُتَفَلْسِفُ إِلَى أَبِي ٱلْعَبَّاسِ وَقَالَ لَهُ : إِنِّي أَجِدُ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَشْوًا . فَقَالَ لَهُ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ : فِي أَيِّ مَوْضِعٍ وَجَدتَ ذَلِكَ . قَالَ : وَجَدتُ ٱلْعَرَبَ تَقُولُ : عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ . فَٱلْأَلْفَاظُ مُتَكَرِّرَةٌ وَٱلْمَعْنَى وَاحِدٌ . فَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ : بَلِ ٱلْمَعَانِي مُخْتَلِفَةٌ لِٱخْتِلَافِ ٱلْأَلْفَاظِ . فَقَوْلُهُمْ : عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ إِخْبَارٌ عَنْ قِيَامِهِ . وَقَوْلُهُمْ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ . وَقَوْلُهُمْ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ إِنْكَارِ مُنْكِرٍ قِيَامَهُ . فَمَا أَحَارَ ٱلْمُتَفَلْسِفُ جَوَابًا . فَإِذَا ذَهَبَ مِثْلُ هٰذَا عَلَى ٱلْكِنْدِيِّ فَمَا ٱلظَّنُّ بِغَيْرِهِ . وَإِنْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يَحْكُمُ فِي ٱمْتِزَاجِهِ بِٱلْقُلُوبِ غَيْرُ ٱلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

شَيْءٌ بِهِ فُتِنَ ٱلْوَرَى غَيْرُ ٱلَّذِي ... يُدْعَى ٱلْجَمَالَ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ

لَكِنَّ ٱلْغَالِبَ فِي ٱلْكَلَامِ يُعْلَمُ سَبَبُ تَحْسِينِهِ وَتُعْرَفُ مَوَادُّ تَمْكِينِهِ وَيُجَابُ عَنِ ٱلْعِلَّةِ فِي ٱنْحِطَاطِهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَيُذْكَرُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱرْتِقَائِهِ مِنْ حَضِيضِ ٱلْقَوْلِ إِلَى يَفَاعِهِ



الجزء الأول

في علم الانشاء

بحث في تعريف الانشاء

(عن ابي الخير وعن آداب المنشئ لابن صدر الدين)

(راجع الجزء الاول من علم الادب صفحة ١)

إِنَّ ٱلإِنْشَاءَ عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ ٱلْمَنْثُورِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ بَلِيغٌ وَفَصِيحٌ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلْآدَابِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَهُمْ فِي ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ وَٱللَّائِقَةِ بِٱلْمَقَامِ . وَمَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ ظَاهِرَةٌ مِمَّا ذُكِرَ وَمَبَادِيهِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَتَبُّعِ ٱلْخُطَبِ وَٱلرَّسَائِلِ بَلْ لَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُلُومِ سِيَّمَا ٱلْحِكْمَةِ ٱلْعَمَلِيَّةِ وَٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَسِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَوَصَايَا ٱلْعُقَلَاءِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَنَاهِيَةِ . هٰذَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو ٱلْخَيْرِ . وَيَنْدَرِجُ فِيهِ مَا أَوْرَدَهُ فِي عِلْمِ مَبَادِئِ ٱلْإِنْشَاءِ وَأَدَوَاتِهِ فَلَا وَجْهَ لِجَعْلِهِ عِلْمًا آخَرَ . وَأَمَّا ٱبْنُ صَدْرِ ٱلدِّينِ فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ سِوَى مَعْرِفَةِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلْمَعَايِبِ وَنُبْذَةً مِنْ آدَابِ ٱلْمُنْشِئِ . وَزُبْدَةُ كَلَامِهِ أَنَّ لِلنَّثْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ نَثْرٌ مَحَاسِنُ وَمَعَايِبُ يَجِبُ عَلَى ٱلْمُنْشِئِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا فَيَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلْمَعَايِبِ . وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَعْلَى كَعْبًا فِي ٱلْعَرَبِيَّةِ مُحْتَرِزًا عَنِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ وَمَا يُخِلُّ لَهُ بِفَهْمِ ٱلْمُرَادِ وَيُوجِبُ

صُعُوبَةٌ وَأَنْ يَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلتَّكْرَارِ وَأَنْ يَجْعَلَ ٱلْأَلْفَاظَ تَابِعَةً لِلْمَعَانِي دُونَ ٱلْعَكْسِ . إِذِ ٱلْمَعَانِي إِذَا تُرِكَتْ عَلَى سَجِيَّتِهَا طَلَبَتْ لِأَنْفُسِهَا أَلْفَاظًا تَلِيقُ بِهَا فَيَحْسُنُ ٱللَّفْظُ وَٱلْمَعْنَى جَمِيعًا . وَأَمَّا جَعْلُ ٱلْأَلْفَاظِ مُتَكَلَّفَةً وَٱلْمَعَانِي تَابِعَةً لَهَا فَهُوَ كَلِبَاسٍ مَلِيحٍ عَلَى مَنْظَرٍ قَبِيحٍ فَيَجِبُ أَنْ يَجْتَنِبَ عَمَّا يَفْعَلُهُ بَعْضُ مَنْ لَهُمْ شَغَفٌ بِإِيرَادِ شَيْءٍ مِنَ ٱلْمُحَسِّنَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فَيَصْرِفُونَ ٱلْعِنَايَةَ إِلَى ٱلْمُحَسِّنَاتِ وَيَجْعَلُونَ ٱلْكَلَامَ كَأَنَّهُ غَيْرُ مَسُوقٍ لِإِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى فَلَا يُبَالُونَ بِخَفَاءِ ٱلدَّلَالَاتِ وَرَكَاكَةِ ٱلْمَعْنَى . وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَلِيقُ لِمَنْ يَتَعَاطَى ٱلْإِنْشَاءَ أَنْ يَكْتُبَ مَا يُرَادُ لَا مَا يُرِيدُ . كَمَا قِيلَ فِي ٱلصَّاحِبِ وَٱلصَّابِئِ : إِنَّ ٱلصَّابِئَ يَكْتُبُ مَا يُرَادُ وَٱلصَّاحِبُ يَكْتُبُ مَا يُرِيدُ . وَلَا بُدَّ أَنْ يُلَاحَظَ فِي كِتَابِ ٱلنَّثْرِ حَالُ ٱلْمُرْسِلِ وَٱلْمُرْسَلِ إِلَيْهِ وَيَعْنُونَ ٱلْكِتَابُ بِمَا يُنَاسِبُ ٱلْمَقَامَ

الفصل الاول

في الفصاحة

البحث الاول

في تحديد الفصاحة

(عن الفصاحة والبلاغة للامام السيوطي باختصار)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الاول من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ لُغَةً تُنْبِئُ عَنِ ٱلْإِبَانَةِ وَٱلظُّهُورِ يُقَالُ: فَصُحَ ٱلْأَعْجَمِيُّ وَافْصَحَ إِذَا انْطَلَقَ لِسَانُهُ وَخَلُصَتْ لُغَتُهُ مِنَ ٱللُّكْنَةِ وَجَادَتْ فَلَمْ يَلْحَنْ. وَافْصَحَ بِهِ اَيْ صَرَّحَ. وَعِنْدَ اهْلِ ٱلْمَعَانِي تُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ مِنْهَا: وَصْفٌ فِي ٱلْكَلَامِ بِهِ يَقَعُ ٱلتَّفَاضُلُ وَيَثْبُتُ ٱلْإِعْجَازُ. قَالَ ٱلْإِمَامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلرَّازِيُّ: اعْلَمْ اَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ خُلُوصُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ. وَاصْلُهَا مِنْ قَوْلِهِمْ: افْصَحَ ٱللَّبَنُ إِذَا ذَهَبَتْ عَنْهُ ٱلرَّغْوَةُ. وَهِيَ بِٱلْاصْطِلَاحِ: عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلظَّاهِرَةِ ٱلْمُتَبَادِرَةِ إِلَى ٱلْفَهْمِ وَٱلْمَأْنُوسَةِ ٱلْاسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا

البحث الثاني

في الفرق بين الفصاحة والبلاغة وموضوعهما

(عن كتاب الصناعتين الكتابة والانشاء لابي هلال العسكري باختصار)

اَلْبَلَاغَةُ مِنْ قَوْلِهِمْ: بَلَغْتُ ٱلْغَايَةَ إِذَا انْتَهَيْتُ إِلَيْهَا وَبَلَّغْتُهَا

غيري. ومبلغ الشيء منتهاه . والمبالغة في الشيء الانتهاء الى غايته. فسميت البلاغة بلاغة لانها تنهي المعنى الى قلب السامع فيفهمه وسميت البلغة بلغة لانك تتبلغ بها فتنتهي بك الى ما فوقها وهي البلاغ ايضاً. ويقال: الدنيا بلاغ لانها تؤديك الى الآخرة. والبلاغ ايضاً التبليغ. ومنه : هذا بلاغ للناس اي تبليغ. ويقال: بلغ الرجل بلاغة اذا صار بليغاً كما يقال نبل نبالة اذا صار نبيلاً. وكلام بليغ وبلغ (بالفتح) كما يقال وجيز ووجز. ورجل بلغ (بالكسر) يبلغ ما يريد وفي مثل لهم: احمق بلغ. ويقال : ابلغت في الكلام اذا اتيت بالبلاغة فيه كما تقول : ابرحت اذا اتيت البرحاء وهو الامر الجسيم. والبلاغة من صفة المتكلم فلهذا لا يجوز ان يسمى الله عز وجل بانه بليغ اذ لا يجوز ان يوصف بصفة [illegible] موضوعها للكلام وتسميتنا المتكلم انه بليغ توسع وحقيقته [illegible] كلامه بليغ كما تقول : فلان رجل محكم وتعني [illegible] محكم . وكذلك كثرة الاستعمال جعلت تسمية [illegible] كالحقيقة

اما الفصاحة فقد قال قوم [illegible] : [illegible] في نفسه اذا اظهره . والشاهد على [illegible] العرب افصح الصبح اذا اضاء وفصح [illegible] بعد ان لم يكن يبين وفصح [illegible] على جهة الصواب دون الخطإ [illegible]

وَٱلبَلَاغَةَ بِمَعْنًى وَاحِدٍ إِذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِنَّمَا هُوَ ٱلإِبَانَةُ عَنِ ٱلْمَعْنَى وَٱلإِظْهَارُ لَهُ . وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا: ٱلْفَصَاحَةُ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ . فَلِهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى ٱللهُ تَعَالَى فَصِيحًا إِذَا كَانَتِ ٱلْفَصَاحَةُ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى ٱلآلَةِ وَلَا يَجُوزُ عَلَى ٱللهِ تَعَالَى ٱلآلَةُ . وَيُوصَفُ كَلَامُهُ بِٱلْفَصَاحَةِ لِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ تَمَامِ ٱلْبَيَانِ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ ٱلأَلْثَغَ وَٱلتَّمْتَامَ لَا يُسَمَّيَانِ فَصِيحَيْنِ لِنُقْصَانِ آلَتِهِمَا عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ . وَقِيلَ: زِيَادٌ ٱلأَعْجَمُ . لِنُقْصَانِ آلَةِ نُطْقِهِ عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ وَكَانَ يُعَبِّرُ عَنِ ٱلْحِمَارِ بِٱلْهِمَارِ فَهُوَ أَعْجَمُ وَشِعْرُهُ فَصِيحٌ لِتَمَامِ بَيَانِهِ . فَعَلَى هَذَا تَكُونُ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ مُخْتَلِفَتَيْنِ وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ فَهِيَ مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱللَّفْظِ لِأَنَّ ٱلآلَةَ تَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ دُونَ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْبَلَاغَةُ إِنَّمَا هِيَ إِنْهَاءُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْقَلْبِ فَكَأَنَّهَا مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱلْمَعْنَى . وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَتَضَمَّنُ ٱللَّفْظَ وَٱلْبَلَاغَةَ تَتَنَاوَلُ ٱلْمَعْنَى أَنَّ ٱلْبَبْغَاءَ يُسَمَّى فَصِيحًا وَلَا يُسَمَّى بَلِيغًا إِذْ هُوَ مُقِيمُ ٱلْحُرُوفِ وَلَيْسَ لَهُ قَصْدٌ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُؤَدِّيهِ . وَقَدْ يَجُوزُ مَعَ هَذَا أَنْ يُسَمَّى ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ فَصِيحًا بَلِيغًا إِذَا كَانَ وَاضِحَ ٱلْمَعْنَى سَهْلَ ٱللَّفْظِ جَيِّدَ ٱلسَّبْكِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ فَجٍّ وَلَا مُتَكَلَّفٍ وَخِمٍ وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ أَحَدِ ٱلِاسْمَيْنِ شَيْءٌ لِمَا فِيهِ مِنْ إِيضَاحِ ٱلْمَعْنَى وَتَقْوِيمِ ٱلْحُرُوفِ . وَشَهِدْتُ قَوْمًا يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ لَا يُسَمَّى فَصِيحًا حَتَّى يَجْمَعَ مَعَ هَذِهِ ٱلنُّعُوتِ فَخَامَةً وَشِدَّةَ جَزَالَةٍ فَيَكُونَ مِثْلَ كَلَامِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ: إِنَّ ٱلنَّاسَ عَبِيدُ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلدِّينُ لَغْوٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ بِهِ مَعَايِشُهُمْ فَإِذَا

مُحِصُوا بِالْابْتِلَاءِ قَلَّ الدَّيَّانُونَ . وَمِثْلُ الْمَنْظُومِ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

تَرَى غَابَةَ الْخَطِّيِّ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ   كَمَا أَشْرَفَتْ فَوْقَ الصِّوَارِ قُرُونُهَا

(قَالُوا) وَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ يَجْمَعُ نُعُوتَ الْجُودَةِ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ فَخَامَةٌ وَفَضْلُ جَزَالَةٍ سُمِّيَ بَلِيغًا ثُمَّ فَصِيحًا كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ حَالِهِ عِنْدَ الْوَفَاةِ فَقَالَ : مَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِلَا زَادٍ وَيَقْدَمُ عَلَى مَلِكٍ عَادِلٍ بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَيَسْكُنُ قَبْرًا مُوحِشًا بِلَا انِيسٍ . وَقَوْلِ آخَرَ لِأَخٍ لَهُ : مَدَدتَ الَى الْمَوَدَّةِ يَدًا فَشَكَرْنَاكَ وشفعت ذٰلِكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْجَفَاءِ فَعَذَرْنَاكَ وَالرُّجُوعُ الَى مَحْمُودِ الْوُدِّ اوْلَى بِكَ مِنَ الْمُقَامِ عَلَى مَكْرُوهِ الصَّدِّ . وَاسْتَدَلُّوا عَلَى صِحَّةِ هٰذَا الْمَذْهَبِ بِقَوْلِ الْعَاصِي بْنِ عَدِيٍّ : الشَّجَاعَةُ قَلْبٌ رَكِينٌ وَالْفَصَاحَةُ لِسَانٌ رَزِينٌ . وَاللِّسَانُ هَا هُنَا الْكَلَامُ . وَالرَّزِينُ الَّذِي فِيهِ فَخَامَةٌ وَجَزَالَةٌ وليس الْغَرَضُ فِي هٰذَا الْكِتَابِ سُلُوكَ مَذْهَبِ الْمُتَكَلِّمِينَ . وَاِنَّمَا قَصَدْتُ فِيهِ مَقْصَدَ صُنَّاعِ الْكَلَامِ مِنَ الشُّعَرَاءِ وَالْكُتَّابِ فَلِهٰذَا لَمْ اُطِلِ الْكَلَامَ فِي هٰذَا الْفَصْلِ

البحث الثالث

في حقيقة الفصاحة

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ هٰذَا بَابٌ مُتَعَذِّرٌ عَلَى الْوَالِجِ وَمَسْلَكٌ مُتَوَعِّرٌ عَلَى

ٱلنَّاهِجِ وَلَمْ يَزَلِ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْ قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ وَحَدِيثِهِ يُكْثِرُونَ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَٱلْبَحْثَ عَنْهُ وَلَمْ اَجِدْ مِنْ ذٰلِكَ مَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ اِلَّا ٱلْقَلِيلَ . وَغَايَةُ مَا يُقَالُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ اَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبَيَانُ فِي اَصْلِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ يُقَالُ : اَفْصَحَ ٱلصُّبْحُ اِذَا ظَهَرَ ثُمَّ اِنَّهُمْ يَقِفُونَ عِنْدَ ذٰلِكَ وَلَا يَكْشِفُونَ عَنِ ٱلسِّرِّ فِيهِ . وَبِهٰذَا ٱلْقَوْلِ لَا تَتَبَيَّنُ حَقِيقَةُ ٱلْفَصَاحَةِ لِاَنَّهُ يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ بِوُجُوهٍ مِنَ ٱلِاعْتِرَاضَاتِ . (اَحَدُهَا) : اَنَّهُ اِذَا لَمْ يَكُنِ ٱللَّفْظُ ظَاهِرًا بَيِّنًا لَمْ يَكُنْ فَصِيحًا ثُمَّ اِذَا ظَهَرَ وَتَبَيَّنَ صَارَ فَصِيحًا . (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) : اَنَّهُ اِذَا كَانَ ٱللَّفْظُ ٱلْفَصِيحُ هُوَ ٱلظَّاهِرَ ٱلْبَيِّنَ فَقَدْ صَارَ ذٰلِكَ بِٱلنِّسَبِ وَٱلْاِضَافَاتِ اِلَى ٱلْاَشْخَاصِ فَاِنَّ ٱللَّفْظَ قَدْ يَكُونُ ظَاهِرًا لِزَيْدٍ وَلَا يَكُونُ ظَاهِرًا لِعَمْرٍو فَهُوَ اِذَنْ فَصِيحٌ عِنْدَ هٰذَا وَغَيْرُ فَصِيحٍ عِنْدَ هٰذَا . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْفَصِيحُ هُوَ فَصِيحٌ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ لَا خِلَافَ فِيهِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْاَحْوَالِ لِاَنَّهُ اِذَا تَحَقَّقَ حَدُّ ٱلْفَصَاحَةِ وَعُرِفَ مَا هِيَ لَمْ يَبْقَ فِي ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ خِلَافٌ . (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّالِثُ) : اَنَّهُ اِذَا جِيءَ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَنْبُو عَنْهُ ٱلسَّمْعُ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ فَصِيحًا وَلَيْسَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ وَصْفُ حُسْنٍ لِلَّفْظِ لَا وَصْفُ قُبْحٍ . فَهٰذِهِ ٱلِاعْتِرَاضَاتُ ٱلثَّلَاثَةُ وَارِدَةٌ عَلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ اِنَّ ٱللَّفْظَ ٱلْفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ . وَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَى اَقْوَالِ ٱلنَّاسِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ مَلَكَتْنِي ٱلْحَيْرَةُ فِيهَا وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدِي مِنْهَا مَا اُعَوِّلُ عَلَيْهِ وَلِكَثْرَةِ مُلَابَسَتِي هٰذَا ٱلْفَنَّ وَمُعَارَكَتِي اِيَّاهُ ٱنْكَشَفَ لِيَ ٱلسِّرُّ فِيهِ وَسَاُوضِحُهُ فِي كِتَابِي هٰذَا

وَأُحقِقُ ٱلقولَ فيهِ فأقولُ : إنَّ ٱلكلامَ ٱلفصيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلبيِّنُ وَاعني بِٱلظَّاهِرِ ٱلبيِّنِ ان تكونَ ألفاظُهُ مفهومةً لا يُحتاجُ في فهمِها إلى ٱستخراجٍ مِن كتابِ لغةٍ . وإنّما كانت بهذهِ ٱلصفةِ لأنّها تكونُ مألوفةَ ٱلإستعمالِ بينَ اربابِ ٱلنظمِ وٱلنثرِ دائرةً في كلامِهم . وانما كانت مألوفةَ ٱلإستعمالِ دائرةً في ٱلكلامِ دونَ غيرِها مِنَ ٱلألفاظِ لمكانِ حُسنِها . وذلكَ انَّ اربابَ ٱلنظمِ وٱلنثرِ غربلوا ٱللُّغةَ بٱعتبارِ ألفاظِها وسبروا وقسّموا فٱختاروا ٱلحسنَ مِنَ ٱلألفاظِ فٱستعملوه ونفوا ٱلقبيحَ مِنها فلم يستعملوهُ فحُسنُ ٱلإستعمالِ سببُ ٱستعمالِها دونَ غيرِها وٱستعمالُها سببُ ظهورِها وبيانِها . فٱلفصيحُ إذن من ٱلألفاظِ هُوَ ٱلحسنُ . فإن قيلَ : مِن ايِّ وجهٍ عَلِمَ اربابُ ٱلنظمِ وٱلنثرِ ٱلحسنَ مِنَ ٱلألفاظِ حتى ٱستعملوهُ وعلموا ٱلقبيحَ مِنها حتى نفوهُ ولم يستعملوهُ . قلتُ في ٱلجوابِ : إنَّ هذا مِنَ ٱلأمورِ ٱلمحسوسةِ ٱلَّتي شاهِدُها مِن نفسِها لأنَّ ٱلألفاظَ داخلةٌ في حيِّزِ ٱلأصواتِ فٱلذي يستلذُّهُ ٱلسمعُ مِنها ويميلُ إليهِ هُوَ ٱلحسنُ وٱلذي يكرهُهُ وينفرُ عنهُ ٱلقبيحُ . ألا ترى انَّ ٱلسمعَ يستلذُّ صوتَ ٱلبلبلِ مِنَ ٱلطيرِ وصوتَ ٱلشحرورِ ويميلُ إليهما ويكرهُ صوتَ ٱلغرابِ وينفرُ عنهُ وكذلكَ يكرهُ نهيقَ ٱلحمارِ ولا يجدُ ذلكَ في صهيلِ ٱلفرسِ . وٱلألفاظُ جاريةٌ هذا ٱلمجرى فإنّهُ لا خلافَ في انَّ لفظةَ ٱلمزنةِ وٱلديمةِ حسنةٌ يستلذُّها ٱلسمعُ . وانَّ لفظةَ ٱلبعاقِ قبيحةٌ يكرهُها ٱلسمعُ . وهذهِ ٱللفظاتُ ٱلثلاثُ مِن صفةِ ٱلمطرِ وهي تدلُّ على معنًى واحدٍ . ومعَ هذا فإنّكَ ترى لفظتي ٱلمزنةِ

وَالدِّيمَةِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مَأْلُوفَتَي الاسْتِعْمَالِ وَتَرَى لَفْظَ الْبُعَاقِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ مَتْرُوكًا لَا يُسْتَعْمَلُ . وَإِنْ اسْتُعْمِلَ فَإِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ الْفَصَاحَةِ أَوْ ذَوْقُهُ غَيْرُ ذَوْقٍ سَلِيمٍ وَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا مَحْضًا مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأَقْدَمِينَ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الشَّيْءِ إِذَا عُلِمَتْ وَجَبَ الْوُقُوفُ عِنْدَهَا وَلَمْ يُعَرَّجْ عَلَى مَا خَرَجَ عَنْهَا . وَإِذْ ثَبَتَ أَنَّ الْفَصِيحَ مِنَ الْأَلْفَاظِ هُوَ الظَّاهِرُ الْبَيِّنُ وَإِنَّمَا كَانَ ظَاهِرًا بَيِّنًا لِأَنَّهُ مَأْلُوفُ الِاسْتِعْمَالِ وَإِنَّمَا كَانَ مَأْلُوفَ الِاسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهِ وَحُسْنُهُ مُدْرَكٌ بِالسَّمْعِ . وَالَّذِي يُدْرَكُ بِالسَّمْعِ إِنَّمَا هُوَ اللَّفْظُ لِأَنَّهُ صَوْتٌ يَأْتَلِفُ عَنْ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ فَمَا اسْتَلَذَّهُ السَّمْعُ مِنْهُ فَهُوَ الْحَسَنُ وَمَا كَرِهَهُ فَهُوَ الْقَبِيحُ وَالْحَسَنُ هُوَ الْمَوْصُوفُ بِالْفَصَاحَةِ وَالْقَبِيحُ غَيْرُ مَوْصُوفٍ بِفَصَاحَةٍ لِأَنَّهُ ضِدُّهَا لِمَكَانِ قُبْحِهِ . وَقَدْ مَثَّلْتُ الْمِثَالَ الْمُتَقَدِّمَ بِلَفْظَةِ الْمُزْنَةِ وَالدِّيمَةِ وَلَفْظَةِ الْبُعَاقِ وَلَوْ كَانَتِ الْفَصَاحَةُ لِأَمْرٍ يَرْجِعُ إِلَى الْمَعْنَى لَكَانَتْ هٰذِهِ الْأَلْفَاظُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ سَوَاءً لَيْسَ مِنْهَا حَسَنٌ وَمِنْهَا قَبِيحٌ . وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ عَلِمْنَا أَنَّهَا تَخُصُّ اللَّفْظَ دُونَ الْمَعْنَى . وَلَيْسَ لِقَائِلٍ هٰهُنَا أَنْ يَقُولَ لَا لَفْظَ إِلَّا بِمَعْنًى فَكَيْفَ فَصَلْتَ أَنْتَ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى . قُلْتُ : لَمْ أَفْصِلْ بَيْنَهُمَا وَإِنَّمَا خَصَصْتُ اللَّفْظَ بِصِفَةٍ هِيَ لَهُ وَالْمَعْنَى يَجِيءُ فِيهِ ضِمْنًا وَتَبَعًا

البحث الرابع

في احكام الفصاحة وشروطها

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣و٤ من علم الادب)

اِعلَمْ انَّهُ يَحتاجُ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّناعَةِ فِي تَأْلِيفِهِ إِلَى ثَلاثَةِ أَشْيَاءَ : (اَلأَوَّلُ) مِنْهَا اَخْتِيارُ ٱلأَلْفَاظِ ٱلْمُفْرَدَةِ . وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱللَّآلِئِ ٱلْمُبَدَّدَةِ فَإِنَّهَا تُتَخَيَّرُ وَتُنْتَقَى قَبْلَ ٱلنَّظْمِ . (اَلثَّانِي) نَظْمُ كُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ أُخْتِهَا فِي ٱلْمُشَاكَلَةِ لَهَا لِئَلاَّ يَجِيءَ ٱلْكَلامُ قَلِقًا نَافِرًا عَنْ مَوَاضِعِهِ وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱلْعِقْدِ ٱلْمَنْظُومِ فِي اقْتِرَانِ كُلِّ لُؤْلُؤَةٍ مِنْهُ بِأُخْتِهَا ٱلْمُشَاكِلَةِ لَهَا . (اَلثَّالِثُ) اَلْغَرَضُ ٱلْمَقْصُودُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلامِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يُوضَعُ فِيهِ ٱلْعِقْدُ ٱلْمَنْظُومُ فَتَارَةً يُجْعَلُ إِكْلِيلًا عَلَى ٱلرَّأْسِ وَتَارَةً يُجْعَلُ قِلَادَةً فِي ٱلْعُنُقِ وَتَارَةً يُجْعَلُ شَنْفًا فِي ٱلْأُذُنِ وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ هَيْئَةٌ مِنَ ٱلْحُسْنِ تَخُصُّهُ . فَهٰذِهِ ثَلاثَةُ أَشْيَاءَ لَا بُدَّ لِلْخَطِيبِ وَٱلشَّاعِرِ مِنَ ٱلْعِنَايَةِ بِهَا وَهِيَ ٱلأَصْلُ ٱلْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلامِ مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ . فَٱلأَوَّلُ وَٱلثَّانِي مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلاثَةِ ٱلْمَذْكُورَةِ هُمَا ٱلْمُرَادُ بِٱلْفَصَاحَةِ . وَٱلثَّلاثَةُ بِجُمْلَتِهَا هِيَ ٱلْمُرَادُ بِٱلْبَلاغَةِ. وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَضِلُّ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهِ ٱلْعُلَمَاءُ بِصِنَاعَةِ صَوْغِ ٱلْكَلامِ مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ فَكَيْفَ ٱلْجُهَّالُ ٱلَّذِينَ لَمْ تَنْفَحْهُمْ رَائِحَتُهُ . وَمَنْ

اَلَّذِي يُؤْتِيهِ ٱللهُ فِطْرَةً نَاصِعَةً يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ حَتَّى يَنْظُرَ اِلَى مَا يَسْتَعْمِلُهُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ فَيَضَعَهَا فِي مَوَاضِعِهَا

وَقَدْ ذَكَرَ مَنْ تَقَدَّمَنِي مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ لِلْاَلْفَاظِ ٱلْمُفْرَدَةِ خَصَائِصَ وَهَيْئَاتٍ تَتَّصِفُ بِهَا وَٱخْتَلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَٱسْتَحْسَنَ اَحَدُهُمْ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ وَكَذٰلِكَ ٱسْتَقْبَحَ ٱلْآخَرُ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ . وَلَوْ حَقَّقُوا ٱلنَّظَرَ وَوَقَفُوا عَلَى ٱلسِّرِّ فِي ٱتِّصَافِ بَعْضِ ٱلْاَلْفَاظِ بِٱلْحُسْنِ وَبَعْضِهَا بِٱلْقُبْحِ لَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا

وَقَدْ رَاَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْجُهَّالِ اِذَا قِيلَ لِاَحَدِهِمْ اِنَّ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ حَسَنَةٌ وَهٰذِهِ قَبِيحَةٌ اَنْكَرَ ذٰلِكَ وَقَالَ : كُلُّ ٱلْاَلْفَاظِ حَسَنٌ وَٱلْوَاضِعُ لَمْ يَضَعْ اِلَّا حَسَنًا . وَمَنْ يَبْلُغْ جَهْلُهُ اِلَى اَنْ لَا يُفَرِّقَ بَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْغُصْنِ وَلَفْظَةِ ٱلْعُسْلُوجِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْمُدَامَةِ وَلَفْظَةِ ٱلْاِسْفِنْطِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلسَّيْفِ وَلَفْظَةِ ٱلْخَنْشَلِيلِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْاَسَدِ وَلَفْظَةِ ٱلْفَدَوْكَسِ فَلَا يَنْبَغِي اَنْ يُخَاطَبَ بِخِطَابٍ وَيُجَاوَبَ بِجَوَابٍ

وَقَدْ بَقِيَتْ هُنَاكَ اَوْصَافٌ اُخَرُ يَنْبَغِي اَنْ يُنَبَّهَ عَلَيْهَا . فَمِنْهَا اَنْ لَا تَكُونَ ٱلْكَلِمَةُ وَحْشِيَّةً . وَقَدْ خَفِيَ ٱلْوَحْشِيُّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلْمُنْتَمِينَ اِلَى صِنَاعَةِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَظَنُّوهُ ٱلْمُسْتَقْبَحَ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْوَحْشِيُّ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ اَحَدُهُمَا غَرِيبٌ حَسَنٌ وَٱلْآخَرُ غَرِيبٌ قَبِيحٌ . وَذٰلِكَ اَنَّهُ مَنْسُوبٌ اِلَى ٱسْمِ ٱلْوَحْشِ ٱلَّذِي يَسْكُنُ ٱلْقِفَارَ وَلَيْسَ بِاَنِيسٍ وَكَذٰلِكَ ٱلْاَلْفَاظُ ٱلَّتِي لَمْ تَكُنْ مَأْنُوسَةَ ٱلِاسْتِعْمَالِ . وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ ٱلْوَحْشِ اَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبَحًا بَلْ اَنْ يَكُونَ نَافِرًا لَا يَأْلَفُ

ٱلإِنس فتارةً يكون حسنًا وتارةً يكون قبيحًا . وعلى هذا فإنّ أحد قسمي ٱلوحشيّ وهو ٱلغريب ٱلحسن يختلف باختلاف ٱلنسب وٱلإضافات . وأمّا ٱلقسم ٱلآخر من ٱلوحشيّ ٱلذي هو قبيحٌ فإنّ ٱلناس في ٱستقباحه سواءٌ ولا يختلف به عربيٌّ بادٍ ولا قرويٌّ متحضر . وأحسن ٱلألفاظ ما كان مألوفًا متداولًا لأنّه لم يكن مألوفًا متداولًا إلّا لمكان حسنه وقد تقدّم ٱلكلام على ذلك في باب ٱلفصاحة . فإنّ أرباب ٱلخطابة وٱلشعر نظروا إلى ٱلألفاظ ونقّبوا عنها ثمّ عدلوا إلى ٱلأحسن منها فٱستعملوه وتركوا ما سواه وهو أيضًا يتفاوت في درجات حسنه فٱلألفاظ إذن تنقسم ثلاثة أقسام : قسمان حسنان وقسم قبيح . فٱلقسمان ٱلحسنان أحدهما ما تداول ٱستعماله ٱلأوّل وٱلآخر من ٱلزمن ٱلقديم إلى زماننا هذا ولا يطلق عليه أنّه وحشيّ . وٱلآخر ما تداول ٱستعماله ٱلأوّل دون ٱلآخر ويختلف في ٱستعماله بٱلنسبة إلى ٱلزمن وأهله وهذا هو ٱلذي لا يعاب ٱستعماله عند ٱلعرب لأنّه لم يكن عندهم وحشيًا وهو عندنا وحشيّ

ولا يسبق وهمك أيّها ٱلمتأمّل إلى قول ٱلقائل ٱلذي غاب عنه غلظ ٱلطبع وفجاجة ٱلذهن بأنّ ٱلعرب كانت تستعمل من ٱلألفاظ كذا وكذا فهذا دليل على أنّه حسن . بل ينبغي أن تعلم أنّ ٱلذي نستحسنه نحن في زماننا هذا هو ٱلذي كان عند ٱلعرب مستحسنًا وٱلذي نستقبحه هو ٱلذي كان عندهم مستقبحًا . وٱلاستعمال ليس بدليل على ٱلحسن فإنّا نحن نستعمل ٱلآن من ٱلكلام ما

ليس بحسن وإنما نستعمله لضرورة فليس استعمال الحسن بممكن في كل الاحوال . وهذا طريق يضل بغير العارف بمسالكه ومن لم يعرف صناعة النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلفة في صوغ الالفاظ واختيارها فإنه معذور في ان يقول ما قال :

لا يعرف الحزن الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

ومع هذا فإن قول القائل : بأن العرب كانت تستعمل من الالفاظ كذا وكذا وهذا دليل على انه حسن. قول فاسد لا يصدر الا عن جاهل. فإن استحسان الالفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب لانه شيء ليس التقليد فيه مجال وانما هو شيء له خصائص وهيئات وعلامات اذا وجدت علم حسنه من قبحه . واما الذي نقلد العرب فيه من الالفاظ فانما هو الاستشهاد باشعارها على ما ينقل من لغتها والاخذ باقوالها في الاوضاع النحوية في رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف اليه وجزم الشرط واشباه ذلك وما عداه فلا . وحسن الالفاظ وقبحها ليس اضافيا الى زيد دون عمرو او الى عمرو دون زيد لانه وصف ذوقي لا يتغير الا بالاضافة . الا ترى ان لفظة المزنة متلاحسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم وهلم جرا لا يختلف احد في حسنها . وكذلك لفظة البعاق فانها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم فإذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم اياها مخرجا لها عن القبح ولا يلتفت اذن الى استعمالهم اياها بل يعاب مستعملها ويغلظ له النكير حيث استعملها

فَلَا تَظُنَّ أَنَّ ٱلْوَحْشِيَّ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ مَا يَكْرَهُهُ سَمْعُكَ وَيَثْقُلُ عَلَيْكَ ٱلنُّطْقُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ ٱلْغَرِيبُ ٱلَّذِي يَقِلُّ ٱسْتِعْمَالُهُ فَتَارَةً يَخِفُّ عَلَى سَمْعِكَ وَلَا تَجِدُ بِهِ كَرَاهَةً وَتَارَةً يَثْقُلُ عَلَى سَمْعِكَ وَتَجِدُ مِنْهُ ٱلْكَرَاهَةَ. وَذٰلِكَ فِي ٱللَّفْظِ عَيْبَانِ: (أَحَدُهُمَا) أَنَّهُ غَرِيبُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ (وَٱلْآخَرُ) أَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ كَرِيهٌ عَلَى ٱلذَّوْقِ. وَإِذَا كَانَ ٱللَّفْظُ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَلَا مَزِيدَ عَلَى فَظَاظَتِهِ وَغَلَاظَتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْوَحْشِيَّ ٱلْغَلِيظَ وَيُسَمَّى أَيْضاً ٱلْمُتَوَعِّرَ وَلَيْسَ وَرَاءَهُ فِي ٱلْقُبْحِ دَرَجَةٌ أُخْرَى وَلَا يَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا أَجْهَلُ ٱلنَّاسِ مِمَّنْ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ شَيْءٌ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذَا ٱلْفَنِّ أَصْلًا. فَإِنْ قِيلَ: فَمَا هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ. قُلْتُ: قَدْ ثَبَتَ لَكَ أَنَّهُ مَا كَرِهَهُ سَمْعُكَ وَثَقُلَ عَلَى لِسَانِكَ ٱلنُّطْقُ بِهِ. وَسَأَضْرِبُ لَكَ فِي ذٰلِكَ مِثَالًا فَمِنْهُ مَا وَرَدَ لِتَأَبَّطَ شَرًّا فِي كِتَابِ ٱلْحَمَاسَةِ:

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا جَحِيشاً وَيَعْرَوْرِي ظُهُورَ ٱلْمَسَالِكِ

فَإِنَّ لَفْظَةَ (جَحِيشٍ) مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُنْكَرَةِ ٱلْقَبِيحَةِ. وَيَا لِلّٰهِ ٱلْعَجَبُ أَلَيْسَ أَنَّهَا بِمَعْنَى (فَرِيدٍ) وَفَرِيدٌ لَفْظَةٌ حَسَنَةٌ رَائِقَةٌ وَلَوْ وُضِعَتْ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ مَوْضِعَ جَحِيشٍ لَمَا ٱخْتَلَّ شَيْئاً مِنْ وَزْنِهِ. فَتَأَبَّطَ شَرًّا مَلُومٌ مِنْ وَجْهَيْنِ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْقَبِيحَ. وَٱلْآخَرُ أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنِ ٱسْتِعْمَالِهِ فَلَمْ يَعْدِلْ عَنْهُ. وَمِمَّا هُوَ أَقْبَحُ مِنْهُ مَا وَرَدَ لِأَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا ٱطْلَخَمَّ ٱلْأَمْرُ وَٱنْبَعَثَتْ عَشْوَاءُ تَالِيَةً غُبْساً دَهَارِيسَا

فَلَفْظَةُ (اطْلَخَمَّ) مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُنْكَرَةِ ٱلَّتِي جَمَعَتِ ٱلْوَصْفَيْنِ ٱلْقَبِيحَيْنِ فِي أَنَّهَا غَرِيبَةٌ وَأَنَّهَا غَلِيظَةٌ فِي ٱلسَّمْعِ كَرِيهَةٌ عَلَى ٱلذَّوْقِ وَكَذَٰلِكَ لَفْظَةُ (دَهَارِيس) أَيْضًا . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُهُ مِنْ أَبْيَاتٍ يَصِفُ فَرَسًا مِنْ جُمْلَتِهَا :

نِعْمَ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا حَبَاكَ بِهِ ... أَرْوَعُ لَا جَيْدَرٌ وَلَا جِبْسُ

فَلَفْظَةُ (جَيْدَر) غَلِيظَةٌ . وَأَغْلَظُ مِنْهَا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

جَفَخَتْ وَهُمْ لَا يَجْفَخُونَ بِهَا بِهِمْ ... شِيَمٌ عَلَى ٱلْحَسَبِ ٱلْأَغَرِّ دَلَائِلُ

فَإِنَّ لَفْظَةَ (جَفَخَ) مُرَّةُ ٱلطَّعْمِ وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلسَّمْعِ اقْشَعَرَّ مِنْهَا وَأَبُو ٱلطَّيِّبِ فِي ٱسْتِعْمَالِهَا كَٱسْتِعْمَالِ تَأَبَّطَ شَرًّا لَفْظَةَ جَحِيش . فَإِنَّ تَأَبَّطَ شَرًّا كَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنِ ٱسْتِعْمَالِ تِلْكَ ٱللَّفْظَةِ كَمَا أَشَرْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ . وَكَذَٰلِكَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ فِي ٱسْتِعْمَالِ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةِ ٱلَّتِي هِيَ جَفَخَتْ فَإِنَّ مَعْنَاهَا فَخَرَتْ وَٱلْجَفْخُ ٱلْفَخْرُ يُقَالُ : جَفَخَ فُلَانٌ إِذَا فَخَرَ . وَلَوِ ٱسْتَعْمَلَ عِوَضًا عَنْ جَفَخَتْ فَخَرَتْ لَاسْتَقَامَ ٱلْبَيْتُ وَحَظِيَ فِي ٱسْتِعْمَالِهِ بِٱلْأَحْسَنِ . وَمَا أَعْلَمُ كَيْفَ يَذْهَبُ هٰذَا وَأَمْثَالُهُ عَلَى مِثْلِ هٰؤُلَاءِ ٱلْفُحُولِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ . وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْتُهُ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ هُوَ ٱلْوَحْشِيُّ ٱلْغَلِيظُ ٱلَّذِي لَيْسَ لَهُ مَا يُدَانِيهِ فِي قُبْحِهِ وَكَرَاهَتِهِ . وَهٰذِهِ ٱلْأَمْثِلَةُ دَلِيلٌ عَلَى مَا أَوْرَدْنَاهُ . وَٱلْعَرَبِيُّ إِذَنْ لَا تُلَامُ عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلْغَرِيبِ ٱلْحَسَنِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَإِنَّمَا تُلَامُ عَلَى ٱلْغَرِيبِ ٱلْقَبِيحِ . وَأَمَّا ٱلْحَضَرِيُّ فَإِنَّهُ عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلْقِسْمَيْنِ مَعًا وَهُوَ فِي أَحَدِهِمَا أَشَدُّ مَلَامَةً مِنْهُ فِي ٱلْآخَرِ

البحث الخامس

في الالفاظ المترادفة والاسماء المشتركة

(عن المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٦ من علم الادب)

وَيَفْتَقِرُ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ إِلَى مَعْرِفَةِ عِدَّةِ أَسْمَاءٍ لِمَا يَقَعُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ لِيَجِدَ إِذَا ضَاقَ بِهِ مَوْضِعٌ فِي كَلَامِهِ بِإِيرَادِ بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ فِيهِ ٱلْعُدُولَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ . وَهٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءُ تُسَمَّى ٱلْمُتَرَادِفَةَ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلْمُسَمَّى وَٱخْتِلَافُ أَسْمَائِهِ كَقَوْلِنَا: ٱلْخَمْرُ وَٱلرَّاحُ وَٱلْمُدَامُ . فَإِنَّ ٱلْمُسَمَّى بِهٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءِ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَأَسْمَاؤُهُ كَثِيرَةٌ . وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّجْنِيسِ فِي كَلَامِهِ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلْاِسْمِ وَٱخْتِلَافُ ٱلْمُسَمَّيَاتِ . كَٱلْعَيْنِ فَإِنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَعَلَى يَنْبُوعِ ٱلْمَاءِ وَعَلَى ٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ . إِلَّا أَنَّ ٱلْمُشْتَرَكَةَ تَفْتَقِرُ فِي ٱلْاِسْتِعْمَالِ إِلَى قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهَا كَيْ لَا تَكُونَ مُبْهَمَةً . لِأَنَّا إِذَا قُلْنَا: عَيْنٌ . ثُمَّ سَكَتْنَا وَقَعَ ذٰلِكَ عَلَى مُحْتَمَلَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَٱلْعَيْنِ ٱلنَّابِعَةِ وَٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ مَوْضُوعٌ بِإِزَاءِ هٰذَا ٱلْاِسْمِ . وَإِذَا قُرِنَ إِلَيْهِ قَرِينَةٌ تُخَصِّصُهُ زَالَ ذٰلِكَ ٱلْإِبْهَامُ بِأَنْ تَقُولَ: عَيْنٌ حَسَنَاءُ أَوْ عَيْنٌ نَضَّاخَةٌ أَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ لِلْعُلَمَاءِ فِيهِ مُجَاذَبَاتٌ جَدَلِيَّةٌ . فَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ ٱلْمُشْتَرَكُ حَقِيقَةً فِي ٱلْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا وَيَقُولُ

إنَّ ذلكَ يُخلُّ بفائدةِ وضعِ اللُّغةِ لأنَّ اللُّغةَ إنَّما هِيَ وضعُ الألفاظِ في دلالتها على المعاني أي وضعُ الأسماءِ على المسمَّياتِ لتكونَ مُنبئةً عنها عندَ إطلاقِ اللفظِ والإشتراكِ لا بيانَ فيهِ وإنَّما هُوَ ضدُّ البيانِ. لكنَّ طريقَ البيانِ أنْ يُجعلَ أحدُ المعنيينِ في اللفظِ المشتركِ حقيقةً والآخرُ مجازياً. فإذا قلنا: هذهِ كلمةٌ. وأطلقنا القولَ فُهِمَ منهُ اللفظةُ الواحدةُ. وإذا قيَّدنا اللفظَ فقلنا: هذهِ كلمةٌ شاعرةٌ. فُهِمَ منهُ القصيدةُ المقصدةُ مِنَ الشعرِ وهِيَ مجموعُ كلماتٍ كثيرةٍ. ولو أطلقنا مِنْ غيرِ تقييدٍ وأردنا القصيدةَ مِنَ الشعرِ لما فُهِمَ مرادُنا البتَّةَ. هذا خلاصةُ ما ذهبَ إليهِ مَنْ ينكرُ وقوعَ اللفظِ المشتركِ في المعنيينِ حقيقةً. وفي ذلكَ ما فيهِ. وسأبيِّنُ ما يدخلُهُ مِنَ الخللِ فأقولُ في الجوابِ عنْ ذلكَ ما استخرجتُهُ بفكري ولمْ يكنْ لأحدٍ فيهِ قولٌ مِنْ قبلي وهُوَ: أمَّا قولُكَ: إنَّ فائدةَ وضعِ اللُّغةِ إنَّما هُوَ البيانُ عندَ إطلاقِ اللفظِ واللفظُ المشتركُ يُخلُّ بهذهِ الفائدةِ. فهذا غيرُ مُسلَّمٍ بلْ فائدةُ وضعِ اللُّغةِ هُوَ البيانُ والتحسينُ

(أمَّا البيانُ) فقدْ وفى الأسماءَ المتباينةَ التي كلُّ اسمٍ واحدٍ دلَّ على مسمَّى واحدٍ. فإذا أُطلِقَ اللفظُ في هذهِ الأسماءِ كانَ بيِّناً مفهوماً لا يحتاجُ إلى قرينةٍ ولو لمْ يضعِ الواضعُ مِنَ الأسماءِ شيئاً غيرَها لكانَ كافياً في البيانِ

(وأمَّا التحسينُ) فإنَّ الواضعَ لهذهِ اللُّغةِ العربيَّةِ التي هِيَ أحسنُ اللُّغاتِ نظراً إلى ما يحتاجُ إليهِ أربابُ الفصاحةِ والبلاغةِ فيما يصوغونهُ

مِنْ نَظْمٍ وَنَثْرٍ وَرَاى اَنَّ مِنْ مُهِمَّاتِ ذٰلِكَ ٱلتَّجْنِيسَ وَلَا يَقُومُ بِهِ اَلَّا ٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ ٱلَّتِي هِيَ كُلُّ ٱسْمٍ وَاحِدٍ دل على مسميين فصاعدا فَوَضَعَهَا مِنْ اَجْلِ ذٰلِكَ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَتَجَاذَبُهُ جَانِبَانِ يَتَرَجَّحُ اَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ . وَبَيَانُهُ اَنَّ ٱلتَّحْسِينَ يَقْضِي بِوَضْعِ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ وَوَضْعُهَا يَذْهَبُ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ عِنْدَ اِطْلَاقِ ٱللَّفْظِ . وَعَلَى هٰذَا فَانْ وَضَعَهَا ٱلْوَاضِعُ ذَهَبَ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ وَاِنْ لَمْ يَضَعْ ذَهَبَ بِفَائِدَةِ ٱلتَّحْسِينِ. لٰكِنَّهُ اِنْ وَضَعَ اَسْتَدْرَكَ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ بِٱلْقَرِينَةِ وَاِنْ لَمْ يَضَعْ لَمْ يَسْتَدْرِكْ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلتَّحْسِينِ فَتَرَجَّحَ حِينَئِذٍ جَانِبُ ٱلْوَضْعِ فَوُضِعَ

البحث السادس

في فصاحة المفرد وفصاحة المركّب

(من شرح بديعيَّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٥٩٤ من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ فِي ٱلْمُفْرَدِ هِيَ اَنْ تَكُونَ مِمَّا اَسْتَعْمَلَتِ ٱلْعَرَبُ ٱلْعَرْبَاءُ كَثِيرًا وَدَارَ عَلَى اَلْسِنَتِهِمْ فَسَلِمَ مِنْ سِتَّةِ اَشْيَاءَ . (الاول) : اَنْ لَا يَتَرَكَّبَ مِنْ حُرُوفٍ مُتَنَافِرَةٍ كَلَفْظَةِ (ٱلْعُخُعِ) وَهُوَ نَبْتٌ . سُئِلَ اعرابي عَنْ نَاقَتِهِ فَقَالَ : تَرَكْتُهَا تَرْعَى ٱلْعُخُعَ. وَاِنَّمَا تَنَافَرَتْ حُرُوفُ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ لِكَوْنِهَا مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْحَلْقُ . (الثاني) : اَنْ لَا تَتَوَالَى فِيهِ اَكْثَرُ مِنْ حَرَكَتَيْنِ يَحْدُثُ بِسَبَبِهِمَا ثِقْلٌ . (الثالث):

أَنْ لَا يَكُونَ مُتَنَاهِياً فِي كَثْرَةِ الْحُرُوفِ بِلَا زِيَادَةِ مَعْنًى نَحْوُ: خَنْدَرِيس. وَلَا فِي قِلَّتِهَا نَحْوُ: حِدْ عَنْ ذَا الْمَرْءِ. وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا وَهُوَ الثُّلَاثِيُّ إِذْ لَا فَضْلَةَ فِيهِ عَمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ حَرْفِ الْاِبْتِدَاءِ وَحَرْفِ الْوَقْفِ وَحَرْفٍ فَاصِلٍ بَيْنَ الْوَقْفِ وَالْاِبْتِدَاءِ. أَمَا لَوْ كَانَتْ زِيَادَةُ الْحُرُوفِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى زَائِدٍ لَكَانَتِ اللَّفْظَةُ فَصِيحَةً نَحْوُ: اخْشَوْشَنَ. مَعْنَاهُ أَزْيَدُ مِنْ خَشُنَ. (الرَّابِعُ): أَنْ لَا يَكُونَ وَحْشِيّاً غَيْرَ مَأْلُوفٍ نَحْوُ: الْإِسْفَنْطِ لِلْخَمْرِ وَالْخَنْشَلِيلِ لِلسَّيْفِ وَالْفَدَوْكَسِ لِلْأَسَدِ. فَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ غَرِيبَةٌ يَمُجُّهَا الطَّبْعُ وَلَا يُطَّلَعُ عَلَى مَعْنَاهَا إِلَّا بَعْدَ بَحْثٍ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ. (الْخَامِسُ): أَنْ لَا يَكُونَ مُبْتَذَلاً وَذَلِكَ نَحْوُ أَنْ يَخْرُجَ اللَّفْظُ عَنْ أَصْلِ وَضْعِهِ وَيُسْتَعْمَلُ فِي شَيْءٍ مُسْتَقْبَحٍ. (السَّادِسُ): أَنْ لَا يَكُونَ مُشْتَرَكاً بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ أَحَدُهُمَا مَكْرُوهٌ كَمَا لَوْ قُلْتَ: لَقِيتُ فُلَاناً فَعَزَّرْتُهُ. فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ الْإِكْرَامَ وَالْإِهَانَةَ. فَلَوْ كَانَ فِي الْكَلَامِ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْحَسَنِ لَكَانَ اللَّفْظُ فَصِيحاً كَقَوْلِكَ: لَقِيتُ فُلَاناً فَعَزَّرْتُهُ وَنَصَرْتُهُ. فَلَفْظُ (نَصَرْتُهُ) يُعَيِّنُ فِيهِ الْمَعْنَى الْحَسَنَ. وَعَلَيْهِ يَكُونُ اللَّفْظُ حَسَناً فِي نَفْسِهِ فَيُعَدُّ قَبِيحاً بِسَبَبِ مَحَلِّهِ مِنَ الْكَلَامِ وَمَوْقِعِهِ مِنْهُ

وَأَمَّا الْفَصَاحَةُ فِي التَّرْكِيبِ فَهُوَ أَنْ يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ. (الْأَوَّلُ): سَلَامَةُ مُفْرَدَاتِهِ مِنَ السِّتَّةِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ فِي الْمُفْرَدِ لِأَنَّ لِلْمُرَكَّبِ حُكْمَ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ. (الثَّانِي): أَنْ يَسْلَمَ مِنْ ضَعْفِ التَّأْلِيفِ وَهُوَ خُرُوجُهُ عَنْ قَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ كَقَوْلِهِ:

جَزَا رَبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ جَزَاءَ ٱلْكِلَابِ ٱلْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

فَإِنَّهُ خَالَفَ ٱلْقِيَاسَ فِي إِعَادَةِ ٱلضَّمِيرِ فِي (رَبّه) الى عديٍّ وَهُوَ مُتَأَخِّرٌ لَفظًا ومَعنًى. وَٱلْقَاعِدَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ أَنْ يَعُودَ ٱلضَّمِيرُ على مَا قَبْلَهُ أَوْ عَلَى مَا بَعْدَهُ لَفظًا لا معنًى. (ٱلثَّالِثُ): أَنْ يسلَمَ مِنْ تَنَافُرِ ٱلْكَلِمَةِ وَذٰلِكَ أَنْ تَكُونَ ٱلْكَلِمَةُ حَالَ ٱلْإِفْرَادِ غَيْرَ مُتَنَافِرَة فَإِذَا رُكِّبَتْ حَصَلَ ٱلتَّنَافُرُ نَحْوُ قَوْلِهِ:

وَقَبْرُ حَرْبٍ (١) بِمَكَانٍ قَفْرُ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

قِيلَ: إِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ لَا يُمكِنُ إِنْشَادُهُ فِي ٱلْغَالِبِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتَوَالِيَةٍ إِلَّا وَيَغْلَطُ ٱلْمُنْشِدُ فِيهِ لِأَنَّ نَفْسَ ٱجْتِمَاعِ ٱلْكَلامِ وَٱلْقُرْبَ فِي ٱلْمَخَارِجِ يُحْدِثَانِ ثِقَلًا. وَإِذَا كَانَ ٱلتَّنَافُرُ فِي حُرُوفِ ٱلْكَلِمَةِ فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى عَدَمِ فَصَاحَةِ ٱلْفَرْدِ وَلَا يَسْلَمُ ٱلْمُرَكَّبُ مِنَ ٱلتَّنَافُرِ مَتَى تَسْلَمُ مُفْرَدَاتُهُ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّام:

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَٱلْوَرَى مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

فَٱلتَّنَافُرُ فِيهِ مِنْ وَجْهِ تَكْرَارِ (أَمْدَحْهُ) لَا مِنْ وَجهِ أَنَّ حُرُوفَ (أَمْدَحْهُ) مُتَنَافِرَةٌ لِٱجْتِمَاعِ حَرْفَيِ ٱلْحَلْقِ. (ٱلرَّابِعُ): أَنْ يَسْلَمَ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ وَهُوَ إِيرَادُ كَلَامٍ خَفِيِّ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَاهُ وَهُوَ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ وَمِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى. فَمِنْ جِهَةِ ٱللفظ كَتَأْخِيرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَتَقْدِيمِهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا وَحُصُولِ ٱلْفَصْلِ إِذْ ذَاكَ بَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُتَلَازِمَةِ كَقَوْلِ ٱلْفَرَزْدَقِ يَمْدَحُ إِبْرَاهِيمَ خَالَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ:

---

(١) حرب اسم رجل

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا ... أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ (١)

ٱلتَّقْدِيرُ: وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ فِي ٱلشَّرَفِ إِلَّا مُمَلَّكٌ أَبُو أُمِّ ذٰلِكَ ٱلْمُمَلَّكِ أَبُو هٰذَا ٱلْمَمْدُوحِ. فَتَأَمَّلْ مَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ ٱلْمُؤْذِنِ بِٱلتَّعْقِيدِ ٱللَّفْظِيِّ . وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى فَهُوَ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ ٱلدَّلَالَةَ فِي ٱللَّفْظِ عَلَى لَازِمِ مَعْنَاهُ فِي ٱعْتِقَادِهِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ مِنْ كَلَامِ ٱلْفُصَحَاءِ كَقَوْلِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ :

سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا ... وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا (٢)

فَجَعَلَ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ كِنَايَةً عَمَّا يَلْزَمُ فِرَاقَ ٱلْأَحِبَّةِ مِنَ ٱلْكَآبَةِ وَٱلْحُزْنِ وَأَصَابَ . لٰكِنَّهُ أَخْطَأَ فِي جَعْلِ جُمُودِ ٱلْعَيْنِ كِنَايَةً عَمَّا يُوجِبُهُ دَوَامُ ٱلتَّلَاقِي مِنَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ لِٱعْتِقَادِهِ أَنَّ ٱلسُّرُورَ بِمَعْنَى ٱلْجُمُودِ. لِأَنَّ جُمُودَ ٱلْعَيْنِ عِنْدَ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا يَلْزَمُ بُخْلَهَا بِٱلدُّمُوعِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ لَا ٱلسُّرُورَ. وَٱعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ ٱلدِّينِ ٱلطِّيبِيَّ جَعَلَ بَيْتَ ٱلْعَبَّاسِ (سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ) مِنَ ٱلْمُطَابَقَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَلَيْسَ فِيهِ عِنْدَهُ تَعْقِيدٌ مَعْنَوِيٌّ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ فِي ٱلْبَيْتِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْحُزْنِ. وَٱلْجُمُودَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلسُّرُورِ فَحَصَلَتْ بَيْنَهُمَا مُطَابَقَةٌ بِهٰذَا ٱلنَّظْمِ. وَجَعَلَ ٱلتَّعْقِيدَ ٱللَّفْظِيَّ فِيمَا يَحْدُثُ مِنَ ٱلثِّقَلِ مِنْ تَوَالِي ٱلْمُضَافَاتِ وَٱلضَّمَائِرِ وَٱلصِّفَاتِ وَٱلْأَفْعَالِ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ وَتَكْرَارِ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَا جَرَى مَجْرَى

---

(١) اي ليس في الناس مثل الممدوح حيٌّ يقاربه الا ابن اخته وهو هشام المملك اي المعطى الملك

(٢) المعنى اني اطيب نفساً بالبعد والفراق واوطنها على مقاساة الحزن والتجرع غصصاً تعقبني لاحقها الدموع من عيني الى ان يأتي بعد العسر يسر

ذٰلِكَ . (اَلْخَامِسُ) اَنْ يَسْلَمَ مِنَ ٱلتَّكْرَارِ ٱلْمُوجِبِ فِي ٱلثِقلِ كتكرار ٱللَّفْظَةِ ذَاتِهَا وَتَوَالِي ٱلْإِضَافَاتِ وَٱلصِفَاتِ وَلَا يُخِلُّ بِٱلفَصَاحَةِ قَطْعًا تَكرارُ ٱللَّفْظَةِ لِلتَوْكِيدِ وَاِنَّمَا يُعَابُ قُبْحُ ٱلتَكْرَارِ بِلَا فَائِدَةٍ كَقولِ بَعْضِهِمْ :

كُنْتُ كُنْتَ كَتَمتُ ٱلسِّرَّ كُنْتُ كَمَا
كُنَّا وَكُنْتَ وَلٰكِن ذاكَ لَمْ يَكُنِ

فَجَاءَتِ ٱلْحُرُوفُ قَلِقَةً مَكْدُودَةً غَيْرَ مُتَمَكِّنَةٍ فِي مَوَاضِعِهَا . (وَتَتَابُعِ ٱلْإِضَافَاتِ) مِثْلُ قَوْلِ اَبِي فَائِدٍ :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ ٱلْجَنْدَلِ اَسْجَعِي   فَاَنْتِ بِمَرْاًى مِنْ سُعادَ وَمَسْمَعِ (١)

فَفِيهِ اِضَافَةُ حَمَامَةَ اِلَى جَرْعَا وَجَرْعَا اِلَى حَوْمَةِ وَحَوْمَةَ اِلَى ٱلْجَنْدَلِ . وَلَيْسَ هٰذَا بِفَصِيحٍ مَأْنُوسٍ

(وَتَوَالِي ٱلصِفَاتِ) ذَكَرَهُ ٱلطِّيبِيُّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحْدِثُ فِي ٱلْكَلَامِ ثِقلًا وَٱسْتَشْهَدَ عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

دَانٍ بَعِيدٌ مُحِبٌّ مُبْغِضٌ بَهِجٌ   اَغَرُّ حُلْوٌ مُمِرٌّ لَيِّنٌ شَرِسُ

---

(١) الجرعا تخفيف الجرعاء ومؤنث الاجرع وهي ارض ذات رمال لا تنبت شيئاً . والحومة معظم الشيء . والجندل ارض ذات حجارة يقول : اسجعي يا حمامة ارض قفرةٍ سبخة فان سعاد تراك وتسمعك

الفصل الثاني

في البلاغة

البحث الاوَّل

في الابانة عن حدّ البلاغة

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٩ من علم الادب)

اَلْبَلَاغَةُ كُلُّ مَا تُبَلِّغُ بِهِ ٱلْمَعْنَى قَلْبَ ٱلسَّامِعِ فَتُمَكِّنُهُ فِي نَفْسِهِ كَتَمَكُّنِهِ فِي نَفْسِكَ مَعَ صُورَةٍ مَقْبُولَةٍ وَمَعْرِضٍ حَسَنٍ . وَإِنَّمَا جَعَلْنَا حُسْنَ ٱلْمَعْرِضِ وَقَبُولَ ٱلصُّورَةِ شَرْطًا فِي ٱلْبَلَاغَةِ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَتْ عِبَارَتُهُ رَثَّةً وَمَعْرِضُهُ خَلَقًا لَمْ يُسَمَّ بَلِيغًا وَإِنْ كَانَ مَفْهُومَ ٱلْمَعْنَى مَكْشُوفَ ٱلْمَغْزَى . أَلَا تَرَى إِلَى مَعْنَى ٱلْكَاتِبِ ٱلَّذِي كَتَبَ إِلَى بَعْضِ مُعَامِلِيهِ : (قَدْ تَأَخَّرَ ٱلْأَمْرُ فِيمَا وَعَدْتَ حَمْلَهُ ضَحْوَةَ ٱلنَّهَارِ وَٱلْقَوْمُ غَيْرُ مُقِيمِينَ لَيْسَ لَهُمْ صَبْرٌ . فَإِنْ رَأَيْتَ فِي إِزَاحَةِ ٱلْعِلَّةِ مَعَ ٱلْجَهْدِ فَعَلْتَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ) . فَمَعْنَاهُ مَفْهُومٌ وَمَغْزَاهُ مَعْلُومٌ وَلَيْسَ كَلَامُهُ بِبَلِيغٍ فَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِنْ شَرْطِ ٱلْبَلَاغَةِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَى مَفْهُومًا وَٱللَّفْظُ مَقْبُولًا عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ . وَمَنْ قَالَ إِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِنَّمَا هِيَ إِفْهَامُ ٱلْمَعْنَى فَقَطْ فَقَدْ جَعَلَ ٱلْفَصَاحَةَ وَٱللُّكْنَةَ وَٱلْخَطَأَ وَٱلصَّوَابَ وَٱلْإِغْلَاقَ

وَٱلإبَانَةَ سَوَاءٌ . وَايضاً فلو كَانَ ٱلكَلامُ ٱلوَاضِحُ ٱلسَّهلُ وَٱلقريبُ ٱلسَّلِسُ ٱلحُلوُ بَلِيغاً وَمَا خَالَفَهُ مِنَ ٱلكَلامِ ٱلمُستبهِمِ ٱلمُستغلَقِ وَٱلمُتَكَلِّفِ ٱلمُتعقِّدِ ايضاً بَلِيغاً لَكَانَ كُلُّ ذٰلِكَ مَحْمُوداً وَمَمدوحاً مَقْبُولاً لِانَّ ٱلبَلاغَةَ اسمٌ يُمدَحُ بِهِ ٱلكَلامُ . فَلَمَّا رَأَينَا احدهُما مُستحسَناً وَٱلآخرَ مُستهجَناً عَلِمنَا انَّ ٱلَّذِي يُستحسَنُ هو ٱلبَلِيغُ وَٱلذِي يُستهجَنُ لَيسَ بِبَلِيغٍ . وَقَالَ ٱلعَتَابِيُّ : كُلُّ مَنْ افهمكَ حَاجَتَهُ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَإِنَّمَا عَنَى انَّ مَنْ افهمكَ حَاجَتَهُ بِٱلأَلفَاظِ ٱلحَسَنَةِ وَٱلعبَارَةِ ٱلنَّيِّرَةِ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَلَوْ حَمَلْنَا هٰذَا ٱلكَلامَ عَلَى ظَاهِرِهِ للَزِمَ ان يَكُونَ ٱلأَلكَنُ بَلِيغاً لِانَّهُ يُفهِمُنَا حَاجَتَهُ بَلْ يَلزَمُ ان يَكُونَ كُلُّ ٱلنَّاسِ بُلَغَاءَ حَتَّى ٱلأَطفَالُ لِانَّ كُلَّ احدٍ لَا يَعدَمُ ان يَدُلَّ عَلَى غَرَضِهِ بِعُجْمَتِهِ وَلُكْنَتِهِ وَإِيمَائِهِ وَإِشَارَتِهِ بَلْ لَزِمَ انْ يَكُونَ ٱلسِّنَّورُ بَلِيغاً لِانَّا نَستَدِلُّ بِضُغَائِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ إِرَادَتِهِ وَهٰذَا ظَاهِرُ ٱلإِحَالَةِ . وَنَحْنُ نَفهَمُ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ وَجَمجَمَةَ ٱلأَعْجَمِيِّ لِلعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ لَنَا فِي سَمَاعِهَا لَا لِانَّ تِلكَ بَلاغَةٌ . الَا تَرَى انَّ ٱلأَعرَابِيَّ إِنْ سَمِعَ ذٰلِكَ لَمْ يَفهَمْهُ إِذْ لَا عَادَةَ لَهُ بِسَمَاعِهِ . وَارَادَ رَجُلٌ انْ يَسأَلَ بَعضَ ٱلأَعرَابِ عَنْ اهلِهِ فَقَالَ : كَيفَ اهلِكَ (بِٱلكَسرِ) . فَقَالَ لَهُ ٱلأَعرَابِيُّ : صَلباً . إِذْ لَمْ يَشُكَّ انَّهُ إِنَّمَا يَسأَلُهُ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي يَهلِكُ بِهِ . وَسَمِعَ أَعرَابِيٌّ قَصِيدَةَ أَبِي تَمَّامٍ فِي خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ :

طَلَلَ ٱلجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا

فَقَالَ : إِنَّ فِي هٰذِهِ ٱلقَصِيدَةِ أَشيَاءَ أَفهَمُهَا وَأَشيَاءَ لَا افهمُهَا

فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَائِلُهَا أَشْعَرَ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ٱلنَّاسِ أَشْعَرَ مِنْهُ. وَنَحْنُ نَفْهَمُ مَعَانِيَ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ بِأَسْرِهَا لِعَادَتِنَا لِسَمَاعِ مِثْلِهَا لَا لِأَنَّا أَعْرَفُ بِٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ. وَمِمَّا يُؤَيِّدُ مَا قُلْنَا مِنْ أَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِنَّمَا هِيَ إِيضَاحُ ٱلْمَعْنَى وَتَحْسِينُ ٱللَّفْظِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلْحُكَمَاءِ: ٱلْبَلَاغَةُ تَصْحِيحُ ٱلْأَقْسَامِ وَٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ ٱلْحَنَفِيَّةِ: ٱلْبَلَاغَةُ قَوْلٌ يَضْطَرُّ ٱلْعُقُولَ إِلَى فَهْمِهِ بِأَسْهَلِ ٱلْعِبَارَةِ. فَقَوْلُهُ: (يَضْطَرُّ ٱلْعُقُولَ إِلَى فَهْمِهِ) عِبَارَةٌ عَنْ إِيضَاحِ ٱلْمَعْنَى. وَقَوْلُهُ: (بِأَسْهَلِ ٱلْعِبَارَةِ) تَنْبِيهٌ عَلَى تَسْلِيسِ ٱللَّفْظِ وَتَرْكِ تَنْقِيحِهِ

البحث الثاني

اقوال في تحديد البلاغة

(ملخَّص عن زهر الاداب للحصري وكتاب الصناعتين للعسكري)

قَالَ أَعْرَابِيٌّ: ٱلْبَلَاغَةُ ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْبَعِيدِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنَ ٱلْكُلْفَةِ وَٱلدَّلَالَةُ بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ. قَالَ عَبْدُ ٱلْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى: ٱلْبَلَاغَةُ تَقْرِيرُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْأَفْهَامِ مِنْ أَقْرَبِ وُجُوهِ ٱلْكَلَامِ. قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ: ٱلْبَلَاغَةُ ٱلْبُلُوغُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَلَمْ يَطُلْ سَفَرُ ٱلْكَلَامِ. قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ: ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْعُقُولِ وَرَوْضُ ٱلْقُلُوبِ. وَقَالَ أَيْضًا: ٱلْعَقْلُ رَائِدُ ٱلرُّوحِ وَٱلْعِلْمُ رَائِدُ ٱلْعَقْلِ وَٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْعِلْمِ. قَالَ إِبْرٰهِيمُ ٱلْإِمَامُ: يَكْفِي مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ أَنْ لَا يُؤْتَى ٱلسَّامِعُ مِنْ سُوءِ فَهْمِ ٱلنَّاطِقِ وَلَا يُؤْتَى ٱلنَّاطِقُ مِنْ سُوءِ فَهْمِ ٱلسَّامِعِ. قَالَ ٱلْعَتَّابِيُّ: ٱلْبَلَاغَةُ مَدُّ

ٱلْكَلَامِ بِمَعَانِيهِ اذا قَصُرَ وحُسْنُ ٱلتَّأْلِيفِ اِذَا طَالَ . قَالَ اعرابيٌّ : ٱلْبَلَاغَةُ اِيجَازٌ فِي غَيْرِ عَجْزٍ وَاِطْنَابٌ فِي غَيْرِ خَطَلٍ . وَقَدْ قِيلَ لِلْيُونَانِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَصْحِيحُ ٱلْاقْسَامِ وَٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ . وقِيلَ لِلرُّومِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : حُسْنُ ٱلِاقْتِضَابِ عِنْدَ ٱلْبَدَاهَةِ وَٱلْغَزَارَةُ يَوْمَ ٱلْإِطَالَةِ . وَقِيلَ لِلْهِنْدِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : وُضُوحُ ٱلدَّلَالَةِ وَٱنْتِهَازُ ٱلْفُرْصَةِ وَحُسْنُ ٱلْاِشَارَةِ . وَقِيلَ لِلْفَارِسِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : مَعْرِفَةُ ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلْوَصْلِ . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى ٱلرُّمَّانِيُّ : ٱلْبَلَاغَةُ ايصالُ ٱلْمَعْنَى اِلَى ٱلْقَلْبِ فِي حُسْنِ صُورَةٍ مِنَ ٱللَّفْظِ . وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنِ ٱلْبَلَاغَةِ قَالَ : ابْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَسُنَ اِيجَازُه . وقَلَّ مَجَازُهُ . وكَثُرَ اِعْجَازُهُ . وَتَنَاسَبَتْ صُدُورُهُ وَاعْجَازُهُ . وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ خَالِدٍ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ وَٱلدَّلَالَةُ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْكَثِيرِ . وَقِيلَ لِآخَرَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَطْوِيلُ ٱلْقَصِيرِ وتَقْصِيرُ ٱلطَّوِيلِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : حذفُ ٱلْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ ٱلْبَعِيدِ وَحُسْنُ ٱلْاسْتِعَارَةِ . وَقِيلَ لِجَالِينُوسَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : اِيضَاحُ ٱلْمُعْضِلِ وَفَكُّ ٱلْمُشْكِلِ . وقِيلَ لِلْخَلِيلِ بْنِ احمد : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : مَا قَرُبَ طَرَفَاهُ وَبَعُدَ مُنْتَهَاهُ . وقِيلَ لِخَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : اِصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وَٱلْقَصْدُ اِلَى ٱلْحُجَّةِ . وقِيلَ لِآخَرَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَصْوِيرُ ٱلْحَقِّ فِي صُورَةِ ٱلْبَاطِلِ وتَصْوِيرُ ٱلْبَاطِلِ فِي صُورَةِ ٱلْحَقِّ (١) . وَقِيلَ لِإِبْرٰهِيمَ ٱلْإِمَامِ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : ٱلْجَزَالَةُ وَٱلْإِصَابَةُ

---

(١) لا يجوز ذلك الا على طريقة المناظرة في الامور تقاة سمح وادم

قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ حَسَّان: لَمْ يُفَسِّرْ احَدٌ ٱلْبَلَاغَةَ تَفْسِيرَ ٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ اذْ قَالَ: ٱلْبَلَاغَةُ لِمَعَانٍ تَجْرِي فِي وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ: فَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلاشَارَةِ. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلْحَدِيثِ. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلِاسْتِمَاعِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلِاحْتِجَاجِ. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ شِعْرًا. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱبْتِدَاءً. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ جَوَابًا. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ سَجْعًا. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ خُطَبًا. وَمِنْهَا رُبَّمَا كَانَتْ رَسَائِلَ. فَعَايَةُ (١) هٰذِهِ ٱلْأَبْوَابِ ٱلْوَحْيُ فِيهَا وَٱلْإِشَارَةُ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱبْلَغُ وَٱلْإِيجَازُ هُوَ ٱلْبَلَاغَةُ. فَٱلسُّكُوتُ يُسَمَّى بَلَاغَةً مَجَازًا وَهُوَ فِي حَالَةٍ لَا يَنْجَعُ فِيهَا ٱلْقَوْلُ وَلَا يَنْفَعُ فِيهَا إِقَامَةُ ٱلْحُجَجِ إِمَّا عِنْدَ جَاهِلٍ لَا يَفْهَمُ ٱلْخِطَابَ اوْ عِنْدَ وَضِيعٍ لَا يَرْهَبُ ٱلْجَوَابَ. اوْ ظَالِمٍ سَلِيطٍ يَحْكُمُ بِٱلْهَوَى وَلَا يَرْتَدِعُ بِكَلِمَةِ ٱلتَّقْوَى وَاذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ يُعْرَى مِنَ ٱلْخَيْرِ اوْ يَجْلِبُ ٱلشَّرَّ فَٱلسُّكُوتُ اوْلَى كَمَا قَالَ ابُو ٱلْعَتَاهِيَةِ:

مَا كُلُّ نُطْقٍ لَهُ جَوَابٌ   جَوَابُ مَا يُكْرَهُ ٱلسُّكُوتُ

وَرُبَّمَا كَانَ صَمْتُكَ فِي حَالٍ ارْفَقَ مِنْ كَلَامِكَ وَلَهُ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ قَوْلُهُمْ: كُلُّ صَامِتٍ نَاطِقٌ مِنْ جِهَةِ ٱلدَّلَالَةِ. وَذٰلِكَ انَّ دَلَائِلَ ٱلصَّنْعَةِ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ وَاضِحَةٌ. وَٱلْمَوْعِظَةَ فِيهَا قَائِمَةٌ. وَقَدْ قَالَ ٱلرَّقَاشِيُّ: سَلِ ٱلْأَرْضَ مَنْ شَقَّ انْهَارَكِ وَغَرَسَ اشْجَارَكِ وَجَنَى ثِمَارَكِ. فَانْ لَمْ تُجِبْكَ حِوَارًا اجَابَتْكَ ٱعْتِبَارًا. وَقَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ: (رُبَّمَا كَانَتِ ٱلْبَلَاغَةُ بِٱلِاسْتِمَاعِ) فَلِأَنَّ ٱلْمُخَاطَبَ اذَا لَمْ يُحْسِنِ ٱلِاسْتِمَاعَ لَمْ

---

(١) وفي نسخة: غاية

يقف على المعنى المؤدي الى الخطاب. فالاستماع الحسن عون للبليغ على افهام المعنى

وقد جاء للبلاغة تعريفات اخر منها قول بعض حكماء الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواقع الفرصة ومن البصر بالحجة ان تدع الافصاح بها الى الكناية عنها اذا كان طريق الافصاح وعرًا وكانت الكناية احضر نفعا. قال آخر: ابلغ الكلام ما يؤنس مسمعه. ويؤيس مصنعه. والبليغ من يجتني من الالفاظ انوارها. ومن المعاني ثمارها. ليست البلاغة ان يطال عنان القلم او سنانه. او يبسط رهان القول وميدانه. بل هي ان يبلغ اسد المراد بالفاظ اعيان ومعان افراد من حيث لا تزيد على الحاجة ولا اخلال يفضي الى الفاقة. وصف بعضهم البلاغة قال: هي ميدان لا يقطع الا بسوابق الاذهان. ولا يسلك الا ببصائر البيان. يعث صاحبها بالكلام. ويقوده بالين زمام. حتى كان الالفاظ تتحاسد في التسابق الى خواطره والمعاني تتغاير في الانثيال على اناملِه كقول [illegible] الطائي:

تغاير الشعر فيه اذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتتل

وقيل في بليغ: فلان مشرقي المشرق. و[illegible] في [illegible]. البيان اصغر صفاته. والبلاغة عفو خطراته. كانه اوحي بالتوفيق الى صدره. وحسن الصواب بين طبعه وفكره. يحز مفاصل الكلام. ويسبق فيها الى درك المرام. كان جامع الكلام حوله حتى ينتقي منه وانتخب. وتناول منه ما طاب. وترك بعد ذلك [illegible] [illegible]

وَاَجسَادًا لَا نُفوسًا . وَقِيلَ فِي آخَرَ : يَرْضَى بِعَفوِ ٱلطَّبعِ . وَيَقْنَعُ بِمَا خَفَّ عَلَى ٱلسَّمْعِ . وَيُوجِزُ فَلَا يُخِلُّ . وَيُطْنِبُ فَلَا يُمِلُّ . فَلِلّهِ فُلَانٌ اَخَذَ بِاَزِمَّةِ ٱلقَوْلِ يَقُودُهَا كَيْفَ اَرَادَ وَيَجْذِبُهَا اَنَّى شَاءَ فَلَا تَعْصِيهِ بَيْنَ ٱلصَّعبِ وَٱلذَّلُولِ . وَلَا تُسْلِمُهُ عِنْدَ ٱلحُزُونِ وَٱلسُّهُولِ . كَلَامُهُ يَشْتَدُّ مَرَّةً حَتَّى تَقُولَ : ٱلصَّخْرُ ٱلْاَمْلَسُ . وَيَلِينُ تَارَةً حَتَّى تَقُولَ : ٱلمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ . يَقُولُ : فَيَصُولُ . وَيُجِيبُ . فَيُصِيبُ . وَيَكْتُبُ فَيُطَبِّقُ ٱلْمَفصِلَ . وَيَنْسُقُ ٱلدُّرَّ ٱلْمُفَصَّلَ . وَيَرِدُ مَشَارِعَ ٱلكَلَامِ وَهِيَ صَافِيَةٌ لَمْ تُطْرَقْ . وَجَامَّةٌ لَمْ تُرْتَقْ . خَاطِرُهُ ٱلبَرْقُ اَوْ اَسْرَعُ لَمعًا . وَٱلسَّيفُ اَوْ اَحَدُّ قَطْعًا . وَٱلمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ جَرْيًا . وَٱلفَلَكُ اَو اَقوَمُ هَدْيًا . يَسْهُلُ ٱلكَلَامُ عَلَى لَفظِهِ وَتَتَزَاحَمُ ٱلمَعَانِي عَلَى طَبْعِهِ فَيَتَنَاوَلُ ٱلمَرْمَى ٱلبَعِيدَ بِقَرِيبِ سَعْيِهِ . وَيَسْتَنْبِطُ ٱلمَشْرَعَ ٱلعَمِيقَ بِيَسِيرِ جَرْيِهِ . لِسَانُهُ يَفْلُقُ ٱلصُّخُورَ . وَيُغِيضُ ٱلبُحُورَ . خَطِيبٌ لَا تَنَالُهُ حُبْسَةٌ وَلَا تَرْتَهِنُهُ لُكْنَةٌ وَلَا تَتَحَيَّفُ بَيَانَهُ عُجْمَةٌ وَلَا تَعتَرِضُ لِسَانَهُ عُقْدَةٌ يُحْسِنُ ٱلسِّفَارَةَ . وَيَسْتَرْفِي ٱلعِبَارَةَ . وَيُؤَدِّي ٱلاَلفَاظَ . وَيَسْتَغرِقُ ٱلاَغْرَاضَ . قَالَ حَتَّى قَالَ ٱلكَلَامُ : لَوْ اَعفَيْتَ . وَكَتَبَ حَتَّى قَالَتِ ٱلاَقلَامُ : قَدْ اَحْفَيْتَ

البحث الثالث

في أوصاف البلاغات على السنة اقوام من اهل البلاغات

(عن زهر الآداب للقيرواني)

قَالَ بَعْضٌ مِنْ وُلْدِ عَقَائِلِ هٰذَا ٱلمَنْثُورِ . وَاَلِفِ فَوَاصِلِ هٰذِهِ

ٱلشُّذُورِ: تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنْ اَهْلِ ٱلصِّنَاعَاتِ فَوَصَفُوا بَلَاغَاتِهِمْ مِنْ طَرِيقِ صِنَاعَاتِهِمْ . (فَقَالَ ٱلْجَوْهَرِيُّ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ نِظَامًا مَا نَقَبَتْهُ يَدُ ٱلْفِكْرَةِ وَنَظَمَتْهُ ٱلْفِطْنَةُ وَوُصِلَ جَوْهَرُ مَعَانِيهِ فِي سُمُوطِ اَلْفَاظِهِ فَٱحْتَمَلَتْهُ نُحُورُ ٱلرُّوَاةِ . (وَقَالَ ٱلْعَطَّارُ): اَطْيَبُ ٱلْكَلَامِ مَا عُجِنَ عَنْبَرُ اَلْفَاظِهِ بِمِسْكِ مَعَانِيهِ فَفَاحَ نَسِيمُ نَشْقِهِ . وَسَطَعَتْ رَائِحَةُ عَبَقِهِ . فَتَعَاقَتْ بِهِ ٱلرُّوَاةُ. وَتَعَطَّرَتْ بِهِ ٱلسُّرَاةُ .(وَقَالَ ٱلصَّائِغُ): خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اَحْمَيْتَهُ بِكِيرِ ٱلْفِكْرِ. وَسَبَكْتَهُ بِمَشَاعِلِ ٱلنَّظَرِ. وَخَلَّصْتَهُ مِنْ خَبَثِ ٱلْإِطْنَابِ فَبَرَزَ بُرُوزَ ٱلْإِبْرِيزِ. فِي مَعْنًى وَجِيزٍ. (وَقَالَ ٱلصَّيْرَفِيُّ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا نَقَدَتْهُ يَدُ ٱلْبَصِيرَةِ وَجَلَتْهُ عَيْنُ ٱلرَّوِيَّةِ وَوَزَنْتَهُ بِمِعْيَارِ ٱلْفَصَاحَةِ فَلَا نَظَرَ يُزَيِّفُهُ وَلَا سَمَاعَ يُبَهْرِجُهُ . (وَقَالَ ٱلْحَدَّادُ): اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا نَصَبْتَ عَلَيْهِ مِنْفَخَةَ ٱلْقَرِيحَةِ وَاَشْعَلْتَ عَلَيْهِ نَارَ ٱلْبَصِيرَةِ ثُمَّ اَخْرَجْتَهُ مِنْ فَحْمِ ٱلْإِفْحَامِ . وَرَقَّقْتَهُ بِفِطِّيسِ ٱلْإِفْهَامِ . (وَقَالَ ٱلنَّجَّارُ): خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اَحْكَمْتَ نَجْرَ مَعْنَاهُ بِقَدُومِ ٱلتَّقْدِيرِ. وَنَشَرْتَهُ بِمِنْشَارِ ٱلتَّدْبِيرِ . فَصَارَ بَابًا لِبَيْتِ ٱلْبَيَانِ . وَعَارِضَةً لِسَقْفِ ٱللِّسَانِ . (وَقَالَ ٱلنَّجَّادُ): اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَطُفَتْ رِقَافُ اَلْفَاظِهِ وَحَسُنَتْ مَطَارِحُ مَعَانِيهِ فَتَنَزَّهَتْ فِي زَرَابِيِّ مَحَاسِنِهِ عُيُونُ ٱلنَّاظِرِينَ . وَاَصَاخَتْ لِنَمَارِقِ بَهْجَتِهِ آذَانُ ٱلسَّامِعِينَ . (وَقَالَ ٱلْمَاتِحُ) : اَبْيَنُ ٱلْكَلَامِ مَا عَلَّقْتَ وَذَمَ اَلْفَاظِهِ بِبَكَرَةِ مَعَانِيهِ ثُمَّ اَرْسَلْتَهُ فِي قَلِيبِ ٱلْفِطَنِ رِيًّا فَٱمْتَتَحْتَ بِهِ سِقَاءً يَكْشِفُ ٱلشُّبُهَاتِ . وَٱسْتَنْبَطْتَ بِهِ مَعْنًى يُرْوِي مِنْ ظَمَإِ ٱلْمُشْكِلَاتِ . (وَقَالَ ٱلْخَيَّاطُ): ٱلْبَلَاغَةُ رِدَاءٌ فَجُرُبَّانُهُ ٱلْبَيَانُ

وَجِيبَهُ ٱلمعرفةُ وكُدَّاهُ ٱلْوَجَازَةَ ودخاريصهُ ٱلْافْهام وَدُرُوزُه ٱلحلاوة ولابسه جسد ٱللفظِ وروحُ ٱلمعنى. (وَقَالَ ٱلصَّباغُ): احسنُ ٱلكلامِ ما لم تنضُ بهجةَ إيجازهِ. ولَمْ تكشفْ صبغةُ إعجازهِ. قد صقلَتْهُ يدُ ٱلرّوِيّةِ مِن كمودِ ٱلاشكالِ فراعَ كواعبَ ٱلآدابِ. وألفَ عذارى ٱلألبابِ. (وقالَ ٱلحائكُ): احسنُ ٱلكلامِ ما اتّصلَتْ لُحْمَةُ ٱلفاظِهِ بِسَدَى معانِيهِ فخرجَ مُفَوَّفًا مُنَيَّرًا وموشّى مُحَبَّرًا. (وقالَ ٱلبَزّازُ): احسنُ ٱلكلامِ ما صدقَ رقمُ ٱلفاظِهِ وحسنَ نشرُ معانيهِ فلمْ يستعجمْ عنكَ نشرٌ ولمْ يستبهمْ عليكَ طيٌّ. (وقالَ ٱلرّائضُ): خيرُ ٱلكلامِ ما لمْ يخرجْ عنْ حدِّ ٱلتّخليعِ إلى منزلةِ ٱلتّقريبِ إلّا بعدَ ٱلرّياضةِ وكانَ كالمهرِ ٱلّذي اطمعَ اوّلُ رياضتِهِ في تمامِ ثقافتِهِ. (وقالَ ٱلجمّالُ): ٱلبليغُ مَنْ اخذَ بخطامِ كلامِهِ فاناخهُ في مبركِ ٱلمعنى ثمّ جعلَ ٱلاختصارَ لهُ عِقالًا. وٱلإيجازَ لهُ مجالًا. فلمْ يندَّ عنِ ٱلآذانِ. ولمْ يشذَّ عنِ ٱلأذهانِ. (وقالَ ٱلخمّارُ): ابلغُ ٱلكلامِ ما طبختْهُ مراجلُ ٱلعلمِ وصفّاهُ راووقُ ٱلفهمِ وضمّنتْهُ دِنانُ ٱلحكمةِ فتمشّتْ في ٱلمفاصلِ عذوبتُهُ وفي ٱلأفكارِ دقّتُهُ وفي ٱلعقولِ حدّتُهُ. (وقالَ ٱلفقّاعيُّ): خيرُ ٱلكلامِ ما روّحتْ ٱلفاظُهُ غباوةَ ٱلشّكِّ ودفعتْ دقّتُهُ فظاظةَ ٱلجهلِ فطابَ جشاءُ تِطَبُّهِ وعذبَ مصُّ جرعِهِ. (وقالَ ٱلطّبيبُ): خيرُ ٱلكلامِ ما إذا باشرَ دواءُ بيانِهِ سقمَ ٱلشّبهةِ استطلقتْ طبيعةُ ٱلغباوةِ فشفى مِنْ سوءِ ٱلتّفهّمِ واورثَ صحّةَ ٱلتّوهّمِ. (قالَ ٱلكحّالُ): كما انَّ ٱلرّمدَ قذى ٱلأبصارِ فالشّبهةُ قذى ٱلبصائرِ

فَاكْحَلْ عَيْنَ اللُّكْنَةِ بِمِيلِ الْبَلَاغَةِ وَاجْلُ رَمَصَ الْغَفْلَةِ بِمِرْوَدِ الْيَقْظَةِ.
(ثُمَّ قَالَ): اجْمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ أَبْلَغَ الْكَلَامِ مَا إِذَا أَشْرَقَتْ
شَمْسُهُ انْكَشَفَ لَبْسُهُ وَإِذَا صَدَقَتْ أَنْوَاؤُهُ اخْضَرَّتْ أَحْمَاؤُهُ

الفصل الثالث

في المعاني

البحث الاوّل

في حقيقة المعاني

(عن كشّاف اصطلاحات الفنون بتصرّف)

(راجع صفحة ١٠ من علم الادب)

اَلْمَعْنَى لُغَةً الْمَقْصُودُ وَفِي الْاِصْطِلَاحِ هُوَ الصُّورَةُ الذِّهْنِيَّةُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهَا اللَّفْظُ أَيْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تُقْصَدُ مِنْهُ. وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْوَضْعِ فَإِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُفْرَدٍ يُسَمَّى مَعْنًى مُفْرَدًا. وَإِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ سُمِّيَ مَعْنًى مُرَكَّبًا. فَالْإِفْرَادُ وَالتَّرْكِيبُ صِفَتَانِ لِلْأَلْفَاظِ حَقِيقَةً وَيُوصَفُ بِهِمَا الْمَعَانِي تَبَعًا. وَعِلْمُ الْمَعَانِي عِلْمٌ يُحْتَرَزُ بِهِ عَنِ الْخَطَإِ فِي تَأْدِيَةِ الْمُرَادِ وَتُعْرَفُ أَحْوَالُ اللَّفْظِ الْعَرَبِيِّ الَّتِي بِهَا يُطَابِقُ اللَّفْظُ مُقْتَضَى الْحَالِ وَهُوَ مِنْ أُصُولِ الْعُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ يَبْحَثُ عَنِ الْمُرَكَّبَاتِ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِاعْتِبَارِ إِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ زَائِدَةٍ عَلَى أَصْلِ الْمَعْنَى. قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَعَانِي: الْكَلَامُ الَّذِي يُوصَفُ

بِالْبَلَاغَةِ هُوَ ٱلَّذِي يَدُلُّ بِلَفْظِهِ عَلَى مَعْنَاهُ ٱللُّغَوِيِّ اَوِ ٱلْعُرْفِيِّ اَوِ ٱلشَّرْعِيِّ . ثُمَّ تَجِدُ لِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى دَلَالَةً ثَانِيَةً عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ ٱلَّذِي يُرِيدُ ٱلْمُتَكَلِّمُ اِثْبَاتَهُ اَوْ نَفْيَهُ فَهُنَاكَ اَلْفَاظٌ وَمَعَانٍ اُوَلٌ وَمَعَانٍ ثَوَانٍ . فَٱلْمَعَانِي ٱلْاُوَلُ هِيَ مَدْلُولَاتُ ٱلتَّرَاكِيبِ وَٱلْاَلْفَاظِ ٱلَّتِي تُسَمَّى فِي عِلْمِ ٱلنَّحْوِ اَصْلَ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْمَعَانِي ٱلثَّوَانِي ٱلْاَغْرَاضُ ٱلَّتِي يُسَاقُ لَهَا ٱلْكَلَامُ . وَلِذَا قِيلَ : مُقْتَضَى ٱلْحَالِ هُوَ ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي . كَرَدِّ ٱلْاِنْكَارِ وَدَفْعِ ٱلشَّكِّ مَثَلًا اِذَا قُلْنَا : اِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ هُوَ ٱلْقِيَامُ ٱلْمُؤَكَّدُ وَٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي رَدُّ ٱلْاِنْكَارِ وَدَفْعُ ٱلشَّكِّ . وَاِذَا قُلْنَا : هُوَ اَسَدٌ فِي صُورَةِ ٱلْاِنْسَانِ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ هُوَ مَدْلُولُ هٰذَا ٱلْكَلَامِ وَٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي هُوَ اَنَّهُ شُجَاعٌ . فَٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي هُوَ ٱلَّذِي يُرَادُ اِيرَادُهُ فِي ٱلطُّرُقِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ وَٱلْمَفْهُومُ مِنْ تِلْكَ ٱلطُّرُقِ هُوَ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ . وَتَسْمِيَتُهُ بِٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي لِكَوْنِ ٱللَّفْظِ دَالًّا عَلَيْهِ بِوَاسِطَةِ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ . فَدَلَالَةُ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ عَلَى ٱلثَّانِي عَقْلِيَّةٌ قَطْعًا وَاَمَّا دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ فَقَدْ تَكُونُ وَضْعِيَّةً وَقَدْ تَكُونُ عَقْلِيَّةً . وَقَدْ تُسَمَّى ٱلْمَعَانِي ٱلْاُوَلُ بِٱلْخُصُوصِيَّاتِ وَٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلزَّائِدَةِ عَلَى اَصْلِ ٱلْمَعْنَى وَبِٱلصُّوَرِ وَٱلْخَوَاصِّ وَٱلْمَزَايَا مَجَازًا . ثُمَّ اِنَّهُمْ سَمَّوْا تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي ٱلْاُوَلِ وَكَذَا ٱلْمَعَانِيَ ٱلْاُوَلَ اَلْفَاظًا . وَفَضِيلَةَ ٱلْكَلَامِ بِاعْتِبَارِ هٰذَا ٱلتَّرْتِيبِ لِكَوْنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ مَحَلَّ ٱلْفَضِيلَةِ لِاَنَّ تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي ٱلْاَصْلِيَّةِ فِي ٱلنَّفْسِ ثُمَّ تَرْتِيبَ ٱلْاَلْفَاظِ فِي ٱلنُّطْقِ عَلَى حَذْوِهَا عَلَى وَجْهٍ يَنْتَقِلُ مِنْهَا ٱلذِّهْنُ بِتَوَسُّلِهَا اِلَى ٱلْخَوَاصِّ فِي ٱلْاِفَادَةِ بِلَا اِخْلَالٍ وَلَا تَعْقِيدٍ هُوَ

ٱلبلاغةُ.فيكونُ ترتيبُ ٱلمعاني ٱلأولِ على ٱلوجهِ ٱلمخصوصِ منشأَ ٱلفضيلةِ ومناطَ ٱلبراعةِ بلا شكٍّ . قالَ ٱلشيخُ : ولما كانت ٱلمعاني تتبيّنُ بٱلألفاظِ ولم يكنْ لترتيبِ ٱلمعاني سبيلٌ إلّا بترتيبِ ٱلالفاظِ في ٱلنطقِ تجوّزوا فعبّروا عن ترتيبِ ٱلمعاني بترتيبِ ٱلألفاظِ ثمّ بٱلألفاظِ بحذفِ ٱلترتيبِ . وإذا وضعوا ٱللفظَ بما يدلُّ على تفخيمه كانَ يقالَ ٱلبلاغةُ راجعةٌ إلى ٱللفظِ.اوْ هوَ محلُّ ٱلفضيلةِ ٱلتي بها يستحقُّ ٱلإتّصافَ بٱلفصاحةِ ونحوِها لمْ يريدوا ٱللفظَ ٱلمنطوقَ ولكنْ ارادوا معنى ٱللفظِ ٱلذي دلَّ على ٱلمعنى ٱلثاني

البحث الثاني

في صحّة المعاني

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ١٠ و ١١ من علم الادب)

امّا صحّةُ ٱلمعاني فتكونُ مِنْ ثلاثةِ اوجهٍ : (احدها) إيضاحُ تفسيرِها حتّى لا تكونَ مشكلةً ولا مجملةً . (وٱلثاني) ٱستيفاءُ تقسيمِها حتّى لا يدخلَ فيها ما ليسَ منها ولا يخرجَ عنها ما هوَ فيها . (وٱلثالثُ) صحّةُ مقابلاتها . وٱلمقابلةُ تكونُ مِنْ وجهينِ : (احدهما) مقابلةُ ٱلمعنى بما يوافقُهُ وحقيقةُ هذهِ ٱلمقاربةِ لانَّ ٱلمعاني تصيرُ متشاكلةً . وٱلثاني مقابلتُهُ بما يضادُّهُ وهوَ حقيقةُ ٱلمقابلةِ.وليسَ للمقابلةِ إلّا احدُ هذينِ ٱلوجهينِ : ٱلموافقةُ في ٱلإئتلافِ وٱلمضادّةُ مع ٱلإختلافِ . فامّا فصاحةُ

ٱلْأَلْفَاظِ فَتَكُونُ بِثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : (أَحَدُهَا) مُجَانَبَةُ ٱلْغَرِيبِ ٱلْوَحْشِيِّ حَتَّى لَا يَمُجَّهُ سَمْعٌ وَلَا يَنْفِرَ مِنْهُ طَبْعٌ . (وَٱلثَّانِي) تَنَكُّبُ ٱللَّفْظِ ٱلْمُبْتَذَلِ وَٱلْعُدُولُ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَرْذَلِ حَتَّى لَا يَسْتَسْقِطَهُ خَاصِّيٌّ وَلَا يَنْبُوَ عَنْهُ فَهْمُ عَامِّيٍّ كَمَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ فِي كِتَابِ ٱلْبَيَانِ : أَمَّا أَنَا فَلَمْ أَرَ قَوْمًا أَمْثَلَ طَرِيقَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ مِنَ ٱلْكُتَّابِ وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ قَدِ ٱلْتَمَسُوا مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ مَا لَمْ يَكُنْ مُتَوَعِّرًا وَحْشِيًّا وَلَا سَاقِطًا عَامِّيًّا . (وَٱلثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا مُنَاسَبَةٌ وَمُطَابَقَةٌ . أَمَّا ٱلْمُطَابَقَةُ فَهِيَ أَنْ تَكُونَ ٱلْأَلْفَاظُ كَٱلْقَوَالِبِ لِمَعَانِيهَا فَلَا تَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا تَنْقُصُ عَنْهَا . وَقَالَ بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ فِي وَصِيَّتِهِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ : إِذَا لَمْ تَجِدِ ٱللَّفْظَةَ وَاقِعَةً مَوْقِعَهَا وَلَا صَائِرَةً إِلَى مُسْتَقَرِّهَا وَلَا حَالَّةً فِي مَرْكَزِهَا بَلْ وَجَدْتَهَا قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا نَافِرَةً عَنْ مَوْضِعِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى ٱلْقَرَارِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرْضَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَوْزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ ٱخْتِيَارَ ٱلْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِتَرْكِ ذٰلِكَ أَحَدٌ وَإِذَا أَنْتَ تَكَلَّفْتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا فِيهِمَا عَابَكَ مَنْ أَنْتَ أَقَلُّ عَيْبًا مِنْهُ وَأَزْرَى عَلَيْكَ مَنْ أَنْتَ فَوْقَهُ . وَأَمَّا ٱلْمُنَاسَبَةُ فَهِيَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَى يَلِيقُ بِبَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ إِمَّا لِعُرْفٍ مُسْتَعْمَلٍ أَوْ لِٱتِّفَاقٍ مُسْتَحْسَنٍ حَتَّى إِذَا ذُكِرَتْ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي بِغَيْرِ تِلْكَ ٱلْأَلْفَاظِ كَانَتْ نَافِرَةً عَنْهَا وَإِنْ كَانَتْ أَفْصَحَ وَأَوْضَحَ لِٱعْتِيَادِ مَا سِوَاهَا . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : لَا يَكُونُ ٱلْبَلِيغُ بَلِيغًا حَتَّى يَكُونَ مَعْنَى كَلَامِهِ أَسْبَقَ إِلَى فَهْمِكَ مِنْ لَفْظِهِ إِلَى سَمْعِكَ . وَأَمَّا مُعَاطَاةُ ٱلْإِعْرَابِ وَتَجَنُّبُ ٱللَّحْنِ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ

صِفَاتِ ٱلصَّوَابِ . وَٱلْبَلَاغَةُ أَعْلَى مِنْهُ رُتْبَةً وَأَشْرَفُ مَنْزِلَةً وَلَيْسَ لِمَنْ لَحَنَ فِي كَلَامِهِ مَدْخَلٌ فِي ٱلْأُدَبَاءِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي عِدَادِ ٱلْبُلَغَاءِ

البحث الثالث

في انواع المعاني

(ملخص عن زهر الاداب للقيرواني)

(راجع صفحة ١٢ من علم الادب)

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ ٱلْجَاحِظُ: قَالَ بَعْضُ جَهَابِذَةِ ٱلْأَلْفَاظِ وَنُقَّادِ ٱلْمَعَانِي: ٱلْمَعَانِي ٱلْقَائِمَةُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٱلْمُتَصَوَّرَةُ فِي أَذْهَانِهِمْ ٱلْمُخْتَلِجَةُ فِي نُفُوسِهِمْ ٱلْمُتَّصِلَةُ بِخَوَاطِرِهِمْ وَٱلْحَادِثَةُ عَنْ فِكْرِهِمْ مَسْتُورَةٌ خَفِيَّةٌ وَبَعِيدَةٌ وَحْشِيَّةٌ وَمَحْجُوبَةٌ مَكْنُونَةٌ وَمَوْجُودَةٌ فِي مَعْنَى مَعْدُومَةٍ لَا يَعْرِفُ ٱلْإِنْسَانُ ضَمِيرَ صَاحِبِهِ وَلَا حَاجَةَ أَخِيهِ وَخَلِيطِهِ وَلَا مَعْنَى شَرِيكِهِ وَٱلْمُعَاوِنِ لَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَعَلَى مَا لَا يَبْلُغُهُ مِنْ حَاجَاتِ نَفْسِهِ إِلَّا بِغَيْرِهِ . وَإِنَّمَا يُحْيِي تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ذِكْرُهُمْ لَهَا وَإِخْبَارُهُمْ عَنْهَا وَٱسْتِعْمَالُهُمْ إِيَّاهَا . وَهٰذِهِ ٱلْخِصَالُ هِيَ ٱلَّتِي تُقَرِّبُهَا مِنَ ٱلْفَهْمِ وَتُجَلِّيهَا لِلْعَقْلِ وَتَجْعَلُ ٱلْخَفِيَّ مِنْهَا ظَاهِرًا وَٱلْغَائِبَ شَاهِدًا وَٱلْبَعِيدَ قَرِيبًا . وَهِيَ ٱلَّتِي تُلَخِّصُ ٱلْمُلْتَبِسَ وَتَحُلُّ ٱلْمُنْعَقِدَ وَتَجْعَلُ ٱلْمُهْمَلَ مُقَيَّدًا وَٱلْمُقَيَّدَ مُطْلَقًا وَٱلْمَجْهُولَ مَعْرُوفًا وَٱلْوَحْشِيَّ مَأْلُوفًا . وَعَلَى قَدْرِ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ وَصَوَابِ ٱلْإِشَارَةِ وَحُسْنِ ٱلِٱخْتِصَارِ وَدِقَّةِ ٱلْمَدْخَلِ يَكُونُ ظُهُورُ ٱلْمَعْنَى . وَكُلَّمَا

كَانَتِ ٱلدَّلَالَةُ أَوْضَحَ وَأَفْصَحَ وَكَانَتِ ٱلإِشَارَةُ أَبْيَنَ وَأَنْوَرَ كَانَتْ أَنْفَعَ وَأَنْجَعَ فِي ٱلْبَيَانِ. ثُمَّ اعْلَمْ حَفِظَكَ ٱللهُ أَنَّ حُكْمَ ٱلْمَعَانِي خِلَافُ حُكْمِ ٱلأَلْفَاظِ لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ مَبْسُوطَةٌ إِلَى غَايَةٍ وَمُمْتَدَّةٌ إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ وَأَسْمَاءُ ٱلْمَعَانِي مَحْصُورَةٌ مَعْدُودَةٌ وَمُحَصَّلَةٌ مَحْدُودَةٌ. وَجَمِيعُ أَصْنَافِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي مِنْ لَفْظٍ أَوْ غَيْرِ لَفْظٍ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ لَا تَنْقُصُ وَلَا تَزِيدُ: أَوَّلُهَا ٱللَّفْظُ. ثُمَّ ٱلإِشَارَةُ. ثُمَّ ٱلْعَقْدُ. ثُمَّ ٱلْخَطُّ. ثُمَّ ٱلْحَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى نِصْبَةً. وَٱلنِّصْبَةُ هِيَ ٱلْحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلأَصْنَافِ وَلَا تَقْصُرُ عَنْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَاتِ. وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ ٱلْخَمْسَةِ صُورَةٌ بَائِنَةٌ مِنْ صُورَةِ صَاحِبَتِهَا وَحِلْيَةٌ مُخَالِفَةٌ لِحِلْيَةِ أُخْتِهَا. وَهِيَ ٱلَّتِي تَكْشِفُ لَكَ عَنْ أَعْيَانِ ٱلْمَعَانِي فِي ٱلْجُمْلَةِ وَعَنْ حَقَائِقِهَا فِي ٱلتَّفْسِيرِ وَعَنْ أَجْنَاسِهَا وَأَقْدَارِهَا وَعَنْ خَاصِّهَا وَعَامِّهَا وَعَنْ طَبَقَاتِهَا فِي ٱلسَّارِّ وَٱلضَّارِّ وَعَمَّا يَكُونُ مِنْهَا لَهْوًا مُبَهْرَجًا وَسَاقِطًا مُطَّرَحًا. وَفِي نَحْوِ قَوْلِ أَبِي عُثْمَانَ (إِنَّ ٱلْمَعَانِيَ غَيْرُ مَقْصُورَةٍ وَلَا مَحْصُورَةٍ) يَقُولُ أَبُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ لِأَبِي دُلَفَ بْنِ عِيسَى ٱلْعِجْلِيِّ:

وَلَوْ كَانَ يَفْنَى ٱلشِّعْرُ أَفْنَتْهُ مَا قَرَتْ حِيَاضُكَ مِنْهُ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلذَّوَاهِبِ
وَلٰكِنَّهُ فَيْضُ ٱلْعُقُولِ إِذَا ٱنْجَلَتْ سَحَائِبُ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ

وَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ: لَحْظَةُ ٱلْقَلْبِ أَسْرَعُ مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَأَبْعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلْغَائِصَةُ فِي أَعْمَاقِ أَوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَأَمِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ وَٱلْجَامِعَةُ بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ. وَٱلْقَلْبُ كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ إِذَا نَطَقَ وَٱلْيَدُ

اِذَا كَتَبْتَ . وَٱلْعَاقِلُ يَكْسُو ٱلْمَعَانِيَ وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِأَلْفَاظٍ كَوَاسٍ فِي أَحْسَنِ زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِإِظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِهَا وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ ٱبْنِ بُرْدٍ : بِمَا فُقْتَ أَهْلَ عَصْرِكَ وَسَبَقْتَ أَهْلَ عَصْرِكَ فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِأَنِّي لَمْ أَقْبَلْ كُلَّ مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْتُ إِلَى مَغَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْتُ إِلَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَأَحْكَمْتُ سَبْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُرَّهَا وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَٱحْتَرَزْتُ مِنْ مُتَكَلَّفِهَا وَمَا مَلَكَ قِيَادِي قَطُّ ٱلْإِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ

البحث الرابع

في الحكم على المعاني

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

فَائِدَةُ هٰذَا ٱلْفَصْلِ ٱلْإِحَاطَةُ بِأَسَالِيبِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَتَبَايُنِهَا . وَصَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مُفْتَقِرٌ إِلَى هٰذَا ٱلْفَصْلِ وَٱلَّذِي يَلِيهِ بِخِلَافِ غَيْرِهِمَا مِنْ هٰذِهِ ٱلْفُصُولِ ٱلْمَذْكُورَةِ لَا سِيَّمَا مُفَسِّرِي ٱلْأَشْعَارِ فَإِنَّهُمْ بِهِ أَعْنَى . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَصْلَ فِي ٱلْمَعْنَى أَنْ يُحْمَلَ عَلَى ظَاهِرِ لَفْظِهِ وَمَنْ يَذْهَبُ إِلَى ٱلتَّأْوِيلِ يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . فَٱلظَّاهِرُ مِنْ لَفْظِ (ٱلثِّيَابِ) هُوَ مَا يُلْبَسُ وَمَنْ تَأَوَّلَ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ ٱلْمُرَادَ هُوَ ٱلْقَلْبُ لَا ٱلْمَلْبُوسُ . وَهٰذَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ

دليل لِأَنَّهُ عدولٌ عن ظاهِرِ اللفظِ . وَكذلك ورد عن عيسى بن مريم عليه السلامُ أنَّهُ قالَ : إذا اردتَ ان تصلِّي فَادخل بيتكَ واغلق بابكَ . فالظاهر من هذا هو البيت والباب . ومن تأول ذهب الى انَّهُ اراد انَّكَ تجمع عليكَ همَّ قلبكَ وتمنع ان يخطر بِهِ سوى أمرِ الصلاة . فعبر عن القلبِ بِالبيتِ وعن منع الخواطرِ التي تخطر لهُ بِإغلاقِ الباب . وهذا يحتاج الى دليل لِأَنَّهُ عدولٌ عن ظاهِرِ اللفظ . فالمعنى المحمول على ظاهِرِه لا يقع في تفسيرِه خلافٌ والمعنى المعدول عن ظاهِرِه الى التأويل يقع فيه الخلافُ اذ بابُ التأويلِ غيرُ محصور . والعلماء متفاوتون في هذا فانَّه قد يأخذ بعضهم وجها ضعيفا من التأويلِ فيكسوه بعبارته قوّة تميّزه على غيرِه من الوجوه القويّة فإنَّ السيفَ بضاربِه

إنَّ السيوفَ مع الذين قلوبهم   كقلوبهنَّ إذا التقى الجمعانِ
تلقى الحسامَ على جراءة حدِّه   مثلَ الجبانِ بكفِّ كلِّ جبانِ

وهذا الفصلُ الذي نحنُ بصددِ ذكرِه هاهنا يرجع اكثره الى التأويلِ لِأَنَّهُ ادقّ ولا يخلو تأويلُ المعنى من ثلاثةِ اقسامٍ : اما ان يفهم منهُ شيء واحدٌ لا يحتمل غيرهُ . واما ان يحتمل الشيء وغيرهُ . وتلك الغيريّة اما ان تكون ضدًّا او لا تكون ضدًّا وليس لنا قسمٌ رابعٌ . (فالأوّل) يقع عليه اكثر الأشعار ولا يجري في الدقّة واللطافة مجرى القسمين الآخرين . (واما القسمُ الثاني) فانَّهُ قليلُ الوقوع جدًّا وهو من التأويلات المعنويّة . لِأَنَّ

دَلَالَةَ ٱللَّفظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى وَضِدِّهِ اَغْرَبُ مِنْ دَلَالَتِهِ عَلَى ٱلْمَعْنَى وَغَيْرِهِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : اِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَٱصْنَعْ مَا شِئْتَ . وَهٰذَا يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ ضِدَّيْنِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ اِذَا لَمْ تَفْعَلْ فِعْلًا تَسْتَحِي مِنْهُ فَٱفْعَلْ مَا شِئْتَ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ اِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ حَيَاءٌ يَنْزَعُكَ عَنْ فِعْلِ مَا يُسْتَحَى مِنْهُ فَٱفْعَلْ مَا شِئْتَ . وَهٰذَانِ مَعْنَيَانِ ضِدَّانِ اَحَدُهُمَا مَدْحٌ وَٱلْآخَرُ ذَمٌّ . وَيَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّهْجِ مِنَ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ فِي قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا كَافُورًا :

وَاَظْلَمُ اَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ ضِدَّانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُنْعَمَ عَلَيْهِ يَحْسُدُ ٱلْمُنْعِمَ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُنْعِمَ يَحْسُدُ ٱلْمُنْعَمَ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ اَيْضًا مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُهُ :

فَاِنْ نِلْتُ مَا اَمَّلْتُ مِنْكَ فَرُبَّمَا ... شَرِبْتُ بِمَاءٍ يُعْجِزُ ٱلطَّيْرَ وِرْدُهُ

فَاِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ يَحْتَمِلُ مَدْحًا وَذَمًّا وَاِذَا اُخِذَ بِمُفْرَدِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ اِلَى مَا قَبْلَهُ فَاِنَّهُ يَكُونُ بِٱلذَّمِّ اَوْلَى مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ لِاَنَّهُ يَتَضَمَّنُ وَصْفَ نَوَالِهِ بِٱلْبُعْدِ وَٱلشُّذُوذِ . وَصَدْرُ ٱلْبَيْتِ مُفْتَتَحٌ (بِاِنْ) الشَّرْطِيَّةِ وَقَدْ اُجِيبَ بِلَفْظَةِ (رُبَّ) ٱلَّتِي مَعْنَاهَا ٱلتَّقْلِيلُ اَيْ : لَسْتُ مِنْ نَوَالِكَ عَلَى يَقِينٍ فَاِنْ نِلْتُهُ فَرُبَّمَا وَصَلْتُ اِلَى مَوْرِدٍ لَا يَصِلُ اِلَيْهِ ٱلطَّيْرُ لِبُعْدِهِ . وَاِذَا نُظِرَ اِلَى مَا قَبْلَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ دَلَّ عَلَى ٱلْمَدْحِ خَاصَّةً لِارْتِبَاطِهِ بِٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي قَبْلَهُ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقْصِدُ ٱلْمُتَنَبِّي هٰذَا ٱلْقِسْمَ فِي شِعْرِهِ كَقَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ اَوَّلُهَا :

عَدُوُّكَ مَذمومٌ بِكُلِّ لِسانٍ وَلَوْ كانَ مِنْ اَعْدائِكَ اَلْقَمَرانِ
وَلِلّهِ سِرٌّ فِي عُلاكَ وَاِنَّما كَلامُ الْعِدَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذَيانِ

ثُمَّ قالَ :

فَما لَكَ تَعْنِي بِالْاَسِنَّةِ وَالْقَنا وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنانِ

فَاِنَّ هٰذا بِالذَّمِّ اَشْبَهُ مِنْهُ بِالْمَدْحِ لِاَنَّهُ يَقُولُ : لَمْ تَبْلُغْ ما بَلَغْتَهُ بِسَعْيِكَ وَاهْتِمامِكَ بَلْ بِجَدٍّ وَسَعادَةٍ . وَهٰذا لَا فَضْلَ فِيهِ لِاَنَّ السَّعادَةَ تَنالُ الْخامِلَ وَالْجاهِلَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّها . وَاَكْثَرُ ما كانَ الْمُتَنَبِّي يَسْتَعْمِلُ هٰذا الْقِسْمَ فِي قَصائِدِهِ الْكافُورِيّاتِ ... وَهٰذا الْقِسْمُ مِنَ الْكَلامِ يُسَمَّى الْمُوَجَّهَ اَيْ لَهُ وَجْهانِ وَهُوَ مِمّا يَدُلُّ عَلَى بَراعَةِ الشّاعِرِ وَحُسْنِ تَأَتِّيهِ . (وَاَمّا الْقِسْمُ الثّالِثُ) فَاِنَّهُ يَكُونُ اَكْثَرَ وُقوعاً مِنَ الْقِسْمِ الثّانِي وَهُوَ واسِطَةٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ . لِاَنَّ الْقِسْمَ الْاَوَّلَ كَثِيرُ الْوُقوعِ . وَالْقِسْمَ الثّانِي قَلِيلُ الْوُقوعِ . وَهٰذا الْقِسْمُ الثّالِثُ وَسَطٌ بَيْنَهُما فَمِمّا جاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : وَلَا تَقْتُلُوا اَنْفُسَكُمْ . فَاِنَّ هٰذا لَهُ وَجْهانِ مِنَ التَّأْوِيلِ اَحَدُهُما الْقَتْلُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ وَالْآخَرُ هُوَ الْقَتْلُ الْمَجازِيُّ وَهُوَ الْاِكْبابُ عَلَى الْمَعاصِي فَاِنَّ الْاِنْسانَ اِذا اَكَبَّ عَلَى الْمَعاصِي قَتَلَ نَفْسَهُ فِي الْآخِرَةِ .... وَمِمّا يَجْرِي عَلَى هٰذا النَّهْجِ ما يُحْكَى عَنْ اَفْلاطُونَ اَنَّهُ قالَ : تَرْكُ الدَّواءِ دَواءٌ . فَذَهَبَ بَعْضُ الْاَطِبّاءِ اِلَى اَنَّهُ اَرادَ : اِنْ لَطُفَ الْمِزاجُ وَانْتَهَى اِلَى غايَةٍ لَا يَحْتَمِلُ الدَّواءَ فَتَرْكُهُ حِينَئِذٍ وَالْاِضْرابُ عَنْهُ دَواءٌ . وَذَهَبَ آخَرُونَ اِلَى اَنَّهُ اَرادَ بِالتَّرْكِ الْوَضْعَ اَيْ : وَضْعُ الدَّواءِ عَلَى الدّاءِ دَواءٌ . يُشِيرُ بِذٰلِكَ

الَى حِذْقِ الطَّبِيبِ فِي اوْقَاتِ عِلَاجِهِ . وَمِثْلُهُ فِي الشِّعْرِ قَوْلُ الفَرَزْدَقِ :

اِذَا جَعْفَرٌ مَرَّتْ عَلَى هَضْبَةِ الْحِمَى   فَقَدْ لَمَذَ الْاَحْيَاءُ مِنْهَا قُبُورَهَا

وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) ذَمُّ الْاَحْيَاءِ وَالْآخَرُ ذَمُّ الْاَمْوَاتِ . اَمَّا (ذَمُّ الْاَحْيَاءِ) فَهُوَ اَنَّهُمْ خَذَلُوا الْاَمْوَاتَ يُرِيدُ اَنَّهُمْ تَلَاقَوْا قِتَالَهُمْ وَقَوْمًا آخَرِينَ نَفَرَ الْاَحْيَاءُ عَنْهُمْ وَاَسْلَمُوهُمْ اَوْ اِنَّهُمْ اَسْتَنْجَدُوهُمْ فَلَمْ يُنْجِدُوهُمْ . وَاَمَّا (ذَمُّ الْاَمْوَاتِ) فَهُوَ اَنَّ لَهُمْ مَخَازِيَ وَفَضَائِحَ تُوجِبُ عَارًا وَشَنَارًا فَهُمْ يَعُدُّونَ بِهَا الْاَحْيَاءَ وَيُلْصِقُونَهَا بِهِمْ . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

بِالشِّعْرِ طُولٌ اِذَا اَصْطَكَّتْ قَصَائِدُهُ
فِي مَعْشَرٍ وَبِهِ عَنْ مَعْشَرٍ قِصَرُ

فَهٰذَا الْبَيْتُ يَحْتَمِلُ تَأْوِيلَيْنِ . (اَحَدُهُمَا) اَنَّ الشِّعْرَ يَتَّسِعُ مَجَالُهُ بِمَدْحِكَ وَيَضِيقُ بِمَدْحِ غَيْرِكَ . يُرِيدُ بِذٰلِكَ اَنَّ مَآثِرَهُ كَثِيرَةٌ وَمَآثِرَ غَيْرِهِ قَلِيلَةٌ . (وَالْآخَرُ) اَنَّ الشِّعْرَ يَكُونُ ذَا فَخْرٍ وَنَبَاهَةٍ بِمَدْحِكَ وَذَا خُمُولٍ بِمَدْحِ غَيْرِكَ . فَلَفْظَةُ الطُّولِ : يُفْهَمُ مِنْهَا ضِدُّ الْقِصَرِ وَيُفْهَمُ مِنْهَا الْفَخْرُ مِنْ قَوْلِنَا : طَالَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ اَيْ فَخَرَ عَلَيْهِ . وَمِمَّا يَنْتَظِمُ بِهٰذَا السِّلْكِ قَوْلُ اَبِي كَبِيرٍ الْهُذَلِيِّ :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ   فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

وَهٰذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ مِنَ التَّأْوِيلِ . (اَحَدُهُمَا) اَنَّهُ اَرَادَ بِسَعْيِ الدَّهْرِ سُرْعَةَ تَقَضِّي الْاَوْقَاتِ مُدَّةَ الْوِصَالِ . فَلَمَّا انْقَضَى الْوَصْلُ عَادَ الدَّهْرُ اِلَى حَالَتِهِ فِي السُّكُونِ وَالْبُطْءِ . (وَالْآخَرُ) اَنَّهُ اَرَادَ بِسَعْيِ

الدَّهرِ بِالنَّمائِمِ وَالوِشَايَاتِ فَلَمَّا انقَضَى مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ الوَصلِ سَكَنُوا أَوْ تَرَكُوا السِّعَايَةَ . وَهٰذَا مِنْ بَابِ وَضْعِ المُضَافِ إِلَيهِ مَكَانَ المُضَاف كَقَوْلِهِ : وَاسْأَلِ القَرْيَةَ أَيْ أَهْلَ القَرْيَةِ . وَمِنَ الدَّقِيقِ المَعْنَى فِي هٰذَا البَابِ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي فِي عَضُدِ الدَّوْلَةِ مِنْ جُمْلَةِ قَصِيدَتِهِ الَّتِي أَوَّلُهَا (أَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهَا) فَقَالَ :

لَوْ فَطِنَتْ خَيْلُهُ لِنَائِلِهِ   لَمْ يُرْضِهَا أَنْ تَرَاهُ يَرْضَاهَا

وَهٰذَا يُسْتَنْبَطُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ . (أَحَدُهُمَا) أَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ مِقْدَارَ عَطَايَاهُ النَّفِيسَةِ لَمَا رَضِيَتْ لَهُ بِأَنْ تَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لِأَنَّ عَطَايَاهُ أَنْفَسُ مِنْهَا . (الآخَرُ) أَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ أَنَّهُ يَهَبُهَا مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لَمَا رَضِيَتْ ذٰلِكَ إِذْ تَكْرَهُ خُرُوجَهَا عَنْ مُلْكِهِ . وَهٰذَانِ الوَجْهَانِ أَنَا ذَكَرْتُهُمَا وَإِنَّمَا المَذْكُورُ مِنْهُمَا أَحَدُهُمَا . وَهٰذَا الَّذِي أَشَرْتُ إِلَيْهِ مِنَ الكَلَامِ عَلَى المَعَانِي وَتَأْوِيلَاتِهَا كَافٍ لِمَنْ عِنْدَهُ ذَوْقٌ وَلَهُ قُوَّةٌ عَلَى حَمْلِهَا عَلَى أَشْبَاهِهَا وَنَظَائِرِهَا

البحث الخامس

في التّرجيح بين المعاني

(عن المثل السائر باختصار)

هٰذَا الفَصْلُ هُوَ مِيزَانُ الخَوَاطِرِ الَّذِي يُوزَنُ بِهِ نَقْدُ دِرْهَمِهَا وَدِينَارِهَا بَلِ المِحَكُّ الَّذِي يُعْلَمُ مِنْهُ مِقْدَارُ عِيَارِهَا وَلَا يَزِنُ بِهِ إِلَّا ذُو فِكْرَةٍ مُتَّقِدَةٍ وَأَلْمَعِيَّةٍ مُنْتَقِدَةٍ . فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَمَلَ مِيزَانًا سُمِّيَ صَرَّافًا .

وَلا كُلُّ مَنْ وزَنَ بِهِ سُمِّيَ عَرَّافًا . وَالْفَرْقُ بَيْنَ هٰذَا التَّرْجِيحِ وَالتَّرْجِيحِ الْفِقْهِيِّ انَّ هُنَاكَ يُرَجَّحُ بَيْنَ دَلِيلَيِ الْخَصْمَيْنِ فِي حُكْمٍ شَرْعِيٍّ وَهٰهُنَا يُرَجَّحُ بَيْنَ جَانِبَيْ فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فِي الْفَاظٍ وَمعَانٍ خِطَابِيَّةٍ . وَبَيَانُ ذٰلِكَ انَّ صَاحِبَ التَّرْجِيحِ الفِقْهِيِّ يُرَجِّحُ بَيْنَ خَبَرِ التَّوَاتُرِ مثَلًا وَبَيْنَ خَبَرِ الْآحَادِ اوْ بَيْنَ الْمُسْنَدِ وَالْمُرْسَلِ اَوْ مَا جَرَى هٰذَا الْمَجْرَى . وَهٰذَا لَا يَعْرِضُ اِلَيْهِ صَاحِبُ عِلْمِ الْبَيَانِ لِاَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ وَلٰكِنِ الَّذِي هُوَ مِنْ شَأْنِهِ اَنْ يُرَجِّحَ بَيْنَ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ اَوْ بَيْنَ حَقِيقَتَيْنِ اَوْ بَيْنَ مَجَازَيْنِ وَيَكُونَ نَاظِرًا فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ اِلَى الصِّنَاعَةِ الْخِطَابِيَّةِ . وَرُبَّمَا اتَّفَقَ هُوَ وَصَاحِبُ التَّرْجِيحِ الْفِقْهِيِّ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ كَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ عَامٍّ وَخَاصٍّ اَوْ مَا شَابَهَ ذٰلِكَ . وَكُنَّا قَدْ قَدَّمْنَا الْقَوْلَ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْمَعَانِي وَاَقْسَامِهَا . وَلْنُبَيِّنْ فِي هٰذَا الْفَصْلِ مَوَاضِعَ التَّرْجِيحِ بَيْنَ وُجُوهِ تَأْوِيلَاتِهَا فَنَقُولُ : (اَمَّا الْقِسْمُ الْاَوَّلُ) مِنَ الْمَعَانِي فَلَا تَعَلُّقَ لِلتَّرْجِيحِ بِهِ اِذْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ لَا يَحْتَمِلُ اِلَّا وجهًا واحدًا فَلَيْسَ مِنْ هٰذَا الْبَابِ فِي شَيْءٍ . وَالتَّرْجِيحُ اِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ يَدُلُّ عَلَيْهِمَا لَفْظٌ وَاحِدٌ وَلَا يَخْلُو التَّرْجِيحُ بَيْنَهُمَا مِنْ ثَلَاثَةِ اَقسامٍ اِمَّا اَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ حَقِيقَةً فِي اَحَدِهِمَا مَجَازًا فِي الْآخَرِ . اَوحَقيقةً فيهِما جميعًا اوْ مَجَازًا فِيهِمَا جَمِيعًا وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ . وَالتَّرْجِيحُ بَيْنَ الحقيقتَيْنِ اَوْ بَيْنَ الْمَجَازَيْنِ يَحْتَاجُ اِلَى نَظَرٍ . (وَاَمَّا التَّرْجِيحُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ) فَاِنَّهُ يُعْلَمُ بِبَدِيهَةِ النَّظَرِ لِمَكَانِ الْاخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا . وَالشَّيْئَانِ الْمُخْتَلِفَانِ يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِخِلَافِ مَا يَظْهَرُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ الْمُشْتَبِهَيْنِ . . . .

(وَأَمَّا مِثَالُ ٱلْمَعْنَيَيْنِ) إِذَا كَانَا حَقِيقَيَيْنِ فَقَوْلُهُ : ٱلْتَمِسُوا ٱلرِّزْقَ فِي خَبَايَا ٱلْأَرْضِ وَٱلْخَبَايَا جَمْعُ خَبِيَّةٍ وَهُوَ كُلُّ مَا يُخْبَأُ كَائِنًا مَا كَانَ . وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ حَقِيقَيَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) ٱلْكُنُوزُ ٱلْمَخْبُوءَةُ فِي بُطُونِ ٱلْأَرْضِ . (وَٱلْآخَرُ) ٱلْحَرْثُ وَٱلْغِرَاسُ . وَجَانِبُ ٱلْحَرْثِ وَٱلْغِرَاسِ أَرْجَحُ لِأَنَّ مَوَاضِعَ ٱلْكُنُوزِ لَا تُعْلَمُ حَتَّى تُلْتَمَسَ وَهُوَ لَا يَأْمُرُ بِذٰلِكَ لِأَنَّهُ شَيْءٌ مَجْهُولٌ غَيْرُ مَعْلُومٍ فَبَقِيَ ٱلْمُرَادُ بِخَبَايَا ٱلْأَرْضِ مَا يُحْرَثُ وَيُغْرَسُ .

(وَأَمَّا مِثَالُ ٱلْمَجَازَيْنِ) فَقَوْلُ أَبِي تَمَّام :

قَدْ بَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ حَدِيثًا وَبَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ قَدِيمَا
وَوَرَدْنَاهُ سَاحِلًا وَقَلِيبًا وَرَعَيْنَاهُ بَارِضًا وَجَمِيمَا
فَعَلِمْنَا أَنْ لَيْسَ إِلَّا بِشَقِّ ٱلنَّفْسِ صَارَ ٱلْكَرِيمُ يُدْعَى كَرِيمَا

فَٱلسَّاحِلُ وَٱلْقَلِيبُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُمَا تَأْوِيلَانِ مَجَازِيَّانِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّهُ أَرَادَ بِهِمَا ٱلْكَثِيرَ وَٱلْقَلِيلَ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ . (وَٱلْآخَرُ) أَنَّهُ أَرَادَ بِهِمَا ٱلسَّبَبَ وَغَيْرَ ٱلسَّبَبِ . فَإِنَّ ٱلسَّاحِلَ لَا يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ إِلَى سَبَبٍ وَٱلْقَلِيبُ يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ إِلَى سَبَبٍ . وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْمَعْنَيَيْنِ مَجَازٌ . فَإِنَّ حَقِيقَةَ ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ غَيْرُهُمَا وَٱلْوَجْهُ هُوَ ٱلثَّانِي لِأَنَّهُ هُوَ أَدَلُّ عَلَى بَلَاغَةِ ٱلْقَائِلِ وَمَدْحِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ . أَمَّا بَلَاغَةُ ٱلْقَائِلِ فَٱلسَّلَامَةُ مِنْ هُجْنَةِ ٱلتَّكْرِيرِ بِٱلْمُخَالَفَةِ بَيْنَ صَدْرِ ٱلْبَيْتِ وَعَجُزِهِ . فَإِنَّ عَجُزَهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ لِأَنَّ ٱلْبَارِضَ هُوَ أَوَّلُ ٱلنَّبْتِ حِينَ يَبْدُو فَإِذَا كَثُرَ وَتَكَاثَفَ سُمِّيَ جَمِيمًا . فَكَأَنَّهُ قَالَ : أَخَذْنَا مِنْهُ تَبَرُّعًا وَمَسْأَلَةً وَقَلِيلًا وَكَثِيرًا . وَأَمَّا مَدْحُ ٱلْمَقُولِ

فِيهِ فَلِتَعَدادِ حَالَاتِهِ ٱلْأَرْبَعِ فِي تَبَرُّعِهِ وَسُؤَالِهِ وَإِكْثَارِهِ وَإِقْلَالِهِ وَمَا فِي مُعَانَاةِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ مِنَ ٱلْمَشَاقِّ . فَهٰذَا إِمَّا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّرْجِيحِ ٱلْبَلَاغِيِّ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْحَقِيقَةِ وَبَيْنَ ٱلْمَجَازِ وَٱلْمَجَازِ وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ

البحث السادس

في الفصل والوصل

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ١٨ من علم الادب)

ٱلْفَصْلُ وَٱلْوَصْلُ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِمَوَاضِعِ ٱلْعَطْفِ وَٱلِاسْتِئْنَافِ وَٱلْهُدَى إِلَى كَيْفِيَّةِ إِيقَاعِ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ فِي مَوَاضِعِهَا. وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِ ٱلْبَلَاغَةِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ حَدَّ ٱلْبَلَاغَةَ بِأَنَّهَا مَعْرِفَةُ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ: إِنَّهُ لَا يَكْمُلُ لِإِحْرَازِ ٱلْفَضِيلَةِ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا كَمُلَ لِسَائِرِ مَعَانِي ٱلْبَلَاغَةِ . اِعْلَمْ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلْعَطْفِ ٱلتَّشْرِيكُ بَيْنَ ٱلْمَعْطُوفِ وَٱلْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ . ثُمَّ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْعَاطِفَةِ مَا لَا يُفِيدُ إِلَّا هٰذَا ٱلْقَدْرَ وَهُوَ ٱلْوَاوُ. وَمِنْهَا مَا يُفِيدُ فَائِدَةً زَائِدَةً كَٱلْفَاءِ وَثُمَّ وَأَوْ. وَغَرَضُنَا هٰهُنَا مُتَعَلِّقٌ بِمَا لَا يُفِيدُ إِلَّا ٱلِاشْتِرَاكَ فَنَقُولُ : ٱلْعَطْفُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ كَقَوْلِكَ : مَرَرْتُ بِرَجُلٍ خَلْقُهُ حَسَنٌ وَخُلُقُهُ قَبِيحٌ . فَقَدْ أَشْرَكْتَ بَيْنَهُمَا فِي ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْمَعْنَى لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي كَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُقَيِّدًا لِلْمَوْصُوفِ . وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَعْنًى يَقَعُ ذٰلِكَ ٱلِاشْتِرَاكُ فِيهِ وَحَتَّى يَكُونَا كَٱلنَّظِيرَيْنِ وَٱلشَّرِيكَيْنِ بِحَيْثُ إِذَا عَرَفَ

اَلسَّامِعُ حَالَةَ ٱلْاَوَّلِ عَسَاهُ يَعْرِفُ حَالَةَ ٱلثَّانِي . يَدُلُّكَ عَلَى ذٰلِكَ اَنَّكَ اِذَا عَطَفْتَ عَلَى ٱلْاَوَّلِ شَيْئًا لَيْسَ مِنْهُ سَبَبٌ وَلَا هُوَ مِمَّا يُذْكَرُ بِذِكْرِهِ لَمْ يَسْتَقِمْ . فَلَوْ قُلْتَ : (خَرَجْتُ ٱلْيَوْمَ مِنْ دَارِي وَاَحْسَنَ ٱلَّذِي يَقُولُ بَيْتَ كَذَا) قُلْتَ مَا يُضْحِكُ مِنْهُ . وَاِنْ لَمْ يَكُنْ فِي قُوَّةِ ٱلْمُفْرَدِ فَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ مَعْنَى اِحْدَى ٱلْجُمْلَتَيْنِ لِذَاتِهِ مُتَعَلِّقًا بِمَعْنَى ٱلْاُخْرَى كَمَا اِذَا كَانَتْ كَٱلتَّوْكِيدِ لَهَا اَوْ كَٱلصِّفَةِ فَلَا يَجُوزُ اِدْخَالُ ٱلْعَاطِفِ عَلَيْهِ لِاَنَّ ٱلتَّوْكِيدَ وَٱلصِّفَةَ مُتَعَلِّقَانِ بِٱلْمُؤَكَّدِ وَٱلْمَوْصُوفِ لِذَاتَيْهِمَا . وَٱلتَّعَلُّقُ ٱلذَّاتِيُّ يُغْنِي عَنْ لَفْظٍ يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعَلُّقِ . فَمِثَالُ ٱلتَّوْكِيدِ قَوْلُهُ : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللّٰهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ ٱللّٰهَ . وَلَمْ يَقُلْ : (وَيُخَادِعُونَ) لِاَنَّ ٱلْمُخَادَعَةَ لَيْسَتْ شَيْئًا غَيْرَ قَوْلِهِمْ : آمَنَّا مَعَ اَنَّهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ . وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ ٱلْاِثْبَاتُ (بِاِنْ وَاِلَّا) عَلَى هٰذَا ٱلْحَدِّ قَوْلُهُ : اِنْ هُوَ اِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . فَٱلْاِثْبَاتُ فِي قَوْلِهِ تَأْكِيدٌ لِنَفْيِ مَا يُنْفَى . (اَلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ بَيْنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ تَعَلُّقٌ ذَاتِيٌّ فَاِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَيَجِبُ تَرْكُ ٱلْعَاطِفِ اَيْضًا لِاَنَّ ٱلْعَطْفَ لِلتَّشْرِيكِ وَلَا تَشْرِيكَ . وَمِنْ هَاهُنَا عَابُوا عَلَى اَبِي تَمَّامٍ قَوْلَهُ :

لَا وَٱلَّذِي عَالِمٌ اَنَّ ٱلنَّوَى مُرٌّ وَاَنَّ اَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ

اِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ مَرَارَةِ ٱلنَّوَى وَبَيْنَ كَرَمِ اَبِي ٱلْحُسَيْنِ . وَلِذٰلِكَ لَمْ يُحْسِنْ جَوَازَ ٱلْعَاطِفِ . وَاِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَاِمَّا اَنْ يَكُونَ بِٱلَّذِي اُخْبِرَ بِهِمَا اَوْ بِٱلَّذِي اُخْبِرَ عَنْهُمَا اَوْ بِهِمَا كِلَيْهِمَا . وَهٰذَا ٱلْاَخِيرُ

هو ٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلعطفِ ومعنى ٱلْمُنَاسَبَةِ أَنْ يَكُونَا مُتَشَابِهَيْنِ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَاتِبٌ وَعَمْرٌو. أَوْ مُتَضَادَّيْنِ تضادًا عَلَى ٱلْخُصُوصِ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو قَصِيرٌ . وَكَقَوْلِكَ : ٱلعِلْمُ حَسَنٌ وَٱلْجَهْلُ قَبِيحٌ . فَلَوْ قُلْتَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو شَاعِرٌ ٱخْتَلَّ إِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ طُولِ ٱلقَامَةِ وَٱلشِّعْرِ . وَإِنْ كَانَ ٱلْمُحَدَّثُ عَنْهُ فِي ٱلْجُمْلَتَيْنِ شَيْئًا وَاحِدًا كَقَوْلِكَ : فُلَانٌ يَقُولُ وَيَفْعَلُ وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُسِيءُ وَيُحْسِنُ . يَجِبُ إِدْخَالُ ٱلعَاطِفِ فَإِنَّ ٱلغَرَضَ جَعْلُهُ فَاعِلًا لِلْأَمْرَيْنِ. فَلَوْ قُلْتَ : يَقُولُ يَفْعَلُ بِلَا عَاطِفٍ لَتُوُهِّمَ أَنَّ ٱلثَّانِي رُجُوعٌ عَنِ ٱلْأَوَّلِ . وَإِذَا أَفَادَ ٱلعَاطِفُ ٱلِٱجْتِمَاعَ ٱزْدَادَ ٱلِٱشْتِرَاكُ كَقَوْلِكَ : ٱلْعَجَبُ مِنْ أَنَّكَ أَحْسَنْتَ وَأَسَأْتَ . وَٱلْعَجَبُ مِنْ أَنَّكَ تَنْهَى عَنْ شَيْءٍ تَأْتِي مِثْلَهُ . وَكَقَوْلِهِ :

لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهِينُونَا وَنُكْرِمَكُمْ وَأَنْ نَكُفَّ ٱلْأَذَى عَنْكُمْ وَتُؤْذُونَا

فَإِنَّ ٱلْمَعْنَى جَعْلُ ٱلفِعْلَيْنِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ أَيْ لَا تَطْمَعُوا أَنْ تَرَوْا إِكْرَامَنَا إِيَّاكُمْ يُوجَدُ مَعَ إِهَانَتِكُمْ إِيَّانَا . وَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَجِبُ إِسْقَاطُ ٱلعَاطِفِ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ لِٱخْتِلَالِ ٱلْمَعْنَى عِنْدَ إِثْبَاتِهِ كَقَوْلِهِ : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ. فَقَوْلُهُ : (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ) كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ وَهُوَ إِخْبَارٌ مِنْهُ . فَلَوْ أَتَى بِٱلْوَاوِ لَكَانَ إِخْبَارًا عَنِ ٱلْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ وَصَفُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ فَيَخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى. قَالَ عَبْدُ ٱلقَاهِرِ : وَإِذَا ٱسْتَقْرَيْتَ وَجَدْتَ هٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ تَنْزِيلِهِمِ ٱلْكَلَامَ إِذَا جَاءَ بِعَقِبِ مَا يَقْتَضِي سُؤَالًا مَنْزِلَتَهُ إِذَا صُرِّحَ بِذٰلِكَ ٱلسُّؤَالِ

كَثِيرًا . فَمِنْ لَطِيفِ ذٰلِكَ قَوْلُهُ :

زَعَمَ ٱلْعَوَاذِلُ اَنَّنِي فِي غَمْرَةٍ   صَدَقُوا وَلٰكِنْ غَمْرَتِي لَا تَنْجَلِي

لَمَّا حَكَى عَنِ ٱلْعَوَاذِلِ قَوْلَهُمْ اِنَّهُ فِي غَمْرَةٍ وَكَانَ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَرِّكُ ٱلسَّامِعَ عَلَى اَنْ يَسْاَلَهُ : فَمَا جَوَابُكَ عَنْ ذٰلِكَ . اَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَهُ اِذَا كَانَ قَدْ قِيلَ فَقَالَ : اَقُولُ صَدَقُوا . اَنَا كَمَا قَالُوا وَلٰكِنْ لَا مَطْمَعَ لَهُمْ فِي فَلَاحِي . وَلَوْ قَالَ : وَصَدَقُوا لٰكِنْ لَمْ يَضَعْ نَفْسَهُ فِي اَنَّهُ مَسْئُولٌ . وَاَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ . وَاِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَلَا حَاجَةَ اِلَى ٱلْعَاطِفِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ : يُخَادِعُونَ ٱللّٰهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ . وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللّٰهُ : فَاِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ خَبَرٌ

(وَمِمَّا يَجِبُ) ذِكْرُهُ هَاهُنَا ٱلْجُمْلَةُ اِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَاِنَّهَا تَجِيءُ مَعَ ٱلْوَاوِ تَارَةً وَبِدُونِهَا اُخْرَى . فَنَقُولُ ٱلْجُمْلَةُ اِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَلَا بُدَّ اَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً تَحْتَمِلُ ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْاَوَّلُ) وَلَهُ اَحْوَالٌ : (ٱلْاُولَى) اَنْ يُجْمَعَ لَهَا بَيْنَ ٱلْوَاوِ وَضَمِيرِ صَاحِبِ ٱلْحَالِ كَقَوْلِكَ : جَاءَ زَيْدٌ وَمَعَهُ غُلَامُهُ وَلَقِيتُ زَيْدًا وَفَرَسُهُ سَابِقُهُ . وَهٰذِهِ ٱلْوَاوُ تُسَمَّى وَاوَ ٱلْحَالِ . (اَلثَّانِيَةُ) اَنْ تَجِيءَ بِٱلضَّمِيرِ مِنْ غَيْرِ وَاوٍ كَقَوْلِكَ : كَلَّمْتُهُ فُوهُ اِلَى فِيَّ . وَهُوَ فِي مَعْنَى مُشَافِهًا وَٱلرَّابِطُ ٱلضَّمِيرُ . (اَلثَّالِثَةُ) اَنْ تَجِيءَ بِٱلْوَاوِ مِنْ غَيْرِ ضَمِيرٍ وَهُوَ كَثِيرٌ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ وَٱلْجَيْشُ قَادِمٌ . وَزُرْتَنَا وَٱلشِّتَاءُ خَارِجٌ . قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ :

وَقَدْ اَغْتَدِي وَٱلطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا   بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَيَجُوزُ اَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ حَالَيْنِ : مُفْرَدٍ وَجُمْلَةٍ . اِذَا اَجَزْنَا وُقُوعَ حَالَيْنِ

كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ رَاكِبًا وَالْحَسَنُ قَادِمٌ . فَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ التَّاءِ اَوْ مِنَ الْكَافِ وَالْعَامِلُ فِيهَا (لَقِيتُ) اَوْ مِنْ ضَمِيرِ (رَاكِبٍ) وَرَاكِبٌ هُوَ الْعَامِلُ فِيهَا . (اَلْقِسْمُ الثَّانِي) اَلْجُمْلَةُ الْفِعْلِيَّةُ . وَلَا بُدَّ اَنْ تَكُونَ مَاضِيًا اَوْ مُضَارِعًا . اَمَّا الْمَاضِي فَلَا بُدَّ مَعَهُ مِنَ الْاِتْيَانِ بِالْوَاوِ وَقَدْ اَوْ بِاَحَدِهِمَا كَقَوْلِكَ : تَكَلَّمْتُ وَقَدْ عَجِلْتُ . وَجَاءَ زَيْدٌ قَدْ ضَرَبَ عَمْرًا . وَجِئْتُ وَاَسْرَعْتُ فِي الْمَجِيءِ . وَلَمْ يُجِزِ الْبَصْرِيُّونَ خُلُوَّهُ عَنْهُمَا وَقَالُوا فِي قَوْلِ اَبِي صَخْرٍ الْهُذَلِيِّ :

وَاِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكِ هِزَّةٌ   كَمَا انْتَفَضَ الْعُصْفُورُ بَلَّلَهُ الْقَطْرُ

اِنَّ (قَدْ) مُقَدَّرَةٌ فِيهَا فَاِنَّ الشَّيْءَ اِذَا عُرِفَ مَوْضِعُهُ جَازَ حَذْفُهُ .

وَاَمَّا الْمُضَارِعُ فَاِنْ كَانَ مُوجَبًا فَلَا يُؤْتَى مَعَهُ بِالْوَاوِ تَقُولُ : جَاءَنِي زَيْدٌ يَضْحَكُ وَجَاءَ عَمْرٌو يُسْرِعُ وَجَلَسَ يُحَدِّثُنَا (بِالرَّفْعِ) اَيْ مُحَدِّثًا لَنَا بِتَجَرُّدِهِ عَمَّا يُغَيِّرُ مَعْنَاهُ اَشْبَهَ اسْمَ الْفَاعِلِ اِذَا وَقَعَ حَالًا . وَاِنْ كَانَ مَنْفِيًّا جَازَ حَذْفُ الْوَاوِ مُرَاعَاةً لِاَصْلِ الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ الْاِيجَابُ وَجَازَ اِثْبَاتُهَا لِاَنَّ الْفِعْلَ لَيْسَ هُوَ الْحَالَ . فَاِنَّ مَعْنَى قَوْلِكَ : (جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ) جَلَسَ زَيْدٌ غَيْرَ مُتَكَلِّمٍ . فَجَرَى مَجْرَى الْجُمْلَةِ الْاِسْمِيَّةِ . فَالْحَذْفُ كَقَوْلِكَ : جَاءَ زَيْدٌ مَا يَفُوهُ بِبِنْتِ شَفَةٍ . وَكَقَوْلِهِ : اَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . فَقَوْلُهُ : (لَا يَمَسُّنَا) فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ الْمَرْفُوعِ فِي اَحَلَّنَا . وَالْاِثْبَاتُ كَقَوْلِكَ : جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ . وَقَالَ : اَفَلَا يَرَوْنَ اَلَّا يَرْجِعُ اِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . وَنَحْوِ ... مِّعْلِ

ٱلْمَاضِي فَقَالُوا : جَاءَ زَيْدٌ مَا ضَرَبَ عَمْرًا . وَجَاءَ زَيْدٌ وَمَا ضَرَبَ عَمْرًا

البحث السابع

في تأكيد الكلام وقصره وتعزيزه بانَّ وانَّما

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ١٩ من علم الادب)

امَّا (إِنَّ) فَلَهَا فَوَائِدُ : (ٱلْأُولى) أَنَّهَا تَرْبِطُ ٱلْجُمْلَةَ ٱلثَّانِيَةَ بِٱلْأُولَى وَبِسَبَبِهَا يَحْصُلُ ٱلتَّأْلِيفُ بَيْنَهُمَا حَتَّى كَأَنَّ ٱلْكَلَامَيْنِ أُفْرِغَا إِفْرَاغًا وَاحِدًا وَلَوْ أَسْقَطْتَهَا كَانَ ٱلثَّانِي نَابِيًا عَنِ ٱلْأَوَّلِ كَقَوْلِهِ : يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . (ٱلثَّانِيَةُ) أَنَّكَ تَرَى لِضَمِيرِ ٱلشَّأْنِ وَٱلْقِصَّةِ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ مَعَ (إِنَّ) مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱللُّطْفِ مَا لَا تَرَاهُ إِذَا هِيَ لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهَا كَقَوْلِهِ : إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . (ٱلثَّالِثَةُ) أَنَّهَا تُهَيِّئُ ٱلنَّكِرَةَ وَتُصْلِحُهَا لِأَنْ يُحَدَّثَ عَنْهَا وَإِنْ كَانَتِ ٱلنَّكِرَةُ مَوْصُوفَةً جَازَ حَذْفُهَا وَلٰكِنَّ دُخُولَهَا أَصْلَحُ كَقَوْلِ حَسَّانٍ :

إِنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ   لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِٱلْإِحْسَانِ

(ٱلرَّابِعَةُ) أَنَّهَا تُغْنِي عَنِ ٱلْخَبَرِ كَمَا إِذَا قِيلَ لَكَ : ٱلنَّاسُ أَلْبُوا عَلَيْكُمْ فَهَلْ لَكُمْ أَحَدٌ . فَقُلْتَ : إِنَّ زَيْدًا أَوْ إِنَّ عَمْرًا . أَيْ لَنَا . قَالَ ٱلْأَعْشَى :

إِنَّ مَحَلًّا وَإِنَّ مُرْتَحَلًا   وَإِنَّ فِي ٱلسَّفْرِ إِذْ مَضَوْا مَهَلَا

(اَلْخَامِسَةُ) قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ إِذَا قُلْتَ : إِنَّ عَبْدَٱللّٰهِ قَائِمٌ . فَهُوَ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ . فَإِذَا قُلْتَ : إِنَّ عَبْدَٱللّٰهِ لَقَائِمٌ . فَهُوَ جَوَابٌ عَنْ إِنْكَارِ مُنْكِرٍ لِقِيَامِهِ سَوَاءٌ كَانَ ٱلْمُنْكِرُ هُوَ ٱلسَّائِلَ أَوِ ٱلْحَاضِرِينَ

(وَأَمَّا إِنَّمَا) فَتَارَةً تَجِيءُ لِلْحَصْرِ بِمَعْنَى أَنَّ هٰذَا ٱلْحُكْمَ لَا يُوجَدُ فِي غَيْرِ ٱلْمَذْكُورِ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ (لَيْسَ إِلَّا) كَقَوْلِهِ : إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَقَوْلِهِ : إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ . وَقَوْلِهِ : إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا . وَتَارَةً تَجِيءُ لِبَيَانِ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ ظَاهِرٌ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ سَوَاءٌ كَانَ كَذٰلِكَ أَوْ فِي زَعْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللّٰهِ م تَجَلَّتْ مِنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

مُدَّعِيًا أَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ . (فَائِدَةٌ) إِذَا دَخَلَ (مَا وَإِلَّا) عَلَى ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَنْصُوبِ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بِٱلذِّكْرِ مَا ٱتَّصَلَ (بِإِلَّا) مُتَأَخِّرًا عَنْهُ . فَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ عَمْرًا إِلَّا زَيْدٌ . فَٱلْمَقْصُودُ ٱلْمَرْفُوعُ . وَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ زَيْدٌ إِلَّا عَمْرًا . فَٱلْمَقْصُودُ ٱلْمَنْصُوبُ . وَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ زَيْدٌ إِلَّا عَمْرًا . فَٱلِاخْتِصَاصُ بِٱلضَّارِبِ . وَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ إِلَّا زَيْدًا عَمْرٌو . فَٱلِاخْتِصَاصُ بِٱلْمَضْرُوبِ . وَإِذَا قُلْتَ : لَمْ أَكْسُ إِلَّا زَيْدًا جُبَّةً . فَٱلْمَعْنَى تَخْصِيصُ كُسْوَةِ ٱلْجُبَّةِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِزَيْدٍ . وَكَذٰلِكَ ٱلْحُكْمُ حَيْثُ يَكُونُ يَدُلُّ أَحَدُ ٱلْمَفْعُولَيْنِ جَارًّا وَمَجْرُورًا كَقَوْلِ ٱلسَّيِّدِ ٱلْحِمْيَرِيِّ :

لَوْ خُيِّرَ ٱلْمِنْبَرُ فُرْسَانَهُ مَا ٱخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسًا

وَكَذٰلِكَ حُكْمُ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ وَٱلْفِعْلِ وَٱلْفَاعِلِ كَقَوْلِكَ : مَا

زَيدٌ إِلَّا قَائِمٌ وَمَا قَائِمٌ إِلَّا زَيدٌ. وَامَّا (إِنَّمَا) فَالِاخْتِصَاصُ فِيهَا يَقَعُ مَعَ الْمُتَأَخِّرِ. فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّمَا ضَرَبَ زَيدًا عَمْرٌو. فَالِاخْتِصَاصُ فِي الضَّارِبِ. وَقَوْلُهُ: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فَالْغَرَضُ بَيَانُ الْمَرْفُوعِ وَهُوَ انَّ الْخَاشِينَ هُمُ الْعُلَمَاءُ. وَلَوْ قُدِّمَ الْمَرْفُوعُ لَصَارَ الْمَقْصُودُ بَيَانَ الْمَخْشِيِّ مِنْهُ فَالْأَوَّلُ اتَمُّ. وَمِنْهُ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ:

اَنَا الذَّائِدُ الْحَامِي الذِّمَارَ وَإِنَّمَا ... يُدَافِعُ عَنْ اَحْسَابِكُمْ اَنَا اَوْ مِثْلِي

فَإِنَّ غَرَضَهُ انْ يَحْصُرَ الْمُدَافِعَ بِأَنَّهُ هُوَ لَا الْمُدَافَعَ عَنْهُ. وَلَوْ قَالَ: إِنَّمَا اَنَا اُدَافِعُ عَنْ اَحْسَابِكُمْ. تَوَجَّهَ التَّخْصِيصُ إِلَى الْمُدَافَعِ عَنْهُ. إِذَا اَدْخَلْتَ عَلَيْهِمَا (إِنَّمَا) فَإِنْ قَدَّمْتَ الْخَبَرَ فَالِاخْتِصَاصُ لِلْمُبْتَدَإِ. وَإِنْ لَمْ تُقَدِّمْهُ فَلِلْخَبَرِ. فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّمَا هٰذَا لَكَ فَالِاخْتِصَاصُ فِي (لَكَ) بِدَلِيلِ انَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ: لَا لِغَيْرِكَ. وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّمَا لَكَ هٰذَا. فَالِاخْتِصَاصُ فِي هٰذَا بِدَلِيلِ انَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ لَا ذَاكَ. ثُمَّ قَدْ يَجْتَمِعُ مَعَهُ حَرْفُ النَّفْيِ إِمَّا مُتَأَخِّرًا كَقَوْلِكَ: إِنَّمَا يَجِيءُ زَيدٌ لَا عَمْرٌو. وَقَالَ لَبِيدٌ:

وَإِذَا جُوزِيتَ قَرْضًا فَاجْزِهِ ... إِنَّمَا يَجْزِي الْفَتَى لَيْسَ الْجَمَلْ

وَإِمَّا مُقَدَّمًا عَلَيْهِ كَقَوْلِكَ: مَا جَاءَنِي زَيدٌ وَإِنَّمَا جَاءَنِي عَمْرٌو. فَهَا هُنَا لَوْ لَمْ تَقُلْ: (إِنَّمَا). وَقُلْتَ: مَا جَاءَنِي زَيدٌ وَجَاءَنِي عَمْرٌو. لَكَانَ الْكَلَامُ مَعَ مَنْ ظَنَّ انَّهُمَا جَاءَا جَمِيعًا. وَإِذَا اَدْخَلْتَهَا كَانَ الْكَلَامُ مَعَ مَنْ غَلِطَ فِي الْجَائِي انَّهُ زَيدٌ لَا عَمْرٌو. وَاعْلَمْ انَّ اَقْوَى مَا يَكُونُ إِنَّمَا إِذَا كَانَ لَا يُرَادُ بِالْكَلَامِ الَّذِي بَعْدَهَا نَفْسُ مَعْنَاهَا

وَلٰكِنَّ ٱلتَّعْرِيضَ بِأَمْرٍ هُوَ مُقْتَضَاهُ . وَهٰذَا ٱلْغَرَضُ لَا يَحْصُلُ بِدُونِ (إِنَّمَا) لِأَنَّ مِنْ إِثْبَاتِهَا تَضْمِينَ ٱلْكَلَامِ مَعْنَى ٱلنَّفْيِ بَعْدَ ٱلْإِثْبَاتِ . فَإِذَا أَسْقَطْتَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا إِثْبَاتُ ٱلْحُكْمِ لِلْمَذْكُورِينَ فَلَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيٍ غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنْ يُذْكَرَ فِي مَعْرِضِ مَدْحِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلتَّيَقُّظِ وَٱلْكَرَمِ وَأَمْثَالِهِمَا كَمَا يُقَالُ : كَذٰلِكَ يَفْعَلُ ٱلْعَاقِلُ وَهٰكَذَا يَفْعَلُ ٱلْكَرِيمُ

البحث الثامن

في التقديم والتأخير

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع علم الادب صفحة ١٩)

إِذَا قُدِّمَ ٱلشَّيْءُ عَلَى غَيْرِهِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ كَمَا إِذَا قُدِّمَ ٱلْخَبَرُ عَلَى ٱلْمُبْتَدَإِ . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ وَلٰكِنِ ٱنْتَقَلَ ٱلشَّيْءُ مِنْ حُكْمٍ إِلَى آخَرَ . كَمَا إِذَا جِئْتَ إِلَى ٱسْمَيْنِ جَازَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُبْتَدَأً فَجَعَلْتَ أَحَدَهُمَا مُبْتَدَأً كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ ٱلْمُنْطَلِقُ وَٱلْمُنْطَلِقُ زَيْدٌ . قَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ : كَأَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ ٱلَّذِي بَيَانُهُ لَهُمْ أَهَمُّ وَهُمْ بِبَيَانِهِ أَعْنَى وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا يُهِمَّانِهِمْ وَيَعْنِيَانِهِمْ . وَمِثَالُهُ إِنَّ ٱلنَّاسَ إِذَا تَعَلَّقَ غَرَضُهُمْ بِقَتْلِ خَارِجِيٍّ مُفْسِدٍ وَلَا يَعْلَمُونَ مَنْ صَدَرَ ٱلْقَتْلُ مِنْهُ وَأَرَادَ مُرِيدُ ٱلْإِخْبَارَ بِذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ ذِكْرَ ٱلْخَارِجِيِّ فَيَقُولُ : قَتَلَ ٱلْخَارِجِيَّ زَيْدٌ . وَلَا يَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ ٱلْخَارِجِيَّ . لِأَنَّهُ يَعْلَمُ

اَنَّ قَتْلَ اَلْخَارِجِيِّ هُوَ اَلَّذِي يَعْنِيهِمْ . وَاِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ قَتْلٌ مِنْ رَجُلٍ يَبْعُدُ فِي اَعْتِقَادِ اَلنَّاسِ وُقُوعُ اَلْقَتْلِ مِنْ مِثْلِهِ قَدَّمَ اَلْمُخْبِرُ ذِكْرَ اَلْفَاعِلِ فَيَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ رَجُلًا . لِاَعْتِقَادِ اَلنَّاسِ فِي اَلْمَذْكُورِ خِلَافَ ذَٰلِكَ (اه). وَلْنَذْكُرْ مِنْهُ ثَلَاثَةَ مَوَاضِعَ يُعْرَفُ بِهَا مَا لَمْ يُذْكَرْ:

(اَلْاَوَّلُ اَلِاَسْتِفْهَامُ) فَاِذَا اَدْخَلْتَهُ عَلَى اَلْفِعْلِ وَقُلْتَ : اَضَرَبْتَ زَيْدًا . كَانَ اَلشَّكُّ فِي وُجُودِ اَلْفِعْلِ مُحَقَّقًا وَاَلشَّكُّ فِي تَعْيِينِ اَلْفَاعِلِ وَهٰكَذَا حُكْمُ اَلنَّكِرَةِ . فَاِذَا قُلْتَ : اَجَاءَكَ رَجُلٌ فَاِنَّ اَلْمَقْصُودَ هَلْ وُجِدَ اَلْمَجِيءُ مِنْ رَجُلٍ . فَاِذَا قُلْتَ : اَرَجُلٌ جَاءَكَ كَانَ ذَٰلِكَ سُؤَالًا عَنْ جِنْسِ مَنْ جَاءَ بَعْدَ اَلْحُكْمِ بِوُجُودِ اَلْمَجِيءِ مِنْ اِنْسَانٍ . وَقِسْ عَلَيْهِ اَلْخَبَرَ فِي قَوْلِكَ : ضَرَبْتُ زَيْدًا وَزَيْدًا ضَرَبْتُ . وَجَاءَنِي رَجُلٌ تَمِيمِيٌّ . وَرَجُلٌ تَمِيمِيٌّ جَاءَنِي . ثُمَّ اَلِاَسْتِفْهَامُ قَدْ يَجِيءُ لِلْاِنْكَارِ: وَهُوَ اِمَّا لِلتَّقْرِيرِ وَاَلتَّوْبِيخِ وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ : اَاَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا . وَاِمَّا لِاِنْكَارِ اَنَّهُ اَلْفَاعِلُ مَعَ تَحَقُّقِ اَلْفِعْلِ كَقَوْلِكَ لِمَنِ اَنْتَحَلَ شِعْرًا : اَاَنْتَ قُلْتَ هٰذَا . وَاِنْ كَانَ اَلْفِعْلُ مُضَارِعًا فَاِنْ اَدْخَلْتَ حَرْفَ اَلِاَسْتِفْهَامِ عَلَيْهِ كَانَ اِمَّا لِاِنْكَارِ وُجُودِهِ كَقَوْلِهِ : اَنُلْزِمُكُمُوهَا وَاَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ . اَوْ لِاِنْكَارِ اَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى اَلْفِعْلِ كَقَوْلِ اَمْرِئِ اَلْقَيْسِ :

اَيَقْتُلُنِي وَاَلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَاَنْيَابِ اَغْوَالِ

اَوْ لِاِزَالَةِ طَمَعِ مَنْ طَمِعَ فِي اَمْرٍ لَا يَكُونُ فَيَجْهَلُهُ فِي طَمَعِهِ كَقَوْلِكَ : اَيَرْضَى عَنْكَ فُلَانٌ وَاَنْتَ عَلَى مَا يَكْرَهُ . اَوْ لِتَعْنِيفِ مَنْ يُضِيعُ اَلْحَقَّ كَقَوْلِ اَلشَّاعِرِ :

أأترُكُ إنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ　　زِيَارَتَـهُ إنِّي إذًا لَلَئِيمُ

أوْ لِتقْدِيمِ ٱلْفِعْلِ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَرْكَبُ ٱلْخَطَرَ : أتَرْكَبُ فِي هٰذَا ٱلْوَقْتِ . وَإنْ أدخَلْتَهُ عَلَى ٱلِٱسْمِ فَهُوَ لِإنْكَارِ صُدُورِ ٱلْفِعْلِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلفَاعِلِ إمَّا لِٱسْتِحْقَارٍ كَقَوْلِكَ : أأنتَ تَمْنَعُنِي . أوْ لِلتَّعْظِيمِ كَقَوْلِكَ : أهُوَ يَسْألُ ٱلنَّاسَ . أوْ لِلْمبَالَغَةِ إمَّا فِي كَرَمِهِ كَقَوْلِكَ : أهُوَ يَمْنَعُ سَائِلَهُ . وَإمَّا فِي خَسَاسَتِهِ كَقَوْلِكَ : أهُوَ يَسْمَحُ بِمِثْلِ هٰذَا . وَقَدْ يَكُونُ لِبَيَانِ ٱسْتِحَالَةِ فِعْلٍ ظُنَّ مُمْكِنًا كَقَوْلِهِ : أفَأنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أوْ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ . وَكَذٰلِكَ إذَا أدخَلْتَهُ عَلَى ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : أغَيْرَ ٱللهِ أتَّخِذُ وَلِيًّا وَ أغَيْرَ ٱللهِ تَدْعُونَ . وَأبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ . بَنَوْا كُفْرَهُمْ عَلَى أنَّ ٱلْبَشَرَ لَيْسَ بِمَثَابَةِ أنْ يُتَّبَعَ وَيُطَاعَ

(فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ فِي ٱلنَّفْيِ) إذَا أدخَلْتَ ٱلنَّفْيَ عَلَى ٱلْفِعْلِ فَقُلْتَ : مَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . فَقَدْ نَفَيْتَ عَنْ زَيْدٍ ضَرْبًا وَاقِعًا بِزَيْدٍ وَهٰذَا لَا يَقْتَضِي كَوْنَ زَيْدٍ مَضْرُوبًا . وَإذَا أدخَلْتَهُ عَلَى ٱلِٱسْمِ فَقُلْتَ : مَا أنَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . اقْتَضَى مِنْ بَابِ دَلِيلِ ٱلْخِطَابِ كَوْنَ زَيْدٍ مَضْرُوبًا وَعَلَيْهِ قَوْلُ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَمَا أنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا ٱلشِّعْرَ كُلَّهُ　　وَلٰكِنْ لِشِعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شِعْرُ

وَكَذٰلِكَ (حُكْمُ ٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ وَحُكْمُ ٱلْمَفْعُولِ) . فَإذَا قُلْتَ : مَا أمَرْتُكَ بِهٰذَا . لَمْ يَقْتَضِ أنْ يَكُونَ قَدْ أمَرْتَهُ بِشَيْءٍ غَيْرِ هٰذَا . وَإذَا قُلْتَ : مَا بِهٰذَا أمَرْتُكَ . ٱقْتَضَاهُ . وَإذَا قَدَّمْتَ صِفَةَ ٱلْعُمُومِ عَلَى ٱلسَّلْبِ وَقُلْتَ : كُلُّ ذٰلِكَ لَمْ أفْعَلْهُ بِرَفْعِ (كُلّ) كَانَ نَفْيًا عَامًّا

وَيُنَاقِضُهُ ٱلْإِثْبَاتُ ٱلْخَاصُّ . فَلَوْ فَعَلْتَ بَعْضَهُ كُنْتَ كَاذِبًا . وَإِنْ قَدَّمْتَ ٱلسَّلْبَ وَقُلْتَ : لَمْ افْعَلْ كُلَّ ذٰلِكَ . كَانَ نَفْيًا لِلْعُمُومِ وَلَا يُنَافِي ٱلْإِثْبَاتَ ٱلْخَاصَّ فَلَوْ فَعَلْتَ بَعْضَهُ لَمْ تَكُنْ كَاذِبًا . (ٱلثَّالِثُ فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ فِي ٱلْخَبَرِ ٱلْمُثْبَتِ) مَا تَقَدَّمَ فِي ٱلْاِسْتِفْهَامِ وَٱلنَّفْيِ قَائِمٌ هَاهُنَا فَإِذَا قَدَّمْتَ ٱلْاِسْمَ وَقُلْتَ : زَيْدٌ فَعَلَ وَأَنَا فَعَلْتُ . فَٱلْقَصْدُ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ إِمَّا لِتَخْصِيصِ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلِ بِهِ كَقَوْلِكَ : أَنَا شَفَعْتُ فِي شَأْنِهِ مُدَّعِيًا ٱلْاِنْفِرَادَ بِذٰلِكَ . أَوْ لِتَأْكِيدِ إِثْبَاتِ ٱلْفِعْلِ لَهُ لَا لِلْحَصْرِ كَقَوْلِكَ : هُوَ يُعْطِي ٱلْجَزِيلَ . لِيَتَمَكَّنَ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ أَنَّ ذٰلِكَ دَأْبُهُ دُونَ نَفْيِهِ عَنْ غَيْرِهِ كَقَوْلِ دُرْنَا بِنْتِ عَشْعَشَةَ :

هُمَا يَلْبَسَانِ ٱلْمَجْدَ أَحْسَنَ لِبْسَةٍ   شَحِيحَانِ مَا ٱسْطَاعَا عَلَيْهِ كِلَاهُمَا

وَٱلسَّبَبُ فِي هٰذَا ٱلتَّأْكِيدِ إِذَا قُلْتَ مَثَلًا : (زَيْدٌ) . فَقَدْ أَشْعَرْتَ بِأَنَّكَ تُرِيدُ ٱلْحَدِيثَ عَنْهُ فَيَحْصُلُ لِلسَّامِعِ تَشَوُّقٌ إِلَى مَعْرِفَتِهِ . فَإِذَا ذَكَرْتَهُ قَبِلَتْهُ ٱلنَّفْسُ قَبُولَ ٱلصَّدِيقِ صَدِيقَهُ فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَبْلَغَ فِي ٱلتَّحْقِيقِ وَنَفْيِ ٱلشَّكِّ وَٱلشُّبْهَةِ . وَلِهٰذَا تَقُولُ لِمَنْ تَعِدُهُ : أَنَا أُعْطِيكَ . أَنَا أَكْفِيكَ . أَنَا أَقُومُ بِهٰذَا ٱلْأَمْرِ . وَذٰلِكَ إِذَا كَانَ مِنْ شَأْنِ مَنْ سَبَقَ لَهُ وَعْدٌ أَنْ يَعْتَرِضَهُ ٱلشَّكُّ فِي وَفَائِهِ . وَلِذٰلِكَ يُقَالُ فِي ٱلْمَدْحِ : أَنْتَ تُعْطِي ٱلْجَزِيلَ . أَنْتَ تَجُودُ حِينَ لَا يَجُودُ أَحَدٌ . وَمِنْ هَاهُنَا تُعْرَفُ ٱلْفَخَامَةُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلَّتِي فِيهَا ضَمِيرُ ٱلشَّأْنِ وَٱلْقِصَّةِ كَقَوْلِهِ : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . وَكَقَوْلِهِ : إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ . (وَإِنَّهَا) فِيهَا مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكَ : فَإِنَّ

ٱلْأَبْصَارَ لَا تَعْمَى وَإِنَّ ٱلْكَافِرِينَ لَا يُفْلِحُونَ . وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْخَبَرِ ٱلْمَنْفِيِّ . فَاذَا قُلْتَ . أَنْتَ لَا تُحْسِنُ هٰذَا . كَانَ أَبْلَغَ مِنْ انْ تَقُولَ : لَا تُحْسِنُ هٰذَا . فَالْأَوَّلُ لِمَنْ هُوَ اشَدُّ إِعْجَابًا بِنَفْسِهِ وَأَكْثَرُ دَعوى بِأَنَّهُ يُحْسِنُ . وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ تَقْدِيمُ ٱلْإِسْمِ كَاللَّازِمِ وَهُوَ : (كَمِثْلِ) فِي نَحْوِ قَوْلِهِ :

يَاعَاذِلِي دَعْنِي مِنْ عَذْلِكَ   مِثْلِي لَا يَقْبَلُ مِنْ مِثْلِكَ

وَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

مِثْلُكَ يَثْنِي ٱلْحُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ   وَيَسْتَرِدُّ ٱلدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ

وَكَقَوْلِ ٱلنَّاسِ : مِثْلُكَ يَرْعَى ٱلْحَقَّ وَٱلْحُرْمَةَ . وَمَا اشْبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يَقْصِدُ فِيهِ ٱلْإِنْسَانُ سِوَى ٱلَّذِي أُضِيفَ إِلَيْهِ وَجِيءَ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ . وَٱلْمَعْنَى إِنَّ مَنْ كَانَ مِثْلَهُ فِي ٱلْحَالِ وَٱلصِّفَةِ كَانَ مِنْ مُقْتَضَى ٱلْقِيَاسِ أَنْ يَفْعَلَ مَا ذُكِرَ فَكَيْفَ بِهِ . وَقَدْ عَبَّرَ ٱلْمُتَنَبِّي عَنْ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَقَالَ :

وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَعْنِي بِهِ   سِوَاكَ يَافَرْدًا بِلَا مُشْبِهِ

وَكَذٰلِكَ حُكْمُ (غَيْر) إِذَا سَلَكَ فِيهِ هٰذَا ٱلْمَسْلَكَ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هٰذَا ٱلنَّاسِ يَنْخَدِعُ   إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

أَيْ لَسْتُ مِمَّنْ يَنْخَدِعُ وَيَغْتَرُّ . وَلَوْ لَمْ يُقَدِّمْ (مِثْلًا وَغَيْرًا) فِي هٰذِهِ ٱلصُّوَرِ لَمْ يُرَدْ هٰذَا ٱلْمَعْنَى

(أَمَّا مَوَاضِعُ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ) فَقَدْ يَحْسُنُ ٱلتَّقْدِيمُ فِي مَوَاضِعَ :
(ٱلْأَوَّلُ) أَنْ تَكُونَ ٱلْحَاجَةُ إِلَى ذِكْرِهِ أَشَدَّ كَقَوْلِكَ : قَطَعَ ٱللِّصَّ ٱلْأَمِيرُ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْيَقَ بِمَا قَبْلَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ أَوْ

بِمَا بعدهُ كَقَوْلِهِ: وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ . فَإِنَّهُ أَشْكَلُ بِمَا بَعْدَهُ . وَهُوَ قَوْلُهُ: إِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ . وَبِمَا قَبْلَهُ وَهُوَ: مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ أَعْرَفَ أَوْ أَشَدَّ تَعَلُّقًا بِمَا بَعْدَهُ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ قَامَ . وَقَامَ زَيْدٌ . وَزَيْدٌ ٱلطَّوِيلُ . (ٱلرَّابِعُ) أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلَّتِي لَهَا صَدْرُ ٱلْكَلَامِ كَحُرُوفِ ٱلِٱسْتِفْهَامِ وَٱلنَّفْيِ فَإِنَّ ٱلِٱسْتِفْهَامَ طَلَبُ فَهْمِ ٱلشَّيْءِ وَهُوَ حَالَةٌ إِضَافِيَّةٌ فَلَا تَسْتَقِلُّ بِٱلْمَفْهُومِيَّةِ فَيَشْتَدُّ ٱتِّصَالُهُ بِمَا بَعْدَهُ . (ٱلْخَامِسُ) تَقْدِيمُ ٱلْكُلِّيِّ عَلَى جُزْئِيَّاتِهِ . فَإِنَّ ٱلشَّيْءَ كُلَّمَا كَانَ أَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ أَعْرَفَ فَإِنَّ ٱلْوُجُودَ لَمَّا كَانَ أَعَمَّ ٱلْأُمُورِ كَانَ أَعْرَفَهَا عِنْدَ ٱلْعَقْلِ . (ٱلسَّادِسُ) تَقْدِيمُ ٱلدَّلِيلِ عَلَى ٱلْمَدْلُولِ

وَأَمَّا ٱلتَّأْخِيرُ فَيَحْسُنُ فِي مَوَاضِعَ: (ٱلْأَوَّلُ) تَمَامُ ٱلِٱسْمِ كَٱلصِّلَةِ وَٱلْمُضَافِ إِلَيْهِ . (ٱلثَّانِي) تَوَابِعُ ٱلْأَسْمَاءِ . (ٱلثَّالِثُ) ٱلْفَاعِلُ . (ٱلرَّابِعُ) ٱلْمُضْمَرُ وَهُوَ إِنْ كَانَ مُتَأَخِّرًا لَفْظًا وَتَقْدِيرًا كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ زَيْدٌ غُلَامَهُ . أَوْ مُؤَخَّرًا فِي ٱللَّفْظِ مُقَدَّمًا فِي ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِهِ: وَإِذَا ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ . أَوْ بِٱلْعَكْسِ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ غُلَامَهُ زَيْدٌ جَازَ . وَإِنْ تَقَدَّمَ لَفْظًا وَمَعْنًى لَمْ يَجُزْ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ غُلَامُهُ زَيْدًا . (ٱلْخَامِسُ) مَا يُفْضِي إِلَى ٱللَّبْسِ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ مُوسَى عِيسَى . وَأَكْرَمَ هٰذَا هٰذَا . فَيَجِبُ فِيهِ تَقْدِيمُ ٱلْفَاعِلِ . (ٱلسَّادِسُ) ٱلْعَامِلُ ٱلَّذِي يَضْعُفُ عَمَلُهُ كَٱلصِّفَةِ ٱلْمُشَبَّهَةِ وَٱلتَّمْيِيزِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ حَرْفٌ أَوْ مَعْنًى كَقَوْلِكَ: هُوَ حَسَنٌ وَجْهًا . وَكَرِيمٌ أَبًا . وَتَصَبَّبَ عَرَقًا . وَخَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ دِرْهَمًا وَإِنَّ

زَيدًا قائِمٌ . وَفي الدَّارِ سَعْدٌ جالِسٌ . وَلَا يَجُوزُ الفَصلُ بَيْنَ العَامِلِ وَالمَعمُولِ بِمَا لَيسَ مِنهُ فَلا تَقُولُ : كَانَتْ زَيدا الحُمَّى تَأْخُذُ . إذا رَفَعْتَ الحُمَّى بِكَانَتْ لِلفَصلِ بَيْنَ العَامِلِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ . فَإِنْ اَضمَرتَ الحُمَّى في كانَتْ صَحَّتِ المَسْأَلَةُ

البحث التاسع

في الحذف والاضمار

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ٢٠ من علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ الأَفعَالَ المُتَعدِّيَةَ الَّتي يُترَكُ ذِكرُ مَفعُولاتِهَا عَلَى قِسمَيْنِ : (الأَوَّلُ) اَنْ لا يَكُونَ لَهُ مَفعُولٌ مُعيَّنٌ فَقَدْ يُترَكُ مَفعُولُهُ لفظًا وَتَقدِيرًا وَيُجعَلُ حَالُهُ كَحَالِ غَيرِ المُتَعدِّي كَقَولِهِمْ : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعقِدُ وَيَأْمُرُ وَيَنهَى وَيَضرُّ وَيَنفَعُ . وَالمَقصُودُ اِثبَاتُ المَعنَى فِي نَفسِهِ الشَّيْءَ مِنْ غَيرِ تَعَرُّضٍ لِحَدِيثِ المَفعُولِ فَكَأَنَّكَ قُلتَ : بِحَيثُ يَكُونُ مِنْهُ حَلٌّ وَعَقدٌ وَأَمرٌ وَنَهيٌ وَضَرٌّ وَنَفعٌ . وَبِالجُملَةِ مَتَى كَانَ الغَرَضُ بَيَانَ حَالِ الفَاعِلِ فَقَطْ فَلا تُعَدِّ الفِعلَ فَإِنْ تَعدِيَتَهُ تَنقُضُ الغَرَضَ . اَلا تَرَى اَنَّكَ اِذَا قُلتَ : فُلانٌ يُعطِي الدَّنَانِيرَ كَانَ المَقصُودُ بَيَانَ جِنسِ مَا تَنَاوَلَهُ الإِعطَاءُ لا بَيَانُ حَالِ كَونِهِ مُعطِيًا . (الثَّاني) اَنْ يَكُونَ لَهُ مَفعُولٌ مَعلُومٌ اِلَّا اَنَّهُ يُحذَفُ مِنَ اللَّفظِ لِأَغرَاضٍ : (الاوَلُ) اَنْ يَكُونَ المُرَادُ بَيَانَ حَالِ الفَاعِلِ وَاَنَّ ذَلِكَ الفِعلَ دَأْبُهُ لا بَيَانُ

ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِ طُفَيْلٍ :

جَزَى ٱللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِئِينَ فَزَلَّتِ
أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ
هُمُ خَلَطُونَا بِٱلنُّفُوسِ وَأَلْجَأُوا ... إِلَى حُجُرَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظَلَّتِ

وَٱلْأَصْلُ أَنْ يَقُولَ : لَمَلَّتْنَا وَأَلْجَأُونَا وَأَدْفَأَتْنَا وَأَظَلَّتْنَا فَحَذَفَ ٱلْمَفْعُولَ ٱلْمُعَيَّنَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَأَنَّهُ قَدْ أُبْهِمَ وَلَمْ يُقْصَدْ قَصْدَ شَيْءٍ يَقَعُ عَلَيْهِ كَمَا تَقُولُ : قَدْ مَلَّ فُلَانٌ . تُرِيدُ قَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ ٱلْمَلَالُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَخُصَّ شَيْئًا بَلْ لَا تُرِيدُ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ ٱلْمَلَالَ مِنْ صِفَتِهِ . فَكَذٰلِكَ ٱلشَّاعِرُ جَعَلَ هٰذِهِ ٱلْأَوْصَافَ مِنْ ذَاتِهِمْ وَلَوْ أَضَافَ إِلَى مَفْعُولٍ مُعَيَّنٍ لَبَطَلَ هٰذَا ٱلْغَرَضُ. (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ٱلْمَقْصُودُ ذِكْرَهُ إِلَّا إِنَّكَ لَا تَذْكُرُهُ إِيهَامًا لِأَنَّكَ لَا تَقْصِدُ ذِكْرَهُ كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

شَجْوُ حُسَّادِهِ وَغَيْظُ عِدَاهُ ... أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعٍ

ٱلْمَعْنَى أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ مَحَاسِنَهُ وَأَنْ يَسْمَعَ وَاعٍ أَخْبَارَهُ . وَلٰكِنَّهُ تَغَافَلَ عَنْ ذٰلِكَ إِيذَانًا بِأَنَّ فَضَائِلَهُ يَكْفِي فِيهَا أَنْ يَقَعَ عَلَيْهَا بَصَرٌ وَيَعِيهَا سَمْعٌ حَتَّى يُعْلَمَ أَنَّهُ ٱلْمُنْفَرِدُ بِٱلْفَضَائِلِ فَلَيْسَ لِحُسَّادِهِ وَعِدَاهُ أَشْجَى مِنْ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ هَا هُنَا مُبْصِرًا وَسَامِعًا . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يُحْذَفَ لِكَوْنِهِ بَيِّنًا كَقَوْلِهِمْ : أَصْغَيْتُ إِلَيْكَ . أَيْ أُذُنِي . وَأَغْضَيْتُ عَلَيْكَ . أَيْ جَفْنِي

(فَصْلٌ فِي حَذْفِ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ) قَدْ يَحْسُنُ حَذْفُ ٱلْمُبْتَدَإِ حَيْثُ يَكُونُ ٱلْغَرَضُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ فِي ٱسْتِحْقَاقِ ٱلْوَصْفِ بِمَا جُعِلَ وَصْفًا لَهُ

إلى حيث يعلم بالضرورة أن ذلك ليس إلا له سواء كان في نفسه كذلك أو بحسب دعوى الشاعر على طريق المبالغة فذكره يبطل هذا الغرض. ولهذا قال عبد القاهر: ما من اسم يحذف في الحالة ينبغي أن يحذف فيها إلا وحذفه أحسن من ذكره فمن حذف المبتدإ قول الشاعر:

لا يبعد الله التلبب م والغارات إذ قال الخميس نعم

أي هذه نعم. قال عبد القاهر: ومن المواضع التي يطرد فيها حذف المبتدإ بالقطع والاستئناف أنهم يبدأون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ثم يدعون الكلام الأول فيستأنفون كلاما آخر إذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدإ مثال ذلك:

وعلمت أني يوم ذا ك منازل كعبا ونهدا

قوم إذا لبسوا الحديد م تنمروا حلقا وقدا

وقول الحطيئة:

هم حلوا من الشرف المعلى ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

أساة مكارم وأساة كلم دماؤهم من الكلب الشفاء

وأمثلته كثيرة. ومن حذف الخبر قوله: لولا أنتم لكنا مؤمنين أي لولا أنتم مضلونا. وقول عمر: لولا علي لهلك عمر. أي لولا علي حاضر أو مفت. ومما يحتمل الأمرين قوله: طاعة وقول معروف. وقوله: فصبر جميل

الإضمار على شريطة التفسير كقولك: أكرمني وأكرمت عبد الله أي

أكرمني عبدُ اللهِ وأكرمتُ عبدَ اللهِ. ومما يشبهُ ذلك مفعولُ المشيئةِ إذا جاءت بعدَ (لو). فإن كان مفعولُها عظيماً أو غريباً فالأولى ذِكرُه كقولِه:

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَماً لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

فإنَّ بكاءَ الإنسانِ دماً عجيبٌ. وإن لم يكن كذلك فالأولى حذفُه كقولِه: ولو شاءَ اللهُ لجمعهم على الهدى. والتقدير: ولو شاء اللهُ أن يجمعَهم على الهدى لجمعهم. واعلم أنه قد تُترك الكنايةُ إلى التصريحِ لما فيه من زيادةِ الفخامةِ كقولِ البحتري:

قَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ فِي السُّؤْ دُدِ وَالْمَجْدِ وَالْمَكَارِمِ مِثْلَا

المعنى قد طلبنا لك مثلاً. ثم حذف لأنَّ هذا المدحَ إنما يتمُّ بنفي المثلِ فلو قال: قد طلبنا لك مثلاً في السؤددِ والمجدِ فلم نجد لكان قد أوقع نفيَ الوجودِ على ضميرِ (المثلِ) فلم يكن فيه من المبالغةِ ما إذا أوقعه على صريحِ المثلِ. فإنَّ الكنايةَ لا تبلغُ مبلغَ الصريحِ. وعلى ذلك قولُ الشاعرِ:

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْءٌ نَغَّصَ الْمَوْتُ ذَا الْغِنَى وَالْفَقِيرَا

البحث العاشر

في جوامع الكلم

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

إنَّ الكلمَ جمعُ كلمةٍ. والجوامعُ جمعُ جامعةٍ. والجامعةُ اسمُ فاعلةٍ من جمعت فهي جامعةٌ. كما يُقالُ في المذكرِ جمعَ فهو جامعٌ

وَٱلْمُرَادُ بِجَوَامِعِ ٱلْكَلِمِ ٱلْكَلِمُ ٱلْجَوَامِعُ لِلْمَعَانِي. وَهُوَ عِنْدِي يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) مِنْهُمَا هُوَ مَا ٱسْتَخْرَجْتُهُ وَنَبَّهْتُ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيهِ قَوْلٌ سَابِقٌ وَهُوَ أَنَّ لَنَا أَلْفَاظًا تَتَضَمَّنُ مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا لَا تَتَضَمَّنُهُ أَخَوَاتُهَا مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي مَكَانِهَا . فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْمَجَازِ . وَمِنْهُ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْحَقِيقَةِ . وَقَدْ وَرَدَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فِي أَقْوَالِ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُفْلِقِينَ . وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ ٱلْأَشْعَارَ قَدِيمَهَا وَحَدِيثَهَا وَحَفِظْتُ مَا حَفِظْتُ مِنْهَا وَكُنْتُ إِذَا مَرَرْتُ بِنَظَرِي فِي دِيوَانٍ مِنَ ٱلدَّوَاوِينِ وَيَلُوحُ لِي فِيهِ مِثْلُ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ أَجِدُ لَهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ وَطَرَبًا كَطَرَبِ ٱلْأَلْحَانِ . وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاظِمِينَ وَٱلنَّاثِرِينَ يَمُرُّ عَلَى ذٰلِكَ وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهُ سِوَى أَنَّهُ يَسْتَحْسِنُهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِيمَا نَظَرْتُ أَنَا فِيهِ وَيَظُنُّهُ كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

كَمْ صَارِمٍ عَضْبٍ أَنَافَ عَلَى قَفًا ... مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ ٱلْوَغَى حَمَّالِ
سَبَقَ ٱلْمَشِيبَ إِلَيْهِ حَتَّى ٱبْتَزَّهُ ... وَطَنَ ٱلنُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقَذَالِ

فَقَوْلُهُ : (وَطَنُ ٱلنُّهَى) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَامِعَةِ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَا يُجَاءُ بِمِثْلِهَا فِي مَعْنَاهَا مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهَا . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ وَيَدٌ ... تُمْضِي ٱلْأُمُورَ وَنَفْسٌ لَهْوُهَا ٱلتَّعَبُ

فَقَوْلُهُ : (قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَوَامِعِ . وَمُرَادُهُ بِذٰلِكَ أَنَّ قَلْبَهُ لَا تَمْلَأُهُ ٱلْأَفْكَارُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ عَالٍ

عليها يصف بذلك عدم احتفاله بالفوادح وقلة مبالاته بالخطوب التي تحدث افكارا تستغرق القلوب وهذه عبارة عجيبة لا يؤتى بمثلها مما يسد مسدها . (واما) ما يأتي على حكم الحقيقة فكقول ابن الرومي :

سقى الله اوطارا لنا ومآربا ... تقطع من اقرانها ما تقطعا

ليال تنسيني الليالي حسابها ... بلهنية اقضي بها الحول اجمعا

سوى عزة لا اعرف اليوم باسمه ... واعمل فيه اللهو مرأى ومسمعا

فقوله : (لا اعرف اليوم باسمه) من الكلمات الجامعة اي اني قد شغلت باللذات عن معرفة الليالي والايام ولو وصف اشتغاله باللذات مهما وصف لم يأت بمثل قوله : (لا اعرف اليوم باسمه) . (واما القسم الثاني) من جوامع الكلم فالمراد به الايجاز الذي يدل به بالالفاظ القليلة على المعاني الكثيرة اي تكون الالفاظ جامعة المعاني المقصودة على ايجازها واختصارها . وسيأتي في باب الايجاز منه ما فيه كفاية ومقنع . (فان قيل) : فما الفرق بين هذين القسمين اللذين ذكرتهما فانهما بالنظر سواء . (قلت في الجواب) : ان الايجاز هو ان يؤتى بالفاظ دالة على معنى من غير ان تزيد على ذلك المعنى ولا يشترط في تلك الالفاظ انها لا نظير لها فانها تكون قد اتصفت بوصف آخر خارج عن وصف الايجاز . وحينئذ يكون ايجازا او زيادة . واما هذا القسم الآخر فانه الفاظ افراد في حسنها لا نظير لها . فتارة تكون موجزة وتارة لا تكون

مُوجَزَةً . وَلَيسَ ٱلْغَرَضُ مِنهَا ٱلْإِيجَازَ وَإِنَّمَا ٱلْغَرَضُ مَكَانُهَا مِنَ ٱلْحُسْنِ ٱلَّذِي لَا نَظِيرَ لَهَا فِيهِ . أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ : (وَطَنَ ٱلنُّهَى) فَإِنَّ ذٰلِكَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَاشَكَّ أَنَّ ٱلرَّأْسَ أَوجَزُ لِأَنَّ ٱلرَّأْسَ لَفظَةٌ وَاحِدَةٌ . وَوَطَنَ ٱلنُّهَى لَفظَتَانِ . إِلَّا إِنَّ (وَطَنَ ٱلنُّهَى) أَحسَنُ فِي ٱلتَّعبِيرِ عَنِ ٱلرَّأْسِ . فَبَانَ بِهٰذَا أَنَّ أَحَدَ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ غَيْرُ ٱلْآخَرِ

البحث الحادي عشر

في الانسجام

(عن شرح بديعية العميان لابن جابر وبديعية الحموي)

(راجع صفحة ٢١ من علم الادب)

اَلِانْسِجَامُ لُغَةً جَرَيَانُ ٱلْمَاءِ وَعِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَلَاغَةِ هُوَ أَنْ يَأْتِيَ ٱلنَّاظِمُ أَوِ ٱلنَّاثِرُ بِكَلَامٍ خَالٍ مِنَ ٱلتَّعقِيدِ ٱللَّفظِيِّ وَٱلْمَعْنَوِيِّ بَسِيطًا مَفْهُومًا دَقِيقَ ٱلْأَلْفَاظِ جَلِيلَ ٱلْمَعْنَى لَا تَكَلُّفَ فِيهِ وَلَا تَعَسُّفَ يَتَحَدَّرُ كَتَحَدُّرِ ٱلْمَاءِ ٱلْمُنْسَجِمِ فَيَكَادُ لِسُهُولَةِ تَرْكِيبِهِ وَعُذُوبَةِ أَلْفَاظِهِ أَنْ يَسِيلَ رِقَّةً . وَلَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا فِي مَنْ هُوَ مَطْبُوعٌ عَلَى سَلَامَةِ ٱلذَّوْقِ وَتَوَقُّدِ ٱلْفِكْرَةِ وَبَرَاعَةِ ٱلْإِنْشَاءِ وَحُسْنِ ٱلْأَسَالِيبِ . فَإِنْ كَانَ مَصْنُوعًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ فِيهِ غَالِبًا مَا يُظْهِرُ صِنَاعَتَهُ مَعَ مُقَابَلَتِهِ بِغَيْرِهِ مِنْ نَفْسِ صَانِعِهِ . وَإِنَّ فُحُولَ هٰذَا ٱلْمَيْدَانِ مَا ٱتَّفَقُوا كَاهِلَ سُهُولَتِهِ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ . وَعَلَى هٰذَا أَجْمَعَ عُلَمَاءُ ٱلْبَدِيعِ فِي حَدِّ هٰذَا ٱلنَّوْعِ فَإِنَّهُمْ قَرَّرُوا : أَنْ يَكُونَ بَعِيدًا فِي ٱلتَّصَنُّعِ خَالِيًا مِنَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِيَّةِ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ

فِي ضِمنِ ٱلسُّهولَةِ مِن غَيرِ قَصدٍ. وَإِنْ كَانَ ٱلإِنسِجامُ فِي ٱلنَّثرِ تَكُونُ غَالِبُ فِقَرَاتِهِ مَوزُونَةً مِن غَيرِ قَصدٍ لِقُوَّةِ ٱنسِجَامِهِ . وَإِنْ كَانَ فِي ٱلنَّظمِ فَتَكَادُ ٱلأَبيَاتُ أَنْ تَسِيلَ رِقَّةً وَعُذُوبَةً . وَرُبَّمَا دَخَلَتْ فِي ٱلمُطرِبِ وَٱلمُرقِصِ

البحث الثاني عشر

في القول في النظم

(عن صناعة الترسل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٤ من علم الادب)

اَلنَّظمُ عِبَارَةٌ عَنْ تَوَاخِي مَعَانِي ٱلنَّحوِ فِيمَا بَيْنَ ٱلكَلَامِ . وَذٰلِكَ أَنْ تَضَعَ كَلَامَكَ ٱلوَضْعَ ٱلَّذِي يَقتَضِيهِ عِلْمُ ٱلنَّحوِ بِأَنْ تَنظُرَ فِي كُلِّ بَابٍ إِلَى قَوَانِينِهِ وَٱلفُرُوقِ ٱلَّتِي بَيْنَ مَعَانِي ٱختِلَافِ صِيَغِهِ وَتَضَعَ ٱلحُرُوفَ مَوَاضِعَهَا وَتُرَاعِيَ شَرَائِطَ ٱلتَّقدِيمِ وَٱلتَّأخِيرِ وَمَوَاضِعَ ٱلفَصلِ وَٱلوَصلِ وَمَوَاضِعَ حُرُوفِ ٱلعَطفِ عَلَى ٱختِلَافِ مَعَانِيهَا وَتَعتَبِرَ ٱلإِصَابَةَ فِي طَرِيقِ ٱلتَّشبِيهِ وَٱلتَّمثِيلِ . وَقَدِ ٱطَّبَقَ ٱلعُلَمَاءُ عَلَى تَعظِيمِ شَأنِ ٱلنَّظمِ وَأَنْ لَا فَضلَ مَعَ عَدَمِهِ وَلَوْ بَلَغَ ٱلكَلَامُ فِي غَرَابَةِ مَعنَاهُ إِلَى مَا بَلَغَ . وَإِنَّ سَبَبَ فَسَادِهِ تَركُ ٱلعَمَلِ بِقَرَائِنِ ٱلنَّحوِ وَٱستِعمَالُ شَيْءٍ فِي غَيرِ مَوضِعِهِ . ثُمَّ ٱلجُمَلُ ٱلكَثِيرَةُ إِذَا نُظِمَتْ نَظمًا وَاحِدًا فَهِيَ عَلَى قِسمَينِ : (ٱلأَوَّلُ) أَنْ يَتَعَلَّقَ ٱلبَعضُ بِٱلبَعضِ فَلَا يَحتَاجُ وَاضِعُهُ إِلَى فِكرٍ وَرَوِيَّةٍ فِي ٱستِخرَاجِهِ بَلْ هُوَ كَمَنْ عَمَدَ إِلَى ٱللَّآلِئِ

يَنظِمها في سِلكٍ . ومثالُه قولُ الجاحظ : جنَّبك اللهُ الشُّبهة وعصمك من الحَيرة وجعل بينك وبين المعروف نسباً وبينك وبين الصدق سبباً . وكقول النابغة للنعمان : يُفاخرك ابنُ ابي جفنة وإنَّ لقفاك خيرٌ من وجهه ولشمالك خيرٌ من يمينه ولأخمصك خيرٌ من رأسه ولخطأك خيرٌ من صوابه ولخدمك خيرٌ من قومه . وهذا النظم لا يستحق الفضل إلَّا بسلامة معناه وسلامة ألفاظه إذ ليس فيه معنى دقيق لا يُدرك إلَّا بثاقب الفكر . وربَّما ظنَّ بالكلام أنَّه من هذا الجنس ولا يكون منهُ . (الثاني) أن تكون الجمل المذكورة يتعلق بعضها ببعض وهناك تظهر قوَّةُ الطبع وجودةُ القريحة واستقامة الذهن . ثمَّ ليس لهذا الباب قانونٌ يُحفظ فانما يجيء على وجوه شتَّى : (فمنها الايجاز) وهو التعبير عن الغرض بأقلِّ ما يمكن من الحروف وهو على ضربين : (أحدهما) إيجاز قصر وهو تقليل اللفظ وتكثير المعنى . (والثاني) إيجاز حذف وهو الاستغناء بالمذكور عمَّا لم يُذكر . (ومنها التأكيد) وهو تقوية المعنى وتقريره إمَّا بإظهار البرهان كقول قابوس :

يا ذا الذي بصروف الدهر عيَّرنا   هل عاند الدهر الَّا من له خطرُ
اما ترى البحر يعلو فوقه جيفٌ   وتستقرُّ بأقصى قعره الدُّررُ
وفي السماء نجومٌ غير ذي عددٍ   وليس يُكسف الا الشمس والقمرُ

(أو بالعزيمة) كقوله : فوربِّ السماء والارض إنَّه لحقٌّ .
(أو بالتكرار) كقولهم : اللهَ اللهَ والأسدَ الأسدَ

الفصل الرابع

في البيان

البحث الاوَّل

في تحديد البيان على وجه الاجمال

(من كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغرر الخصائص للوطواط بتصرُّف)

(راجع صفحة ٢٧ و٢٨ من علم الادب)

اَلْبَيَانُ ٱسْمٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَشَفَ لَكَ عَلَى بَيَانِ ٱلْمَعْنَى وَهَتَكَ لَكَ ٱلْحُجُبَ دُونَ ٱلضَّمِيرِ حَتَّى يُفْضِيَ ٱلسَّامِعُ إِلَى حَقِيقَتِهِ وَيَهْجُمَ عَلَى مَحْصُولِهِ كَائِنًا مَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلْبَيَانُ وَمِنْ اَيِّ جِنْسٍ كَانَ ذٰلِكَ ٱلدَّلِيلُ. لِاَنَّ مَدَارَ ٱلْاَمْرِ وَٱلْغَايَةَ ٱلَّتِي يَجْرِي إِلَيْهَا ٱلْقَائِلُ وَٱلسَّامِعُ إِنَّمَا هُوَ ٱلْفَهْمُ وَٱلْإِفْهَامُ فَبِاَيِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ ٱلْإِفْهَامَ وَاَوْضَحْتَ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَذٰلِكَ هُوَ ٱلْبَيَانُ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعِ. وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى ٱلْبَرْمَكِيِّ: مَا ٱلْبَيَانُ. قَالَ: اَنْ يَكُونَ ٱلِٱسْمُ يُحِيطُ بِمَعْنَاكَ وَيَكْشِفُ عَنْ مَغْزَاكَ وَيُخْرِجُهُ مِنَ ٱلشِّرْكَةِ وَلَا يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِٱلْفِكْرَةِ وَيَكُونَ سَلِيمًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ بَعِيدًا مِنَ ٱلصَّنْعَةِ بَرِيئًا مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأْوِيلِ. وَقَالُوا: ٱلْبَيَانُ بَصَرٌ وَٱلْعِيُّ عَمًى كَمَا اَنَّ ٱلْعِلْمَ بَصَرٌ وَٱلْجَهْلَ عَمًى وَٱلْبَيَانُ مِنْ نَتَائِجِ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعِيُّ مِنْ نَتَائِجِ ٱلْجَهْلِ. وَقَالُوا: حَيَاةُ ٱلْمُرُوءَةِ ٱلصِّدْقُ وَحَيَاةُ ٱلرُّوحِ ٱلْعَفَافُ وَحَيَاةُ ٱلْحِلْمِ ٱلْعِلْمُ وَحَيَاةُ ٱلْعِلْمِ

ٱلْبَيَانُ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلتَّوْأَمِ : ٱلرُّوحُ عِمَادُ ٱلْبَدَنِ وَٱلْعِلْمُ عِمَادُ ٱلرُّوحِ وَٱلْبَيَانُ عِمَادُ ٱلْعِلْمِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى حَدِّ ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَنَقَّصُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . (وَفِي كُتُبِ ٱلْحُكَمَاءِ): ٱلْبَيَانُ هُوَ أَنْ يُحْسِنَ ٱلْعِبَارَةَ عَنِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي تَهْجِسُ فِي ٱلضَّمِيرِ فَيَحْتَاجُ إِلَى نَقْلِ صُوَرِهَا ٱلْمُتَخَيَّلَةِ أَوِ ٱلْمَعْقُولَةِ إِلَى ضَمِيرِ مَنْ يُخَاطِبُهُ . وَقَالَ آخَرُ : خَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقُّنُهُ وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللِّسَانِ تَعَاهُدُهُ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْقُلُوبِ وَصَيْقَلُ ٱلْعُقُولِ . وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱللِّسَانِ وَرَوْضُ ٱلْقُلُوبِ

البحث الثاني

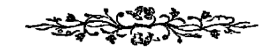
في تعريف علم البيان

(عن الكشّاف للتهانوي وكشف الظنون لحاجّ خلفا)

(راجع صفحة ٢٧ من علم الادب)

ٱلْبَيَانُ لُغَةً ٱلْكَشْفُ وَٱلتَّوْضِيحُ وَٱلظُّهُورُ وَهُوَ فِي ٱلْاصْطِلَاحِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْمَنْطِقِ ٱلْفَصِيحِ ٱلْمُعْرِبِ عَمَّا فِي ٱلضَّمِيرِ . وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى ٱلْإِثْبَاتِ بِٱلدَّلِيلِ . وَقِيلَ : ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْبَيَانِ وَٱلتِّبْيَانِ بِأَنَّ ٱلْبَيَانَ هُوَ إِظْهَارُ ٱلْمُرَادِ . وَٱلتِّبْيَانُ يَحْتَوِي عَلَى كَدِّ ٱلْخَاطِرِ وَإِعْمَالِ ٱلْقَلْبِ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ مَا قِيلَ : ٱلتِّبْيَانُ بَيَانٌ مَعَ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ .

وَٱلْبَيَانُ عِنْدَ ٱلْبُلَغَـاءِ : هُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ اِيرَادُ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِتَرَاكِيبَ مُخْتَلِفَةٍ فِي وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ بِاَنْ يَكُونَ دَلَالَةُ بَعْضِهَا اَجْلَى مِنْ بَعْضٍ . وَمَوْضُوعُهُ ٱللَّفْظُ ٱلْبَلِيغُ مِنْ حَيْثُ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَغَرَضُهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلْاِفَادَةِ بِٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَفَهْمِ مَدْلُولَاتِهَا . وَغَايَتُهُ ٱلِاحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَاءِ فِي تَعْيِينِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا عَقْلِيَّةٌ كَاَقْسَامِ ٱلدَّلَالَةِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْعَلَاقَاتِ . وَبَعْضُهَا وِجْدَانِيَّةٌ ذَوْقِيَّةٌ كَوُجُوهِ ٱلتَّشْبِيهَـاتِ وَاَقْسَامِ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَكَيْفِيَّةِ حُسْنِهَا . وَاِنَّمَا ٱخْتَارُوا فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وُضُوحَ ٱلدَّلَالَـةِ لِاَنَّ بَحْثَهُمْ لَمَّا ٱقْتَصَرَ عَلَى ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ اَعْنِي ٱلتَّضَمُّنِيَّـةَ وَٱلِالْتِزَامِيَّةَ وَكَانَتْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَةُ خَفِيَّـةً سِيَّمَا اِذَا كَانَ ٱللُّزُومُ بِحَسَبِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلطَّبَائِعِ فَوَجَبَ ٱلتَّعْبِيرُ عَنْهَا بِلَفْظٍ اَوْضَحَ . مَثَلًا : اِذَا كَانَ ٱلْمَرْئِيُّ دَقِيقًا فِي ٱلْغَايَةِ تَحْتَاجُ ٱلْحَاسَّةُ فِي اِبْصَارِهَا اِلَى شُعَاعٍ قَوِيٍّ بِخِلَافِ ٱلْمَرْئِيِّ اِذَا كَانَ جَلِيلًا . وَكَذَا ٱلْحَالُ فِي ٱلرُّؤْيَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ اَعْنِي ٱلْفَهْمَ وَٱلْاِدْرَاكَ . وَٱلْحَاصِلُ اَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ دِقَّةُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِيهَا مِنَ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَٱلْكِنَايَاتِ مَعَ وُضُوحِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلدَّالَّةِ عَلَيْهَا



البحث الثالث

في الحقيقة والمجاز

(من المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هٰذَا ٱلفَصْلُ مُهِمٌّ كَبِيرٌ مِنْ مُهِمَّاتِ عِلْمِ ٱلبَيَانِ لَا بَلْ هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ بِأَجْمَعِهِ. فَإِنَّ فِي تَصْرِيفِ ٱلعِبَارَاتِ عَلَى ٱلْأُسْلُوبِ ٱلمَجَازِيِّ فَوَائِدَ كَثِيرَةً. وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ عَلَى جُمْلَتِهَا دُونَ تَفْصِيلِهَا. فَأَمَّا ٱلْحَقِيقَةُ فَهِيَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى مَوْضُوعِهِ ٱلْأَصْلِيِّ. وَأَمَّا ٱلمَجَازُ فَهُوَ مَا أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ مِنْ أَصْلِ ٱللُّغَةِ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ جَازَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِذَا تَخَطَّاهُ إِلَيْهِ. فَٱلْمَجَازُ إِذًا ٱسْمٌ لِلْمَكَانِ ٱلَّذِي يُجَازُ فِيهِ كَٱلْمَعَاجِ وَٱلْمَزَارِ وَأَشْبَاهِهِمَا. وَحَقِيقَتُهُ هِيَ ٱلِٱنْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ. فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلْأَلْفَاظِ مِنْ مَحَلٍّ إِلَى مَحَلٍّ كَقَوْلِنَا: زَيْدٌ أَسَدٌ. فَإِنَّ زَيْدًا إِنْسَانٌ وَٱلْأَسَدَ هُوَ هٰذَا ٱلْحَيَوَانُ ٱلْمَعْرُوفُ. وَقَدْ جُزْنَا مِنَ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى ٱلْأَسَدِيَّةِ. أَيْ عَبَرْنَا مِنْ هٰذِهِ إِلَى هٰذِهِ لِوُصْلَةٍ بَيْنَهُمَا وَتِلْكَ ٱلْوُصْلَةُ هِيَ صِفَةُ ٱلشَّجَاعَةِ. وَقَدْ يَكُونُ ٱلْعُبُورُ لِغَيْرِ وُصْلَةٍ. وَذٰلِكَ هُوَ ٱلِٱتِّسَاعُ كَقَوْلِهِمْ فِي كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ: قَالَ ٱلْأَسَدُ. قَالَ ٱلثَّعْلَبُ. فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ لَا وُصْلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذَيْنِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ. وَإِنَّمَا أُجْرِيَ عَلَيْهِمَا ٱتِّسَاعًا مَحْضًا لَا غَيْرُ.... وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ كُلَّهُ حَقِيقَةٌ لَا مَجَازَ فِيهِ. وَذَهَبَ آخَرُونَ: إِلَى أَنَّهُ كُلَّهُ مَجَازٌ لَا حَقِيقَةَ فِيهِ. وَكِلَا هٰذَيْنِ

ٱلْمَذْهَبَيْنِ فَاسِدٌ عِنْدِي . وَسَأُجِيبُ ٱلْخَصْمَ عَمَّا ٱدَّعَاهُ فِيهِمَا فَأَقُولُ : مَحَلُّ ٱلنِّزَاعِ هُوَ إِنَّ ٱللُّغَةَ كُلَّهَا حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّهَا كُلَّهَا مَجَازٌ . وَلَا فَرْقَ عِنْدِي بَيْنَ قَوْلِكَ إِنَّهَا كُلَّهَا حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّهَا مَجَازٌ . فَإِنَّ كِلَا ٱلطَّرَفَيْنِ عِنْدِي سَوَاءٌ . لِأَنَّ مُنْكِرَهُمَا غَيْرُ مُسَلِّمٍ لَهُمَا . وَأَنَا بِصَدَدِ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّ فِي ٱللُّغَةِ حَقِيقَةً وَمَجَازًا . وَٱلْحَقِيقَةُ ٱللُّغَوِيَّةُ هِيَ حَقِيقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي وَلَيْسَتْ بِٱلْحَقِيقَةِ ٱلَّتِي هِيَ ذَاتُ ٱلشَّيْءِ أَيْ نَفْسُهُ وَعَيْنُهُ . فَٱلْحَقِيقَةُ ٱللَّفْظِيَّةُ إِذًا هِيَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي أَصْلِ ٱللُّغَةِ . وَٱلْمَجَازُ هُوَ نَقْلُ ٱلْمَعْنَى عَنِ ٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ إِلَى لَفْظٍ آخَرَ غَيْرِهِ . وَتَقْرِيرُ ذٰلِكَ بِأَنْ أَقُولَ : ٱلْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَفْتَقِرُ إِلَى أَسْمَاءٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَيْهَا لِيُعْرَفَ كُلٌّ مِنْهَا بِٱسْمِهِ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّفَاهُمِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ . وَهٰذَا يَقَعُ ضَرُورَةً لَا بُدَّ مِنْهَا . فَٱلِٱسْمُ ٱلْمَوْضُوعُ بِإِزَاءِ ٱلْمُسَمَّى هُوَ حَقِيقَةٌ لَهُ فَإِذَا نُقِلَ إِلَى غَيْرِهِ صَارَ مَجَازًا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّا إِذَا قُلْنَا : شَمْسٌ . أَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْكَوْكَبَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْكَثِيرَ ٱلضَّوْءِ . وَهٰذَا ٱلِٱسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . وَكَذٰلِكَ إِذَا قُلْنَا : بَحْرٌ . أَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْمَاءَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْمُجْتَمِعَ ٱلَّذِي طَعْمُهُ مِلْحٌ . وَهٰذَا ٱلِٱسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . فَإِذَا نَقَلْنَا ٱلشَّمْسَ إِلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَلِيحِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ لَهُ ذٰلِكَ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . وَكَذٰلِكَ إِذَا نَقَلْنَا ٱلْبَحْرَ إِلَى ٱلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ ذٰلِكَ لَهُ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . (فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّ ٱلْوَجْهَ ٱلْمَلِيحَ يُقَالُ لَهُ شَمْسٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لِلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ بَحْرٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . (فَٱلْجَوَابُ) عَنْ ذٰلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا)

نَظَرِيٌّ وَالآخَرُ وَضعِيٌّ. (أمَّا النَّظَرِيُّ) فَهُوَ أنَّ الألفاظَ إنَّمَا جُعِلَتْ أدِلَّةً عَلَى إفهامِ المَعَانِي وَلَوْ كَانَ مَا ذَهَبتَ إلَيهِ صَحِيحًا لَكَانَ البَحْرُ يُطلَقُ عَلَى هٰذَا المَاءِ العَظِيمِ المِلحِ وَعَلَى الرَّجُلِ الجَوَادِ بِالاشْتِرَاكِ. وَكَذلِكَ الشَّمسُ أيضًا فَإنَّهَا كَانَتْ تُطلَقُ عَلَى هٰذَا الكَوكَبِ العَظِيمِ الكَثِيرِ الضَّوءِ وَعَلَى هٰذَا الوَجهِ المَلِيحِ بِالاشْتِرَاكِ. وَحِينَئِذٍ فَإذَا وَرَدَ أحَدُ هٰذَيْنِ اللَّفظَيْنِ مُطلَقًا بِغَيرِ قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهُ فَلَا يُفهَمُ المُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مِنْ أحَدِ المَعنَيَيْنِ المُشتَرَكَيْنِ المُندَرِجَيْنِ تَحتَهُ وَنَحنُ نَرَى الأمرَ بِخِلَافِ ذٰلِكَ فَإنَّا إذَا قُلنَا: شَمسٌ أوْ بَحرٌ. وَأطلَقنَا القَولَ لَا يُفهَمُ مِنْ ذٰلِكَ وَجهٌ مَلِيحٌ وَلَا رَجُلٌ جَوَادٌ. وَإنَّمَا يُفهَمُ مِنهُ ذٰلِكَ الكَوكَبُ المَعلُومُ وَذٰلِكَ المَاءُ المَعلُومُ لَا غَيرُ فَبَطَلَ إذًا مَا ذَهَبتَ إلَيهِ بِمَا بَيَّنَّاهُ وَأوضَحنَاهُ. (فَإنْ قُلتَ): إنَّ العُرفَ يُخَالِفُ مَا ذَهَبتَ إلَيهِ فَإنَّ مِنَ الألفَاظِ مَا إذَا أُطلِقَ لَمْ يَذهَبِ الفَهمُ مِنهُ إلَّا إلَى المَجَازِ دُونَ الحَقِيقَةِ. (قُلتُ فِي الجَوَابِ): هٰذَا شَيْءٌ ذَهَبَ إلَيهِ بَعضُهُمْ وَلَيسَ الأمرُ كَمَا ذَهَبُوا إلَيهِ. لِأنَّهُ إنْ كَانَ إطلَاقُ اللَّفظِ فِيهِ بَيْنَ عَامَّةِ النَّاسِ فَهٰؤُلَاءِ لَا يَفهَمُونَ إلَّا المَعنَى المَجَازِيَّ. لِأنَّهُمْ لَمْ يَعلَمُوا أصلَ وَضعِ الكَلِمَةِ. وَأمَّا خَاصَّةُ النَّاسِ الَّذِينَ يَعلَمُونَ أصلَ الوَضعِ فَإنَّهُمْ لَا يَفهَمُونَ عِندَ إطلَاقِ اللَّفظِ إلَّا الحَقِيقَةَ لَا غَيرُ . . . (وَأمَّا الوَجهُ الوَضعِيُّ) فَهُوَ أنَّ المَرجِعَ فِي هٰذَا وَمَا يَجرِي مَجرَاهُ إلَى أصلِ اللُّغَةِ الَّتِي هِيَ وَضعُ الأسمَاءِ عَلَى المُسَمَّيَاتِ وَلَمْ يُوجَدْ فِيهَا أنَّ الوَجهَ المَلِيحَ يُسَمَّى شَمسًا وَلَا أنَّ الرَّجُلَ الجَوَادَ يُسَمَّى بَحرًا. وَإنَّمَا أهلُ

الْخِطَابَةِ وَالشِّعرِ تَوسَّعُوا فِي الأَسَالِيبِ المَعنَوِيَةِ فَنَقَلُوا الْحَقِيقَةَ اِلى المَجَازِ وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مِنْ وَاضِعِ اللُّغَةِ فِي اصْلِ الوَضْعِ وَلِهٰذَا اخْتَصَّ كُلٌّ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ اخْتَرَعَهُ فِي التَّوسُّعَاتِ المَجَازِيَّـةِ . هٰذَا امْرُؤُ القَيْسِ قَدِ اخْتَرَعَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ . فَمِنْ ذٰلِكَ اَنَّهُ اوَّلُ مَنْ عَبَّرَ عَنِ الفَرَسِ بِقَوْلِهِ : (قَيْدُ الاَوَابِدِ) . وَلَمْ يُسْمَعْ ذٰلِكَ لِاَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ . . . وَوَاضِعُ اللُّغَةِ مَا ذَكَرَ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ فَعَلِمْنَا حِينَئِذٍ انَّ مِنَ اللُّغَـةِ حَقِيقَةً بِوَضْعِهِ وَمَجَازًا بِتَوسُّعَاتِ اَهْلِ الْخِطَابَةِ وَالشِّعْرِ . وَفِي زَمَانِنَا هٰذَا قَدْ يَخْتَرِعُونَ اشْيَاءَ مِنَ المَجَازِ عَلَى حُكْمِ الاِسْتِعَـارَةِ لَمْ تَـكُنْ مِنْ قَبْلُ . وَلَوْ كَانَ هٰذَا مَوقُوفًا مِنْ جِهَةِ وَاضِعِ اللُّغَـةِ لَمَا اخْتَرَعَهُ اَحَدٌ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا زِيدَ فِيهِ وَلَا نَقَصَ مِنْهُ . وَاَمَّا الفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَقِيقَةِ فَهُوَ اَنَّ الْحَقِيقَةَ جَارِيَةٌ عَلَى العُمُومِ فِي نَظَائِرِ . اَلَا تَرَى اِذَا قُلْنَا : فُلَانٌ عَالِمٌ .صَدَقَ عَلَى كُلِّ ذِي عِلْمٍ . بِخِلَافِ (وَاسْاَلِ القَرْيَةَ) . لِاَنَّهُ لَا يَصِحُّ اِلَّا فِي بَعْضِ الْجَمَادَاتِ دُونَ بَعْضٍ اِذِ المُرَادُ اَهْلُ القَرْيَةِ لِاَنَّهُمْ مِمَّنْ يَصِحُّ السُّؤَالُ لَهُمْ . وَلَا يَجُـوزُ اَنْ يُقَالَ : وَاسْاَلِ الحَجَرَ وَالتُّرَابَ . وَقَدْ يَحْسُنُ اَنْ يُقَالَ : وَاسْاَلِ الرَّبْعَ وَالطَّلَلَ . (وَاعْلَمْ) اَنَّ كُلَّ مَجَازٍ فَلَهُ حَقِيقَةٌ لِاَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ اَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ اسْمُ المَجَازِ اِلَّا عَنْ حَقِيقَةٍ مَوْضُوعَةٍ لَهُ اِذِ المَجَازُ هُوَ اسْمٌ لِلْمَوْضُوعِ الَّذِي يُنْتَقَلُ فِيهِ مِنْ مَـكَانٍ اِلَى مَـكَانٍ فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ الاَلفَاظِ مِنَ الْحَقِيقَةِ اِلَى غَيْرِهَا . وَاِذَا كَانَ كُلُّ مَجَازٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ نُقِلَ عَنْهَا اِلَى حَالَةِ المَجَازِيَةِ فَـكَذٰلِكَ لَيْسَ مِنْ ضَرُورَةِ كُلِّ حَقِيقَةٍ اَنْ يَكُونَ لَهَا مَجَازٌ . فَاِنَّ

مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ مَا لَا مَجَازَ لَهُ كَأَسْمَاءِ ٱلْأَعْلَامِ لِأَنَّهَا وُضِعَتْ لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلذَّوَاتِ لَا لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصِّفَاتِ

وَكَذٰلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمَجَازَ أَوْلَى بِٱلِاسْتِعْمَالِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْأَصْلُ أَوْلَى مِنْهُ حَيْثُ هُوَ فَرْعٌ عَلَيْهَا . وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ لِأَنَّهُ ثَبَتَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخِطَابِيِّ هُوَ إِثْبَاتُ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ بِٱلتَّخْيِيلِ وَٱلتَّصْوِيرِ حَتَّى يَكَادَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ عِيَانًا . أَلَا تَرَى أَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . هِيَ قَوْلُنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لٰكِنْ فُرِقَ بَيْنَ ٱلْقَوْلَيْنِ فِي ٱلتَّصْوِيرِ وَٱلتَّخْيِيلِ وَإِثْبَاتِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ . لِأَنَّ قَوْلَنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لَا يَتَخَيَّلُ مِنْهُ ٱلسَّامِعُ سِوَى أَنَّهُ رَجُلٌ جَرِيءٌ مِقْدَامٌ . فَإِذَا قُلْنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . يُخَيَّلُ عِنْدَ ذٰلِكَ صُورَةَ ٱلْأَسَدِ وَهَيْئَتُهُ وَمَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلْقُوَّةِ وَدَقِّ ٱلْفَرَائِسِ . وَقَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ : (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ) هُوَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ لَوْ قَالَ : مَانِعُ ٱلْأَوَابِدِ عَنِ ٱلذَّهَابِ وَٱلْإِفْلَاتِ . وَٱلْقَيْدُ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْمَنْعِ عَنِ ٱلتَّصَرُّفِ لِأَنَّكَ تُشَاهِدُ مَا فِي ٱلْقَيْدِ مِنَ ٱلْمَنْعِ فَلَا تَشُكُّ فِيهِ . وَكَقَوْلِهِمْ : هٰذَا مِيزَانُ ٱلْقِيَاسِ أَيْ تَعْدِيلُهُ . وَٱلْمَجَازُ أَبْلَغُ لِأَنَّ ٱلْمِيزَانَ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلتَّعْدِيلَ حَتَّى تُعَايِنَهُ وَلِلْعِيَانِ فَضْلٌ عَلَى مَا سِوَاهُ . وَكَذٰلِكَ : ٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ أَيْ حَقِيقَةُ تَقْوِيمِهِ . وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ . وَأَعْجَبُ مَا فِي ٱلْعِبَارَةِ ٱلْمَجَازِيَّةِ أَنَّهَا تَنْقُلُ ٱلسَّامِعَ عَنْ خُلُقِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ حَتَّى إِنَّهَا يَسْمَحُ بِهَا ٱلْبَخِيلُ

وَيَشجَعُ بِهَا ٱلْجَبَانُ وَيُحكَمُ بِهَا ٱلطَّائِشُ ٱلْمُتَسَرِّعُ وَيَجِدُ ٱلْمُخَاطَبُ بِهَا عِنْدَ سَمَاعِهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمرِ حَتَّى إِذَا قُطِعَ عِنْدَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ أَفَاقَ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ بَذْلِ مَالٍ . أَوْ تَرْكِ عُقُوبَةٍ . أَوْ إِقْدَامٍ عَلَى أَمرٍ مَهُولٍ وَهٰذَا هُوَ فَحْوَى ٱلسِّحْرِ ٱلْحَلَالِ ٱلْمُسْتَغْنِي مِنْ إِلْقَاءِ ٱلْعَصَا وَٱلْحِبَالِ . (وَٱعْلَمْ) أَنَّهُ إِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ كَلَامٌ يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ مَعْنَاهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ بِٱخْتِلَافِ لَفْظِهِ فَٱنْظُرْ فَإِنْ كَانَ لَا مَزِيَّةَ لِمَعْنَاهُ فِي حَمْلِهِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ لِأَنَّهَا هِيَ ٱلْأَصْلُ وَٱلْمَجَازُ هُوَ ٱلْفَرْعُ وَلَا يُعْدَلُ عَنِ ٱلْأَصْلِ إِلَى ٱلْفَرْعِ إِلَّا لِفَائِدَةٍ

البحث الرابع

في الاستعارة

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هِيَ ٱدِّعَاءُ مَعْنَى ٱلْحَقِيقَةِ فِي ٱلشَّيْءِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ مِنَ ٱلْبَيْنِ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : هُوَ جَعْلُ ٱلشَّيْءِ لِلشَّيْءِ لِأَجْلِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ أَسَدًا تَعْنِي ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ . وَٱلثَّانِي كَقَوْلِ لَبِيدٍ :

إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ ٱلشَّمَالِ زِمَامُهَا

اثبت اليد للشمال مبالغة في تشبيها بالقادر في التصرف فيه.
وحد الرماني الاستعارة فقال: هي تعليق العبارة على غير ما وضعت
له في اصل اللغة على سبيل النقل للابانة. وقال ابن المعتز: هي
استعارة الكلمة من شيء قد عرف بها الى شيء لم يعرف بها.
وذكر الخفاجي كلام الرماني وقال: وتفسير هذه الجملة ان قوله مثلا:
(واشتعل الرأس شيبا). استعارة لان الاشتعال للنار ولم توضع في اصل
اللغة للشيب فلما نقل اليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه.
لان الشيب لما كان نافذا في الرأس شيئا فشيئا حتى يحيله الى غير
لونه الاول كان بمنزلة النار التي تسري في الخشب حتى تحيله الى
غير حالته المتقدمة. فهذا من نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع
للبيان ولا بد ان يكون اوضح من الحقيقة لاجل التشبيه العارض
فيها. لان الحقيقة لو قامت مقامها لكانت اولى بها لانها الاصل
وليس يخفى على المتأمل ان قوله: (واشتعل الرأس شيبا). ابلغ من:
كثر شيب الرأس. وهو حقيقة هذا المعنى. وقوله: (يوم يكشف عن
ساق). احسن وابلغ في ما قصد له من قوله لو قال: يوم يكشف
عن شدة الامر. وان كان المعنيان واحدا. الا ترى انك تقول
لمن يحتاج الى الجد في امره: شمر عن ساقك. فيكون هذا القول
منك اكثر في نفسه من قولك: جد في امرك. وقال دريد بن
الصمة:

كميت الازار خارج نصف ساقه ... صبور على الضراء طلاع انجد

وَقَالَ ٱلْهذليُّ :

وَكُنتُ إِذَا جَارٌ دعَا بِمَغُوثِهِ ... أُشَمِّرُ حَتَّى يَنصِفَ ٱلسَّاقَ مِئْزَرِي

وَلَا بُدَّ لِلِاسْتِعَارَةِ مِنْ حَقِيقَةٍ هِيَ اَصْلُهَا وَهِيَ : مُسْتَعَارٌ مِنْهُ . وَمُسْتَعَارٌ بِهِ . وَمُسْتَعَارٌ لَهُ . فَٱلنَّارُ فِي قَوْلِهِ : (اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً) . مُسْتَعَارٌ مِنْهَا . وَالِاشْتِعَالُ مُسْتَعَارٌ . وَٱلشَّيْبُ مُسْتَعَارٌ لَهُ . وَاَمَا قَوْلُنَا : (مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ) . فَٱعْلَمْ اَنَّنَا اِذَا طَرَحْنَاهُ كَقَوْلِنَا : رَاَيْتُ اَسَدًا . وَاَرَدْنَا ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ فَهُوَ ٱسْتِعَارَةٌ بِٱلِاتِّفَاقِ وَاِنْ ذَكَرْنَا مَعَهُ ٱلْمُشَبَّهَ وَقُلْنَا : زَيْدٌ اَسَدٌ . فَٱلْمُخْتَارُ اَنَّهُ لَيْسَ بِٱسْتِعَارَةٍ اِذْ فِي ٱللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى اَنَّهُ لَيْسَ بِاَسَدٍ فَلَمْ تَحْصُلِ ٱلْمُبَالَغَةُ . وَاِذَا قُلْتَ : زَيْدٌ ٱلْاَسَدُ . فَهُوَ اَبْعَدُ عَنِ ٱلِاسْتِعَارَةِ فَاِنَّ ٱلْاَوَّلَ خَرَجَ بِٱلتَّنْكِيرِ مِنْ اَنْ يَحْسُنَ فِيهِ كَافُ ٱلتَّشْبِيهِ . فَاِنَّ قَوْلَكَ : زَيْدٌ كَاَسَدٍ . كَلَامٌ نَازِلٌ بِخِلَافِ ٱلثَّانِي . قَالَ ضِيَاءُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْاَثِيرِ : وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرُ ٱلْاَدَاةِ قَدْ خَلَطُوهُ بِٱلِاسْتِعَارَةِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَذٰلِكَ خَطَاٌ مَحْضٌ . وَسَاُوضِحُ وَجْهَ ٱلْخَطَاِ فِيهِ وَاُحَقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا فَاَقُولُ : اِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُظْهَرَ ٱلْاَدَاةِ فَلَا حَاجَةَ لِبَيَانِ ذِكْرِهِ لِاَنَّهُ لَا خِلَافَ فِيهِ وَلٰكِنْ نَذْكُرُ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْاَدَاةِ فَنَقُولُ : اِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ وَٱلْمَنْقُولُ اِلَيْهِ عَلَى اَنَّهُ تَشْبِيهٌ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ قِيلَ فِيهِ : زَيْدٌ اَسَدٌ . اَيْ كَٱلْاَسَدِ . فَاَدَاةُ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ مُضْمَرَةٌ مُقَدَّرَةٌ . وَاِذَا اُظْهِرَتْ حَسُنَ ظُهُورُهَا وَلَمْ تَقْدَحْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي اُظْهِرَتْ فِيهِ وَلَمْ تُزِلْ عَنْهُ فَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ وَهٰذَا بِخِلَافِ مَا اِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ اِلَيْهِ دُونَ ٱلْمَنْقُولِ فَاِنَّهُ لَا يَحْسُنُ

فِيهِ ظُهُورُ أَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ وَإِذَا أُظْهِرَتْ أَزَالَتْ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ مُتَّصِفًا بِهِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْفَصَاحَةِ... فَٱلْفَرْقُ إِذًا بَيْنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْأَدَاةِ وَبَيْنَ ٱلِاسْتِعَارَةِ أَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْأَدَاةِ يَحْسُنُ إِظْهَارُ أَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ وَٱلِاسْتِعَارَةُ لَا يَحْسُنُ ذٰلِكَ فِيهَا . وَٱلِاسْتِعَارَةُ أَخَصُّ مِنَ ٱلْمَجَازِ إِذْ قَصْدُ ٱلْمُبَالَغَةِ شَرْطٌ فِي ٱلِاسْتِعَارَةِ دُونَ ٱلْمَجَازِ . وَأَيْضًا فَكُلُّ ٱسْتِعَارَةٍ مِنَ ٱلْبَدِيعِ وَلَيْسَ كُلُّ مَجَازٍ مِنْهُ وَٱلْحَقُّ أَنَّ ٱلْمَعْنَى يُعَارُ أَوَّلًا ثُمَّ بِوَاسِطَتِهِ يُعَارُ ٱللَّفْظُ . وَلَا تَحْسُنُ ٱلِاسْتِعَارَةُ إِلَّا حَيْثُ كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ مُقَرَّرًا بَيْنَهُمَا ظَاهِرٌ أَوَّلًا فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَوْ قُلْتَ : رَأَيْتُ نَخْلَةً أَوْ خَامَةً . وَأَنْتَ تُرِيدُ مُؤْمِنًا إِشَارَةً إِلَى قَوْلِهِ : مَثَلُ ٱلْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ ٱلنَّخْلَةِ أَوْ مَثَلِ ٱلْخَامَةِ . لَكُنْتَ كَٱلْمُلْغِزِ ٱلتَّارِكِ لِمَا يُفْهَمُ وَكُلَّمَا زَادَ ٱلتَّشْبِيهُ خَفَاءً زَادَتِ ٱلِاسْتِعَارَةُ حُسْنًا بِحَيْثُ يَكُونُ أَلْطَفَ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ. وَرُبَّمَا جُمِعَ بَيْنَ عِدَّةِ ٱسْتِعَارَاتٍ إِلْحَاقًا لِلشَّكْلِ بِٱلشَّكْلِ لِإِتْمَامِ ٱلتَّشْبِيهِ فَتَزِيدُ ٱلِاسْتِعَارَةُ بِهِ حُسْنًا كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي صِفَةِ ٱللَّيْلِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَيْضًا مِنْ مَعْنًى يَشْتَرِكُ بَيْنَ ٱلْمُسْتَعَارِ وَٱلْمُسْتَعَارِ مِنْهُ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْمُشْتَرَكُ بَيْنَ قَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ مَثَلًا وَمَانِعِ ٱلْأَوَابِدِ هُوَ ٱلْحَبْسُ وَعَدَمُ ٱلْإِفْلَاتِ . وَبَيْنَ مِيزَانِ ٱلْقِيَاسِ وَتَعْدِيلِ حُصُولِ ٱلِاسْتِقَامَةِ هُوَ ٱرْتِفَاعُ ٱلْحَيْفِ وَٱلْمَيْلِ إِلَى أَحَدِ ٱلْجَانِبَيْنِ . وَهٰكَذَا جَمِيعُ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَٱلْمَجَازَاتِ

البحث الخامس

فيما تدخلهُ الاستعارة وما لا تدخلهُ

(عن صناعة الترسل ايضاً)

اَلْأَعْلَامُ لَا يَدْخُلُهَا ٱلِاسْتِعَارَةُ لِمَا تَقَدَّمَ فِي ٱلْمَجَازِ . وَأَمَّا ٱلْفِعْلُ فَٱلِاسْتِعَارَةُ تَقَعُ أَوَّلًا فِي ٱلْمَصْدَرِ ثُمَّ تَقَعُ بِوَاسِطَةِ ذٰلِكَ فِي ٱلْفِعْلِ . فَإِذَا قُلْتَ : نَطَقَتِ ٱلْحَالُ بِكَذَا . فَهٰذَا إِنَّمَا يَصِحُّ لِأَنَّكَ وَجَدْتَ ٱلْحَالَ مُشَابِهَةً لِلنُّطْقِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلشَّيْءِ فَلَا جَرَمَ ٱسْتَعَرْتَ ٱلنُّطْقَ لِتِلْكَ ٱلْحَالَةِ ثُمَّ نَقَلْتَهُ إِلَى ٱلْفِعْلِ . وَٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَقَّةُ فِي ذٰلِكَ كَٱلْفِعْلِ . فَظَهَرَ أَنَّ ٱلِاسْتِعَارَةَ إِنَّمَا تَقَعُ وُقُوعًا أَوَّلِيًّا فِي أَسْمَاءِ ٱلْأَجْنَاسِ . ثُمَّ ٱلْفِعْلُ إِذَا كَانَ مُسْتَعَارًا فَٱسْتِعَارَتُهُ إِمَّا مِنْ جِهَةِ فَاعِلِهِ كَقَوْلِهِ : نَطَقَتِ ٱلْحَالُ بِكَذَا أَوْ لَعِبَتْ بِهِ ٱلْهُمُومُ . وَكَقَوْلِ جَرِيرٍ :

يَحْشَى ٱلرَّوَامِسَ رَبْعُهَا فَتُجِدُّهُ بَعْدَ ٱلْبِلَى وَتُمِيتُهُ ٱلْأَمْطَارُ

أَوْ مِنْ جِهَةِ مَفْعُولِهِ كَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ :

جُمِعَ ٱلْحَقُّ لَنَا فِي إِمَامٍ قَتَلَ ٱلْجُورَ وَأَحْيَا ٱلسَّمَاحَا

أَوْ مِنْ جِهَةِ ٱلْفَاعِلِ وَٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ . وَيَتَّصِلُ بِهٰذَا تَرْشِيحُ ٱلِاسْتِعَارَةِ وَتَجْرِيدُهَا . أَمَّا تَرْشِيحُهَا فَهُوَ أَنْ تَنْظُرَ فِيهَا إِلَى ٱلْمُسْتَعَارِ وَتُرَاعِيَ جَانِبَهُ وَتُولِيَهُ مَا تَسْتَدْعِيهِ وَتَضُمَّ إِلَيْهِ مَا تَقْتَضِيهِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَصَدْرٍ أَرَاحَ ٱللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ ٱلْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

ٱلْمُسْتَعَارُ فِيهِ وَهُوَ ٱلْازَاحَةُ مَنْظُورٌ إِلَيْهِ فِي لَفْظِ ٱلْعَازِبِ . وَامَّا تَجْرِيدُهَا فَهُوَ انْ يَكُونَ ٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ مَنْظُورًا إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ: فَأَذَاقَهَا ٱللهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ . فَإِنَّ ٱلْاذَاقَةَ وَقَعَتْ عِبَارَةً عَمَّا يُدْرَكُ مِنْ اثَرِ ٱلضَّرَرِ وَٱلْالَمِ تَشْبِيهًا لَهُ بِمَا يُدْرَكُ مِنْ طَعْمِ ٱلْمُرِّ. ٱلشَّبْعُ وَٱللِّبَاسُ عِبَارَةٌ عَمَّا يَغْشَى مِنْهُمَا وَيُلَابِسُ فَكَانَّهُ قَالَ : فَأَذَاقَهَا مَا غَشِيَهَا مِنْ الَمِ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ . وَكَقَوْلِ زُهَيْرٍ :

لَدَى اسَدٍ شَاكِي ٱلسِّلَاحِ مُقَذَّفٍ   لَهُ لِبَدٌ اظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

فَلَوْ نَظَرَ إِلَى ٱلْمُسْتَعَارِ لَقَالَ : لَدَى اسَدٍ دَامِي اوْ دَامِي ٱلْبَرَاثِنِ مَثَلًا. وَنَظَرَ زُهَيْرٌ فِي آخِرِ ٱلْبَيْتِ إِلَى ٱلْمُسْتَعَارِ . وَمِنْهُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ :

غَمْرُ ٱلرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا   غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ ٱلْمَالِ

إِسْتَعَارَ ٱلرِّدَاءَ لِلْمَعْرُوفِ لِأَنَّهُ يَصُونُ عِرْضَ صَاحِبِهِ صَوْنَ ٱلرِّدَاءِ لِمَا يُلْقَى عَلَيْهِ . وَوَصَفَهُ بِٱلْغَمْرِ ٱلَّذِي هُوَ وَصْفُ ٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّوَالِ لَا وَصْفُ ٱلرِّدَاءِ

وَيَقْرُبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْاسْتِعَارَةُ بِٱلْكِنَايَةِ وَهُوَ انْ لَا يُصَرِّحَ بِذِكْرِ ٱلْمُسْتَعَارِ بَلْ يَذْكُرُ بَعْضَ لَوَازِمِهِ تَنْبِيهًا بِهِ كَقَوْلِهِ : شُجَاعٌ يَفْتَرِسُ اقْرَانَهُ وَعَالِمٌ يَغْتَرِفُ مِنْهُ ٱلنَّاسُ . وَكَقَوْلِ ابِي ذُؤَيْبٍ :

وَإِذَا ٱلْمَنِيَّةُ انْشَبَتْ اظْفَارَهَا   الْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

تَنْبِيهًا عَلَى انَّ ٱلشُّجَاعَ اسَدٌ وَٱلْعَالِمَ بَحْرٌ وَٱلْمَنِيَّةَ سَبُعٌ . وَهٰذَا وَإِنْ كَانَ يُشْبِهُ ٱلْاسْتِعَارَةَ ٱلْمُجَرَّدَةَ إِلَّا انَّهُ اغْرَبُ وَاعْجَبُ . وَيَقْرُبُ مِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ ٱلزِّجَاجِ فَإِنَّهُ يُطِيعُ ٱلْعَوَالِيَ رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

أَرَادَ أَنْ يَقُولَ : مَنْ لَمْ يَرْضَ بِأَحْكَامِ ٱلصُّلْحِ رَضِيَ بِأَحْكَامِ ٱلْحَرْبِ أَيْ أَشْرَعُوا ٱلْأَسِنَّةَ وَأَخَّرُوا ٱلزِّجَاجَ . وَقَدْ يُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْمُمَاثَلَةَ أَيْضًا . وَقَدْ يُنْزِلُونَ ٱلْاِسْتِعَارَةَ مَنْزِلَةَ ٱلْحَقِيقَةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ يَسْتَعِيرُونَ ٱلْوَصْفَ ٱلْمَحْسُوسَ لِلشَّيْءِ ٱلْمَعْقُولِ . وَيَجْعَلُونَ كَأَنَّ تِلْكَ ٱلصِّفَةَ ثَابِتَةٌ لِذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَأَنَّ ٱلْاِسْتِعَارَةَ لَمْ تُوجَدْ أَصْلًا . مِثَالُهُ ٱسْتِعَارَتُهُمُ ٱلْعُلُوَّ لِزِيَادَةِ ٱلرَّجُلِ عَلَى غَيْرِهِ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلْقَدْرِ وَٱلسُّلْطَانِ ثُمَّ وَضْعُهُمُ ٱلْكَلَامَ وَضْعَ مَنْ يَذْكُرُ عُلُوًّا مَكَانِيًّا . كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

وَيَصْعَدُ حَتَّى يَظُنَّ ٱلْحَسُودُ بِأَنَّ لَـهُ حَاجَةً فِي ٱلسَّمَاءِ

وَكَقَوْلِهِ أَيْضًا :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَأَنَّمَا تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

البحث السادس

في اقسام الاستعارة

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ٣٢ من علم الادب)

هِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يُعْتَمَدَ نَفْسُ ٱلتَّشْبِيهِ وَهُوَ أَنْ يَشْتَرِكَ شَيْئَانِ فِي وَصْفٍ وَأَحَدُهُمَا أَنْقَصُ مِنَ ٱلْآخَرِ . فَيُعْطَى ٱلنَّاقِصُ

اَسْمَ ٱلزَّائِدِ مُبَالَغَةً فِي تَحْقِيقِ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ لَهُ كَقَوْلِكَ: رَأَيْتُ اَسَدًا. وَاَنْتَ تَعْنِي رَجُلًا شُجَاعًا. (وَٱلثَّانِي) تُعْتَمَدُ لَوَازِمُهُ عِنْدَمَا يَكُونُ جِهَةُ ٱلِاشْتِرَاكِ وَصْفًا وَاِنَّمَا ثَبَتَ كَمَالُهُ فِي ٱلْمُسْتَعَارِ فِي وَاسِطَةِ شَيْءٍ آخَرَ فَتُثْبِتُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ لِلْمُسْتَعَارِ لَهُ مُبَالَغَةً فِي اِثْبَاتِ ٱلْمُشْتَرَكِ. كَقَوْلِ تَأَبَّطَ شَرًّا:

اِذَا هَزَّهُ فِي عَظْمِ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ ... نَوَاجِذُ اَفْوَاهِ ٱلْمَنَايَا ٱلضَّوَاحِكُ

لَمَّا شَبَّهَ ٱلْمَنَايَا عِنْدَ هَزَّةِ ٱلسَّيْفِ بِٱلسُّرُورِ وَكَمَالُ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورُ اِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلضَّحِكِ ٱلَّذِي يَتَهَلَّلُ بِهِ ٱلنَّوَاجِذُ اَثْبَتَهُ تَحْقِيقًا لِلْوَصْفِ ٱلْمَقْصُودِ وَاِلَّا فَلَيْسَ لِلْمَنَايَا مَا يُنْقَلُ اِلَيْهِ اَسْمُ ٱلنَّوَاجِذِ. وَهٰكَذَا ٱلْكَلَامُ فِي قَوْلِ ٱلْحَمَاسِيِّ:

سَقَاهُ ٱلرَّدَى سَيْفٌ اِذَا سُلَّ اَوْمَضَتْ ... اِلَيْهِ مَنَايَا ٱلْمَوْتِ مِنْ كُلِّ مَرْقَبِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ مُرْخَى ٱلْعِنَانِ وَمُلْقَى ٱلزِّمَامِ. وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْقِسْمَيْنِ اَنَّكَ اِنْ رَجَعْتَ فِي ٱلْاَوَّلِ اِلَى ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمَقْصِدُ مِنْ كُلِّ ٱسْتِعَارَةٍ مُقَيَّدَةٍ وَجَدْتَهُ يَأْتِيكَ عَفْوًا كَقَوْلِكَ: رَأَيْتُ رَجُلًا كَٱلْاَسَدِ اَوْ مِثْلَهُ اَوْ شِبْهَهُ. وَاِنْ رُمْتَهُ فِي ٱلثَّانِي لَا يُؤَاتِيكَ تِلْكَ ٱلْمُؤَاتَاةَ اِذْ لَا وَجْهَ اَنْ تَقُولَ: شَيْءٌ مِثْلُ ٱلْيَدِ لِلشِّمَالِ. وَاِنَّمَا تَهَيَّأَ لَكَ ٱلتَّشْبِيهُ بَعْدَ اَنْ تَخْرُقَ اِلَيْهِ سِتْرًا اَوْ تُعْمِلَ تَأَمُّلًا وَفِكْرًا. وَفِي اِغْفَالِ هٰذَا ٱلْاَصْلِ وُقُوعٌ فِي ٱلتَّشْبِيهِ. وَذٰلِكَ اَنَّ مَنْ وَضَعَ فِي نَفْسِهِ اَنَّ كُلَّ ٱسْمٍ يُسْتَعَارُ فَلَا بُدَّ اَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَيْءٌ يُمْكِنُ ٱلْاِشَارَةُ اِلَيْهِ تَتَنَاوَلُهُ فِي حَالَةِ ٱلْمَجَازِ كَمَا تَتَنَاوَلُ مُسَمَّاهُ فِي حَالَةِ

ٱلْحَقِيقَةِ . ثُمَّ نَظَرَ إِلَى قَوْلِهِ : وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي . وَقَوْلِهِ : تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا . ٱرْتَبَكَ فِي ٱلشَّكِّ وَحَامَ حَوْلَ ٱلظَّاهِرِ وَوَقَعَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ . فَفِي مَعْرِفَةِ هٰذَا إِخْلَاصٌ مِنْ ذٰلِكَ ٱلتَّشْبِيهِ وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱسْتِعَارَةً تَخْيِيلِيَّةً وَهُوَ كَإِثْبَاتِ ٱلْجَنَاحِ لِلذُّلِّ فِي قَوْلِهِ : وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . إِذَا عُرِفَ هٰذَا فَٱلنَّوْعُ ٱلْأَوَّلُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَحْسُوسِ . وَذٰلِكَ إِمَّا أَنْ يَشْتَرِكَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَخْتَلِفَا فِي ٱلصِّفَاتِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلطَّيَرَانِ لِغَيْرِ ذِي جَنَاحٍ فِي ٱلسُّرْعَةِ . فَإِنَّ ٱلطَّيَرَانَ وَٱلْعَدْوَ يَشْتَرِكَانِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَهِيَ ٱلْحَرَكَةُ ٱلْمَكَانِيَّةُ إِلَّا أَنَّ ٱلطَّيَرَانَ أَسْرَعُ . أَوْ بِأَنْ يَخْتَلِفَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَشْتَرِكَا فِي صِفَةٍ إِمَّا مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِمْ : رَأَيْتُ شَمْسًا . وَيُرِيدُونَ إِنْسَانًا يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ . وَكَقَوْلِهِ : وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . فَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلنَّارُ . وَٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلشَّيْبُ . وَٱلْجَامِعُ ٱلْإِنْبِسَاطُ وَلٰكِنَّهُ فِي ٱلنَّارِ أَقْوَى . وَإِمَّا غَيْرِ مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِ : إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ . ٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلرِّيحُ وَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلْمَرْءُ وَٱلْجَامِعُ ٱلْمَنْعُ مِنْ ظُهُورِ ٱلنَّتِيجَةِ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يُسْتَعَارَ شَيْءٌ مَعْقُولٌ لِشَيْءٍ مَعْقُولٍ لِٱشْتِرَاكِهِمَا فِي وَصْفٍ عَدَمِيٍّ أَوْ ثُبُوتِيٍّ وَأَحَدُهُمَا أَكْمَلُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ فَيُنَزَّلُ ٱلنَّاقِصُ مَنْزِلَةَ ٱلْكَامِلِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْعَدَمِ لِلْوُجُودِ إِذَا ٱشْتَرَكَا فِي عَدَمِ ٱلْفَائِدَةِ أَوِ ٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْوُجُودِ لِلْعَدَمِ إِذَا بَقِيَتْ آثَارُهُ ٱلْمَطْلُوبَةُ مِنْهُ كَتَشْبِيهِ ٱلْجَهْلِ بِٱلْمَوْتِ لِٱشْتِرَاكِ ٱلْمَوْصُوفِ بِهِمَا فِي عَدَمِ ٱلْإِدْرَاكِ وَٱلْعَقْلِ . وَكَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ لَقِيَ ٱلْمَوْتَ إِذَا لَقِيَ

ٱلشَّدَائِدَ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي ٱلْمَكْرُوهِيَّةِ . وَقَوْلِهِ : وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ . وَٱلسُّكُوتُ وَٱلزَّوَالُ أَمْرَانِ مَعْقُولَانِ . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَعْقُولِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلنُّورِ ٱلَّذِي هُوَ مَحْسُوسٌ وَٱسْتِعَارَةِ ٱلْقِسْطَاسِ لِلْعَدْلِ . وَكَقَوْلِهِ : بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ . فَٱلْقَذْفُ وَٱلدَّمْغُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ : فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ . وَقَوْلِهِ : أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . ٱلْوَادِي وَٱلْهَيَمَانُ مُسْتَعَارَانِ . (ٱلرَّابِعُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱسْمُ ٱلْمَعْقُولِ لِلْمَحْسُوسِ عَلَى ٱلتَّأْوِيلِ ٱلْمَذْكُورِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ كَقَوْلِهِ : إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ . فَٱلشَّهِيقُ وَٱلْغَيْظُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ : حَتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا

البحث السابع

في جيد الاستعارة ورديئها ومتوسطها

(عن كتاب الصناعتين وصناعة الترسل)

قَالَ مُحَمَّدٌ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ بْنِ سِنَانٍ ٱلْخَفَاجِيُّ : وَقَدِ ٱخْتَارَ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱبْنُ بِشْرٍ ٱلْآمِدِيُّ مِنْ جُمْلَةِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ قَوْلَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَقَالَ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلِٱسْتِعَارَةَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ . لِأَنَّهُ إِنَّمَا قَصَدَ وَصْفَ أَحْوَالِ ٱللَّيْلِ فَذَكَرَ ٱمْتِدَادَ وَسَطِهِ وَتَثَاقُلَ صَدْرِهِ لِلذَّهَابِ وَٱلِٱنْبِعَاثِ وَتَرَادُفَ أَعْجَازِهِ وَأَوَاخِرِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَقَالَ ٱلْخَفَاجِيُّ :

وَهٰذَا ٱلَّـذِي ذَكَرَهُ أَبُو ٱلْقَاسِمِ لَا أَرْضَى بِهِ غَايَةَ ٱلرِّضَى وَلَوْ كُنْتُ أَسْكُنُ إِلَى تَقْلِيدِ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَقَـلَّدْتُهُ لِحُسْنِ نَظَرِهِ وَصِحَّةِ فِـكْرِهِ وَهُوَ عِنْدِي مِنَ ٱلْوَسَطِ لَيْسَ مِنْ جَيِّدِ ٱلْاِسْتِعَارَةِ وَلَا مِنْ رَدِيئِهَا . وَإِنَّمَا قُلْتُ ذٰلِكَ لِأَنَّ أَبَا ٱلْقَاسِمِ قَدْ أَفْصَحَ بِأَنَّ ٱمْرَءَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا جَعَـلَ لِلَّيْلِ وَسَطاً وَعَجُزاً ٱسْتَعَارَ لَهُ ٱسْمَ ٱلصُّلْبِ وَجَعَلَهُ مُتَمَطِّيًا مِنْ أَجْلِ ٱمْتِدَادِهِ وَجَعَلَ ٱلْـكَلْـكَلَ مِنْ أَجْلِ نُهُوضِهِ وَكُلُّ هٰذَا إِنَّمَا يَحْسُنُ بَعْضُهُ لِأَجْلِ بَعْضٍ . فَذِكْرُ ٱلصُّلْبِ إِنَّمَا حَسُنَ لِأَجْلِ ٱلْعَجُزِ . وَٱلتَّمَطِّي لِأَجْلِ ٱلصُّلْبِ . وَٱلْـكَلْـكَلُ لِمَجْمُوعِ ذٰلِكَ . وَهٰذِهِ ٱلْاِسْتِعَارَةُ ٱلْمَبْنِيَّةُ عَلَى غَيْرِهَا فَلِذٰلِكَ لَمْ أَرَ أَنْ تُجْعَلَ مِنْ أَبْلَغِ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ وَكَانَتِ ٱسْتِعَارَةُ طُفَيْلٍ ٱلْغَنَوِيِّ فِي قَوْلِهِ :

وَجَعَلْتُ رَحْلِي فَوْقَ نَاجِيَةٍ ... يَقْتَاتُ شَحْمَ سَنَامِهَا ٱلرَّحْلُ

أَوْفَقَ وَأَوْضَحَ . لِأَنَّهَا غَنِيَّةٌ بِنَفْسِهَا غَيْرُ مُفْتَقِرَةٍ إِلَى مُقَدِّمَةٍ حِلْيَتِهَا. (وَقَالَ) وَقَدْ كُنْتُ مَثَّلْتُ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِ ٱلْاِسْتِعَارَةِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلْمَذْمُومَةِ بِبَيْتَيْنِ أَحَدُهُمَا قَوْلُ ٱبْنِ نُبَاتَةَ :

حَتَّى إِذَا بَهَرُوا ٱلْأَبَاطِحَ وَٱلثَّرَى ... نَظَرُوا إِلَيْكَ بِأَعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ

فَنَظَرُ أَعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ مِنْ أَشْبَهِ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ وَأَلْيَقِهَا . لِأَنَّ ٱلنُّوَّارَ يُشْبِهُ ٱلْعُيُونَ إِذَا كَانَ مُقَابِلًا لِمَنْ يَمُرُّ بِهِ كَأَنَّهُ مُنَاظِرٌ إِلَيْهِ . وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي بَيْتُ أَبِي تَمَّامٍ :

قَرَّتْ بِقُرَّانَ عَيْنُ ٱلدِّينِ وَٱسْتَتَرَتْ ... بِٱلْأَشْتَرَيْنِ عُيُونُ ٱلشِّرْكِ فَٱصْطَلَمَا

وَقُرَّةُ عَيْنِ ٱلدِّينِ وَٱسْتِتَارُ عُيُونِ ٱلشِّرْكِ مِنْ أَقْبَحِ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ

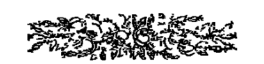
لِعَدَمِ ٱلشَّبَهِ ٱلَّذِي لِأَجْلِهِ جَعَلَ لِلشِّرْكِ عُيُونًا. وَمَنْ تَأَمَّلَ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ لَا يَفْهَمُ مَعْنَى ٱلِٱسْتِعَارَةِ لِأَنَّ ٱلنُّوَّارَ وَٱلشِّرْكَ لَا عُيُونَ لَهُمَا عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ. وَقَدْ قَبُحَتِ ٱسْتِعَارَةُ ٱلْعُيُونِ لِأَحَدِهِمَا وَحَسُنَتْ لِلْآخَرِ. وَٱلْعِلَّةُ فِيهِ أَنَّ ٱلنُّوَّارَ يُشْبِهُ ٱلْعُيُونَ. وَٱلدِّينُ وَٱلشِّرْكُ لَيْسَ فِيهِمَا مَا يُشْبِهُهَا وَلَا يُقَارِبُهَا.

وَمِنْ أَحْسَنِ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ كَقَوْلِ ٱلشَّرِيفِ ٱلرَّضِيِّ:

رَسَا ٱلنَّسِيمُ بِوَادِيكُمْ وَلَا بَرِحَتْ ... حَوَامِلُ ٱلْمُزْنِ فِي أَجْدَاثِكُمْ تَضَعُ
وَلَا يَزَالُ جَنِينُ ٱلنَّبْتِ يُرْضِعُهُ ... عَلَى قُبُورِكُمُ ٱلْعَرَّاصَةُ ٱلْهَمِعُ

لِأَنَّ ٱلْمُزْنَ تَحْمِلُ ٱلْمَاءَ وَإِذَا حَمَلَتْ تَضَعُهُ فَٱسْتِعَارَةُ ٱلْحَمْلِ لَهَا وَٱلْوَضْعِ ٱلْمَعْرُوفَيْنِ مِنْ أَقْرَبِ شَيْءٍ وَأَشْبَهِهِ. وَكَذٰلِكَ جَنِينُ ٱلنَّبْتِ لِأَنَّ ٱلْجَنِينَ ٱلْمَسْتُورَ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْجُنَّةِ. وَإِذَا كَانَ ٱلنَّبْتُ مَسْتُورًا وَٱلْغَيْثُ يَسْقِيهِ كَانَ ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ ٱلرَّضَاعِ

وَأَمْثَالُ ٱلْمَحَاسِنِ فِي ذٰلِكَ وَٱلْمَسَاوِئِ كَثِيرَةٌ وَقَدْ أَخَذَ ٱلْقَوْلُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ حَقَّهُ. مَعَ أَنَّ أَقْوَالَ ٱلْعُلَمَاءِ بِهٰذَا ٱلْفَنِّ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ ذٰلِكَ



البحث الثامن

في ما جاءَ من الاستعارات في كلام العرب

(عن كتاب الصناعتين للعسكري وسر العربيَّة للثعالبي)

وَأَمَّا مَا جَاءَ فِي قَوْلِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ فَكَثِيرٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : هٰذَا رَأْسُ ٱلْأَمْرِ وَوَجْهُهُ وَرَأْسُ ٱلْمَالِ . وَهٰذَا ٱلْأَمْرُ فِي جَنْبِ غَيْرِهِ يَسِيرٌ . وَيَقُولُونَ : هٰذَا جَنَاحُ ٱلْحَرْبِ وَقَلْبُهَا وَجَنَاحُ ٱلطَّرِيقِ . وَهٰؤُلَاءِ رُؤُوسُ ٱلْقَوْمِ وَحَوَاجِبُهُمْ وَعُيُونُهُمْ . وَفُلَانٌ ظَهْرُ فُلَانٍ وَلِسَانُ قَوْمِهِ وَنَابُهُمْ وَعَضُدُهُمْ . وَهٰذَا كَلَامٌ لَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ . وَفِي ٱلْعَرَبِ : ٱلْجَمَاجِمُ . وَٱلْقَبَائِلُ . وَٱلْأَفْخَاذُ . وَٱلْبُطُونُ . وَخَرَجَ عَلَيْنَا عُنُقٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَهُ عِنْدِي يَدٌ بَيْضَاءُ . وَهٰذِهِ عَيْنُ ٱلْمَاءِ . وَحَاجِبُ ٱلشَّمْسِ . وَلِسَانُ ٱلنَّارِ . وَهٰذَا أَنْفُ ٱلْجَبَلِ . وَبَطْنُ ٱلْوَادِي . وَكَبِدُ ٱلسَّمَاءِ . وَسَاقُ ٱلشَّجَرَةِ . وَيَقُولُونَ فِي ٱلتَّفَرُّقِ : ٱنْشَقَّتْ عَصَاهُمْ . وَشَالَتْ نَعَامَتُهُمْ . وَمَرُّوا بَيْنَ سَمْعِ ٱلْأَرْضِ وَبَصَرِهَا . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ٱشْتِدَادِ ٱلْأَمْرِ : كَشَفَتِ ٱلْحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا . أَبْدَى ٱلشَّرُّ نَاجِذَيْهِ . حَمِيَ ٱلْوَطِيسُ . دَارَتْ رَحَى ٱلْحَرْبِ . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ذِكْرِ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ : أَفْتَرَّ ٱلصُّبْحُ عَنْ نَوَاجِذِهِ . ضَرَبَ بِعَمُودِهِ . سُلَّ سَيْفُ ٱلصُّبْحِ مِنْ غِمْدِ ٱلظَّلَامِ . نَعَرَ ٱلصُّبْحُ فِي قَفَا ٱللَّيْلِ . بَاحَ ٱلصَّبَاحُ بِسِرِّهِ . وَهِيَ نِطَاقُ ٱلْجَوْزَاءِ . ٱنْحَطَّ قِنْدِيلُ ٱلثُّرَيَّا . ذَرَّ قَرْنُ ٱلشَّمْسِ . ٱرْتَفَعَ ٱلنَّهَارُ . تَرَجَّلَتِ ٱلشَّمْسُ بِجَمَرَاتِ ٱلظَّهِيرَةِ . بَقَلَ وَجْهُ ٱلنَّهَارِ . خَفَقَتْ رَايَاتُ ٱلظَّلَامِ .

نَوَّرَتْ حدائِقُ ٱلْجوِّ . شَابَ رَأْسُ ٱللَّيلِ . لَبِسَتِ ٱلشَّمْسُ جِلْبابها . قَامَ خَطِيبُ ٱلرَّعدِ . خَفَقَ قَلْبُ ٱلبَرْقِ . ٱنْحَلَّ عِقْدُ ٱلسَّمَاءِ . وَهِيَ عِقْدُ ٱلأَنْدَاءِ . اِنْقطَعَ شِرْيَانُ ٱلْغَمَامِ . تَنَفَّسَ ٱلرَّبِيعُ . تَعطَّرَ ٱلنَّسِيمُ . تَبَرَّجَتِ ٱلأَرْضُ . قَوِيَ سُلْطَانُ ٱلْحَرِّ . آنَ أَنْ يَجِيشَ مِرْجَلُهُ . وَيَثُورَ قَسْطَلُهُ . اِنْحَسَرَ قِنَاعُ ٱلصَّيْفِ . جَاشَتْ جُيُوشُ ٱلْخَرِيفِ . حَلَّتِ ٱلشَّمْسُ ٱلْمِيزَانَ . وَعَدَلَ ٱلزَّمَانُ . دَبَّتْ عَقَارِبُ ٱلْبَرْدِ . أَقْدَمَ ٱلشِّتَاءُ كَلْكَلَهُ . شَابَتْ مَفَارِقُ ٱلْجِبَالِ . يَوْمٌ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ . كَشَّرَ عَنْ نَابِ ٱلزَّمْهَرِيرِ .

وَكَقَوْلِهِمْ فِي مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ : ٱلأَدَبُ غِذَاءُ ٱلرُّوحِ . ٱلشَّبَابُ بَاكُورَةُ ٱلْحَيَاةِ . ٱلنَّارُ فَاكِهَةُ ٱلشِّتَاءِ . ٱلْعِيَالُ سُوسُ ٱلْمَالِ . ٱلنَّبِيذُ كِيمِيَاءُ ٱلْفَرَحِ . ٱلْوَحْدَةُ قَبْرُ ٱلْحَيِّ . ٱلصَّبْرُ مِفْتَاحُ ٱلْفَرَجِ . ٱلدَّيْنُ دَاءُ ٱلْكِرَامِ . ٱلنَّمَّامُ جِسْرُ ٱلشَّرِّ . ٱلإِرْجَافُ زَنْدُ ٱلْفِتْنَةِ . ٱلشُّكْرُ نَسِيمُ ٱلنِّعَمِ . ٱلرَّبِيعُ شَبَابُ ٱلزَّمَانِ . ٱلْوَلَدُ رَيْحَانَةُ ٱلرُّوحِ . ٱلشَّمْسُ قَطِيفَةُ ٱلْمَسَاكِينِ . ٱلطِّيبُ لِسَانُ ٱلْمُرُوَّةِ . وَيُسَمُّونَ ٱلنَّبَاتَ نَوًا . قَالَ : وَجَفَّ أَنْوَاءُ ٱلسَّحَابِ . أَيْ جَفَّ ٱلْبَقْلُ . وَيَقُولُونَ لِلْمَطَرِ سَمَاءٌ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا سَقَطَ ٱلسَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهَا وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

وَيَقُولُونَ : ضَحِكَتِ ٱلأَرْضُ إِذَا أَنْبَتَتْ لِأَنَّهَا تُبْدِي عَنْ حُسْنِ ٱلنَّبَاتِ كَمَا يَفْتَرُّ ٱلضَّاحِكُ عَنِ ٱلثَّغْرِ . وَيُقَالُ : ضَحِكَتِ ٱلظُّلْمَةُ . وَٱلنَّوْرُ يُضَاحِكُ ٱلشَّمْسَ . قَالَ ٱلأَعْشَى :

يُضَاحِكُ ٱلشَّمْسَ مِنْهُ كَوْكَبٌ مُشْرِقٌ

مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ ٱلنَّبْتِ مُكْتَهِلُ

وَيَقُولُونَ : ضَحِكَ ٱلسَّحَابُ بِٱلبَرْقِ وَحَنَّ بِٱلرَّعْدِ وَبَكَى بِٱلْقَطْرِ. وَيَقُولُونَ: لَقِيتُ مِنْ فُلَانٍ عَرَقَ ٱلْقِرْبَةِ اَيْ شِدَّةً وَمَشَقَّةً . (وَاصْلُ هٰذَا اَنَّ حَامِلَ ٱلْقِرْبَةِ يَتْعَبُ مِنْ ثِقْلِهَا حَتَّى يَعْرَقَ) . وَيَقُولُونَ اَيْضًا : لَقِيتُ مِنْهُ عَرَقَ ٱلْجَبِينِ . وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ: بِاَرْضِ فُلَانٍ شَجَرٌ قَدْ صَاحَ . وَذٰلِكَ اِذَا طَالَ فَتَبَيَّنَ لِلنَّاظِرِ بِطُولِهِ وَدَلَّ عَلَى نَفْسِهِ لِاَنَّ ٱلصَّائِحَ يَدُلُّ عَلَى نَفْسِهِ بِصَوْتِهِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ :

كَٱلْكَرْمِ اِذْ نَادَى مِنَ ٱلْكَافُورِ

وَمِمَّا جَاءَ اَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ فِي ٱلْقُرْآنِ وَكَلَامِ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ مَا نَصُّهُ : ٱلْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِٱلْمَنْطِقِ . وَقَوْلُهُ : اُذْكُرُوا هَادِمَ ٱللَّذَّاتِ . وَقَوْلُهُ : اِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . وَقَوْلُهُ : اَذَاقَهَا ٱللّٰهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ . وَقَوْلُهُ: اُشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . وَقَوْلُهُ: وَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ ٱلْعَذَابِ. وَقَوْلُهُ: لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ. وَقَالَ عَلِيٌّ : ٱلسَّفَرُ مِيزَانُ ٱلْقَوْمِ . وَقَالَ : وَاَمَا وَقَدِ ٱتَّسَعَ نِطَاقُ ٱلْاِسْلَامِ . وَلَهُ قَوْلُهُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: اَرْغِبْ رَاغِبَهُمْ وَٱحْلُلْ عُقْدَةَ ٱلْخَوْفِ عَنْهُمْ . وَقَوْلُهُ : ٱلْعِلْمُ قُفْلٌ مِفْتَاحُهُ ٱلْمَسْئَلَةُ . وَقَوْلُهُ : ٱلْحِلْمُ وَٱلْاَنَاةُ تَوْاَمَانِ يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ . وَقَالَ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ يَصِفُ ٱلدُّنْيَا : اِنَّ ٱمْرَءًا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا فِي فَرْحَةٍ اِلَّا اَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا تَرْحَةً وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْنًا اِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْرًا . وَلَمْ تُطِلَّهُ فِيهَا غَابَةُ رَخَاءٍ اِلَّا هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ . وَلَمْ يُمْسِ مِنْهَا فِي جَنَاحِ آمْنٍ اِلَّا اَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ . وَقَالَ اَبُو بَكْرٍ : اِنَّ ٱلْمَلِكَ اِذَا مَلَكَ زَهَّدَهُ ٱللّٰهُ

فِي مَا لَهُ وَرَغْبَةُ فِيمَا فِي يَدِ غَيْرِهِ وَأُشْرِبَ قَلْبُهُ ٱلْاشْفَاقَ. فَهُوَ يَحْسِدُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَيَسْخَطُ عَلَى ٱلْكَثِيرِ جَزِلُ ٱلظَّاهِرِ حَزِينُ ٱلْبَاطِنِ . فَإِذَا وَجِبَتْ نَفْسُهُ وَنَفِرَ عُمْرُهُ وَضَحَى ظِلُّهُ حَاسَبَهُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَاشْتَدَّ حِسَابُهُ وَاقَلَّ عَفْوَهُ . وَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ إِلَى مَرَازِبَةِ فَارِسَ: ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّ خِدْمَتَكُمْ وَفَرَّقَ كَلِمَتَكُمْ . وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ : دُلُّونِي عَلَى رَجُلٍ سَمِينِ ٱلْأَمَانَةِ أَعْجَفِ ٱلْخِيَانَةِ . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ وَهْبٍ : ٱلرَّأْيُ لِأَصْحَابِهِ لَا خَيْرَ فِي ٱلرَّأْيِ ٱلْفَطِيرِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْقَضِيبِ . فَلَمَّا بَايَعُوهُ قَالَ : دَعُوا ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ فَإِنَّ غُبُوبَهُ يَكْشِفُ لَكُمْ عَنْ مَحَلِّهِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : إِنَّكَ لَحَسَنُ ٱلْكِدْيَةِ . قَالَ : عِنْوَانُ نِعْمَةِ ٱللهِ عِنْدِي . وَقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلْحِلْمُ دِعَامَةُ ٱلْعَقْلِ . وَقَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ لِرَجُلٍ : رَحِمَ ٱللهُ أَبَاكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَقْرِي ٱلْعَيْنَ جَمَالًا وَٱلْأُذُنَ بَيَانًا . وَقِيلَ لِرُؤْبَةَ : كَيْفَ تَرَكْتَ مَا وَرَاءَكَ . قَالَ : ٱلتُّرَابُ يَابِسٌ وَٱلْمَالُ عَابِسٌ . وَقَالَ ٱلْمَنْصُورُ لِبَعْضِهِمْ : بَلَغَنِي أَنَّكَ بَخِيلٌ : قَالَ مَا أَجْمُدُ فِي حَقٍّ وَلَا أَذُوبُ فِي بَاطِلٍ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ٱلْمَوْصِلِيُّ : قُلْتُ لِلْعَبَّاسِ ٱبْنِ ٱلْحُسَيْنِ: إِنِّي لَأُحِبُّكَ . قَالَ : رَائِدُ ذٰلِكَ عِنْدِي . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلِٱسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: ٱلشُّكْرُ كُفُوُ ٱلنِّعْمَةِ . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : خَرَجْتُ فِي لَيْلَةٍ حِنْدِسٍ قَدْ أَلْقَتْ عَلَى ٱلْأَرْضِ أَكَارِعَهَا فَمَحَتْ صُورَةَ ٱلْأَبْدَانِ فَمَا كُنَّا نَتَعَارَفُ إِلَّا بِٱلْآذَانِ . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِآخَرَ : يَسَارُ ٱلنَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ يَسَارِ ٱلْمَالِ وَرُبَّ شَبْعَانَ مِنَ ٱلنِّعَمِ غَرْثَانَ مِنَ ٱلْكَرَمِ . وَقَالَ آخَرُ فِي حَرْبٍ : جَعَلُوا ٱلْحَرْبَ

اَرْشِيَةَ ٱلْمَوْتِ وَٱسْتَقَوْا بِهَا اَرْوَاحَ ٱلْعَدُوِّ . وَقَالَ آخَرُ : فُلَانٌ اَمْلَسُ لَيْسَ فِيهِ مُسْتَقَرٌّ بِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ . وَقَالَ اَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ شَتَمَهُ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَأْمُونِ : رَاَيْتُهُ يَسْتَمْلِي مَا يَلْقَانِي بِهِ مِنْ عَيْنَيْكَ . وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ : اَيُّ طَعَامٍ اَطْيَبُ . قَالَ : اَلْجُوعُ اَبْصَرُ . وَمَدَحَ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا قَالَ : كَانَ يَفْتَحُ مِنَ ٱلرَّاْيِ اَبْوَابًا مُنْسَدَّةً وَيَغْسِلُ مِنَ ٱلْعَارِ وُجُوهًا مُسْوَدَّةً . اِذَا عَرَضَتْ لَهُ زِينَةُ ٱلدُّنْيَا هَجَّنَتْهَا صُورَةُ ٱلْحَمْدِ عِنْدَهُ وَاِنَّ لِلْمَصَانِعِ لَغَارَةً عَلَى اَمْوَالِهِ كَغَارَةِ سُيُوفِهِ عَلَى اَعْدَائِهِ . وَمَدَحَ اَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : اُولَائِكَ غُرَرٌ تُضِيءُ فِي ظُلَمِ ٱلْاُمُورِ ٱلْمُشْكِلَةِ قَدْ صَغَتْ آذَانُ ٱلْمَجْدِ اِلَيْهِمْ . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ يَمْدَحُ رَجُلًا : اِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ اَنَّ ٱللّٰهَ مَادَّتُهُ . وَمَدَحَ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : لِسَانُهُ اَحْلَى مِنَ ٱلشَّهْدِ وَقَلْبُهُ سِجْنُ ٱلْحِقْدِ . اِنْ اَسَأْتَ اِلَيْهِ اَحْسَنَ وَكَاَنَّهُ ٱلْمُسِيءُ . وَاِذَا اَجْرَمْتَ غَفَرَ وَكَاَنَّهُ ٱلْمُجْرِمُ . اِشْتَرَى بِٱلْمَعْرُوفِ عِرْضَهُ مِنَ ٱلْاَذَى فَهُوَ وَاِنْ كَانَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا بِاَسْرِهَا فَوَهَبَهَا رَاَى بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ حُقُوقًا لَا يَسْتَعْذِبُ ٱلْخَنَى وَلَا يَسْتَحْسِنُ غَيْرَ ٱلْوَفَاءِ . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ : لَا تُدَنِّسْ شِعْرَكَ بِعِرْضِ فُلَانٍ فَاِنَّهُ سَمِينُ ٱلْمَالِ مَهْزُولُ ٱلْمَعْرُوفِ مِنَ ٱلْمَرْزُوقِينَ فُجَاءَةً قَصِيرُ عُمْرِ ٱلْغِنَى طَوِيلُ حَيَاةِ ٱلْفَقْرِ . وَسَاَلَ اَعْرَابِيٌّ فَقِيلَ لَهُ : عَلَيْكَ بِٱلصَّيَارِفِ . فَقَالَ : هُنَاكَ قَرَارَةُ ٱللُّؤْمِ . وَذَكَرَ اَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : اُولَائِكَ قَوْمٌ قَدْ سَلَخَتْ اَقْفَاءَهُمْ بِٱلْهِجَاءِ وَدَبَغَتْ جُلُودَهُمْ بِٱللَّوْمِ . فَلِبَاسُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلْمَلَامَةُ وَزَادُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ٱلنَّدَامَةُ . وَذَمَّ اَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : هُمْ اَقَلُّ ذُنُوبًا اِلَى اَعْدَائِهِمْ

وَاكْثَرَ تَجَرُّماً عَلَى اَصْدِقَائِهِمْ . يَصُومُونَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيُفْطِرُونَ عَلَى ٱلْفَحْشَاءِ . وَذَمَّ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : ذَاكَ رَجُلٌ تَغْدُو اِلَيْهِ مَوَاكِبُ ٱلضَّلَالَةِ وَتَرْجِعُ مِنْ عِنْدِهِ بُذُورُ ٱلْآثَامِ مُعْدِمٌ مِمَّا يُحِبُّ مُثْرٍ مِمَّا يُكْرَهُ . وَقَالَ آخَرُ : مَا رَاَيْتُ دَمْعَةً تَرَقْرَقُ فِي عَيْنٍ وَتَجْرِي عَلَى خَدٍّ اَحَرَّ مِنْ عَبْرَةٍ اَمْطَرَتْهَا عَيْنَاهُ وَاَعْشَبَ لَهَا قَلْبِي . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ وَذَكَرَ زُهَّادًا : فَازَ قَوْمٌ اَدَّبَتْهُمُ ٱلْحِكْمَةُ وَاَحْكَمَتْهُمُ ٱلتَّجَارِبُ وَلَمْ تَغُرَّهُمُ ٱلسَّلَامَةُ ٱلْمُنْطَوِيَةُ عَلَى ٱلْهَلَكَةِ . وَرَحَلَ عَنْهُمُ ٱلتَّسْوِيفُ ٱلَّذِي قَطَعَ بِهِ ٱلنَّاسُ مَسَافَةَ آجَالِهِمْ وَاَحْسَنُوا ٱلْمَقَالَ وَشَفَعُوهُ بِٱلْفِعَالِ تَرَكُوا ٱلنَّعِيمَ لِيَتَنَعَّمُوا. لَهُمْ عَبَرَاتٌ مُتَدَافِعَةٌ لَا يَرَاهُمْ اِلَّا فِي وَجْهٍ عِنْدَ ٱللّٰهِ وَجِيهٍ . وَوَصَفَ اَعْرَابِيٌّ وَالِيًا فَقَالَ : كَانَ اِذَا وَلِيَ لَمْ يُطَابِقْ بَيْنَ جُفُونِهِ وَاَرْسَلَ ٱلْعُيُونَ عَلَى عُيُونِهِ . فَهُوَ شَاهِدٌ مَعَهُمْ غَائِبٌ عَنْهُمْ فَٱلْمُحْسِنُ آمِنٌ وَٱلْمُسِيءُ خَائِفٌ . وَذَكَرَ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : كَانَ ٱلْفَهْمُ مِنْهُ ذَا اُذُنَيْنِ وَٱلْجَوَابُ مِنْهُ ذَا لِسَانَيْنِ . لَمْ اَرَ اَحَدًا كَانَ اَرْتَقَ لِخَلَلِ ٱلسَّرَّاءِ مِنْهُ كَانَ بَعِيدَ مَسَافَةِ ٱلرَّأْيِ يَرْمِي بِطَرْفِهِ حَيْثُ اَشَارَ ٱلْكَرَمُ . وَمَا زَالَ يَتَحَسَّى مَرَارَةَ ٱلْاِخْوَانِ وَيُسِيغُهُمُ ٱلْعَذْبَ . وَوَصَفَ اَعْرَابِيٌّ قَوْمَهُ فَقَالَ : اِذَا ٱصْطَفُّوا تَحْتَ ٱلْقَتَامِ سَفَرَتْ بَيْنَهُمُ ٱلسِّهَامُ بِوُفُودِ ٱلْحِمَامِ . وَاِذَا تَصَافَحُوا بِٱلسُّيُوفِ فَغَرَتِ ٱلْمَنَايَا بِاَفْوَاهِهَا . فَكَمْ مِنْ يَوْمٍ عَارِمٍ قَدْ اَحْسَنُوا اَدَبَهُ وَحَرْبٍ عَبُوسٍ قَدْ ضَاحَكَتْهَا اَسِنَّتُهُمْ وَخَطْبٍ قَدْ ذَلَّلُوا مَنَاكِبَهُ . اِنَّمَا كَانُوا كَٱلْبَحْرِ ٱلَّذِي لَا يَنْكَشِ غِمَارُهُ وَلَا يُنْهَنَهُ تَيَّارُهُ . وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ : لِمَ لَا تَشْرَبُ ٱلنَّبِيذَ . فَقَالَ : لَا اَشْرَبُ مَا يَشْرَبُ عَقْلِي .

وَقَالَ آخَرُ : اَلْخَطُّ مَرْكَبُ ٱلْبَيَانِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اَلْقَلَمُ لِسَانُ ٱلْبَيَانِ . وَسَمِعْتُ بَعْضَ ٱلْأَطِبَّاءِ يَقُولُ : اَلْمَاءُ مَطِيَّةُ ٱلطَّعَامِ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِكَاتِبِهِ : لَا تُكَدِّرْ مَاءَ مَعْرُوفِي بِٱلْمَنِّ فَإِنَّ ٱعْتِدَادَكَ بِٱلْمَعْرُوفِ يَعْقِلُ لِسَانَ ٱلشُّكْرِ . وَأَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي مَنْثُورِ ٱلْكَلَامِ وَفِيمَا أَوْرَدْنَاهُ كِفَايَةٌ . وَأَمَّا ٱلِٱسْتِعَارَةُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى

البحث التاسع

في مراعاة النظير

(من شرح بديعية العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٣١ من علم الادب)

يُسَمَّى أَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّنَاسُبَ وَٱلِٱئْتِلَافَ وَٱلتَّوْفِيقَ وَٱلْمُؤَاخَاةَ . وَهُوَ فِي ٱصْطِلَاحِ ٱلْبَدِيعِيِّينَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ أَمْرٍ وَمَا يُنَاسِبُهُ لَا عَلَى جِهَةِ ٱلتَّضَادِّ . وَهُوَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ . (ٱلْأَوَّلُ) يُذْكَرُ فِيهِ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فَقَطْ كَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَشَّابِ لِلْخَلِيفَةِ ٱلْمُسْتَضِيءِ :

وَرَدَ ٱلْوَرَى سَلْسَالَ جُودِكَ فَٱرْتَوَوْا ... وَوَقَفْتُ دُونَ ٱلْوِرْدِ وِقْفَةَ حَائِمِ
ظَمْآنَ أَطْلُبُ خِفَّةً مِنْ زَحْمَةٍ ... وَٱلْوِرْدُ لَا يَزْدَادُ غَيْرَ تَزَاحُمِ

فَٱنْظُرْ حُسْنَ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ كَيْفَ جَرَيَا كَٱلْمَاءِ فِي طَلَاوَتِهِ . وَوَقَعَا مِنَ ٱلْقُلُوبِ كَٱلشَّهْدِ فِي حَلَاوَتِهِ . مَعَ أَنَّ نَاظِمَهُمَا مَا خَرَجَ عَنْ وَصْفِ ٱلْمَاءِ كَلَامُهُ . وَلَا تَعَدَّى ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى نِظَامُهُ . فَأَوْدَعَهُمَا فِي عَشْرِ مَوَاضِعَ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ . فِيهَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لَيْسَ لَهُ مِنْ نَظِيرٍ . لٰكِنَّهُ مَا سَلِمَ

مَلِيحٌ مِنْ عَيْبٍ. وَلَاخَلَا مِنْ مَرْفُوعِ رَيْبٍ. فَمَعَ هٰذِهِ ٱلْمَحَاسِنِ ٱلظَّرِيفَةِ مَا سَلِمَ ٱلْبَيْتَانِ مِنْ عَيْبِ ٱلْقَافِيَةِ. فَقَدْ غَيَّرَ ٱلنَّاظِمُ كَسْرَةَ ٱلدَّخِيلِ عَلَى ٱلضَّمَّةِ. وَجَاءَ فِي ذٰلِكَ بِمَا عَابَهُ كُلُّ اَدِيبٍ وَذَمَّهُ. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلسَّلَامِي:

وَٱلنَّقْعُ ثَوْبٌ بِٱلنُّسُورِ مُطَرَّزٌ　　وَٱلْاَرْضُ فَرْشٌ بِٱلْجِيَادِ مُخَمَّلُ
وَسُطُورُ خَيْلِكَ اِنَّمَا اَلِفَاتُهَا　　سُمْرٌ تُنَقِّطُ بِٱلدِّمَاءِ وَتُشْكِلُ

نَاسَبَ بَيْنَ ٱلثَّوْبِ وَٱلتَّطْرِيزِ وَٱلْخَمْلِ وَبَيْنَ ٱلسُّطُورِ وَٱلْاَلِفَاتِ وَٱلنَّقْطِ وَٱلشَّكْلِ

(تَنْبِيهٌ) وَلَوْ ذُكِرَ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا لَا يُنَاسِبُهُ كَانَ ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ عَيْبًا. كَقَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ:

وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِينًا　　مَبْرُورَةً لَا تُكَذَّبْ
بِرَبِّ زَمْزَمَ وَٱلْحَوْ　　ضِ وَٱلصَّفَا وَٱلْمُحَصَّبْ

عَابُوا عَلَيْهِ ذِكْرَ ٱلْحَوْضِ مَعَ زَمْزَمَ وَٱلصَّفَا وَٱلْمُحَصَّبِ. وَاَنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ ذِكْرُهُ مَعَهَا. وَاِنَّمَا يُنَاسِبُ ذِكْرُ ٱلْحَوْضِ مَعَ ٱلْمِيزَانِ وَٱلصِّرَاطِ وَشِبْهِهِمَا مِمَّا هُوَ مَنُوطٌ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ

(تَنْبِيهٌ ثَانٍ) لَوْ جَاءَ ٱلْكَاتِبُ بِمُتَنَاسِبَيْنِ فَاَفْرَدَ اَحَدَهُمَا وَثَنَّى ٱلْآخَرَ اَوْ جَمَعَهُ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ كَانَ عَيْبًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

اَلَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَمَاتُوا　　اَمَا وَٱللّٰهِ مَا مَاتُوا لِتَبْقَى
وَمَا لَكَ فَاعْلَمَنْ فِيهَا بَقَاءٌ　　اِذَا ٱسْتَكْمَلْتَ آجَالًا وَرِزْقَا

فَجَمَعَ (ٱلْاَجَلَ) وَاَفْرَدَ (ٱلرِّزْقَ) مَعَ اَنَّهُمَا مُتَنَاسِبَانِ. (اَلثَّانِي) اَنْ يُذْكَرَ شَيْءٌ اَوْ اَشْيَاءُ كُلُّ وَاحِدٍ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فِي جُمَلٍ مُسْتَوِيَةٍ

ٱلْمِقْدَارِ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّفْوِيفَ لِشَبَهِهِ بِٱلثَّوْبِ ٱلْمُفَوَّفِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ خُطُوطٌ مُسْتَوِيَةٌ وَتَشْبِيهُ ٱلْجُمَلِ بِٱسْتِوَاءِ تِلْكَ ٱلْخُطُوطِ . وَتَكُونُ هٰذِهِ ٱلْجُمَلُ طِوَالًا كُلُّهَا اَوْ مُتَوَسِّطَةً . وَكُلُّهَا اِمَّا اَنْ يَكُونَ آخِرُهَا فِي بَعْضِ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْمُدْمَجَةُ . وَاِمَّا اَنْ يُوَافِقَ آخِرُهَا آخِرَ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْغَيْرُ ٱلْمُدْمَجَةِ وَهُوَ ٱلْاَحْسَنُ . فَمِنْ قَوْلِ ٱبْنِ عُنَيْنٍ :

دَعَتْ فِي اَعَالِي ٱلسُّغْدِ يَوْمًا حَمَامَةٌ ⁂ عَلَى فَنَنٍ مِنْ كُلِّ رَيَّانَ كَالْيَمِّ
فَهَاجَتْ مَشُوقًا وَٱسْتَفَزَّتْ مُتَيَّمًا ⁂ وَاَبْكَتْ غَرِيبًا وَٱسْتَخَفَّتْ اَخَا عِلْمِ

(اَلسُّغْدُ مَوْضِعٌ بِسَمَرْقَنْدَ قَدِ ٱتُّخِذَ لِلنُّزَاهَةِ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْحُسْنِ) . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي مَدْحٍ :

وَٱلدَّهْرُ يُقْبِلُ اِنْ تُقْبِلْ وَيُعْرِضُ اِنْ ⁂ تُعْرِضْ وَغَيْرُ ٱلَّذِي قَدْ رُمْتَ لَمْ يَرُمِ
اِنْ قُلْتَ يَسْمَعْ وَاِنْ تَأْمُرْ يُطِعْ وَمَتَى ⁂ فَعَلْتَ تُسْعَدْ وَاِنْ لَاحَظْتَ تَحْتَرِمِ

وَقَدْ بَلَغَ بِهَا ٱلْمُتَنَبِّي اِلَى اَرْبَعَ عَشْرَةَ جُمْلَةً لٰكِنْ بِغَيْرِ حَرْفِ عَطْفٍ فَثَقُلَتْ وَخَرَجَتْ عَنْ سِلْكِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهِيَ قَوْلُهُ :

اَقِلْ اَنِلْ اَقْطِعِ ٱحْمِلْ عَلِّ سَلِّ اَعِدْ ⁂ زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ اَدْنِ سُرَّ صِلِ

(اَلثَّالِثُ) مِنْ مُرَاعَاةِ ٱلنَّظِيرِ اَنْ تَذْكُرَ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ وَتَخْتِمَ ٱلْكَلَامَ بِشَيْئَيْنِ : اَحَدُهُمَا يُلَائِمُ وَاحِدًا مِمَّا تَقَدَّمَ . وَٱلْآخَرُ يُلَائِمُ ٱلْآخَرَ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ تَنَاسُبَ ٱلْاَطْرَافِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ : لَا تُدْرِكُهُ ٱلْاَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْاَبْصَارَ . وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ . فَٱللَّطِيفُ يُنَاسِبُ مَا لَا يُدْرَكُ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَفَاءِ . وَٱلْخَبِيرُ يُنَاسِبُ مَنْ هُوَ مُدْرِكٌ لِلطَّائِفِ

ٱلْأَشْيَاءِ . (ٱلرَّابِعُ) أَنْ تَذْكُرَ ٱلشَّيْءَ ثُمَّ تَذْكُرَ مَعَهُ لَفْظًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا يُلَائِمُ ٱلْأَوَّلَ وَٱلْآخَرُ لَا يُلَائِمُهُ فَيَتَوَهَّمُ ٱلسَّامِعُ أَنَّهُ مُرَادِفُ ٱلْمُلَائِمِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ إِيهَامَ ٱلنَّظِيرِ. كَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ :ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . فَيُتَوَهَّمُ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْمُرَادَ بِٱلنَّجْمِ ٱلنَّبَاتُ لَا ٱلْكَوْكَبُ لِعَطْفِ ٱلشَّجَرِ عَلَيْهِ

البحث العاشر

في المجاز المرسل

(عن السكاكي والدسوقي والثعالبي باختصار)

(راجع صفحة ٣٣ من علم الادب)

إِنَّ عَلَاقَةَ ٱلْمَجَازِ ٱلْمُصَحِّحَةَ لَهُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُشَابَهَةَ ٱلْمَنْقُولِ إِلَيْهِ بِٱلْمَنْقُولِ عَنْهُ فِي شَيْءٍ فَيُسَمَّى ٱلْمَجَازُ ٱسْتِعَارَةً كَمَا مَرَّ . وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ عَلَاقَةُ ٱلْمَجَازِ غَيْرَ ٱلْمُشَابَهَةِ فَيُسَمَّى مُرْسَلًا كَلَفْظِ ٱلْيَدِ إِذَا ٱسْتُعْمِلَ فِي ٱلنِّعْمَةِ وَٱلْقُدْرَةِ كَمَا يُقَالُ : جَلَّتْ أَيَادِيهِ عِنْدِي . أَيْ كَثُرَتْ نِعَمُهُ لَدَيَّ.وَٱتَّسَعَتِ ٱلْيَدُ فِي ٱلْبَلَدِ . وَٱلْيَدُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلْعُضْوُ ٱلْمَخْصُوصُ وَٱلْعَلَاقَةُ كَوْنُ ذٰلِكَ ٱلْعُضْوِ مَصْدَرًا لِلنِّعْمَةِ فَإِنَّهَا تَصِلُ إِلَى ٱلْمُنْعَمِ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْيَدِ فَتَكُونُ ٱلْجَارِحَةُ ٱلْمَخْصُوصَةُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْعِلَّةِ ٱلْفَاعِلِيَّةِ لَهَا. وَأَيْضًا بِٱلْيَدِ تَظْهَرُ ٱلنِّعْمَةُ فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْعِلَّةِ ٱلصُّورِيَّةِ لَهَا . وَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ لِلْقُدْرَةِ فَلِأَنَّ أَكْثَرَ مَا يَظْهَرُ سُلْطَانُ ٱلْقُدْرَةِ فِي ٱلْيَدِ وَبِهَا تَكُونُ ٱلْأَفْعَالُ ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْقُدْرَةِ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلضَّرْبِ

وَٱلْقَطْعِ وَٱلْأَخْذِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . وَأَنْوَاعُ ٱلْعَلَاقَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا عَائِدَةٌ إِلَى (ٱلتَّضَمُّنِ) وَهِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ . (فَمِنَ ٱلنُّقْصَانِ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ جُزْئِهِ وَإِطْلَاقُ ٱلْخَاصِّ لِلْعَامِّ . وَهٰذَا مِنْ سُنَنِ ٱلْعَرَبِ فَإِنَّهُمْ يَقْتَصِرُونَ عَلَى بَعْضِ ٱلشَّيْءِ وَهُمْ يُرِيدُونَ كُلَّهُ فَيَقُولُونَ : قَعَدَ عَلَى ظَهْرِ رَاحِلَتِهِ . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

ٱلْوَاطِئِينَ عَلَى صُدُورِ نِعَالِهِمْ

وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ :

أَوْ يَرْبِطُ بَعْضَ ٱلنُّفُوسِ حِمَامُهَا

وَفِي ٱلْقُرْآنِ : قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ . وَٱلْمُرَادُ يَغُضُّوا أَبْصَارَهُمْ كُلَّهَا . (وَكَذٰلِكَ) يَصِفُونَ ٱلْبَعْضَ بِصِفَةِ ٱلْكُلِّ كَقَوْلِهِ : نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ . فَٱلْخَطَأُ صِفَةُ ٱلْكُلِّ وَصَفَ بِهِ ٱلنَّاصِيَةَ . وَمِثْلُ ذٰلِكَ إِطْلَاقُهُمْ لَفْظَ (بَعْضٍ) مُرَادًا بِهِ ٱلْكُلُّ كَقَوْلِهِ : لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَيْ كُلَّهُ . وَمِنْ سُنَنِ ٱلْعَرَبِ أَنْ تُقِيمَ ٱلْوَاحِدَ مَقَامَ ٱلْجَمْعِ فَيَقُولُونَ : قَرِرْنَا بِهِ عَيْنًا . أَيْ أَعْيُنًا . وَكَقَوْلِهِ : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ . وَٱلتَّفْرِيقُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ ٱثْنَيْنِ . وَٱلتَّقْدِيرُ : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ سُنَّةُ ٱلْعَرَبِ أَنْ يَقُولُوا لِلرَّجُلِ ٱلْعَظِيمِ وَٱلْمَلِكِ ٱلْكَبِيرِ : ٱنْظُرُوا فِي أَمْرِي . وَلِأَنَّ ٱلسَّادَةَ وَٱلْمُلُوكَ يَقُولُونَ : نَحْنُ فَعَلْنَا وَإِنَّا أَمَرْنَا . فَعَلَى قَضِيَّةِ هٰذَا ٱلِٱبْتِدَاءِ يُخَاطَبُونَ فِي ٱلْجَوَابِ . (وَمِنَ ٱلزِّيَادَةِ) وَهُوَ عَكْسُ مَا قَبْلَهُ إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْعَامِّ لِلْخَاصِّ وَمِنْهُ بَابُ ٱلتَّخْصِيصِ بِأَسْرِهِ وَإِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْكُلِّ عَلَى ٱلْجُزْءِ نَحْوُ : يَجْعَلُونَ

اَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ . يُرِيدُ ٱلْأَنْمُلَةَ وَهِيَ جُزْءٌ مِنَ ٱلْأَصَابِعِ . وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْمُبَالَغَةُ كَأَنَّهُ جَعَلَ جَمِيعَ ٱلْأَصَابِعِ فِي ٱلْأُذُنِ لِئَلَّا يَسْمَعَ شَيْئًا مِنَ ٱلصَّاعِقَةِ . (وَمِنْ سُنَنِهِمْ) اَيْضًا ٱلْإِتْيَانُ بِٱلْجَمْعِ وَيُرِيدُونَ بِهِ ٱلْوَاحِدَ كَقَوْلِهِ : مَا كَانَ لَهُمْ اَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللّٰهِ . وَإِنَّمَا اَرَادَ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ . وَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ : اَفْعَلَا ذٰلِكَ . وَٱلْمُخَاطَبُ وَاحِدٌ . وَكَقَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . وَهُوَ خِطَابٌ لِخَازِنِ ٱلنَّارِ وَحْدَهُ . وَكَمَا قَالَ ٱلْأَعْشَى :

وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ ٱلْعَشِيَّاتِ وَٱلضُّحَى ۞ وَلَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ وَٱللّٰهَ فَٱعْبُدَا

وَيُقَالُ إِنَّهُ اَرَادَ : وَٱللّٰهَ فَٱعْبُدَنْ . فَقَلَبَ ٱلنُّونَ ٱلْخَفِيفَةَ اَلِفًا . وَكَذٰلِكَ فِي قَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ . (وَمِنْ اَنْوَاعِ) ٱلْعَلَاقَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِي ٱلْمَجَازِ ٱلْمُرْسَلِ مَا يَقُودُ إِلَى (ٱلِٱسْتِلْزَامِ) وَهُوَ مَا ٱقْتَضَى مَعْنَاهُ مَعْنًى آخَرَ لِأَجْلِ عَلَاقَتِهِ . (فَمِنْ ذٰلِكَ) إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْمَلْزُومِ عَلَى ٱللَّازِمِ وَٱللَّازِمِ عَلَى ٱلْمَلْزُومِ نَحْوُ : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ . اَيْ هَلْ يَفْعَلُ . اَطْلَقَ ٱلِٱسْتِطَاعَةَ عَلَى ٱلْفِعْلِ لِأَنَّهَا لَازِمَةٌ لَهُ . وَكَقَوْلِهِ : يُرْسِلُ ٱلسَّمَاءَ مِدْرَارًا . اَيِ ٱلْمَطَرَ . لِأَنَّهُ مِنْهَا يَنْزِلُ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ سَبَبِهِ . كَقَوْلِهِ : مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ . اَيِ ٱلْقَبُولَ وَٱلْعَمَلَ بِهِ لِأَنَّهُ يَتَسَبَّبُ عَنِ ٱلسَّمْعِ . وَكَقَوْلِهِ : رَعَيْنَا ٱلْغَيْثَ . اَيِ ٱلنَّبَاتَ ٱلَّذِي سَبَبُهُ ٱلْغَيْثُ . (وَعَكْسُهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مُسَبَّبِهِ نَحْوُ : اَمْطَرَتِ ٱلسَّمَاءُ نَبَاتًا . اَيْ غَيْثًا يَكُونُ ٱلنَّبَاتُ مُسَبَّبًا عَنْهُ . وَكَقَوْلِهِ : يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقًا . اَيْ مَطَرًا وَهُوَ مِنْ تَوَابِعِهِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا كَانَ

عَلَيْهِ نَحْوُ : آتُوا ٱلْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ . اَيِ ٱلَّذِينَ كَانُوا يَتَامَى لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْتَوْنَ أَمْوَالَهُمْ حَتَّى يَبْلُغُوا وَلَا يُتْمَ بَعْدَ ٱلْبُلُوغِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ نَحْوُ : إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا أَيْ عِنَبًا . يُعْصَرُ فَيَؤُولُ إِلَى ٱلْخَمْرِ . وَكَقَوْلِهِ : وَلَا يَلِدُوا إِلَّا كَفَّارًا . أَيْ صَائِرًا إِلَى ٱلْكُفْرِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَحَلِّهِ نَحْوُ : فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ أَيْ أَهْلَ نَادِيهِ . أَيْ مَجْلِسِهِ . وَكَقَوْلِهِ : اِسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا . أَيْ أَهْلَهَا . (وَمِنْهُ عَكْسُهُ) أَيْ إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْحَالِّ عَلَى ٱلْمَحَلِّ . نَحْوُ : حَلُّوا فِي رَحْمَةِ ٱللهِ أَيْ فِي ٱلْجَنَّةِ لِأَنَّهَا مَحَلُّ ٱلرَّحْمَةِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ آلَتِهِ نَحْوُ : وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ . أَيِ ٱجْعَلْ لِي ثَنَاءً حَسَنًا وَٱللِّسَانُ آلَةُ ٱلصِّدْقِ وَٱلثَّنَاءِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ ضِدِّهِ نَحْوُ : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . أَيْ أَنْذِرْهُمْ وَهَدِّدْهُمْ . وَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ لِلرَّجُلِ تَسْتَجْهِلُهُ : يَا عَاقِلُ . وَلِلْمَرْأَةِ تَسْتَقْبِحُهَا : يَا قَمَرُ . (وَكَذٰلِكَ) يَقْلِبُونَ ٱلْمَعْنَى نَحْوُ : عَرَضْتُ ٱلنَّاقَةَ عَلَى ٱلْحَوْضِ . يُرِيدُونَ ٱلْحَوْضَ عَلَى ٱلنَّاقَةِ . (وَمِنْهُ) وَصْفُ ٱلشَّيْءِ بِمَا يَقَعُ فِيهِ أَوْ يَكُونُ مِنْهُ نَحْوُ : يَوْمٌ عَاصِفٌ . أَيْ عَاصِفُ ٱلرِّيحِ . وَلَيْلٌ نَائِمٌ وَسَاهِرٌ وَصَائِمٌ أَيْ يُنَامُ فِيهِ وَيُسْهَرُ وَيُصَامُ . (وَمِنْهُ) إِضَافَةُ ٱلْفِعْلِ إِلَى مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ تَشْبِيهًا . كَقَوْلِهِ : جِدَارٌ يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ . وَلَا إِرَادَةَ لِلْجِدَارِ . وَلٰكِنَّهُ تَوَسَّعَ ٱلْعَرَبُ فِي ٱلْمَجَازِ فَعَبَّرُوا عَنِ ٱلْجَمَادِ بِفِعْلِ ٱلْإِنْسَانِ كَمَا قَالَ ٱلرَّاجِزُ :

اِمْتَلَأَ ٱلْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي

اي كَفَانِي وَلَيس لِلحَوضِ قولٌ. ومِثلُه قولُ الرَّاعِي الشَّاعِرِ النَّصرَانِيِّ :

فِي مَهمَهٍ قُلِقَتْ بِهِ هَامَاتُها   قَلَقَ الفُؤُوسِ إِذَا اردنَ نُصُولَا

وَالعَرَبُ تُسَمِّي التَّهَيُّؤَ لِلفِعلِ وَالِاحتِيَاجَ اِلَيهِ اِرَادَةً. وَكَذَلِكَ يأتُونَ بِلَفظِ المَاضِي وَهُوَ مُستَقبَلٌ وَبِلَفظِ المُستَقبَلِ وَهُوَ مَاضٍ كَقَولِهِ : لِمَ تَقتُلُونَ انبِيَاءَ اللهِ اي لِمَ قَتَلتُم . وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

فَادرَكتُ مَن قَد كَانَ قَبلِي وَلَم اَدَعْ   لِمَن كَانَ بَعدِي فِي القَصَائِدِ مَصنَفَا

اي لِمَن يَكُونُ بَعدِي . وَمِثلُهُ قَولُهُ : وَكَانَ اللهُ غَفُورًا . اي كَانَ وَيَكُونُ وَهُوَ كَائِنٌ الآنَ جلَّ ثَنَاؤُهُ . وَكَذَلِكَ يأتُونَ بِالمَفعُولِ بِلَفظِ الفَاعِلِ فَيَقُولُونَ : سِرٌّ كَاتِمٌ اي مَكتُومٌ . وَمَكَانٌ عَامِرٌ اي مَعمُورٌ . ومَاءٌ دَافِقٌ اي مَدفُوقٌ . وَعِيشَةٌ رَاضِيَةٌ اي مَرضِيَّةٌ . وحَرَمٌ آمِنٌ اي مَأمُونٌ . وَقَالَ جَرِيرٌ :

اِنَّ البَلِيَّةَ مَن تَمَلُّ كَلَامَهُ   فَانقَعْ فُؤَادَكَ مِن حَدِيثِ الوَامِقِ

اي مِن حَدِيثِ المَومُوقِ . وَيَعكِسُونَ هذَا العَمَلَ وَيَستَعمِلُونَ الفَاعِلَ بِلَفظِ المَفعُولِ كَقَولِهِ : كَانَ وَعدُهُ مَأتِيًّا اي آتِيًا. وَكَقَولِهِ: حِجَابٌ مَستُورٌ اي سَاتِرٌ . وَيُقِيمُونَ الِاسمَ وَالمَصدَرَ مَقَامَ الفَاعِلِ وَالمَفعُولِ . فَتَقُولُ العَرَبُ : رَجُلٌ عَدلٌ اي عَادِلٌ . وَرِضًى اي مَرضِيٌّ . وَبَنُو فُلَانٍ لَنَا سِلمٌ اي مُسَالِمُونَ . وَحَربٌ اي مُحَارِبُونَ . (وَكَذَلِكَ) يَحمِلُونَ اللَّفظَ عَلَى المَعنَى فِي تَذكِيرِ المُؤَنَّثِ وَتَأنِيثِ المُذَكَّرِ فَيَترُكُونَ حُكمَ ظَاهِرِ اللَّفظِ وَيَحمِلُونَهُ عَلَى مَعنَاهُ كَمَا يَقُولُونَ : ثَلَاثَةُ اَنفُسٍ . وَالنَّفسُ مُؤَنَّثَةٌ وَاِنَّمَا حَمَلُوهُ عَلَى مَعنَى الِانسَانِ اَو مَعنَى الشَّخصِ

قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا عِنْدَنَا إِلَّا ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ   مِثْلَ ٱلنُّجُومِ تَلَأْلَأَتْ فِي ٱلْحِنْدِسِ

وَكَمَا ذَكَّرَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَفَّ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ فِي قَوْلِهِ :

أَرَى رَجُلًا مِنْهُمْ أَسِيفًا كَأَنَّمَا   يَضُمُّ إِلَى كَشْحَيْهِ كَفًّا مُخَضَّبَا

فَحَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلْعُضْوِ وَهُوَ مُذَكَّرٌ . وَكَمَا قَالَ ٱلْآخَرُ :

يَا أَيُّهَا ٱلرَّاكِبُ ٱلْمُزْجِي مَطِيَّتَهُ   سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هٰذِهِ ٱلصَّوْتُ

أَيْ مَا هٰذِهِ ٱلْجَلَبَةُ . وَفِي ٱلْقُرْآنِ : وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا . وَلَمْ يَقُلْ : مَيْتَةً لِأَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ٱلْمَكَانِ . وَقَالَ : ٱلسَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ . فَذَكَّرَ ٱلسَّمَاءَ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ لِأَنَّهُ حَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلسَّقْفِ . وَكُلُّ مَا عَلَاكَ وَأَظَلَّكَ فَهُوَ سَمَاءٌ

البحث الحادي عشر

في القول عن الكناية

(عن كتاب صناعة الترسل والمثل السائر)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَللَّفْظَةُ إِذَا أُطْلِقَتْ وَكَانَ ٱلْغَرَضُ ٱلْأَصْلِيُّ غَيْرَ مَعْنَاهَا فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا مَقْصُودًا أَيْضًا لِيَكُونَ دَالًّا عَلَى ذٰلِكَ ٱلْغَرَضِ ٱلْأَصْلِيِّ . وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذٰلِكَ . فَٱلْأَوَّلُ هُوَ ٱلْكِنَايَةُ وَيُقَالُ لَهُ : ٱلْإِرْدَافُ . وَٱلثَّانِي ٱلْمَجَازُ . فَٱلْكِنَايَةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلَا يَذْكُرُهُ بِٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي ٱللُّغَةِ وَلٰكِنْ يَجِيءُ إِلَى مَعْنًى هُوَ تَالِيهِ وَرِدْفُهُ فِي ٱلْوُجُودِ

فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه

واعلم أن الكناية مشتقة من الستر . يقال: كنيت الشيء إذا سترته . وأجري هذا الحكم في الألفاظ التي يستر فيها المجاز بالحقيقة فتكون دالة على الساتر وعلى المستور معاً. وذلك أن المستور فيها هو المجاز لأن الحقيقة تفهم أولا ويتسارع الفهم إليها قبل المجاز . لأن دلالة اللفظ عليها دلالة وضعية . وأما المجاز فإنه يفهم منه بعد فهم الحقيقة وإنما يفهم بالنظر والفكرة وبهذا يحتاج إلى دليل لأنه عدول عن ظاهر اللفظ. فالحقيقة أظهر والمجاز أخفى وهو مستور بالحقيقة . وقد تأولت الكناية بغير هذا وهي أنها مأخوذة من الكنية التي يقال فيها: أبو فلان . فإنا إذا نادينا رجلا اسمه عبدالله وله ولد اسمه محمد فقلنا : يا أبا محمد . كان ذلك مثل قولنا: يا عبدالله . فإن شئنا ناديناه بهذا وإن شئنا ناديناه بهذا وكلاهما واقع عليه . وكذلك يجري الحكم في الكناية فإنا إذا شئنا حملناها على جانب المجاز . وإن شئنا حملناها على الحقيقة . إلا أنه لا بد من الوصف الجامع بينهما لئلا يلحق بالكناية ما ليس منها

ومثال ذلك قولهم : هو طويل النجاد وكثير رماد القدر . يعنون به أنه طويل القامة كثير القرى فلم يذكر المراد بلفظه الخاص به ولكن توصلوا إليه بذكر معنى آخر هو ردفه في الوجود . ألا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد . وإذا كثر القرى كثر رماد القدر .

وكقول الحضرمي :

قَدْ كَانَ يُعْجِبُ بَعْضَهُنَّ بَرَاعَتِي حَتَّى رَأَيْنَ تَنَحْنُحِي وَسُعَالِي

كَنَى عَنْ كِبَرِ ٱلسِّنِّ بِتَوَابِعِهِ وَهِيَ ٱلتَّنَحْنُحُ وَٱلسُّعَالُ. وَٱلْكِنَايَةُ تَكُونُ فِي ٱلْمُثْبَتِ كَمَا ذَكَرْنَا وَقَدْ تَكُونُ فِي ٱلْإِثْبَاتِ. وَهِيَ مَا إِذَا حَاوَلُوا إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي لِشَيْءٍ. فَيَتْرُكُونَ ٱلتَّصْرِيحَ بِإِثْبَاتِهِ لَهُ وَيُثْبِتُونَهُ لِمَا لَهُ بِهِ تَعَلُّقٌ كَقَوْلِهِمْ: ٱلْمَجْدُ بَيْنَ ثَوْبَيْهِ وَٱلْكَرَمُ بَيْنَ بُرْدَيْهِ. وَقَوْلِهِ:

إِنَّ ٱلْمُرُوءَةَ وَٱلسَّمَاحَةَ وَٱلنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ٱبْنِ ٱلْحَشْرَجِ

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ يَزِيدَ بْنِ ٱلْحَكَمِ يَمْدَحُ يَزِيدَ بْنَ ٱلْمُهَلَّبِ وَهُوَ فِي حَبْسِ ٱلْحَجَّاجِ:

أَصْبَحَ فِي قَيْدِكَ ٱلسَّمَاحَةُ م وَٱلْمَجْدُ وَفَضْلُ ٱلصَّلَاحِ وَٱلْحَسَبُ

وَقَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ: مَكَانُ ٱلْقَيْدِ هٰهُنَا هُوَ مَكَانُ ٱلْقُبَّةِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْمُتَقَدِّمِ. وَقَدْ يَجْتَمِعُ بِٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ كِنَايَتَانِ: ٱلْغَرَضُ مِنْهُمَا وَاحِدٌ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا أَصْلٌ بِنَفْسِهَا كَقَوْلِهِ:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي جَبَانُ ٱلْكَلْبِ مَهْزُولُ ٱلْفَصِيلِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ جُزْءٌ مِنَ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَلَا تَأْتِي إِلَّا عَلَى حُكْمِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ خَاصَّةً لِأَنَّ ٱلِٱسْتِعَارَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمُسْتَعَارِ لَهُ. وَكَذٰلِكَ ٱلْكِنَايَةُ فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمَكْنِيِّ عَنْهُ وَنِسْبَتُهَا إِلَى ٱلِٱسْتِعَارَةِ نِسْبَةُ خَاصٍّ إِلَى عَامٍّ. فَيُقَالُ: كُلُّ كِنَايَةٍ ٱسْتِعَارَةٌ. وَلَيْسَ كُلُّ ٱسْتِعَارَةٍ كِنَايَةً. وَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ وَهُوَ: أَنَّ ٱلِٱسْتِعَارَةَ لَفْظُهَا صَرِيحٌ. وَٱلصَّرِيحُ

هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ وَالْكِنَايَةُ ضِدُّ الصَّرِيحِ لِأَنَّهَا عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ . وَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ فُرُوقٍ اَحَدُهَا : الْخُصُوصُ وَالْعُمُومُ . وَالْآخَرُ الصَّرِيحُ . وَالْآخَرُ الْحَمْلُ عَلَى جَانِبِ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي بَابِ الِاسْتِعَارَةِ اَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الْمَجَازِ . وَعَلَى ذٰلِكَ فَتَكُونُ نِسْبَةُ الْكِنَايَةِ اِلَى الْمَجَازِ نِسْبَةَ جُزْءِ الْجُزْءِ وَخَاصِّ الْخَاصِّ وَقَدْ يَأْتِي فِي الْكَلَامِ مَا يَجُوزُ اَنْ يَكُونَ كِنَايَةً وَيَجُوزُ اَنْ يَكُونَ اسْتِعَارَةً . وَذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّظَرِ اِلَيْهِ فِي مُفْرَدِهِ وَالنَّظَرِ اِلَى مَا بَعْدَهُ كَقَوْلِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ فِي اَبْيَاتِهِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يُحَرِّضُ بِهَا بَنِي اُمَيَّةَ عِنْدَ خُرُوجِ اَبِي مُسْلِمٍ :

اَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ وَيُوشِكُ اَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ

البحث الثاني عشر

في التعريض

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرّف)

(راجع صفحة ٣٧ من علم الادب)

قَدْ تَكَلَّمَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ فِي التَّعْرِيضِ فَوَجَدْتُهُمْ قَدْ خَلَطُوا التَّعْرِيضَ بِالْكِنَايَةِ وَلَمْ يَفْرِقُوا بَيْنَهُمَا وَلَا حَدُّوا كُلًّا مِنْهُمَا بِحَدٍّ يَفْصِلُهُ عَنْ صَاحِبِهِ . بَلْ اَوْرَدُوا لَهُمَا اَمْثِلَةً مِنَ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ وَاَدْخَلُوا اَحَدَهُمَا فِي الْآخَرِ . فَذَكَرُوا لِلْكِنَايَةِ اَمْثِلَةً مِنَ التَّعْرِيضِ وَلِلتَّعْرِيضِ اَمْثِلَةً مِنَ الْكِنَايَةِ . فَمِمَّنْ فَعَلَ ذٰلِكَ الْغَانِمِيُّ وَابْنُ سِنَانٍ وَالْخَفَاجِيُّ وَالْعَسْكَرِيُّ . وَسَاذْكُرُ مَا عِنْدِي فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَاُمَيِّزُ اَحَدَهُمَا

عَنِ ٱلآخَرِ لِيُعرَفَ كُلٌّ مِنهُمَا عَلَى ٱنْفِرَادِهِ . وَذٰلِكَ انَّ ٱلكِنَايَةَ اِذَا وَرَدَتْ تَجَاذَبَهَا جَانِبَا حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ . وَجَازَ حَمْلُهَا عَلَى ٱلجَانِبَيْنِ مَعًا فَيَصِحُّ بِكُلٍّ مِنهُمَا ٱلمَعْنَى وَلَا يَخْتَلُّ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ انَّ ٱلكِنَايَةَ فِي اصْلِ ٱلوَضْعِ انْ تَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وَتُرِيدَ غَيْرَهُ . يُقَالُ : كَنَيْتُ بِكَذَا عَنْ كَذَا . فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ وَعَلَى مَا ارَدتَهُ مِنْ غَيْرِهِ . وَامَّا ٱلتَّعرِيضُ فَهُوَ ٱللَّفظُ ٱلدَّالُّ عَلَى ٱلشَّيْءِ مِنْ طَرِيقِ ٱلمَفهُومِ لَا بِٱلوَضْعِ ٱلحَقِيقِيِّ وَلَا ٱلمَجَازِيِّ . فَإِنَّكَ اِذَا قُلْتَ لِمَنْ تَتَوَقَّعُ صِلَتَهُ وَمَعرُوفَهُ بِغَيْرِ طَلَبٍ : اِنِّي لَمُحْتَاجٌ وَلَيسَ فِي يَدِي شَيْءٌ وَانَا عُرْيَانٌ وَٱلبَرْدُ قَدْ آذَانِي . فَانَّ هٰذَا وَاشْبَاهَهُ تَعرِيضٌ بِٱلطَّلَبِ وَلَيسَ هٰذَا ٱللَّفظُ مَوضُوعًا فِي مُقَابَلَةِ ٱلطَّلَبِ لَا حَقِيقَةً بَلْ مَجَازًا . اِنَّمَا دَلَّ عَلَيهِ مِنْ طَرِيقِ ٱلمَفهُومِ بِخِلَافِ دَلَالَةِ ٱلكِنَايَةِ فَانَّهَا لَفظِيَّةٌ وَضعِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلمَجَازِ . وَاِنَّمَا سُمِّيَ ٱلتَّعرِيضُ تَعرِيضًا لِانَّ ٱلمَعْنَى فِيهِ يُفهَمُ مِنْ عُرْضِهِ اَيْ مِنْ جَانِبِهِ . وَمِنْ لَطِيفِ ٱلتَّعرِيضَاتِ ٱلأَدَبِيَّةِ مَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ بنِ ٱلخَطَّابِ : انَّهُ كَانَ يَخْطُبُ يَوْمَ جُمُعَةٍ فَدَخَلَ عُثْمَانُ ٱبْنُ عَفَّانَ. فَقَالَ عُمَرُ : ايَّةُ سَاعَةٍ هٰذِهِ . يُرِيدُ ٱلتَّعرِيضَ بِٱلإِنكَارِ عَلَيهِ لِتَاخُّرِهِ عَنِ ٱلمَجِيءِ اِلَى ٱلصَّلَاةِ . وَهُوَ مِنَ ٱلتَّعرِيضِ ٱلمُعرِبِ عَنِ ٱلأَدَبِ . وَمِنْ امْثِلَتِهِ ٱلشِّعْرِيَّةِ قَوْلُ ٱلحَجَّاجِ يُعَرِّضُ بِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ ٱلأُمَرَاءِ :

لَسْتُ بِرَاعِي اِبِلٍ وَلَا غَنَمْ وَلَا بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ

البحث الثالث عشر

في ما ورد من الكنايات عن العرب

(عن كتاب الكناية للثعالبي وكتاب الصناعتين للعسكري)

اِعلَمْ انَّ ٱلعربَ يلجئونَ إلى ٱلكنايةِ إذا ما ارادوا ٱلتعريضَ عَمّا يُستقبَحُ ذِكرُهُ فيكنُونَ عَنِ ٱلأعوَرِ بٱلمُمتَّعِ . وعَنِ ٱلذي في عَينَيهِ نُكتةُ بَياضٍ بٱلمُكَوكَبِ . وعَمَّنْ في وَجهِهِ اثرُ ضربةٍ بٱلمُشَطَّبِ . ولبَعضِهِمْ في ابرَصَ :

لَخُو لَخْمٍ اعارَكَ مِنهُ ثَوبًا هَنيئًا بٱلقَميصِ ٱلمُستَجَدِّ

ارادَ بأخِي لَخْمٍ جَذيمَةَ ٱلأبرَصَ . ولِصاحِبٍ في ٱلجَرَبِ :

ابا ٱلعَلاءِ هِلالَ ٱلهَزْلِ وٱلجِدِّ كَيفَ ٱلنُّجُومُ ٱلّتي يَطلُعنَ في ٱلجِلْدِ

ويُكنَّى عَنِ ٱلحَولِ بٱلتأخُّرِ . قالَ ٱلدُّؤَلِيُّ :

بِيضُ ٱلمَطابِخِ لا تَشكُو إماؤُهُمُ طَبخَ ٱلقُدُورِ ولا غَسلَ ٱلمَناديلِ

قالَ آخَرُ :

ثِيابُ طَبّاخٍ إذا ٱتَّسَختْ انقَى بَياضًا مِنَ ٱلقَراطِيسِ

وقالَ ابو بكرٍ ٱلخُوارَزميُّ :

فَتًى مُختَصِرُ ٱلمأكو لِ وٱلمَشرُوبِ وٱلعِطْرِ

نَقِيُّ ٱلكأسِ وٱلقَصعَةِ م وٱلمِنديلِ وٱلقِدْرِ

ويَكنُونَ عَنِ ٱلجاهِلِ بأنَّهُ مِنَ ٱلمُستَريحِينَ . ويُروَى انَّ خِلافًا وَقَعَ بَينَ بَعضِ ٱلخُلَفاءِ وبَينَ نَديمٍ لَهُ في مَسألةٍ . فٱتَّفَقا على رأيِ بَعضِ اهلِ ٱلعِلمِ فأُحضِرَ . فوَجَدَ ٱلخَليفةَ مُخطِئًا فقالَ : ٱلقائلونَ

بِقَوْلِ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ اَكْثَرُ (يُرِيدُ ٱلْجُهَّالَ) . وَاِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ اَحْمَقَ قِيلَ : نَعْتُهُ لَا يَنصَرِفُ . وَكَانَ قَابُوسُ بْنُ وَشْمَكِيرَ اِذَا وَصَفَ رَجُلًا بِٱلْبَلَهِ قَالَ : هُوَ مِنْ اَهْلِ ٱلْجَنَّةِ . وَيَقُولُونَ : فُلَانٌ خَفِيفٌ عَلَى ٱلْقَلْبِ يُرِيدُونَ مَقْلُوبًا وَهُوَ ٱلثَّقِيلُ . وَكَانَ ٱلنَّاصِرُ ٱلْعَلَوِيُّ ٱلْأَطْرُوشُ اِذَا خَاطَبَهُ اَحَدٌ فَلَمْ يَسْمَعْ قَالَ لَهُ: اَرْفَعْ صَوْتَكَ فَاِنَّ بِأُذُنِي بَعْضَ مَا بِرُوحِكَ . وَنَظَرَ ٱلْبَدِيعُ ٱلْهَمَذَانِيُّ اِلَى رَجُلٍ طَوِيلٍ بَارِدٍ فَقَالَ : قَدْ اَقْبَلَ لَيْلُ ٱلشِّتَاءِ . وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ وَقَدِ ٱقْشَعَرَّ . فَقَالَ : مَا تَجِدُ فَدَيْتُكَ . قَالَ : اَجِدُكَ (يَعْنِي ٱلْبَرْدَ) . وَاِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ كَذُوبًا قِيلَ : ٱلْفَاخِتَةُ عِنْدَهُ اَبُو ذَرٍّ (يُضْرَبُ ٱلْمَثَلُ بِٱلْفَاخِتَةِ فِي ٱلْكَذِبِ وَبِأَبِي ذَرٍّ فِي ٱلصِّدْقِ).وَيَقُولُونَ اَيْضًا: فُلَانٌ يَلْطِمُ عَيْنَ مِيزَانٍ.(وَمِيزَانٌ رَجُلٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْكَذِبِ). وَاِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ لُوطِيًّا قِيلَ : هُوَ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ لُوطٍ. وَاِذَا كَانَ مُلْحِدًا قِيلَ : قَدْ عَبَرَ (يُرِيدُونَ جِسْرَ ٱلْاِيمَانِ) . قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : هَلْ عَبَرْتَ . قَالَ : فِي ذٰلِكَ ٱلْجَانِبِ وُلِدْتُ . وَاِنْ كَانَ يُسِيءُ ٱلْاَدَبَ فِي ٱلْمُؤَاكَلَةِ قِيلَ : تُسَافِرُ يَدُهُ عَلَى ٱلْخِوَانِ وَيَرْعَى اَرْضَ ٱلْجِيرَانِ . فَاِنْ كَانَ خَفِيفَ ٱلْيَدِ فِي ٱلطَّرِّ وَٱلسَّرِقَةِ . قَالُوا : هُوَ اَحَذُّ يَدِ ٱلْقَمِيصِ (وَيَدُ ٱلْقَمِيصِ ٱلْكُمُّ وَٱلسَّارِقُ يُقَصِّرُهُ لِيَكُونَ اَقْدَرَ عَلَى مَا يُرِيدُ مِنْ سَرِقَةٍ) . فَاِذَا كَانَ قَمِلَ ٱلثَّوْبِ قِيلَ : فُلَانٌ يَعْرِضُ ٱلصَّيْدَ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ :

وُحُوشُهُ تَرْتَعُ فِي جَنْبِهِ ‌ ‌ ‌ ‌ وَظُفْرُهُ يَرْكَبُ لِلصَّيْدِ

وَإِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ يَتَشَاعَرُ وَلَيسَ يُجِيدُ قَالُوا: هُوَ نَبِيٌّ فِي ٱلشِّعْرِ.
قَالَ بَعْضُهُمْ:

يَا نَبِيَّ ٱللهِ فِي ٱلشِّعْرِ م وَيَا مَنْ فِيهِ يُكْرَمْ
أَنتَ مِنْ أَشْعَرِ خَلْقِ ٱللهِ م مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ

وَيُقَالُ: فُلَانٌ رَابِعُ ٱلشُّعَرَاءِ. إِذَا كَانَ مُتَخَلِّفًا مُنْحَطَّ ٱلطَّبَقَةِ لِقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

اَلشُّعَرَاءُ فَٱعْلَمَنَّ أَرْبَعَهْ فَشَاعِرٌ يَجْرِي وَلَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَسْمَعَهْ
وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَصْفَعَهْ

وَسُئِلَ حَائِكٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ فَقَالَ: كُسْوَةُ ٱلْأَحْيَاءِ وَجِهَازُ ٱلْمَوْتَى.
وَيَكْنُونَ عَنِ ٱلْقَرَوِيِّ بِأَخْضَرِ ٱلْأَسْنَانِ مِنْ كَثْرَةِ أَكْلِ ٱلْبَقْلِ.
وَسُئِلَ حَجَّامٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ. فَقَالَ: أَكْتُبُ بِٱلْحَدِيدِ وَأَخْتِمُ بِٱلزُّجَاجِ.
وَفِيهِ قِيلَ:

يَا ٱبْنَ ٱلَّذِي عَاشَ غَيْرَ مُضْطَهَدٍ بِرَحْمَةِ ٱللهِ أَيُّمَا رَجُلِ
أَبُوكَ أَوْهَى ٱلنِّجَادُ عَاتِقَهُ كَمْ مِنْ كَمِيٍّ أَدْمَى وَكَمْ بَطَلِ
لَهُ رِقَابُ ٱلْمُلُوكِ خَاضِعَةٌ مِنْ بَيْنِ حَافٍ وَبَيْنَ مُنْتَعِلِ
يَأْخُذُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ دَمِهِ لَمْ يُمْسِ مِنْ ثَائِرٍ عَلَى وَجَلِ (١)

وَيُقَالُ عَمَّنْ يُكْثِرُ ٱلْأَسْفَارَ: فُلَانٌ لَا يَضَعُ ٱلْعَصَا عَنْ عَاتِقِهِ.
وَجَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ: أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ. فَإِنَّهُ

(١) راجع الجزء الثالث من مجاني الادب صفحة ١٥١

كَنَى عَنِ ٱلْغِيبَةِ بِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ ٱلْإِنْسَانِ . وَهٰذَا شَدِيدُ ٱلْمُنَاسَبَةِ لِأَنَّ ٱلْغِيبَةَ إِنَّمَا هِيَ ذِكْرُ مَثَالِبِ ٱلنَّاسِ وَتَمْزِيقُ أَعْرَاضِهِمْ وَتَمْزِيقُ ٱلْعِرْضِ مُمَاثِلٌ لِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ مَنْ يَغْتَابُهُ . وَمِنْ أَمْثَالِ ٱلْعَرَبِ قَوْلُهُمْ : لَبِسَ لِفُلَانٍ جِلْدَ ٱلنَّمِرِ وَجِلْدَ ٱلْأَرْقَمِ . كِنَايَةً عَنِ ٱلْعَدَاوَةِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : قَلَبَ لَهُ ظَهْرَ ٱلْمِجَنِّ كِنَايَةً عَنْ تَغْيِيرِ ٱلْمَوَدَّةِ . وَمِنْ ظَرِيفِ ٱلْكِنَايَاتِ مَا جَاءَ عَنِ ٱلْجَمَّازِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : أَيُّ ٱلْبُقُولِ أَحَبُّ إِلَيْكَ . فَقَالَ : بَقْلَةُ ٱلذِّئْبِ (يَعْنِي ٱللَّحْمَ) . وَرَأَى رَجُلٌ مَنْ أَضَافُوهُ يُطِيلُونَ ٱلْغِنَاءَ وَلَا يَأْتُونَ بِٱلْأَكْلِ فَقَالَ :

خَلِيلَيَّ دَاوَيْتُمَا ظَاهِرًا ... فَمَنْ ذَا يُدَاوِي جَوًى بَاطِنَا

فَعَلِمُوا أَنَّهُ جَائِعٌ . وَأُخْبِرَ عَنِ ٱلْجَاحِظِ أَنَّهُ أَكَلَ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ فَالُوذَجَةً فَأَمَرَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ أَنْ يُجْعَلَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْجَاحِظِ مَا رَقَّ مِنَ ٱلْجَامِ . فَأَسْرَعَ فِي ٱلْأَكْلِ حَتَّى نَظَّفَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ : يَا أَبَا عُثْمَانَ قَدْ تَقَشَّعَتْ سَمَاؤُكَ . فَقَالَ : أَصْلَحَكَ ٱللهُ لِأَنَّ غَيْمَهَا كَانَ رَقِيقًا . وَكَذٰلِكَ يُقِيمُونَ وَصْفَ ٱلشَّيْءِ مَقَامَ ٱسْمِهِ كَمَا قَالَ : حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . يَعْنِي ٱلسَّفِينَةَ فَوَضَعَ صِفَتَهَا مَوْضِعَ تَسْمِيَتِهَا . وَقَالَ : إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ . يَعْنِي ٱلْخَيْلَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ :

سَأَلَتْ قُتَيْبَةُ عَنْ أَبِيهَا صَحْبَهُ ... فِي ٱلرَّوْحِ هَلْ رَكِبَ ٱلْأَغَرَّ ٱلْأَشْقَرَا

يَعْنِي هَلْ قُتِلَ . وَٱلْأَغَرُّ ٱلْأَشْقَرُ وَصْفُ ٱلدَّمِ فَأَقَامَهُ مَقَامَ ٱسْمِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ :

شِمْتُ بَرْقَ ٱلْوَزِيرِ فَٱنْهَلَّ حَتَّى ... لَمْ اَجِدْ مَهْرَبًا اِلَى ٱلْاَقْدَامِ
فَكَاَنِّي وَقَدْ تَقَاصَرَ بَاعِي ... خَابِطٌ فِي عُبَابِ اَخْضَرَ طَامِي

يَعْنِي ٱلْبَحْرَ. وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ لِٱبْنِ ٱلْقَبَعْثَرِيِّ: لَاَحْمِلَنَّكَ عَلَى ٱلْاَدْهَمِ. يَعْنِي ٱلْقَتْلَ. فَتَجَاهَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ: مِثْلُ ٱلْاَمِيرِ يَحْمِلُ عَلَى ٱلْاَدْهَمِ وَٱلْاَشْهَبِ. يُرِيدُ ٱلْخَيْلَ. وَمِنْ ذٰلِكَ: اَنَّ ٱلْمَنْصُورَ كَانَ فِي بُسْتَانٍ لَهُ وَهُوَ فِي اَيَّامِ مُحَارَبَتِهِ اِبْرَاهِيمَ بْنَ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ ٱلْحَسَنِ وَنَظَرَ اِلَى شَجَرَةِ خِلَافٍ فَقَالَ لِلرَّبِيعِ: مَا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ. فَقَالَ: طَاعَةٌ يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ ٱلْمَنْصُورُ بِهِ وَعَجِبَ مِنْ ذَكَائِهِ. وَمِثْلُ ذٰلِكَ: اَنَّ رَجُلًا مَرَّ فِي صَحْنِ دَارِ ٱلرَّشِيدِ وَمَعَهُ حُزْمَةُ خَيْزُرَانٍ. فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ لِلْفَضْلِ بْنِ ٱلرَّبِيعِ: مَا ذَاكَ. فَقَالَ: عُرُوقُ ٱلرِّمَاحِ يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. وَكَرِهَ اَنْ يَقُولَ ٱلْخَيْزُرَانَ لِمُوَافَقَتِهِ ٱسْمَ وَالِدَةِ ٱلرَّشِيدِ. وَمِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ اَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ نَقِيُّ ٱلثَّوْبِ. يُرِيدُونَ بِهِ اَنَّهُ لَا عَيْبَ فِيهِ وَلَيْسَ بِمَوْضُوعٍ نَقَاءَ ٱلثَّوْبِ ٱلْمُرَادُ مِنَ ٱلْعَيْبِ وَاِنَّمَا ٱسْتُعْمِلَ فِيهِ تَمْثِيلًا. وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ ... وَاَوْجُهُهُمْ عِنْدَ ٱلْمَشَاهِدِ غُرَّاتُ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ طَاهِرُ ٱلثَّوْبِ. يُرِيدُونَ اَنَّهُ لَيْسَ بِخَائِنٍ وَلَا غَادِرٍ. وَفُلَانٌ دَنِسُ ٱلثَّوْبِ اِذَا كَانَ غَادِرًا فَاجِرًا. وَقَوْلُهُمْ: طَيِّبُ ٱلْحُجْزَةِ اَيْ عَفِيفٌ. قَالَ ٱلنَّابِغَةُ يَمْدَحُ بَنِي غَسَّانَ ٱلنَّصَارَى:

رِقَاقُ ٱلنِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ ... يُحَيَّوْنَ بِٱلرَّيْحَانِ يَوْمَ ٱلسَّبَاسِبِ

وَقَالَ ٱلْاَصْمَعِيُّ: اِذَا قَالَتِ ٱلْعَرَبُ: ٱلثَّوْبَ وَٱلْاِزَارَ. فَاِنَّهُمْ

يريدون البدن. ويقولون: فلانٌ اوسع بني امية ثوبًا. اي اكثرهم معروفًا. وفلانُ غمرُ الرداء اذا كان كثير المعروف. قال كثيّرٌ:

غمرُ الرداء اذا تبسّم ضاحكًا   غلقت لضحكته رقابُ المال

وكذلك قولهم: فلانٌ رحبُ الذراع. ومن الكنايات اللطيفة ما ذكرها الادباء في الشيب والكبر. فيقولون: عرضت لفلانٍ فترةٌ. عرض لهُ ما يمحو ذنوبهُ ويكفّر سيئاتهِ. اقمر ليلهُ نوّر غصنُ شبابهِ. فضّض الزمانُ ابنوسهُ. وجاءهُ النذيرُ. وقرع ناجذ الحلم. وارتاض بلجام الدهر. ادرك زمان الحنكة. رفض غرّة الصبي ولبّى داعي الحجى. ومن كناياتهم عن الموت: استأثر اللهُ بهِ. اسعدهُ اللهُ بجوارهِ. نقلهُ الى دار رضوانهِ ومحلّ غفرانهِ. انتقل الى جوار ربهِ وانقلب الى محلّ عفوهِ. اختار لهُ النقلة من دار البوار الى دار الابرار

البحث الرابع عشر

في المبالغة

(عن بديعية الحموي وكتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الادب)

المبالغة نوعٌ معدودٌ من محاسن فنّ الكتابة عند الجمهور واستدلّوا على ذلك بقول من قال: احسنُ الشعر اكذبهُ. وبقول النابغة الذبياني: اشعرُ الناس من استُجيد كذبهُ. ومنهم من لم يعدّ

ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمَشَى فِي ذٰلِكَ عَلَى مَذْهَبِ حَسَّانِ ٱبْنِ ثَابِتٍ فَإِنَّهُ قَالَ :

وَإِنَّمَا ٱلشِّعْرُ عَقْلُ ٱلْمَرْءِ يَعْرِضُهُ عَلَى ٱلْأَنَامِ فَإِنْ كَيْسًا وَإِنْ حُمُقَا
وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

وَعِنْدَ أَهْلِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ أَنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ لَمْ تُسْفِرْ عَنْ غَيْرِ ٱلتَّهْوِيلِ عَلَى ٱلسَّامِعِ وَلَمْ يَفِرَّ ٱلنَّاظِمُ إِلَى ٱلتَّخْيِيمِ عَلَيْهَا إِلَّا بِعَجْزِهِ وَقُصُورِ هِمَّتِهِ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُبْتَكَرَةِ . لِأَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ كَٱلْاِسْتِرَاحَةِ مِنَ ٱلشَّاعِرِ إِذَا أَعْيَاهُ إِيرَادُ ٱلْمَعَانِي ٱلْغَرِيبَةِ فَيَشْغَلُ ٱلْأَسْمَاعَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ وَتَهْوِيلٌ . وَقَالُوا : رُبَّمَا إِنَّهَا أَحَالَتِ ٱلْمَعَانِيَ فَأَخْرَجَتْهَا عَنْ حَدِّ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُمْكِنِ إِلَى حَدِّ ٱلْاِمْتِنَاعِ . وَٱلْمُبَالَغَةُ تُعَابُ فِي بَابِهَا إِذَا خَرَجَتْ عَنْ حَدِّ ٱلْإِمْكَانِ إِلَى ٱلْاِسْتِحَالَةِ وَأَتَى ٱلْكَلَامُ عَلَى حَدِّهَا فِي مَوْضِعِهِ . وَٱلَّذِي أَقُولُهُ : إِنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ مَحَاسِنِ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ وَلَمْ يَسْتَطْرِدْ فِي حَلَبَاتِ سَبْقِهَا إِلَّا فُحُولُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَلَوْ سَلَّمْنَا إِلَى مَنْ يَهْضِمُ جَانِبَهَا وَلَمْ يَعُدَّهَا مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ بَطَلَتْ بَلَاغَةُ ٱلْاِسْتِعَارَةِ وَٱنْحَطَّتْ رُتْبَةُ ٱلتَّشْبِيهِ . وَتَسْمِيَةُ ٱلْمُبَالَغَةِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى قُدَامَةَ . وَمِنْهُمْ مَنْ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ ٱلتَّبْلِيغَ . وَسَمَّاهُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْإِفْرَاطَ فِي ٱلصِّفَةِ . وَهٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةُ طَابَقَتِ ٱلْمُسَمَّى . وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ رَغِبُوا فِي تَسْمِيَةِ قُدَامَةَ لِخِفَّتِهَا . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ أَعْنِي ٱلْمُبَالَغَةَ شَرِكَهُ قَوْمٌ مَعَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لِعَدَمِ مَعْرِفَةِ ٱلْفَرْقِ وَهُوَ مِثْلُ ٱلصُّبْحِ ظَاهِرٌ . (وَٱلْمُبَالَغَةُ) فِي ٱلْاِصْطِلَاحِ هِيَ إِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ

عَادَةً . (وَٱلْإِغْرَاقُ) وَصْفُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً . (وَٱلْغُلُوُّ) وَصْفُهُ بِمَا يَسْتَحِيلُ وُقُوعُهُ . وَيَأْتِي ٱلْكَلَامُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلثَّلَاثَةِ فِي مَوْضِعِهِ . وَقَدْ تَقَرَّرَ أَوَّلًا أَنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ نَوْعُهَا مَبْنِيٌّ عَلَى وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ . وَحَدَّ قُدَامَةُ ٱلْمُبَالَغَةَ فَقَالَ : هِيَ أَنْ يَذْكُرَ ٱلْمُتَكَلِّمُ حَالًا مِنَ ٱلْأَحْوَالِ لَوْ وَقَفَ عِنْدَهَا لَأَجْزَأَتْ فَلَا يَقِفُ حَتَّى يَزِيدَ فِي مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ مَا يَكُونُ أَبْلَغَ مِنْ مَعْنًى قَصَدَهُ كَقَوْلِ عُمَيْرِ بْنِ كَرِيمٍ ٱلتَّغْلِبِيِّ :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا ... وَنُتْبِعُهُ ٱلْكَرَامَةَ حَيْثُ مَالَا

وَقَالَ : إِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ مِنْ أَحْسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ . فَإِنَّ ٱلشَّاعِرَ بَلَغَ فِيهِ إِلَى أَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ وَتَوَصَّلَ إِلَى أَكْثَرِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَتَعَاطَاهُ . وَلَخَّصَ بَعْضُهُمْ عِبَارَةَ ٱلْحَدِّ ٱلَّذِي حَدَّهُ قُدَامَةُ وَقَالَ : ٱلْمَعْنَى إِذَا زَادَ عَلَى ٱلتَّمَامِ سُمِّيَ مُبَالَغَةً . وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : ٱلْمُبَالَغَةُ بُلُوغُ ٱلشَّاعِرِ أَقْصَى مَا يُمْكِنُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ . قُلْتُ عَلَى هٰذَا ٱلتَّقْرِيرِ : فَمَحَلُّ ٱلْقَصْدِ فِي ٱلْمُبَالَغَةِ ٱلْإِمْكَانُ وَٱلْخُرُوجُ مِنَ ٱلْمُسْتَحِيلِ . وَٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ فِيهَا أَنَّهَا ضَرْبٌ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ إِذَا بَعُدَتْ عَنِ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ . وَإِنْ كَانَ ٱلْإِغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ ضَرْبَيْنِ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ وَنَوْعَيْنِ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ . فَقَدْ شَرَطَ عُلَمَاؤُهُ أَنَّ ٱلنَّوْعَ لَا يَتَجَاوَزُ حَدَّهُ بِحَيْثُ يَزُولُ ٱلْإِلْتِبَاسُ وَيُعْجِبُنِي مِنْ أَمْثِلَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ :

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ ... دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهْ

فَٱلْمَعْنَى تَمَّ لِلنَّاظِمِ لَمَّا ٱنْتَهَى فِي بَيْتِهِ إِلَى قَوْلِهِ : دُجَى ٱللَّيْلِ وَلٰكِنْ زَادَ بِمَا هُوَ أَبْلَغُ وَأَبْدَعُ وَأَغْرَبُ فِي قَوْلِهِ : حَتَّى تَظَلَّمَ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ جَوَادٍ :

وَأَصْرَعُ أَيَّ ٱلْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ   وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ

قَالَ ذَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ : أَبْلَغُ شِعْرٍ سَمِعْتُهُ فِي بَابِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ شَاعِرِ ٱلْحَمَاسَةِ إِذْ بَالَغَ فِي مَدْحِ مَمْدُوحِهِ بِقَوْلِهِ :

رَهَنْتُ يَدِي بِٱلْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ   وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ   وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فَٱنْظُرْ مَا أَحْلَى ٱحْتِرَاسَهُ عَنْ ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ . وَٱنْظُرْ كَيْفَ أَظْهَرَ عُذْرَهُ فِي عَجْزِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ بِأَنْ قَالَ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي : وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ . ثُمَّ أَخْرَجَ بَقِيَّةَ ٱلْبَيْتِ لِلْمُبَالَغَةِ مُخْرَجَ ٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ حَيْثُ قَالَ : وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ . وَمِنْ هُنَا قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً   حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَمِنْ حَسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ ٱلْحَكَمِ ٱلْخُضَرِيِّ :

وَأَقْبَحُ مِنْ قِرْدٍ وَأَبْخَلُ بِٱلْقِرَى
مِنَ ٱلْكَلْبِ أَمْسَى وَهُوَ غَرْثَانُ أَعْجَفُ

فَٱلْكَلْبُ بَخِيلٌ عَلَى مَا ظَفِرَ بِهِ وَهُوَ أَشَدُّ بُخْلًا إِذَا كَانَ جَائِعًا أَعْجَفَ أَمَّا (ٱلْإِغْرَاقُ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَلٰكِنَّهُ دُونَ ٱلْغُلُوِّ . وَهُوَ

فِي ٱلِاصْطِلَاحِ إِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً وَقَلَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا . وَغَالِبُ ٱلنَّاسِ عِنْدَهُمُ ٱلْمُبَالَغَةُ وَٱلْإِغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ نَوْعٌ وَاحِدٌ مَعَ أَنَّهَا تَخْتَلِفُ كَمَا سَبَقَ . وَكُلٌّ مِنَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لَا يُعَدُّ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ إِلَّا إِذَا ٱقْتَرَنَ بِمَا يُقَرِّبُهُ إِلَى ٱلْقَبُولِ (كَقَدْ) لِلِاحْتِمَالِ . (وَلَوْلَا) لِلِامْتِنَاعِ . (وَكَادَ) لِلْمُقَارَبَةِ . وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّقْرِيبِ . وَمَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلصَّحِيحِ إِلَّا مَقْرُونًا بِمَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَابِ ٱلِاسْتِحَالَةِ وَيُدْخِلُهُ فِي بَابِ ٱلْإِمْكَانِ مِثْلُ : (كَادَ وَلَوْ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا كَقَوْلِهِ : يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يُذْهِبُ ٱلْأَبْصَارَ . إِذْ لَا يَسْتَحِيلُ فِي ٱلْعَقْلِ أَنَّ ٱلْبَرْقَ يَخْطَفُ ٱلْأَبْصَارَ وَلٰكِنَّهُ يَمْتَنِعُ عَادَةً . وَمَا زَادَ عَلَى وَجْهِ ٱلْإِغْرَاقِ هُنَا جَمَالًا إِلَّا بِتَقْرِيبِهِ (بِكَادَ) . وَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ بِهَا هُوَ ٱلَّذِي صَرَفَهُ إِلَى ٱلْحَقِيقَةِ فَقُلِبَتْ مِنَ ٱلِامْتِنَاعِ إِلَى ٱلْإِمْكَانِ . وَمِنْ شَوَاهِدِ تَقْرِيبِ نَوْعِ ٱلْإِغْرَاقِ (بِلَوْ) قَوْلُ زُهَيْرٍ :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

فَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ أَيْضًا بِٱمْتِنَاعِ قُعُودِ ٱلْقَوْمِ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُسْتَفَادِ (بِلَوْ) هُوَ ٱلَّذِي أَظْهَرَ بَهْجَةَ شَمْسِهَا فِي بَابِ ٱلْإِغْرَاقِ وَرُبَّمَا جَاءَ دُونَ ذٰلِكَ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي رَجُلٍ طَوِيلِ ٱلْأَنْفِ :

لَكَ أَنْفٌ يَا ٱبْنَ حَرْبٍ أَنِفَتْ مِنْهُ ٱلْأُنُوفُ
أَنْتَ فِي ٱلْبَيْتِ وَعِرْنِينُكَ م فِي ٱلسُّوقِ يَطُوفُ

وَكَقَوْلِ ٱلطِّرِمَّاحِ يَهْجُو تَمِيماً :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ اَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتْ سُبْلَ ٱلْمَكَارِمِ ضَلَّتِ
وَلَوْ اَنَّ بُرْغُوثاً عَلَى ظَهْرِ نَمْلَةٍ يَكُرُّ عَلَى صَفَّيْ تَمِيمٍ لَوَلَّتِ
وَلَوْ اَنَّ اُمَّ ٱلْعَنْكَبُوتِ بَنَتْ لَهَا مَظَلَّتَهَا يَوْمَ ٱلنَّدَى لَاَسْتَظَلَّتِ
وَلَوْ جُمِعَتْ يَوْماً تَمِيمٌ جُمُوعَهَا عَلَى ذُرْوَةٍ مِنْ خَالَةٍ لَاَسْتَقَلَّتِ

اَمَّا (ٱلْغُلُوُّ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَٱلْاِغْرَاقِ فَاِنَّهُ ٱلْاِفْرَاطُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُسْتَحِيلِ وُقُوعُهُ عَقْلًا وَعَادَةً وَهُوَ يَنْقَسِمُ اِلَى قِسْمَيْنِ : مَقْبُولٍ وَغَيْرِ مَقْبُولٍ . فَٱلْمَقْبُولُ لَا بُدَّ اَنْ يُقَرِّبَهُ ٱلنَّاظِمُ اِلَى ٱلْقَبُولِ بِاَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ ٱللَّهُمَّ اِلَّا اَنْ يَكُونَ ٱلْغُلُوُّ فِي مَدِيحِ نَبِيٍّ فَلَا غُلُوَّ . وَيَجِبُ عَلَى صَاحِبِ ٱلْغُلُوِّ اَنْ يَسْبُكَهُ فِي قَوَالِبِ ٱلتَّخَيُّلَاتِ ٱلْمُحَسَّنَةِ ٱلَّتِي يَدْعُو ٱلْعَقْلُ اِلَى قَبُولِهَا فِي اَوَّلِ وَهْلَةٍ كَقَوْلِهِ : يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ . فَاِنَّ اِضَاءَةَ ٱلزَّيْتِ مِنْ غَيْرِ مَسِّ نَارٍ مُسْتَحِيلَةٌ عَقْلًا وَلٰكِنَّ لَفْظَةَ (يَكَادُ) قَرَّبَتْهُ فَصَارَ مَقْبُولًا . وَمِنْهُ قَوْلُ اَبِي ٱلْعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيِّ :

تَكَادُ قِسِيُّهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ تُمَكِّنُ فِي قُلُوبِهِمِ ٱلنِّبَالَا
تَكَادُ سُيُوفُهُ مِنْ غَيْرِ سَلٍّ تَجِدُّ اِلَى رِقَابِهِمِ ٱنْسِلَالَا

وَيُعْجِبُنِي هُنَا قَوْلُ ٱبْنِ حَمْدِيسَ ٱلصِّقِلِّيِّ فِي وَصْفِ فَرَسٍ :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً مِنْ ظِلِّهِ لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِ

وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ اَبِي طَالِبٍ :

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ رُكْنُ ٱلْحَطِيمِ اِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

وَمِنَ ٱلْغُلُوِّ ٱلْمَقْبُولِ بِغَيْرِ اَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي مَمْدُوحِهِ :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهِ عِثْيَرًا لَوْ تَبْتَغِي عَنَقًا عَلَيْهِ لَاَمْكَنَا *

وَٱنْعِقَادُ ٱلْغُبَارِ فِي ٱلْهَوَاءِ حَتَّى يُمْكِنَ ٱلْمَشْيُ عَلَيْهِ مُسْتَحِيلٌ عَقْلًا وَعَادَةً اِلَّا اِنَّهُ تَخَيُّلٌ مَقْبُولٌ

وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْمُتَوَكِّلِ :

وَلَوَ اَنَّ مُشْتَاقًا تَكَلَّفَ غَيْرَ مَا فِي وُسْعِهِ لَسَعَى اِلَيْكَ ٱلْمِنْبَرُ

وَامَّا ٱلَّذِي هُوَ غَيْرُ مَقْبُولٍ فَكَقَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ فِي ٱلْخَمْرَةِ :

فَلَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبِيبُهَا اِلَى مَوْضِعِ ٱلْاَسْرَارِ قُلْتُ لَهَا قِفِي

مَخَافَةَ اَنْ يَسْطُو عَلَيَّ شُعَاعُهَا فَيَطَّلِعَ نُدْمَانِي عَلَى سِرِّيَ ٱلْخَفِي

قَالُوا : اِنَّ سَطْوَةَ شُعَاعِ ٱلْخَمْرِ بِحَيْثُ يَصِيرُ جِسْمُهُ شَفَّافًا يُظْهِرُ لِنَدِيمِهِ مَا فِي بَاطِنِهِ لَا يُمْكِنُ عَقْلًا وَلَا عَادَةً . قُلْتُ : وَمَرَاتِبُ ٱلْغُلُوِّ تَتَفَاوَتُ اِلَى اَنْ تَؤُولَ بِقَائِلِهَا اِلَى ٱلْكُفْرِ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

تَتَقَاصَرُ ٱلْاَفْهَامُ عَنْ اِدْرَاكِهِ مِثْلَ ٱلَّذِي ٱلْاَفْلَاكُ فِيهِ وَٱلدُّنَى

وَكَقَوْلِهِ :

كَاَنِّي دَحَوْتُ ٱلْاَرْضَ مِنْ خِبْرَتِي بِهَا كَاَنِّي بَنَى ٱلْاِسْكَنْدَرُ ٱلسَّدَّ مِنْ عَزْمِي

فَهٰذَا ٱلْغُلُوُّ يُؤَدِّي اِلَى سَخَافَةِ ٱلْعَقْلِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قُبْحِ ٱلتَّرْكِيبِ وَلَوْلَا ٱلْاِطَالَةُ لَاَوْرَدْتُ كَثِيرًا مِنْ نَظْمِ ٱلَّذِينَ يَتَسَاهَلُونَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ كَاَبِي

---

* معنى هذا البيت ان سنابك الخيل وهي اطراف الحوافر عقدت على هذا الممدوح عثيرًا وهو الغبار حتى لو اراد ان يمشي عليه عنقًا لامكن . والعنق هو المشي السريع

نُؤَاسٍ وَٱبْنِ هَانِئٍ ٱلْاَنْدَلُسِيِّ وَٱلْمُتَنَبِّي وَاَبِي ٱلْعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيِّ وَغَيْرِهِم
مِنَ ٱلْمُتَاخِّرِينَ كَٱبْنِ ٱلنَّبِيهِ وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُ . وَفِي مَا قَدَّمْنَا كِفَايَةٌ

البحث الخامس عشر

في التكرير

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٤٢ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنْ مَقَاتِلِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وَهُوَ دَقِيقُ ٱلْمَأْخَذ
وَحَدُّهُ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ :
اَحَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى وَٱلْآخَرُ يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ
فَاَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فَكَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَدْعِيهِ : اَسْرِعْ
اَسْرِعْ . وَاَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فَكَقَوْلِكَ : اَطِعْنِي وَلَا
تَعْصِنِي . فَاِنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ . وَكُلٌّ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ
يَنْقَسِمُ اِلَى مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . وَمَقْصُودِي مِنَ ٱلْمُفِيدِ اَنْ يَأْتِيَ لِمَعْنًى
وَغَيْرِ ٱلْمُفِيدِ اَنْ يَأْتِيَ لِغَيْرِ مَعْنًى . وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْمُفِيدَ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ
يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ تَأْكِيدًا وَتَشْدِيدًا مِنْ اَمْرِهِ . وَاِنَّمَا يُفْعَلُ ذٰلِكَ
لِلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْعِنَايَةِ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي كَرَّرْتَ فِيهِ كَلَامَكَ اِمَّا مُبَالَغَةً فِي
مَدْحِهِ اَوْ فِي ذَمِّهِ اَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ . وَلَا يَأْتِي اِلَّا فِي اَحَدِ طَرَفَيِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ
بِٱلذِّكْرِ . وَٱلْوَسَطُ عَارٌ مِنْهُ لِاَنَّ اَحَدَ ٱلطَّرَفَيْنِ هُوَ ٱلْمَقْصُودُ بِٱلْمُبَالَغَةِ
اِمَّا بِمَدْحٍ اَوْ ذَمٍّ اَوْ غَيْرِهِمَا وَٱلْوَسَطُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ ٱلْمُبَالَغَةِ . وَغَيْرُ
ٱلْمُفِيدِ لَا يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ اِلَّا عِيًّا وَخَطَلًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ اِلَيْهِ

(فَأَمَّا ٱلْأَوَّلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) فَإِنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى ضَرْبَيْنِ : مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . (فَٱلْأَوَّلُ ٱلْمُفِيدُ) وَهُوَ فَرْعَانِ : (ٱلْأَوَّلُ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمَقْصُودُ بِهِ غَرَضَانِ مُخْتَلِفَانِ . فَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُهُ : بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . فَكَرَّرَ (ٱلرَّحْمَانَ ٱلرَّحِيمَ) مَرَّتَيْنِ . وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَوَّلَ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلدُّنْيَا كَٱلْخَلْقِ وَٱلْعِنَايَةِ . وَٱلثَّانِي يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلْآخِرَةِ إِشَارَةً لِرَحْمَتِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلضَّرْبِ ٱلْأَوَّلِ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمُرَادُ بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ كَقَوْلِهِ : فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . وَٱلتَّكْرِيرُ دَلَالَةُ ٱلتَّعَجُّبِ مِنْ تَقْرِيرِهِ وَإِصَابَتِهِ ٱلْغَرَضَ . وَهٰذَا كَمَا يُقَالُ : قَتَلَهُ ٱللهُ مَا أَشْجَعَهُ أَوْ مَا أَشْجَعَهُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

أَلَا يَا ٱسْلَمِي ثُمَّ ٱسْلَمِي ثُمَّتَ ٱسْلَمِي

وَهٰذَا مُبَالَغَةٌ فِي ٱلدُّعَاءِ لَهَا بِٱلسَّلَامَةِ . وَكُلُّ هٰذَا يُجَاءُ بِهِ لِتَقْرِيرِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَإِثْبَاتِهِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قِسْمًا يَكُونُ ٱلْمَعْنَى مُضَافًا إِلَى نَفْسِهِ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱللَّفْظِ . وَذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱسْتُعْمِلَ فِي فَصِيحِ ٱلْكَلَامِ فَمِنْهُ قَوْلُهُ : وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ . وَٱلرِّجْزُ هُوَ ٱلْعَذَابُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

نَهُوضٌ بِثِقْلِ ٱلْعِبْءِ مُضْطَلِعٌ بِهِ وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ ٱلْخُطُوبُ وَجَلَّتِ

وَالثِّقَلُ هُوَ الْعِبءُ وَالْعِبءُ هُوَ الثِّقَلُ. وَرُبَّمَا اَشْكَلَ هٰذَا الْمَوْضُوعُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَعَاطَى هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ وَظَنُّوهُ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ. وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ الْفَائِدَةُ فِيهِ هِيَ التَّأْكِيدُ لِلْمَعْنَى الْمَقْصُودِ وَالْمُبَالَغَةُ فِيهِ. اَمَّا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: (عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ) اَيْ عَذَابٌ مُضَاعَفٌ مِنْ عَذَابٍ. وَاَمَّا بَيْتُ اَبِي تَمَّامٍ فَاِنَّهُ تَضَمَّنَ الْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ الْمَمْدُوحِ بِحَمْلِهِ لِلْاَنْفَالِ. وَهٰذَا الْمَوْضِعُ لَمْ يُنَبِّهْ عَلَيْهِ اَحَدٌ سِوَايَ. وَرُبَّمَا اُدْخِلَ فِي التَّكْرِيرِ مِنْ هٰذَا النَّوْعِ مَا لَيْسَ مِنْهُ. فَمِنْهُ قَوْلُهُ: ثُمَّ اِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَاَصْلَحُوا اِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. فَلَمَّا تَكَرَّرَ اِنَّ رَبَّكَ مَرَّتَيْنِ عُلِمَ اَنَّ ذٰلِكَ اَدَلُّ عَلَى الْمَغْفِرَةِ . . . وَهٰذِهِ الْاَقْوَالُ يُظَنُّ اَنَّهَا مِنْ بَابِ التَّكْرِيرِ وَلَيْسَتْ كَذٰلِكَ. وَقَدْ اَنْعَمْتُ نَظَرِي فِيهَا فَرَاَيْتُهَا خَارِجَةً عَنْ حُكْمِ التَّكْرِيرِ وَذَاكَ اِنَّهُ اِذَا طَالَ الْفَصْلُ مِنَ الْكَلَامِ وَكَانَ اَوَّلُهُ يَفْتَقِرُ اِلَى تَمَامٍ وَلَا يُفْهَمُ اِلَّا بِهِ فَالْاَوْلَى فِي بَابِ الْفَصَاحَةِ اَنْ يُعَادَ اللَّفْظُ الْاَوَّلُ مَرَّةً ثَانِيَةً لِيَكُونَ مُقَارِنًا لِتَمَامِ الْفَصْلِ كَيْ لَا يَجِيءَ الْكَلَامُ مَنْثُورًا لَا سِيَّمَا فِي (اِنَّ وَاَخَوَاتِهَا). فَاِذَا وَرَدَتْ (اِنَّ) وَكَانَ بَيْنَ اَسْمِهَا وَخَبَرِهَا فُسْحَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ الْكَلَامِ فَاِعَادَةُ (اِنَّ) اَحْسَنُ فِي حُكْمِ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ كَمَا تَقَدَّمَ. وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ مِنْ شُعَرَاءِ الْحَمَاسَةِ:

اَاِبْحَنَا وَقَيْدًا وَاشْتِيَاقًا وَغُرْبَةً ... وَنَأْيَ حَبِيبٍ اِنَّ ذَا لَعَظِيمُ

وَاِنَّ امْرَءًا دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ ... عَلَى مِثْلِ مَا قَاسَيْتُهُ لَكَرِيمُ

فَإِنَّهُ لَمَّا طَالَ ٱلْكَلَامُ بَيْنَ ٱسْمِ (إِنَّ) وَخَبَرِهَا أُعِيدَتْ (إِنَّ) مَرَّةً ثَانِيَةً لِأَنَّ تَقْدِيرَ ٱلْكَلَامِ : وَإِنَّ ٱمْرَءًا دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ عَلَى مِثْلِ هٰذَا لَكَرِيمٌ. لٰكِنْ بَيْنَ ٱلِٱسْمِ وَٱلْخَبَرِ مَدًى طَوِيلٌ فَإِذَا لَمْ تُعَدْ (إِنَّ) مَرَّةً ثَانِيَةً لَمْ يَأْتِ عَلَى ٱلْكَلَامِ بَهْجَةٌ. وَهٰذَا لَا يَتَنَبَّهُ لِٱسْتِعْمَالِهِ إِلَّا ٱلْفُصَحَاءُ إِمَّا طَبْعًا وَإِمَّا عِلْمًا. وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ إِذَا كَانَ خَبَرُ (إِنَّ) عَامِلًا فِي مَعْمُولٍ يَطُولُ ذِكْرُهُ فَإِنَّ إِعَادَةَ ٱلْخَبَرِ ثَانِيَةً هُوَ ٱلْأَحْسَنُ. وَعَلَى هٰذَا جَاءَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ. فَلَمَّا قَالَ : إِنِّي رَأَيْتُ ثُمَّ طَالَ ٱلْفَصْلُ كَانَ ٱلْأَحْسَنُ أَنْ يُعِيدَ لَفْظَ (ٱلرُّؤْيَةِ) فَيَقُولَ : رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ. وَمِنْ بَابِ (ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) ٱلدَّالِّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ قَوْلُهُ : وَقَالَ ٱلَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ. يَا قَوْمِ إِنَّ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ. فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَرَّرَ نِدَاءَ قَوْمِهِ هَاهُنَا لِزِيَادَةِ ٱلتَّنْبِيهِ لَهُمْ وَٱلْإِيقَاظِ عَنْ سِنَةِ ٱلْغَفْلَةِ وَلِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ وَعَشِيرَتُهُ فَيَحْزَنُ لَهُمْ وَيَتَلَطَّفُ بِهِمْ فَيَسْتَدْعِي بِذٰلِكَ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى نَصِيحَتِهِ. وَهٰذَا فِي ٱلتَّكْرِيرِ ٱلَّذِي هُوَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلْإِيجَازِ وَأَشَدُّ مَوْقِعًا مِنَ ٱلِٱخْتِصَارِ. وَمِمَّا وَرَدَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ شِعْرًا قَوْلُ بَعْضِ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ :

إِلَى مَعْدِنِ ٱلْعِزِّ ٱلْمُؤَثَّلِ وَٱلنَّدَى　　هُنَاكَ هُنَاكَ ٱلْفَضْلُ وَٱلْخُلُقُ ٱلْجَزْلُ

فَقَوْلُهُ : هُنَاكَ هُنَاكَ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ ٱلَّذِي هُوَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلْإِيجَازِ

لِاَنَّهُ فِي مَعرِضِ مَدحٍ فهُوَ يُقَرِّرُ فِي نَفسِ ٱلسَّامِعِ مَا عِندَ ٱلْمَمْدُوحِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَوصَافِ ٱلْمَذكُورَةِ مُشِيرًا اِلَيهَا كَاَنَّهُ قَالَ : اَدُلُّكُمْ عَلَى مَعْدِنِ كَذَا وَكَذَا وَمَقَرِّهِ وَمَفَادِهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْمُسَاوِرِ ٱبْنِ هِنْدٍ :

جَزَى ٱللهُ عَنِّي غَالِبًا مِنْ عَشِيرَةٍ ‏ ‏ ‏ اِذَا حَدَثَانُ ٱلدَّهْرِ نَابَتْ نَوَائِبُهْ
فَكَمْ دَفَعُوا مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ تَلَاحَمَتْ ‏ ‏ ‏ عَلَيَّ وَمَوْجٍ قَدْ عَلَتْنِي غَوَارِبُهْ

فَصَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَعَجُزُهُ يَدُلَّانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لِاَنَّ تَلَاحُمَ ٱلْكُرَبِ عَلَيْهِ كَتَعَالِي ٱلْمَوْجِ مِنْ فَوْقِهِ . وَاِنَّمَا نَوَّعَ ذٰلِكَ لِاَنَّهُ مَقَامُ مَدْحٍ وَاِطْرَاءٍ اَلَا تَرَى اَنَّهُ يَصِفُ اِحسَانَ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ عِنْدَ حِدْثَانِ دَهْرِهِ فِي ٱلتَّكْرِيرِ . وَفِي قُبَالَتِهِ لَوْ كَانَ ٱلْقَائِلُ هَاجِيًا فَاِنَّ ٱلْهِجَاءَ فِي هٰذَا كَٱلْمَدْحِ . (اَلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) وَهُوَ غَيْرُ ٱلْمُفِيدِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مَرْوَانَ ٱلْاَصْغَرِ :

سَقَى ٱللهُ نَجْدًا وَٱلسَّلَامُ عَلَى نَجْدٍ ‏ ‏ ‏ وَيَا حَبَّذَا نَجْدٌ عَلَى ٱلْقُرْبِ وَٱلْبُعْدِ
نَظَرْتُ اِلَى نَجْدٍ وَبَغْدَادُ دُونَهَا ‏ ‏ ‏ لَعَلِّي اَرَى نَجْدًا وَهَيهَاتَ مِنْ نَجْدِ

وَهٰذَا مِنَ ٱلْعِيِّ ٱلضَّعِيفِ فَاِنَّهُ كَرَّرَ ذِكْرَ نَجْدٍ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْاَوَّلِ ثَلَاثًا . وَفِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي ثَلَاثًا . وَمُرَادُهُ فِي ٱلْاَوَّلِ ٱلثَّنَاءُ عَلَى نَجْدٍ . وَفِي ٱلثَّانِي اَنَّهُ تَلَفَّتَ اِلَيْهِ نَاظِرًا مِنْ بَغْدَادَ وَذٰلِكَ مَرْمًى بَعِيدٌ . ٱلْمَعْنَى لَا يَحْتَاجُ اِلَى مِثْلِ هٰذَا ٱلتَّكْرِيرِ . اَمَّا ٱلْبَيْتُ ٱلْاَوَّلُ فَيُحْمَلُ عَلَى ٱلْجَائِزِ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ لِاَنَّهُ مَقَامُ تَشَوُّقٍ وَتَحَرُّقٍ وَمَوْجِدَةٍ بِفِرَاقِ نَجْدٍ . وَلَمَّا كَانَ كَذٰلِكَ اُجِيزَ فِيهِ ٱلتَّكْرِيرُ عَلَى اَنَّهُ قَدْ كَانَ يُمْكِنُهُ اَنْ

يُسَوِّغَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى ٱلْوَارِدَ فِي ٱلْبَيْتَيْنِ مَعًا مِنْ غَيْرِ انْ يَأْتِيَ بِهٰذَا ٱلتَّكْرِيرِ ٱلْمُتَتَابِعِ سِتَّ مَرَّاتٍ . وَعَلَى هٰذَا ٱلْاسْلُوبِ وَرَدَ قَوْلُ ابِي نُوَاسٍ :

اَقَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا   وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ ٱلتَّرَحُّلِ خَامِسُ

وَمُرَادُهُ مِنْ ذٰلِكَ انَّهُمْ اقَامُوا بِهَا ارْبَعَةَ ايَّامٍ . وَيَا عَجَبًا لَهُ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلسَّخِيفِ ٱلدَّالِّ عَلَى ٱلْعِيِّ ٱلْفَاحِشِ فِي ضِمْنِ ابْيَاتٍ عَجِيبَةٍ لِلْحُسْنِ تَتَقَدَّمُ هٰذَا ٱلْبَيْتَ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ ايْضًا قَوْلُ ابِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَلَمْ ارَ مِثْلَ جِيرَانِي وَمِثْلِي   لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمِ مَقَامُ

فَهٰذَا هُوَ ٱلتَّكْرِيرُ ٱلْفَاحِشُ ٱلَّذِي يُؤَثِّرُ فِي ٱلْكَلَامِ نَقْصًا . الَا تَرَى انَّهُ يَقُولُ : لَمْ ارَ مِثْلَ جِيرَانِي فِي سُوءِ ٱلْجِوَارِ وَلَا مِثْلِي فِي مُصَابَرَتِهِمْ وَمُقَامِي عِنْدَهُمْ . اِلَّا انَّهُ قَدْ كَرَّرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْبَيْتِ مَرَّتَيْنِ . وَعَلَى نَحْوٍ مِنْ ذٰلِكَ جَاءَ قَوْلُهُ :

وَقَلْقَلْتُ بِٱلْهَمِّ ٱلَّذِي قَلْقَلَ ٱلْحَشَى   قَلَاقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلَاقِلُ

(وَامَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ) فَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : مُفِيدٌ وَغَيْرُ مُفِيدٍ . (ٱلضَّرْبُ ٱلْاوَّلُ) ٱلْمُفِيدُ وَهُوَ فَرْعَانِ : (ٱلْاوَّلُ) اِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ وَهُوَ مَوْضِعٌ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ مُشْكِلٌ لِانَّهُ يَسْبِقُ اِلَى ٱلْوَهْمِ انَّهُ تَكْرِيرٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَهُوَ لَيْسَ كَذٰلِكَ ... بَلْ يُقْصَدُ بِهِ ٱلتَّأْكِيدُ وَٱلتَّقْرِيرُ وَٱلتَّنَصُّلُ عَمَّا يُرْمَى بِهِ ٱلْمُتَكَلِّمُ . وَمِمَّا

يَنْتَظِمُ بِهَذَا ٱلسِلْكِ اَنْ يَكُونَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ اَحَدُهُمَا خَاصٌّ وَٱلْآخَرُ عَامٌّ كَقَوْلِهِ : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ اِلَى ٱللّٰهِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ . فَاِنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ دَاخِلٌ تَحْتَ ٱلدُّعَاءِ اِلَى ٱلْخَيْرِ . لِاَنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ خَاصٌّ وَٱلْخَيْرَ عَامٌّ فَكُلُّ اَمْرٍ بِٱلْمَعْرُوفِ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ خَيْرٍ اَمْرًا بِٱلْمَعْرُوفِ . وَذَاكَ اَنَّ ٱلْخَيْرَ اَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ مِنْ جُمْلَتِهَا ٱلْاَمْرُ بِٱلْمَعْرُوفِ . فَفَائِدَةُ ٱلتَّكْرِيرِ هٰهُنَا اَنَّهُ ذَكَرَ ٱلْخَاصَّ بَعْدَ ٱلْعَامِّ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ . وَكَقَوْلِهِ : حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى . وَكَقَوْلِهِ : فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . وَكَقَوْلِهِ : اِنَّا عَرَضْنَا ٱلْاَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْاَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَاَبَيْنَ اَنْ يَحْمِلْنَهَا . فَاِنَّ ٱلْجِبَالَ دَاخِلَةٌ فِي جُمْلَةِ ٱلْاَرْضِ . لٰكِنَّ لَفْظَ ٱلْاَرْضِ عَامٌّ وَٱلْجِبَالِ خَاصٌّ . وَفَائِدَتُهُ هٰهُنَا تَعْظِيمُ شَأْنِ ٱلْاَمَانَةِ ٱلْمُشَارِ اِلَيْهَا وَتَفْخِيمُ اَمْرِهَا . . . وَهُوَ مَوْضِعٌ يَرِدُ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْبَلِيغِ وَيُظَنُّ اَنْ لَا فَائِدَةَ فِيهِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي) اِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ . وَقَدْ سَبَقَ مِثَالُ ذٰلِكَ فِي اَوَّلِ هٰذَا ٱلْبَابِ كَقَوْلِكَ : اَطِعْنِي وَلَا تَعْصِنِي . فَاِنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ تَثْبِيتُ ٱلطَّاعَةِ فِي نَفْسِ ٱلْمُخَاطَبِ . وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ كَٱلْكَلَامِ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ مِنْ تَكْرِيرِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى اِذَا كَانَ ٱلْغَرَضُ بِهِ شَيْئًا وَاحِدًا . وَلَا تَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ اِلَّا لِتَأْكِيدِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ كَقَوْلِهِ : اِنَّ مِنْ اَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَاِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَاِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فَاِنَّهُ اِنَّمَا كَرَّرَ

ٱلْعَفْوَ وَٱلصَّفْحَ وَٱلْمَغْفِرَةَ وَٱلْجَمِيعُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ لِلزِّيَادَةِ فِي تَحْسِينِ عَفْوِ ٱلْوَالِدِ عَنْ وَلَدِهِ . وَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ يُنْظَرُ فِي ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ . وَهُوَ مَوْضِعٌ يَكُونُ ٱلتَّكْرِيرُ فِيهِ أَوْجَزَ مِنْ لَمْحَةِ ٱلْإِيجَازِ وَأَوْلَى بِٱلِٱسْتِعْمَالِ . وَمِمَّا وَرَدَ مِنْهُ شِعْرًا قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي أَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

نَزَلْتُ عَلَى آلِ ٱلْمُهَلَّبِ شَاتِيًا بَعِيدًا عَنِ ٱلْأَوْطَانِ فِي زَمَنِ ٱلْمَحْلِ
فَمَا زَالَ بِي إِكْرَامُهُمْ وَٱفْتِقَادُهُمْ وَإِحْسَانُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمْ أَهْلِي

فَإِنَّ ٱلْإِكْرَامَ وَٱلِٱفْتِقَادَ دَاخِلَانِ تَحْتَ ٱلْإِحْسَانِ وَإِنَّمَا كَرَّرَ ذٰلِكَ لِلتَّنْوِيهِ بِذِكْرِ ٱلصَّنِيعِ وَٱلْإِيجَابِ لِحَقِّهِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي) فِي تَكْرِيرِ ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ وَهُوَ غَيْرُ ٱلْمُفِيدِ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

قَسَمَ ٱلزَّمَانُ رُبُوعَهَا بَيْنَ ٱلصَّبَا وَقَبُولِهَا وَدَبُورِهَا أَثْلَاثَا

فَإِنَّ رِيحَ ٱلصَّبَا هِيَ رِيحُ ٱلْقَبُولِ يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ قَدْ خَبَطَ فِيهِ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ خَبْطًا كَثِيرًا وَٱلْأَكْثَرُ مِنْهُمْ أَجَازَهُ . فَقَالُوا : إِذَا كَانَتِ ٱلْأَلْفَاظُ مُتَغَايِرَةً وَٱلْمَعْنَى ٱلْمُعَبَّرُ عَنْهُ وَاحِدًا فَلَيْسَ ٱسْتِعْمَالُ ذٰلِكَ بِعَيْبٍ . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فِيهِ نَظَرٌ وَٱلَّذِي عِنْدِي فِيهِ أَنَّ ٱلنَّاثِرَ يُعَابُ عَلَى ٱسْتِعْمَالِهِ مُطْلَقًا إِذَا أَتَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَأَمَّا ٱلنَّاظِمُ فَإِنَّهُ يُعَابُ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ مَوْضِعٍ . أَمَّا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ صُدُورُ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَمَا وَالَاهَا . وَأَمَّا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي لَا يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ ٱلْأَعْجَازُ مِنَ ٱلْأَبْيَاتِ لِمَكَانِ ٱلْقَافِيَةِ . وَإِنَّمَا جَازَ ذٰلِكَ وَلَمْ يَكُنْ عَيْبًا لِأَنَّهُ قَافِيَةٌ

وَٱلشَّاعِرُ مُضْطَرٌّ إِلَيْهَا وَٱلْمُضْطَرُّ يَحِلُّ لَهُ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي قَصِيدَتِهِ ٱللَّامِيَّةِ ٱلَّتِي مَطْلَعُهَا :

أَلَا ٱنْعَمْ صَبَاحًا أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي

فَقَالَ :

وَهَلْ يَنْعَمَنْ إِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ   قَلِيلُ ٱلْهُمُومِ لَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

وَإِذَا كَانَ قَلِيلَ ٱلْهُمُومِ فَإِنَّهُ لَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ . وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلْمَعْنَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بِمَعِيبٍ لِأَنَّهُ قَافِيَةٌ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

قَالَتْ إِمَامَةُ لَا تَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا   إِنَّ ٱلْعَزَاءَ وَإِنَّ ٱلصَّبْرَ قَدْ غَلَبَا

هَلَّا ٱلْتَمَسْتِ لَنَا إِنْ كُنْتِ صَادِقَةً   مَالًا نَعِيشُ بِهِ فِي ٱلنَّاسِ أَوْ نَشَبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ مَعِيبٌ لِأَنَّهُ كَرَّرَ ٱلْعَزَاءَ وَٱلصَّبْرَ إِذْ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَلَمْ يَرِدَا قَافِيَةً لِأَنَّ ٱلْقَافِيَةَ هِيَ ٱلْبَاءُ . وَأَمَّا ٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي فَلَيْسَ بِمَعِيبٍ لِأَنَّ ٱلتَّكْرِيرَ جَاءَ فِي ٱلنَّشَبِ وَهُوَ قَافِيَةٌ

البحث السادس عشر

في حقيقة التشبيه وتحديده

(عن خزانة الادب للحموي وعن كتاب الصناعتين)

(راجع صفحة ٤٨ من علم الادب)

إِعْلَمْ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ أَطْلَقُوا أَعِنَّةَ ٱلْكَلَامِ فِي مَيَادِينِ حُدُودِ ٱلتَّشْبِيهِ وَتَقَادِيرِهَا وَهُوَ عِنْدَهُمُ ٱلدَّلَالَةُ عَلَى مُشَارَكَةِ أَمْرٍ لِأَمْرٍ فِي مَعْنًى . وَقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ : ٱلتَّشْبِيهُ هُوَ ٱلْعَقْدُ عَلَى أَحَدِ ٱلشَّيْئَيْنِ

يَسُدُّ أَحَدُهُما مَسَدَّ ٱلآخَرِ فِي حَالٍ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلعَامُّ ٱلَّذِي يَدْخُلُ تَحْتَهُ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْبَلِيغُ وَغَيْرُهُ. وَٱلتَّشْبِيهُ ٱلْبَلِيغُ هُوَ إِخْرَاجُ ٱلأَغْمَضِ إِلَى ٱلأَوْضَحِ مَعَ حُسْنِ ٱلتَّأْلِيفِ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ٱلتَّشْبِيهُ هُوَ ٱلدَّلَالَةُ عَلَى ٱشْتِرَاكِ شَيْئَيْنِ فِي وَصْفٍ هُوَ مِنْ أَوْصَافِ ٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ. وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ: ٱلتَّشْبِيهُ صِفَةُ ٱلشَّيْءِ بِمَا قَارَبَهُ وَشَاكَلَهُ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ لِأَنَّهُ لَوْ نَاسَبَهُ مُنَاسَبَةً كُلِّيَّةً كَانَ إِيَّاهُ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: خَدٌّ كَٱلْوَرْدِ إِنَّمَا مُرَادُهُمْ ٱحْمِرَارُ أَوْرَاقِهِ وَطَرَاوَتُهَا لَا مَا سِوَى ذٰلِكَ مِنْ صُفْرَةِ وَسَطِهِ وَخُضْرَةِ كَمَائِمِهِ (اه). وَقِيلَ: ٱلتَّشْبِيهُ إِلْحَاقُ أَدْنَى ٱلشَّيْئَيْنِ بِأَعْلَاهُمَا فِي صِفَةٍ ٱشْتَرَكَا فِي أَصْلِهَا وَٱخْتَلَفَا فِي كَيْفِيَّتِهَا قُوَّةً وَضَعْفًا. قُلْتُ: وَهٰذَا حَدٌّ مُفِيدٌ. وَأَوْرَدَ ٱبْنُ أَبِي ٱلْأَصْبَعِ فِي كِتَابِهِ تَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ حَدًّا زَادَ فِي حُسْنِهِ عَلَى ٱلْحَدِّ وَهُوَ: أَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ تَشْبِيهَانِ (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهُمَا تَشْبِيهُ شَيْئَيْنِ مُتَّفِقَيْنِ بِأَنْفُسِهِمَا كَتَشْبِيهِ ٱلْجَوْهَرِ بِٱلْجَوْهَرِ مِثْلُ قَوْلِكَ: مَاءُ ٱلنِّيلِ كَمَاءِ ٱلْفُرَاتِ. وَتَشْبِيهِ ٱلْعَرَضِ بِٱلْعَرَضِ كَقَوْلِكَ: حُمْرَةُ ٱلْخَدِّ كَحُمْرَةِ ٱلْوَرْدِ. وَتَشْبِيهِ ٱلْجِسْمِ بِٱلْجِسْمِ كَقَوْلِكَ: ٱلزَّبَرْجَدُ مِثْلُ ٱلزُّمُرُّدِ. (وَٱلثَّانِي) تَشْبِيهُ شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ بِٱلذَّاتِ يَجْمَعُهُمَا مَعْنًى وَاحِدٌ مُشْتَرَكٌ. كَقَوْلِكَ: حَاتِمٌ كَٱلْغَمَامِ وَعَنْتَرَةُ كَٱلضِّرْغَامِ. وَتَشْبِيهُ ٱلِٱتِّفَاقِ وَهُوَ ٱلْأَوَّلُ تَشْبِيهٌ حَقِيقِيٌّ. وَتَشْبِيهُ ٱلِٱخْتِلَافِ وَهُوَ ٱلثَّانِي تَشْبِيهٌ مَجَازِيٌّ وَٱلْمُرَادُ ٱلْمُبَالَغَةُ. وَٱلتَّشْبِيهُ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ ٱلْبَلَاغَةِ لِإِخْرَاجِهِ ٱلْخَفِيَّ إِلَى ٱلْجَلِيِّ وَإِدْنَائِهِ ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْقَرِيبِ. وَهُوَ حُكْمٌ إِضَافِيٌّ لَا يُوجَدُ إِلَّا بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ بِخِلَافِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَلَيْسَ ٱلْحُكْمُ

انَّهُ إِذَا صَحَّتِ ٱلِٱسْتِعَارَةُ حَسُنَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَإِنَّ ٱلْمُشَابَهَةَ إِذَا قُرِنَتْ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ بِٱلِٱسْتِعَارَةِ قَبُحَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَا تَقُولُ: كَأَنَّكَ اوْقَعْتَنِي فِي ظُلْمَةٍ إِذَا اوْقَعَكَ فِي شُبْهَةٍ . وَفَهِمْتُ ٱلْمَسْأَلَةَ فَكَأَنَّهُ ٱنْشَرَحَ صَدْرِي اوْ كَأَنَّ نُورًا حَصَلَ فِي قَلْبِي. لِتَمَكُّنِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا صَارَتْ حَقِيقَةً

البحث السابع عشر

في اركان التشبيه ومحاسنهِ وفوائده

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

وَٱعْلَمْ انَّ لِلتَّشْبِيهِ ادَوَاتٍ كَنَحْوٍ وَكَأَنَّ وَشِبْهٍ وَمِثْلٍ . فَرُبَّمَا ظَهَرَتْ وَرُبَّمَا اُضْمِرَتْ . (وَمِنَ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْأَدَاةُ) مَا قِيلَ فِي وَصْفِ حَالِ ٱلْمُنَافِقِينَ : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا اَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللّٰهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

خُلُقٌ مِنْهُمُ تَرَدَّدَ فِيهِمْ ... وَلِيَتْهُ عِصَابَةٌ عَنْ عِصَابَهْ
كَٱلْحُسَامِ ٱلْجُرَازِ يَبْقَى عَلَى ٱلدَّهْرِ م ... وَيَفْنَى فِي كُلِّ حِينٍ قِرَابُهْ

وَمِنَ ٱللَّطِيفِ ٱلْبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ:

لَاجَزَى ٱللّٰهُ دَمْعَ عَيْنِيَ خَيْرًا ... وَجَزَى ٱللّٰهُ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي
نَمَّ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئًا ... وَوَجَدْتُ ٱللِّسَانَ ذَا كِتْمَانِ
كُنْتُ مِثْلَ ٱلْكِتَابِ اَخْفَاهُ طَيٌّ ... فَٱسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِٱلْعُنْوَانِ

(وَمِنَ ٱلْمضمَرِ ٱلاداةِ) قَوْلُهُ : وَجعلنَا ٱللَّيلَ لِبَاساً . فَشَبَّهَ ٱللَّيلَ بِٱللِّبَاسِ . وَذَاكَ انَّهُ يَستُرُ ٱلنَّاسَ بعضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَنْ ارادَ هَرَباً مِنْ عدُوٍّ اوْ ثَبَاتاً لِعدُوٍّ اوْ اِخْفَاءً لِمَا لَا يُحِبُّ ٱلاِطِّلَاعَ عَلَيهِ مِنْ امرِهِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْامثَالِ مِثْلُهُ : ٱللَّيلُ جُنَّةُ ٱلهَارِبِ . وَمِمَّا وَرَدَ شِعْرًا قَوْلُ ابِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَاِذَا ٱهتَزَّ لِلنَّدَى كَانَ بَحْرًا   وَاِذَا ٱهتَزَّ لِلوَغَى كَانَ نَصْلَا
وَاِذَا ٱلْارْضُ اَظلَمَتْ كَانَ شَمْساً   وَاِذَا ٱلْارضُ امحَلَتْ كَانَ وَبْلَا

وَكُلُّ ذٰلِكَ مِنَ ٱلتَّشبِيهِ ٱلْمضمَرِ ٱلْاداةِ . وَاِنَّ هٰذَا ٱلتَّشبِيهَ ابلَغُ مِنَ ٱلتَّشبِيهِ ٱلْمُظهَرِ ٱلاداةِ وَاوجَزُ . امَّا كَوْنُهُ ابلَغَ فَلِجَعلِ ٱلْمُشبَّهِ مُشَبَّهاً بِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةِ اداةٍ فَيَكُونُ هُوَ اِيَّاهُ . فَاِنَّكَ اِذَا قُلْتَ : زَيدٌ اسَدٌ . كُنتَ قَدْ جَعَلْتَهُ اسَدًا مِنْ غَيْرِ اِظْهَارِ اداةِ ٱلتَّشبِيهِ . وَامَّا كَوْنُهُ اوجَزَ فَلِحَذفِ اداةِ ٱلتَّشبِيهِ مِنْهُ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنَّ ٱلقِسْمَيْنِ مِنَ ٱلْمُظهَرِ وَٱلْمُضمَرِ كِلَيْهِمَا فِي فَضِيلَةِ ٱلبَيَانِ سَوَاءٌ فَاِنَّ ٱلغَرَضَ ٱلمَقصُودَ مِنْ قَوْلِنَا : زَيدٌ اسَدٌ . انْ يَتَبَيَّنَ حَالُ زَيدٍ فِي ٱتِّصَافِهِ بِشَهَامَةِ ٱلنَّفْسِ وَقُوَّةِ ٱلبَطشِ وَجَرَاءَةِ ٱلْاِقدَامِ وَغَيرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجرَاهُ . اِلَّا انَّا لَمْ نَجِدْ شَيْئاً نَدُلُّ بِهِ عَلَيهِ سِوَى انْ جَعَلنَاهُ شَبِيهاً بِٱلْاسَدِ حَيْثُ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتُ مُختَصَّةً بِهِ . فَصَارَ مَا قَصَدْنَاهُ مِنْ هٰذَا ٱلقَوْلِ اكْشَفَ وَابيَنَ مِنْ انْ لَوْ قُلنَا : زَيدٌ شَهْمٌ شُجَاعٌ قَوِيُّ ٱلبَطشِ جَرِيءُ ٱلجَنَانِ وَاشبَاهُ ذٰلِكَ . لِمَا قَدْ عُرِفَ وَعُهِدَ مِنِ ٱجتِمَاعِ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ فِي ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ اعْنِي ٱلْاسَدَ . وَامَّا زَيدٌ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ فَلَيسَ مَعْرُوفاً بِهَا

وَإِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِيهِ. وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ أَيْضًا يَخْتَصُّ بِفَضِيلَةِ ٱلْإِيجَازِ وَإِنْ كَانَ ٱلْمُضْمَرُ أَوْجَزَ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ لِأَنَّ قَوْلَنَا: زَيْدٌ أَسَدٌ أَوْ كَٱلْأَسَدِ. يَسُدُّ مَسَدَّ قَوْلِنَا: زَيْدٌ مِنْ حَالِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ. وَهُوَ مِنَ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلشِّدَّةِ عَلَى كَذَا وَكَذَا مِمَّا يَطُولُ ذِكْرُهُ. فَٱلتَّشْبِيهُ إِذًا يَجْمَعُ صِفَاتٍ ثَلَاثَةً هِيَ: ٱلْمُبَالَغَةُ. وَٱلْبَيَانُ. وَٱلْإِيجَازُ كَمَا أَرَيْتُكَ. إِلَّا أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ بَيْنِ أَنْوَاعِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ مُسْتَوْعِرُ ٱلْمَذْهَبِ وَهُوَ مَقْتَلٌ مِنْ مَقَاتِلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّ حَمْلَ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمَاثَلَةِ إِمَّا صُورَةً وَإِمَّا مَعْنًى يَعِزُّ صَوَابُهُ وَتَعْسُرُ ٱلْإِجَادَةُ فِيهِ. وَقَلَّمَا أَكْثَرَ مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا عَثَرَ كَمَا فَعَلَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ مِنْ أُدَبَاءِ ٱلْعِرَاقِ وَٱبْنُ وَكِيعٍ مِنْ أُدَبَاءِ مِصْرَ. فَإِنَّهُمَا أَكْثَرَا مِنْ ذٰلِكَ لَاسِيَّمَا فِي وَصْفِ ٱلرِّيَاضِ وَٱلْأَشْجَارِ وَٱلْأَزْهَارِ وَٱلثِّمَارِ. لَاجَرَمَ أَنَّهُمَا أَتَيَا بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ ٱلَّذِي لَا يَثْبُتُ عَلَى مِحَكِّ ٱلصَّوَابِ فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَوَقَّى مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ. وَأَمَّا فَائِدَةُ ٱلتَّشْبِيهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهِيَ: أَنَّكَ إِذَا امْثَلْتَ ٱلشَّيْءَ بِٱلشَّيْءِ فَإِنَّمَا تَقْصِدُ فِيهِ إِثْبَاتَ ٱلْخَالِ فِي ٱلنَّفْسِ بِصُورَةِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ أَوْ بِمَعْنَاهُ وَذٰلِكَ أَوْكَدُ فِي طَرَفَيِ ٱلتَّرْغِيبِ فِيهِ أَوِ ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهُ. أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا أَشْبَهْتَ صُورَةً بِصُورَةٍ هِيَ أَحْسَنُ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا حَسَنًا يَدْعُو إِلَى ٱلتَّرْغِيبِ فِيهَا. وَكَذٰلِكَ إِذَا أَشْبَهْتَهَا بِصُورَةِ شَيْءٍ أَقْبَحَ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا قَبِيحًا يَدْعُو إِلَى ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهَا وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ. وَلْنَضْرِبْ لَهُ مِثَالًا يُوضِحُهُ فَنَقُولُ: قَدْ وَرَدَ عَنِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْعَسَلِ وَذَمِّهِ بَيْتٌ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ:

تَقُولُ هٰذَا مُجَاجُ ٱلنَّحْلِ تَمْدَحُهُ ‏ ‏ وَإِنْ تَعِبْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ ٱلزَّنَابِيرِ

أَلَا تَرَى كَيْفَ مَدَحَ وَذَمَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِتَصْرِيفِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمَجَازِيِّ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْأَدَاةِ ٱلَّذِي خَيَّلَ بِهِ إِلَى ٱلسَّامِعِ خَيَالًا يُحَسِّنُ ٱلشَّيْءَ عِنْدَهُ تَارَةً وَيُقَبِّحُهُ أُخْرَى . وَلَوْلَا ٱلتَّوَصُّلُ بِطَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ لَمَا أَمْكَنَهُ ذٰلِكَ . وَهٰذَا ٱلْمِثَالُ كَافٍ فِيمَا أَرَدْنَاهُ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يَجِيءَ مَصْدَرِيًّا كَقَوْلِنَا: أَقْدَمَ إِقْدَامَ ٱلْأَسَدِ وَفَاضَ فَيْضَ ٱلْبَحْرِ . وَهُوَ أَحْسَنُ مَا ٱسْتُعْمِلَ فِي بَابِ ٱلتَّشْبِيهِ . كَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ فِي وَصْفِ ٱلْخَمْرِ :

وَإِذَا مَا مَزَجُوهَا ‏ ‏ وَثَبَتْ وَثْبَ ٱلْجَرَادْ
وَإِذَا مَا شَرِبُوهَا ‏ ‏ أَخَذَتْ أَخْذَ ٱلرُّقَادْ

وَقِيلَ : إِنَّ مِنْ شَرْطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يُشَبَّهَ ٱلشَّيْءُ بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ وَأَعْظَمُ . وَٱلْقَوْلُ ٱلسَّدِيدُ فِي ذٰلِكَ هُوَ مَا أَذْكُرُهُ : وَهُوَ أَنَّ إِطْلَاقَ مَنْ أَطْلَقَ قَوْلَهُ فِي أَنَّ مِنْ شُرُوطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يُشَبَّهَ ٱلْأَصْغَرُ بِٱلْأَكْبَرِ قَوْلٌ غَيْرُ حَاصِرٍ لِلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ . لِأَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ يَأْتِي تَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلْمَدْحِ وَتَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلذَّمِّ . وَتَارَةً فِي غَيْرِ مَعْرِضِ مَدْحٍ وَلَا ذَمٍّ . وَإِنَّمَا يَأْتِي قَصْدًا لِلْإِبَانَةِ وَٱلْإِيضَاحِ . وَلَا يَكُونُ تَشْبِيهُ أَصْغَرَ بِأَكْبَرَ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مَنْ ذَهَبَ . بَلِ ٱلْقَوْلُ ٱلْجَامِعُ فِي ذٰلِكَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ لَا يُعْمَدُ إِلَيْهِ إِلَّا لِضَرْبٍ مِنَ ٱلْمُبَالَغَةِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَدْحًا أَوْ ذَمًّا أَوْ بَيَانًا أَوْ إِيضَاحًا وَلَا يَخْرُجُ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ٱلثَّلَاثَةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ

كَذٰلِكَ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ تَقْدِيرِ لَفْظَةِ أَفْعَلَ (يُرِيدُ أَفْعَلَ ٱلتَّفْضِيلِ) . فَإِنْ لَمْ تُقَدَّرْ فِيهِ لَفْظَةُ (أَفْعَلَ) فَلَيْسَ بِتَشْبِيهٍ بَلِيغٍ . أَلَا تَرَى أَنَّا نَقُولُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْأَدَاةِ : زَيْدٌ أَسَدٌ . فَقَدْ شَبَّهْنَا زَيْدًا بِٱلْأَسَدِ ٱلَّذِي هُوَ أَشْجَعُ مِنْهُ . فَإِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ فِي هٰذَا ٱلْمَقَامِ أَشْجَعَ مِنْ زَيْدٍ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ وَإِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا إِذْ لَا مُبَالَغَةَ فِيهِ . وَكَذٰلِكَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْأَدَاةِ كَقَوْلِهِ : وَلَهُ ٱلْجَوَارِي ٱلْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ . وَهٰذَا تَشْبِيهُ كَبِيرٍ بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ . لِأَنَّ خَلْقَ ٱلسُّفُنِ ٱلْبَحْرِيَّةِ كَبِيرٌ وَخَلْقَ ٱلْجِبَالِ أَكْبَرُ مِنْهُ . وَمِثْلُهُ : إِذَا شُبِّهَ شَيْءٌ حَسَنٌ بِشَيْءٍ حَسَنٍ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُشَبَّهْ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ فَلَيْسَ هُوَ بِوَارِدٍ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهٰكَذَا : إِنْ شُبِّهَ قَبِيحٌ بِقَبِيحٍ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ أَقْبَحَ وَإِنْ قُصِدَ ٱلْبَيَانُ وَٱلْإِيضَاحُ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ أَبْيَنَ وَأَوْضَحَ . فَتَقْدِيرُ لَفْظَةِ (أَفْعَلَ) لَا بُدَّ مِنْهُ فِيمَا يُقْصَدُ بِهِ بَلَاغَةُ ٱلتَّشْبِيهِ وَإِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا فَٱعْلَمْ ذٰلِكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن العاشر

في اقسام التشبيه

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

(اَلتَّشْبِيهُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ) : اَلْأَوَّلُ تَشْبِيهُ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ لِٱشْتِرَاكِهِمَا إِمَّا فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلْأُولَى وَهِيَ مُدْرَكَاتُ ٱلسَّمْعِ

وَٱلْبَصرِ وَٱلذَّوْقِ وَٱلشَّمِّ وَٱللَّمسِ . كَتَشْبِيهِ ٱلْخَدِّ بِٱلْوَرْدِ . وَٱلْوَجْهِ بِٱلنَّهَارِ . وَٱلْفَوَاكِهِ ٱلْحُلْوَةِ بِٱلسُّكَّرِ وَٱلْعَسَلِ . وَرَائِحَةِ بَعْضِ ٱلرَّيَاحِينِ بِٱلْكَافُورِ وَٱلْمِسْكِ . وَٱللَّيِّنِ ٱلنَّاعِمِ بِٱلْخَزِّ . وَٱلْخَشِنِ بِٱلْمِسْحِ . أَوْ فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلثَّانِيَةِ وَهِيَ : ٱلْأَشْكَالُ ٱلْمُسْتَقِيمَةُ وَٱلْمُسْتَدِيرَةُ وَٱلْمَقَادِيرُ وَٱلْحَرَكَاتُ كَتَشْبِيهِ ٱلْمُسْتَوِي ٱلْمُنْتَصِبِ بِٱلرُّمْحِ . وَٱلْقَدِّ ٱللَّطِيفِ بِٱلْغُصْنِ . وَٱلشَّيْءِ ٱلْمُسْتَدِيرِ بِٱلْكُرَةِ وَٱلْحَلْقَةِ . وَعِظَمِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْجَبَلِ . وَٱلذَّاهِبِ عَلَى ٱلِٱسْتِقَامَةِ بِنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ . أَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلْجُسْمَانِيَّةِ كَٱلصَّلَابَةِ وَٱلرَّخَاوَةِ . أَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ كَٱلْغَرَائِزِ وَٱلْأَخْلَاقِ . أَوْ فِي حَالَةٍ إِضَافِيَّةٍ كَقَوْلِكَ : هٰذِهِ حُجَّةٌ كَٱلشَّمْسِ . وَٱلْجَامِعُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُزِيلٌ لِلْحِجَابِ وَكَقَوْلِكَ : ٱلْفَاظُهُ كَٱلْمَاءِ فِي ٱلسَّلَاسَةِ . وَكَٱلنَّسِيمِ فِي ٱلرِّقَّةِ . وَكَٱلْعَسَلِ فِي ٱلْحَلَاوَةِ . وَٱلْجَامِعُ سُرْعَةُ وُصُولِهِ إِلَى ٱلنَّفْسِ وَٱهْتِزَازُهَا بِهِ . وَرُبَّمَا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ بِوَجْهٍ عَقْلِيٍّ كَقَوْلِ فَاطِمَةَ بِنْتِ ٱلْخُرْشُبِ ٱلْأَنْمَارِيَّةِ حِينَ وَصَفَتْ بَنِيهَا : هُمْ كَٱلْحَلْقَةِ ٱلْمُفْرَغَةِ لَا يُدْرَى أَيْنَ طَرَفَاهَا . فَإِنَّهُ لَا يَفْهَمُ ٱلْمَقْصُودَ إِلَّا مَنْ لَهُ ذِهْنٌ يَتَرَفَّعُ عَنْ طَبَقَةِ ٱلْعَامَّةِ بِخِلَافِ مَا سَبَقَ . وَمِنَ ٱلْفَرْقِ ٱلظَّاهِرِ بَيْنَهُمَا أَنَّ جَعْلَ ٱلْفَرْعِ أَصْلًا وَٱلْأَصْلِ فَرْعًا يَجِيءُ فِيمَا تَقَدَّمَ مَجِيئًا وَاسِعًا كَقَوْلِهِمْ فِي ٱلنُّجُومِ : كَأَنَّهُمْ مَصَابِيحُ . وَفِي ٱلْمَصَابِيحِ : كَأَنَّهَا نُجُومٌ . وَإِنْ حَاوَلْتَ ذٰلِكَ فِي ٱلثَّانِي لَمْ يَكَدْ يَنْقَادُ ٱنْقِيَادَ ٱلْأَوَّلِ . (ٱلثَّانِي) تَشْبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلْمَعْقُولِ كَتَشْبِيهِ ٱلْوُجُودِ ٱلْعَارِي عَنِ ٱلْفَوَائِدِ بِٱلْعَدَمِ وَتَشْبِيهِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلَّتِي تَبْقَى بَعْدَ عَدَمِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْوُجُودِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رُبَّ حَيٍّ كَمَيْتٍ لَيْسَ فِيهِ أَمَلٌ يُرْتَجَى لِنَفْعٍ وَضُرِّ
وَعِظَامٍ تَحْتَ ٱلتُّرَابِ وَفَوْقَ ٱلْأَرْ ضِ مِنْهَا آثَارُ حَمْدٍ وَشُكْرِ

(ٱلثَّالِثُ) تَشْبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلْمَحْسُوسِ كَقَوْلِهِ: وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ. وَكَقَوْلِهِ: وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ. (ٱلرَّابِعُ) تَشْبِيهُ ٱلْمَحْسُوسِ بِٱلْمَعْقُولِ وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ لِأَنَّ ٱلْعُلُومَ مُسْتَفَادَةٌ مِنَ ٱلْحَوَاسِّ وَمُنْتَهِيَةٌ إِلَيْهَا وَلِذٰلِكَ قِيلَ: مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدَ عِلْمًا. فَإِذَا كَانَ ٱلْمَحْسُوسُ أَصْلًا لِلْمَعْقُولِ فَتَشْبِيهُهُ بِهِ يَكُونُ جَعْلًا لِلْفَرْعِ أَصْلًا وَٱلْأَصْلِ فَرْعًا. وَلِذٰلِكَ لَوْ حَاوَلَ مُحَاوِلٌ ٱلْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ ٱلشَّمْسِ بِٱلظُّهُورِ وَٱلْمِسْكِ بِٱلثَّنَاءِ فَقَالَ: ٱلشَّمْسُ كَٱلْحُجَّةِ فِي ٱلظُّهُورِ. وَٱلْمِسْكُ كَٱلثَّنَاءِ فِي ٱلطِّيبِ. كَانَ سَخِيفًا مِنَ ٱلْقَوْلِ. فَأَمَّا مَا جَاءَ فِي ٱلْأَشْعَارِ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْمَحْسُوسِ بِٱلْمَعْقُولِ فَوَجْهُهُ أَنْ يُقَدَّرَ ٱلْمَعْقُولُ مَحْسُوسًا وَيُجْعَلَ كَٱلْأَصْلِ ٱلْمَحْسُوسِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمُبَالَغَةِ فَيَصِحُّ ٱلتَّشْبِيهُ حِينَئِذٍ. وَذٰلِكَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

وَكَأَنَّ ٱلنُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا سُنَنٌ لَاحَ بَيْنَهُنَّ ٱبْتِدَاعُ

فَإِنَّهُ لَمَّا شَاعَ وَصْفُ ٱلسُّنَّةِ بِٱلْبَيَاضِ وَٱلْإِشْرَاقِ عَلَى مَا قِيلَ: أَتَيْتُكُمْ بِٱلْحَنِيفِيَّةِ ٱلْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا. وَٱشْتَهَرَتِ ٱلْبِدْعَةُ وَكُلُّ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ بِٱلظُّلْمَةِ تَخَيَّلَ ٱلشَّاعِرُ أَنَّ ٱلسُّنَنَ كَأَنَّهَا مِنَ ٱلْأَجْنَاسِ ٱلَّتِي لَهَا إِشْرَاقٌ وَنُورٌ وَأَنَّ ٱلْبِدَعَ نَوْعٌ مِنَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلَّتِي لَهَا ٱخْتِصَاصٌ بِٱلسَّوَادِ وَٱلظُّلْمَةِ. فَصَارَ ذٰلِكَ عِنْدَهُ كَتَشْبِيهِ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ فَجَازَ لَهُ ٱلتَّشْبِيهُ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَخَيُّلِ مَا لَيْسَ بِمُتَلَوِّنٍ مُتَلَوِّنًا. ثُمَّ

يُتَخَيَّلُ اَصْلًا فَيُشَبَّهُ بِهِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّأْوِيلُ فِي قَوْلِ اَبِي طَالِبٍ ٱلرَّقِّيِّ :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَٱلظَّلَامُ كَاَنَّهُ يَوْمُ ٱلنَّوَى وَفُؤَادُ مَنْ لَمْ يَرْفُقِ

فَاِنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْاَوْقَاتُ ٱلَّتِي تَحْدُثُ فِيهَا ٱلْمَكَارِهُ تُوصَفُ بِٱلسَّوَادِ (يُقَالُ: اَسْوَدَّتِ ٱلدُّنْيَا فِي عَيْنَيْهِ). جَعَلَ يَوْمَ ٱلنَّوَى كَاَنَّهُ اَشْهَرُ وَاَعْرَفُ بِٱلسَّوَادِ مِنَ ٱلظَّلَامِ فَعَرَّفَهُ بِهِ وَشَبَّهُ. ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ فُؤَادَ مَنْ لَا يَرْفُقُ تَظَرُّفًا. وَٱلْقَلْبُ ٱلْقَاسِي يُوصَفُ بِشِدَّةِ ٱلسَّوَادِ. فَصَارَ هٰذَا ٱلْقَلْبُ اَصْلًا عِنْدَهُ فِي ٱلسَّوَادِ قَقِسْ عَلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ حِينَ اَهْدَى لِلْقَاضِي اَبِي ٱلْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْجُرْجَانِيِّ عِطْرًا :

يَا اَيُّهَا ٱلْقَاضِي ٱلَّذِي نَفْسِي لَهُ فِي قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مُشْتَاقَهْ

اَهْدَيْتُ عِطْرًا مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ فَكَاَنَّمَا اُهْدِي لَهُ اَخْلَاقَهْ

وَٱلْعَادَةُ تَشْبِيهُ ٱلثَّنَاءِ بِٱلْعِطْرِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْاَمْرِ عَلَى جِهَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ كَمَا بَيَّنَّا. وَقُلْتُ فِي تَشْبِيهِ حِصْنٍ :

كَاَنَّهُ وَكَانَ ٱلْجَوَّ يَكْنِفُهُ وَهْمٌ تَمَثَّلَهُ فِي طَيِّهَا ٱلْفِكَرُ

لِاَنَّهُ لَمَّا ٱرْتَفَعَ ٱلْحِصْنُ فِي ٱلْجَوِّ حَتَّى صَارَ كَٱلْوَهْمِ فَيَكُونُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْمَحْسُوسِ بِمَا تُخُيِّلَ اَنَّهُ مَحْسُوسٌ لِاظْلَامِهِ فِي ٱلْعَيْنِ اَوْ فُرِضَ لَهُ ٱلْخَفَاءُ حَتَّى صَارَ يُشْبِهُ مَعْقُولًا بِمَعْقُولٍ. وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ تَشْبِيهُ ٱلْوُجُودِ بِٱلتَّخَيُّلِ ٱلَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ فِي ٱلْاَعْيَانِ كَتَشْبِيهِ ٱلْجَمْرِ بَيْنَ ٱلرَّمَادِ بِبَحْرٍ مِنَ ٱلْمِسْكِ مَوْجُهُ ٱلذَّهَبُ. وَذٰلِكَ اِنَّمَا يَتِمُّ اِذَا فَرَضَ ٱلْمُتَخَيِّلُ اُمُورًا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَوْجُودٌ فِي ٱلْاَعْيَانِ. فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ٱلتَّشْبِيهُ حَسَنًا لَطِيفًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي ٱلنَّرْجِسِ :

كَأَنَّ عُيونَ ٱلنَّرْجِسِ ٱلغَضِّ بَيْنَنَا   مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقِيقُ

وَكَقَوْلِ آخَرَ فِي تَشْبِيهِ ٱلشَّقَائِقِ :

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ ٱلشَّقِيـقِ م   إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدْ

أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ   نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

أَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي   وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فَإِنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا أَنْيَابَ ٱلْأَغْوَالِ بَلِ ٱعْتَقَدُوا أَنَّهَا فِي غَايَةِ ٱلْحِدَّةِ فَحَسُنَ ٱلتَّشْبِيهُ . وَعَلَيْهِ جَاءَ قَوْلُهُ : طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ. لِتَنَاهِي رُؤُوسِ ٱلشَّيَاطِينِ فِي ٱلْكَرَاهَةِ وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي قُبْحِ ٱلشَّيْطَانِ وَكَرَاهِيَتِهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلْوَجْهَ ٱلْقَبِيحَ . وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي خَيْرِ ٱلْمَلَكِ وَأَنَّهُ لَا شَرَّ فِيهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلصُّوَرَ ٱلْحَسَنَةَ كَمَا قَالَ : مَا هٰذَا بَشَرًا إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مَا بِهِ ٱلْمُشَابَهَةُ قَدْ يَكُونُ مُقَيَّدًا بِٱلِٱنْتِسَابِ إِلَى ٱلشَّيْءِ وَذٰلِكَ إِمَّا إِلَى ٱلْمَفْعُولِ بِهِ وَهُوَ ٱلْجَارُّ وَٱلْمَجْرُورُ كَقَوْلِهِمْ لِمَنْ يَفْعَلُ مَا لَا يُفِيدُ : كَٱلرَّاقِمِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَإِمَّا إِلَى ٱلْحَالِ كَقَوْلِهِمْ : كَٱلْحَادِي وَلَيْسَ لَهُ بَعِيرٌ (ٱلْوَاوُ لِلْحَالِ). وَإِمَّا إِلَى ٱلْمَفْعُولِ بِهِ وَٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ كَقَوْلِهِمْ : هُوَ كَمَنْ يَجْمَعُ ٱلسَّيْفَيْنِ فِي غِمْدٍ وَكَمُبْتَغِي ٱلصَّيْدَ فِي عِرِّيسَةِ ٱلْأَسَدِ . وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلنَّاسُ إِلَّا كَٱلدِّيَارِ وَأَهْلِهَا   بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وَغَدَوْا بَلَاقِعُ

فَإِنَّهُ لَمْ يُشَبِّهِ ٱلنَّاسَ بِٱلدِّيَارِ وَإِنَّمَا شَبَّهَ وُجُودَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهِمْ بِحُلُولِهِمِ ٱلدِّيَارَ وَوَشْكِ رَحِيلِهِمْ مِنْهَا . وَكُلَّمَا كَانَتِ ٱلْمُقَدَّمَاتُ

اَكْثَرَ كَانَ ٱلتَّشبِيهُ اَوغَلَ فِي كَونِهِ عَقلِيًّا كَقَوْلِهِ : اِنَّمَا مَثَلُ ٱلحَيَاةِ ٱلدُّنيَا كَمَاءٍ اَنزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱختَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلاَرضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلاَنعَامُ حَتَّى اِذَا اَخَذَتِ ٱلاَرضُ زُخرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ اَهلُهَا اَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا اَتَاهَا اَمرُنَا لَيلًا اَو نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَاَنْ لَمْ تَغْنَ بِٱلاَمسِ . فَاِنَّ ٱلتَّشبِيهَ مُنتَزَعٌ مِنْ مَجمُوعِ هٰذِهِ ٱلجُمَلِ مِنْ غَيرِ اَنْ يُمكِنَ فَصلُ بَعضِهَا مِنْ بَعضٍ . فَاِنَّكَ لَوْ حَذَفتَ مِنهَا جُملَةً وَاحِدَةً مِنْ اَيِّ مَوضِعٍ كَانَ اَخَلَّ ذٰلِكَ بِٱلمَقصُودِ مِنَ ٱلتَّشبِيهِ . ثُمَّ مَا بِهِ ٱلمُشَابَهَةُ اِنْ كَانَ مُرَكَّبًا فَاِنَّهُ عَلَى قِسمَينِ : (ٱلاَوَّلُ) مَا لَا يُمكِنُ اِفرَادُ اَحَدِ اَجزَائِهِ بِٱلذِّكرِ كَقَوْلِهِ :

كَاَنَّ سُهَيلًا وَٱلنُّجُومُ وَرَاءَهُ صُفُوفُ صَلَاةٍ قَامَ فِيهَا اِمَامُهَا

فَاِنَّهُ لَا يُمكِنُ اِفرَادُ اَجزَاءِ هٰذَا ٱلتَّشبِيهِ اِذْ لَوْ قُلتَ : كَاَنَّ سُهَيلًا اِمَامٌ وَكَاَنَّ ٱلنُّجُومَ صُفُوفُ صَلَاةٍ . ذَهَبَتْ فَائِدَةُ هٰذَا ٱلتَّشبِيهِ . (ٱلثَّانِي) مَا يُمكِنُ اِفرَادُهُ بِٱلذِّكرِ وَيَكُونُ اِذَا اُزِيلَ مِنهُ ٱلتَّركِيبُ صَحِيحَ ٱلتَّشبِيهِ فِي طَرَفَيهِ اِلَّا اَنَّ ٱلمَعنَى مُغَيَّرٌ كَقَوْلِ اَبِي طَالِبٍ ٱلرَّقِّيِّ :

وَكَاَنَّ اَجرَامَ ٱلنُّجُومِ لَوَامِعًا دُرَرٌ نُثِرْنَ عَلَى بِسَاطٍ اَزرَقِ

فَلَوْ قُلتَ : كَاَنَّ ٱلنُّجُومَ دُرَرٌ وَكَاَنَّ ٱلسَّمَاءَ بِسَاطٌ اَزرَقُ وَجَدتَ ٱلتَّشبِيهَ مَقبُولًا . وَلٰكِنَّ ٱلمَقصُودَ مِنَ ٱلهَيئَةِ ٱلمُشَبَّهِ بِهَا قَدْ زَالَ . وَرُبَّمَا كَانَ ٱلتَّشبِيهُ فِي اُمُورٍ كَثِيرَةٍ وَلَا تَتَقَيَّدُ بَعضُهَا بِبَعضٍ . وَاِنَّمَا يَكُونُ بَعضُهَا مَضمُومًا اِلَى ٱلبَعضِ وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنهَا مُنفَرِدٌ بِنَفسِهِ

كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَالأَسَدِ بَأْساً وَالبَحْرِ جُوداً وَالسَّيْفِ مَضَاءً وَالبَدْرِ بَهَاءً . وَكَقَوْلِكَ : هُوَ يَصْفُو وَيَكْدُرُ وَيَحْلُو وَيَمُرُّ . وَلَهُ خَاصَّتَانِ (إِحْدَاهُمَا) أَنَّهُ لَا يَجِبُ فِيهِ التَّرْتِيبُ . (وَالثَّانِيَةُ) إِذَا أُسْقِطَ البَعْضُ لَا يَتَغَيَّرُ حُكْمُ البَاقِي . وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ القَيْسِ :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَابِساً   لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ وَالحَشَفُ البَالِي

وَفِيهِ نَظَرٌ

البحث التاسع عشر

في التشابيه المستعملة عند العرب

(من كتاب الصناعتين للعسكري وعن البديعيات)

أَمَّا الطَّرِيقَةُ المَسْلُوكَةُ فِي التَّشْبِيهِ وَالنَّهْجُ القَاصِدُ فِي التَّمْثِيلِ عَنِ القُدَمَاءِ وَالمُحْدَثِينَ فَتَشْبِيهُ الجَوَادِ بِالبَحْرِ وَالمَطَرِ . وَالشُّجَاعِ بِالأَسَدِ . وَالحَسَنِ بِالشَّمْسِ وَالقَمَرِ . وَالفَهِمِ المَاضِي بِالسَّيْفِ . وَالعَالِي الرُّتْبَةِ بِالنَّجْمِ . وَالحَلِيمِ الرَّزِينِ بِالجَبَلِ . وَالحَيِيِّ بِالبِكْرِ . ثُمَّ يُشَبِّهُونَ اللَّئِيمَ بِالكَلْبِ . وَالجَبَانَ بِالصِّفْرِدِ . وَالطَّائِشَ بِالفَرَاشِ . وَالذَّلِيلَ بِالنَّقَدِ وَالنَّعْلِ . وَالنَّفْعَ بِالوَتَدِ . وَالقَاسِيَ بِالحَدِيدِ وَالصَّخْرِ . وَالبَلِيدَ بِالجَمَادِ . وَشُهِرَ قَوْمٌ بِخِصَالٍ مَحْمُودَةٍ فَصَارُوا فِيهَا أَعْلَاماً فَجَرَوْا مَجْرَى مَا قَدَّمْنَاهُ كَالسَّمَوْءَلِ فِي الوَفَاءِ . وَحَاتِمٍ فِي السَّخَاءِ . وَالأَحْنَفِ فِي الحِلْمِ . وَسَحْبَانَ فِي البَلَاغَةِ . وَقُسٍّ فِي الخَطَابَةِ . وَلُقْمَانَ فِي الحِكْمَةِ . وَشُهِرَ آخَرُونَ بِأَضْدَادِ هٰذِهِ الخِصَالِ فَشُبِّهَ بِهِمْ فِي حَالِ الذَّمِّ كَبَاقِلٍ فِي العِيِّ . وَهَبَنَّقَةَ فِي الحُمْقِ . وَالكُسَعِيِّ فِي النَّدَامَةِ . وَمَادِرٍ فِي البُخْلِ

وَٱلتَّشبيهُ يَزِيدُ ٱلمَعنَى وُضُوحاً وَيُكسِبُهُ تَأْكِيداً . وَقَدْ يَأْتِي تَارَةً لِبَيَانِ إِمْكَانِ وُجُودِ ٱلشَّيْءِ عِنْدَ ٱدِّعَاءِ مَا لَا يَكُونُ إِمْكَانُهُ بَيِّناً . كَقَوْلِ ٱلمُتَنَبِّي :

فَإِنْ تَفُقِ ٱلأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ ‏ ‏ فَإِنَّ ٱلمِسْكَ بَعْضُ دَمِ ٱلغَزَالِ

وَيَكُونُ لِبَيَانِ مِقْدَارِ ٱلشَّيْءِ كَمَا إِذَا حَاوَلْتَ نَفْيَ ٱلفَائِدَةِ مِنْ فِعْلِ ٱلإِنْسَانِ قُلْتَ : هُوَ كَالقَابِضِ عَلَى ٱلمَاءِ . وَقَدْ أَطْبَقَ جَمِيعُ ٱلمُتَكَلِّمِينَ مِنَ ٱلعَرَبِ وَٱلعَجَمِ عَلَى فَوَائِدِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَلَمْ يَسْتَغْنِ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْهُ . وَقَدْ جَاءَ عَنِ ٱلقُدَمَاءِ وَأَهْلِ ٱلجَاهِلِيَّةِ مِنْ كُلِّ جِيلٍ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ وَمَوْقِعِهِ مِنَ ٱلبَلَاغَةِ بِكُلِّ لِسَانٍ . فَمِنْ ذٰلِكَ مَا قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : ٱلدُّنْيَا كَالمَاءِ كُلَّمَا ٱزْدَدْتَ مِنْهُ شُرْباً ٱزْدَدْتَ مِنْهُ عَطَشاً . وَقَالَ : صُحْبَةُ ٱلأَشْرَارِ تُورِثُ ٱلشَّرَّ كَالرِّيحِ إِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلمُنْتِنِ حَمَلَتْ نَتْناً . وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلطِّيبِ حَمَلَتْ طِيباً . وَقَالَ : مَنْ أَنْعَمَ لِمَنْ لَا يَشْكُرُ كَانَ كَمَنْ نَثَرَ بَذْرَهُ فِي ٱلسِّبَاخِ . وَقَدْ نَظَمْتُ هٰذَا ٱلمَعْنَى :

أَلَا إِنَّمَا ٱلنُّعْمَى تُجَازَى بِمِثْلِهَا ‏ ‏ إِذَا كَانَ مُسْدَاهَا إِلَى مَاجِدٍ حَرِي

فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ إِلَى غَيْرِ مَاجِدٍ ‏ ‏ فَقَدْ ذَهَبَتْ فِي غَيْرِ حَمْدٍ وَلَا شُكْرِ

إِذَا ٱلمَرْءُ أَلْقَى فِي ٱلسِّبَاخِ بُذُورَهُ ‏ ‏ أَضَاعَ فَلَمْ يَرْجِعْ بِزَرْعٍ وَلَا بَذْرِ

وَقَالَ أَيْضاً : لَا يَخْفَى فَضْلُ ذِي ٱلعِلْمِ وَإِنْ أَخْفَاهُ كَالمِسْكِ يُخْبَأُ وَيُسْتَرُ ثُمَّ لَا يَمْنَعُ ذٰلِكَ رَائِحَتَهُ أَنْ تَفُوحَ . أَخَذَهُ ٱلصَّاحِبُ فَكَتَبَ : أَنْتَ أَدَامَ ٱللهُ عِزَّكَ . وَإِنْ طَوَيْتَ عَنَّا خَبَرَكَ . وَجَعَلْتَ وَطَنَكَ وَطَرَكَ .

فَأَنْبَاؤُكَ تَأْتِينَا كَمَا وَشَى بِٱلْمِسْكِ رَيَّاهُ . وَنَمَّ عَلَى ٱلصَّبَاحِ مُحَيَّاهُ .
وَقَالَ : ٱلرَّجُلُ ذُو ٱلْمُرُوءَةِ يُكْرَمُ عَلَى غَيْرِ مَالٍ . كَٱلْأَسَدِ يُهَابُ وَإِنْ كَانَ رَابِضًا . وَٱلرَّجُلُ ٱلَّذِي لَا مُرُوءَةَ لَهُ يُهَانُ وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا . كَٱلْكَلْبِ يَهُونُ عَلَى ٱلنَّاسِ وَإِنْ طُوِّقَ . وَقَالَ : لَا يَجِبُ لِلْمُذْنِبِ أَنْ يُفَحِّصَ عَنْ أَمْرِهِ لِقُبْحِ مَا يَنْكَشِفُ مِنْهُ كَٱلشَّيْءِ ٱلْمُنْتِنِ كُلَّمَا أُثِيرَ ٱزْدَادَ نَتْنًا . وَقَالَ أَيْضًا : مَنْ يَصْنَعِ ٱلْمَعْرُوفَ لِعَاجِلِ ٱلْجَزَاءِ فَهُوَ كَمُلْقِي ٱلْحَبِّ لِلطَّيْرِ لَا لِيَنْفَعَهَا بَلْ لِيَصِيدَهَا بِهِ . وَقَالَ أَيْضًا : ٱلْمَالُ إِذَا ٱجْتَمَعَ وَلَمْ يُصْرَفْ فِي ٱلْحُقُوقِ أَسْرَعَ إِلَيْهِ ٱلْهَلَاكُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ كَٱلْمَاءِ إِذَا ٱجْتَمَعَ فِي مَوْضِعٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلنُّفُوذِ تَفَجَّرَ مِنْ جَوَانِبِهِ فَضَاعَ . وَقَالَ أَيْضًا : يَبْقَى ٱلصَّالِحُ مِنَ ٱلرِّجَالِ صَالِحًا حَتَّى يُصَاحِبَ فَاسِدًا فَإِذَا صَاحَبَهُ فَسَدَ مِثْلَ مِيَاهِ ٱلْأَنْهَارِ تَكُونُ عَذْبَةً حَتَّى تُخَالِطَ مَاءَ ٱلْبَحْرِ فَإِذَا خَالَطَتْهُ مَلُحَتْ . وَمِنَ ٱلتَّشَابِيهِ ٱلْحَسَنَةِ قَوْلُ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ : ٱلْأَدَبُ عِنْدَ ٱلْأَحْمَقِ كَٱلْمَاءِ ٱلْعَذْبِ فِي أُصُولِ ٱلْحَنْظَلِ كُلَّمَا ٱزْدَادَ رِيًّا ٱزْدَادَ مَرَارَةً . وَمِنَ ٱلتَّشَابِيهِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْبَدِيعَةِ قَوْلُ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلْمَرْءُ إِلَّا كَٱلشِّهَابِ وَضَوْئِهِ ... يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ
وَمَا ٱلْمَالُ وَٱلْأَهْلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ ... وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ ٱلْوَدَائِعُ

ثُمَّ قَالَ :

وَأَصْبَحْتُ مِثْلَ ٱلسَّيْفِ أَخْلَقَ جَفْنَهُ ... تَقَادُمُ عَهْدِ ٱلْقَيْنِ وَٱلنَّصْلُ قَاطِعُ

وَكَقَوْلِ صَالِحِ بْنِ جَنَاحٍ ٱلْعَبْسِيِّ :

أَلَا إِنَّمَا ٱلْإِنْسَانُ غِمْدٌ لِقَلْبِهِ ... وَلَا خَيْرَ فِي غِمْدٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ نَصْلُ

وَقَالَ مُتَمِّمٌ :

وَبَعْضُ ٱلرِّجَالِ نَخْلَةٌ لَا جَنَى لَهَا ... وَلَا ظِلَّ إِلَّا أَنْ يُعَدَّ مِنَ ٱلنَّخْلِ

وَقَالَ ٱلْأَخْطَلُ ٱلنَّصْرَانِيُّ :

وَإِذَا ٱفْتَقَرْتَ إِلَى ٱلذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ... ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ ٱلْأَعْمَالِ

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي ٱلنُّعْمَانِ :

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْأَنَامُ كَوَاكِبٌ ... إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَمِنْ بَدِيعِ تَشَابِيهِ ٱلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ :

وَإِنِّي وَإِسْمَاعِيلَ يَوْمَ وَدَاعِهِ ... فَكَٱلْغِمْدِ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ فَارَقَهُ ٱلنَّصْلُ

وَكَقَوْلِ بَدِيعِ ٱلزَّمَانِ ٱلْهَمَذَانِيِّ :

قَدْ كَادَ يَحْكِيكَ صَوْبُ ٱلْغَيْثِ مُنْسَكِبًا ... لَوْ كَانَ طَلْقَ ٱلْمُحَيَّا يُمْطِرُ ٱلذَّهَبَا

وَٱلدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ وَٱلشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ ... وَٱللَّيْثُ لَوْ لَمْ يُصَدْ وَٱلْبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

وَلِلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ ظَبْيٍ :

أَغْنَاهُ حُسْنُ ٱلْجِيدِ عَنْ لُبْسِ ٱلْحُلِي ... وَعَادَةُ ٱلْعُرْيِ عَنِ ٱلتَّفَضُّلِ

كَأَنَّهُ مُضَمَّخٌ بِصَنْدَلِ

وَكَقَوْلِهِ فِي سُرْعَةِ ٱلْأَوْبَةِ وَتَقْلِيلِ ٱللُّبْثِ :

وَمَا أَنَا غَيْرَ سَهْمٍ فِي هَوَاءٍ ... يَعُودُ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ ٱمْتِسَاكَا

وَلَهُ قَوْلُهُ :

وَأَنْتَ حُسَامُ ٱلْمُلْكِ وَٱللّٰهُ ضَارِبٌ ... وَأَنْتَ لِوَاءُ ٱلدِّينِ وَٱللّٰهُ عَاقِدُ

وَلَهُ أَيضاً وهُوَ مِنْ جِنسِ ٱلْإِبْدَاعِ :

مَلِكٌ سِنَانُ قَنَاتِهِ وَبَنَانُهُ يَتَبَارَيَانِ دَماً وَعُرْفاً سَاكِبَا
كَٱلْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ ٱلْتَفَتَّ رَأَيْتَهُ يُهْدِي إِلَى عَيْنَيْكَ نُوراً ثَاقِبَا
كَٱلشَّمْسِ فِي كَبِدِ ٱلسَّمَاءِ وَضَوْءُهَا يَغْشَى ٱلْبِلَادَ مَشَارِقاً وَمَغَارِبَا
كَٱلْبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرَا جُوداً وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَائِبَا

وَكَثِيراً مَا يَتَلَطَّفُ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَيُشَبِّهُونَ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةٍ . وَرُبَّمَا شَبَّهُوا شَيْئَيْنِ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةً بِثَلَاثَةٍ وَأَرْبَعَةً بِأَرْبَعَةٍ. وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ :

لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

وَكَقَوْلِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

كَأَنَّ مُثَارَ ٱلنَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وَلِٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فِي تَشْبِيهِ حُبَابِ ٱلرَّاحِ :

يَجُولُ حُبَابُ ٱلرَّاحِ فِي جَنَبَاتِهَا كَمَا جَالَ دَمْعٌ فَوْقَ خَدٍّ مُوَرَّدِ

وَلِآخَرَ قَدْ شَبَّهَ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ بِأَرْبَعَةٍ :

لِلّٰهِ طِرْسٌ عَنْ سُطُورِ جَادَهَا م ٱلْفِكْرُ ٱلسَّلِيمُ بِصَوْبِ مِسْكٍ أَذْفَرِ
فَكَأَنَّمَا هُوَ رَوْضَةٌ أَوْ جَدْوَلٌ أَوْ سِمْطُ دُرٍّ أَوْ قِلَادَةُ عَنْبَرِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلتَّمْثِيلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ تَشْبِيهاً وَاحِداً مُقَيَّداً بِقُيُودٍ وَيُظَنُّ أَنَّهَا تَشْبِيهَاتٌ مَجْمُوعَةٌ كَقَوْلِهِ :

كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ فَلَمَّا رَجَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتِ

فَإِنَّ مُجَرَّدَ قَوْلِهِ : أَبْرَقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ لَيْسَ تَشْبِيهاً مُسْتَقِلاً

بِذَاتِهِ. لِأَنَّ مَقْصُودَ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَصِفَ ٱبْتِدَاءَ مُطْمِعٍ أَدَّى إِلَى ٱنْتِهَاءٍ مُؤْيِسٍ . وَذٰلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِجُمْلَةٍ فَإِنَّ تَأْدِيَةَ ٱلشَّيْءِ إِلَى غَيْرِهِ حُكْمٌ زَائِدٌ عَلَى ذَاتِهِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ضَرْبًا يُسَمَّى ٱلطَّرْدَ وَٱلْعَكْسَ. وَهُوَ أَنْ نَجْعَلَ ٱلْمُشَبَّهَ بِهِ مُشَبَّهًا وَٱلْمُشَبَّهَ مُشَبَّهًا بِهِ. وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّيهِ: غَلَبَةَ ٱلْفُرُوعِ عَلَى ٱلْأُصُولِ. وَلَا تَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ إِلَّا وَٱلْغَرَضُ بِهِ ٱلْمُبَالَغَةُ . كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَبَدَا ٱلصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ   وَجْهُ ٱلْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

فَجَعَلَ ٱلْأَصْلَ فَرْعًا وَٱلْفَرْعَ أَصْلًا . وَهٰذَا أَبْلَغُ وَأَحْسَنُ وَأَمْدَحُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ . لِأَنَّ تَشْبِيهَ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ أَصْلٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ لَا يُنْكَرُ وَلَا يُسْتَنْكَرُ . وَإِنَّمَا ٱلَّذِي يُسْتَنْكَرُ تَشْبِيهُ ٱلصَّبَاحِ بِٱلْوَجْهِ

البحث العشرون

في معايب التشبيه

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

وَإِذْ ذَكَرْنَا أَقْسَامَ ٱلتَّشْبِيهِ وَبَيَّنَّا ٱلْمَحْمُودَ مِنْهَا ٱلَّذِي يَنْبَغِي ٱقْتِفَاءُ أَثَرِهِ وَٱتِّبَاعُ مَذْهَبِهِ فَلْنُتْبِعْهُ بِضِدِّهِ مِمَّا يَنْبَغِي ٱجْتِنَابُهُ وَٱلْإِضْرَابُ عَنْهُ. عَلَى أَنَّهُ قَدْ قَدَّمْنَا ٱلْقَوْلَ بِأَنَّ حَدَّ ٱلتَّشْبِيهِ هُوَ أَنْ يُثْبَتَ لِلْمُشَبَّهِ حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ . فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ أَوْ كَانَ بَيْنَ ٱلْمُشَبَّهِ وَٱلْمُشَبَّهِ بِهِ بُعْدٌ فَذٰلِكَ ٱلَّذِي يُطْرَحُ وَلَا يُسْتَعْمَلُ . وَٱلَّذِي يَرِدُ مِنْهُ مُضْمَرَ ٱلْأَدَاةِ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي ٱلتَّوَسُّعِ . كَقَوْلِ أَبِي نُوَاس :

مَا لِرِجْلِ ٱلْمَالِ أَمسَتْ تَشْتَكِي مِنْكَ ٱلْكَلَالَا

فَجَعَلَ لِلْمَالِ رِجْلًا وَذٰلِكَ تَشْبِيهٌ بَعِيدٌ. وَمِنْ أَقْبَحِ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّام :

وَتَعَلَّمَ ٱلنَّاسُ ٱلسَّخَاءَ مُجَزَّأً وَذَهَبْتَ أَنْتَ بِرَأْسِهِ وَسَنَامِهِ

وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلإِهَابَ وَمَا بَقِي مِنْ فَرْثِهِ وَعُرُوقِهِ وَعِظَامِهِ

وَٱلْقُبْحُ ٱلْفَاحِشُ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَكُلُّ هٰذَا ٱلتَّعَسُّفُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْبَعِيدِ دَنْدَنَةٌ حَوْلَ مَعْنًى لَيْسَ بِطَائِلٍ. فَإِنَّ غَرَضَهُ أَنْ يَقُولَ: ذَهَبْتَ بِٱلأَعْلَى وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلأَدْنَى. أَوْ: ذَهَبْتَ بِٱلْجَيِّدِ وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلرَّدِيءَ. وَأَمَّا (ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُظْهَرُ ٱلأَدَاةِ) فَهٰذِهِ أَمْثَالٌ أَوْرَدْتُهَا لِتَسْتَدِلَّ بِهَا عَلَى أَشْبَاهِهِ فَإِنَّ لِذِكْرِ ٱلْمِثَالِ فَائِدَةً لَا تَكُونُ لِذِكْرِ ٱلْحَدِّ وَحْدَهُ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

كَلَا حَاجِبَيْكَ ٱلشَّيْبُ حَتَّى كَأَنَّهُ ظِبَاءٌ جَرَتْ مِنْهَا سَنِيحٌ وَبَارِحُ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلآخَرِ يَصِفُ ٱلسِّهَامَ فَشَبَّهَهَا بِأَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ. وَذٰلِكَ مِنْ أَبْعَدِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ :

كَسَاهَا رَطِيبُ ٱلرِّيشِ فَٱعْتَدَلَتْ لَهُ قِدَاحٌ كَأَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ ٱلْفَوَارِقِ

وَعَلَى نَحْوٍ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

يَمْشُونَ فِي حَلَقِ ٱلْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ جُرْبُ ٱلْجِمَالِ بِهَا ٱلْكَحِيلُ ٱلْمُشْعَلُ

فَشَبَّهَ ٱلرِّجَالَ فِي دُرُوعِ ٱلزَّرَدِ بِٱلْجِمَالِ ٱلْجُرْبِ. وَهٰذَا مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْبَعِيدِ ٱلسَّخِيفِ فَضْلًا عَنْ أَنْ لَا مُقَارَبَةَ بَيْنَهُمَا فِي ٱللَّوْنِ. وَمِنَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْبَارِدَةِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَجَرَى عَلَى ٱلْوَرَقِ ٱلنَّجِيعُ ٱلْقَانِي   فَكَأَنَّهُ ٱلنَّارَنْجُ فِي ٱلْأَغْصَانِ

وَهٰذَا تَشْبِيهٌ يُنْكِرُهُ أَهْلُ ٱلتَّجْسِيمِ . وَقَدْ عَدُّوا مِنَ ٱلتَّشَابِيهِ ٱلَّتِي هِيَ غَيْرُ بَلِيغَةٍ قَوْلَ ٱلشَّاعِرِ فِي وَصْفِ ٱلرَّوْضِ :

كَأَنَّ شَقَائِقَ ٱلنُّعْمَانِ فِيهِ   ثِيَابٌ قَدْ رَوِينَ مِنَ ٱلدِّمَاءِ

فَهٰذَا وَإِنْ كَانَ تَشْبِيهًا مُصِيبًا فَإِنَّ فِيهِ بَشَاعَةَ كَثْرَةِ ٱلدِّمَاءِ ٱلَّتِي تَعَافُ ٱلْأَنْفُسُ ٱللَّطِيفَةُ رُؤْيَتَهَا . وَفِي أَقْوَالِ ٱلْعَرَبِ تَشَابِيهُ تَمُجُّهَا ٱلْأَذْوَاقُ ٱلصَّحِيحَةُ وَتَنْفِرُ مِنْهَا ٱلطِّبَاعُ ٱلسَّلِيمَةُ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ وَقَدْ عَابَهُ ٱلْأَصْمَعِيُّ بَيْنَ يَدَيِ ٱلرَّشِيدِ :

نَظَرَتْ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا   نَظَرَ ٱلْمَرِيضِ إِلَى وُجُوهِ ٱلْعُوَّدِ

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ : قَدْ يُكْرَهُ تَشْبِيهُ ٱلْمَمْدُوحِ بِٱلْمَرِيضِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي مِحْجَنٍ ٱلثَّقَفِيِّ فِي قَيْنَةٍ :

وَتُرَجِّعُ ٱلْعُودَ أَحْيَانًا وَتَخْفِضُهُ   كَمَا يَطِيرُ ذُبَابُ ٱلرَّوْضَةِ ٱلْغَرِدُ

فَإِنَّ ٱلْقَيْنَةَ لَمْ تَرْضَ أَنْ تُشَبِّهَ نَفْسَهَا بِٱلذُّبَابِ . وَلِذٰلِكَ رَغِبَ ٱلْمُوَلَّدُونَ عَنْ تَشَابِيهِ ٱلْعَرَبِ لِأَنَّهَا مَعَ عَقَادَةِ ٱلتَّرْكِيبِ لَمْ تَسْفِرْ عَنْ كَبِيرِ أَمْرٍ فَخَالَفُوهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ إِلَى مَا هُوَ أَلْيَقُ بِٱلْوَقْتِ وَأَمَسُّ بِأَهْلِهِ

البحث الحادي والعشرون

في المذهب الكلامي

(من شرح بديعية العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَلْمَذْهَبُ ٱلْكَلَامِيُّ عِنْدَ اَهْلِ ٱلْبَيَانِ هُوَ اِيرَادُ حُجَّةٍ لِلْمَطْلُوبِ عَلَى طَرِيقَةِ اَهْلِ ٱلْكَلَامِ . وَهُوَ اَنْ يَكُونَ بَعْدَ تَسْلِيمِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ مُقَدِّمَةٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْمَطْلُوبِ . وَقِيلَ : هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْبَلِيغُ فِي صِحَّةِ دَعْوَاهُ وَاِبْطَالِ دَعْوَى خَصْمِهِ بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَصِحُّ نِسْبَتُهَا اِلَى عِلْمِ ٱلْكَلَامِ . اِذْ عِلْمُ ٱلْكَلَامِ عِبَارَةٌ عَنْ اِثْبَاتِ اُصُولِ ٱلدِّينِ بِٱلْبَرَاهِينِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ٱلْقَاطِعَةِ . وَمِنْ اَوْضَحِ ٱلشَّوَاهِدِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : لَوْ كَانَ فِي ٱلْاَرْضِ وَٱلسَّمَاءِ آلِهَةٌ اِلَّا ٱللّٰهُ لَفَسَدَتَا . فَهٰذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ . وَتَمَامُ ٱلدَّلِيلِ اَنْ تَقُولَ لٰكِنَّهُمَا لَمْ تَفْسُدَا فَلَيْسَ اِذًا فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرَ ٱللّٰهِ . وَمِنْ اَمْثِلَةِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اَعْرَابِيٍّ لِرَجُلٍ : اِنِّي لَمْ اَرُدَّ وَجْهِي عَنِ ٱلطَّلَبِ اِلَيْكَ فَصُنْ نَفْسَكَ عَنْ رَدِّي وَضَعْنِي مِنْ كَرَمِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتُ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ يَعْتَذِرُ اِلَى ٱلنُّعْمَانِ :

حَلَفْتُ فَلَمْ اَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللّٰهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً ... لَمُبْلِغُكَ ٱلْوَاشِي اَغَشُّ وَاَكْذَبُ

وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ ٱمْرَءًا لِيَ جَانِبٌ ... مِنَ ٱلْاَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ

مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا مَدَحْتُهُمْ أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي مَدْحِهِمْ لَكَ أَذْنَبُوا

يَقُولُ لِهَذَا ٱلْمَلِكِ : أَنْتَ أَحْسَنْتَ إِلَى قَوْمٍ فَمَدَحُوكَ . وَأَنَا أَحْسَنَ إِلَيَّ قَوْمٌ فَمَدَحْتُهُمْ . فَكَمَا أَنَّ مَدْحَ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ لَكَ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا فَكَذَا مَدْحِي لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيَّ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا . قَالَ ٱبْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ : وَمِنْ شَوَاهِدِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

لِكُلِّ ٱمْرِئٍ نَفْسَانِ نَفْسٌ كَرِيمَةٌ وَنَفْسٌ يُعَاصِيهَا ٱلْفَتَى وَيُطِيعُهَا
وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسَيْكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى إِذَا قَلَّ مِنْ أَحْرَارِهِنَّ شَفِيعُهَا

يَقُولُ : لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ تَأْمُرُ بِٱلْخَيْرِ . وَنَفْسٌ أَمَّارَةٌ تَأْمُرُ بِٱلسُّوءِ . وَٱلْإِنْسَانُ يُعَاصِي ٱلْأَمَّارَةَ مَرَّةً وَيُطِيعُهَا أُخْرَى . وَأَنْتَ إِذَا أَمَرَتْكَ ٱلْأَمَّارَةُ بِتَرْكِ ٱلنَّدَى شَفَعَتِ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ إِلَيْهَا فِي ٱلنَّدَى فِي ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا ٱلشَّفِيعُ فِي ٱلنَّدَى مِنَ ٱلنُّفُوسِ . فَأَنْتَ أَكْرَمُ ٱلنَّاسِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ قِيَاسَ ٱلْمَذْهَبِ ٱلْكَلَامِيِّ إِمَّا حَمْلِيٌّ . وَإِمَّا شَرْطِيٌّ . فَٱلْأَقْيِسَةُ ٱلْحَمْلِيَّةُ قَدِ ٱسْتَنْبَطُوهَا عَلَى صُوَرٍ : مِنْهَا مَا يُرْوَى أَنَّ أَبَا دُلَفَ قَصَدَهُ شَاعِرٌ تَمِيمِيٌّ . فَقَالَ لَهُ : مِمَّنْ أَنْتَ . فَقَالَ مِنْ تَمِيمٍ . فَقَالَ أَبُو دُلَفَ :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتْ سُبْلَ ٱلْهِدَايَةِ ضَلَّتِ

فَقَالَ لَهُ ٱلتَّمِيمِيُّ : نَعَمْ بِتِلْكَ ٱلْهِدَايَةِ جِئْتُ إِلَيْكَ . فَأَفْحَمَهُ بِدَلِيلٍ حَمْلِيٍّ ٱلْزَمَهُ فِيهِ أَنَّ ٱلْمَجِيءَ إِلَيْهِ ضَلَالٌ . وَلَعَمْرِي إِنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلشَّرْطِيَّ

اوضح دلالة في هذا الباب من غيره واعذب في الذوق واسهل في التركيب. فانه جملة واقعة بعد (لو) وجوابها. وهذه الجملة على اصطلاحهم مقدمة شرطية متصلة يستدل بها على ما تقدم من الحكم كما جاء: لو تعلمون ما اعلم (يريد امور الآخرة) لضحكتم قليلًا وبكيتم كثيرًا. وتمام الدليل ان يقال: لكنكم ضحكتم كثيرًا وبكيتم قليلًا فلم تعلموا ما اعلم

ولقد زادوا على هذين القياسين القياس الفقهي وذلك ان يقاس فرع على اصل بجامع بينهما فيلزم التساوي في الحكم. كما يحكى ان الوليد قال لبعضهم: انشد من قولك في الخمر. فانشده:

كميت اذا شجت وفي الكأس وردها

لها في عظام الشاربين دبيب

تريك القذى من دونها وهي دونه

لوجه اخيها في الاناء قطوب

فقال له الوليد: شربتها ورب الكعبة. فقال: لئن كان وصفي لها رابك لقد رابني معرفتك بها. (يقول): كما ان معرفتي بوصفها رابتك كذلك معرفتك بها رابتني



الفصل الخامس

في محاسن الانشاء ومعايبه

البحث الاول

في تميز الكلام جيّده من رديئه ونادره من بارده

(عن كتاب الصناعتين للعسكري باختصار)

(راجع صفحة ٥١ من علم الادب)

اَلْكَلَامُ أَيَّدكَ ٱللهُ يَحْسُنُ بِسَلَاسَتِهِ وَسُهُولَتِهِ وَنَصَاعَتِهِ وَتَحْسِينِ لَفظِهِ وَإِصَابَةِ مَعْنَاهُ وَجُودَةِ مَقَاطِعِهِ وَلِينِ مَعَاطِفِهِ وَٱسْتِوَاءِ تَقَاسِيمِهِ وَتَعَادُلِ أَطْرَافِهِ وَتَشَبُّهِ أَعْجَازِهِ بِهَوَادِيهِ وَمُوَافَقَةِ مَآخِيرِهِ لِمَبَادِئِهِ مَعَ قِلَّةِ ضَرُورَاتِهِ بَلْ عَدَمِهَا أَصْلًا حَتَّى لَا يَكُونَ لَهَا فِي ٱلْأَلفَاظِ أَثَرٌ . فَتَجِدُ ٱلْمَنْظُومَ مِثْلَ ٱلْمَنْثُورِ فِي سُهُولَةِ مَطْلَعِهِ وَجُودَةِ مَقْطَعِهِ وَحُسْنِ رَصْفِهِ وَتَأْلِيفِهِ وَكَمَالِ صَوْغِهِ وَتَرْكِيبِهِ . فَإِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ كَذَلِكَ كَانَ بِٱلْقَبُولِ حَقِيقًا وَبِٱلتَّحَفُّظِ خَلِيقًا كَقَوْلِ ٱلْأَوَّلِ :

هُمُ ٱلْأُولَى وَهَبُوا لِلْمَجْدِ أَنْفُسَهُمْ فَمَا يُبَالُونَ مَا نَالُوا إِذَا حُمِدُوا

وَقَوْلِ مَعْنِ بْنِ أَوْسٍ :

لَعَمْرُكَ مَا أَهْدَيْتُ كَفِّي لِرِيبَةٍ وَلَا حَمَلَتْنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي

وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصَرِي لَهَا وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي

وَأَعْلَمُ أَنِّي لَمْ تُصِبْنِي مُصِيبَةٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابَتْ فَتًى قَبْلِي

وَلَسْتُ بِمَاشٍ مَا حَيِيتُ لِمُنْكَرٍ ... مِنَ ٱلْأَمْرِ لَا يَمْشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي
وَلَا مُؤْثِرٍ نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ ... وَأُوثِرُ ضَيْفِي مَا أَقَامَ عَلَى أَهْلِي

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ ٱلْغِنَى ... إِذَا كَانَتِ ٱلْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ ٱلْفَقْرِ

وَقَالَ ٱلْآخَرُ :

ذَرِينِي أَسِيرُ فِي ٱلْبِلَادَ لَعَلَّنِي ... أُصِيبُ غِنًى فِيهِ لِذِي ٱلْحَقِّ مَحْمَلُ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَسْطِعْ دِفَاعًا لِحَادِثٍ ... تَجِيءُ بِهِ ٱلْأَيَّامُ فَٱلصَّبْرُ أَجْمَلُ
أَلَيْسَ كَثِيرًا أَنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ ... وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْحُقُوقِ مُعَوَّلُ

وَمِمَّا هُوَ فَصِيحٌ فِي لَفْظِهِ جَيِّدٌ فِي رَصْفِهِ قَوْلُ ٱلشَّنْفَرَى :

أُطِيلُ مِطَالَ ٱلْجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ ... وَأَضْرِبُ عَنْهُ ٱلْقَلْبَ صَفْحًا فَيَذْهَلُ
وَلَوْلَا ٱجْتِنَابُ ٱلْعَارِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ ... يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
وَلٰكِنَّ نَفْسًا مُرَّةً لَا تُقِيمُنِي ... عَلَى ٱلضَّيْمِ إِلَّا رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ

وَقَوْلُ آخَرَ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى ٱلْقَذَى ... ظَمِئْتَ وَأَيُّ ٱلنَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

وَمَا إِنْ قَتَلْنَاهُمْ بِأَكْثَرَ مِنْهُمُ ... وَلٰكِنْ بِأَوْفَى لِلطِّعَانِ وَأَكْرَمَا

وَقَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلَيْسَ لِهٰذَا ٱلْبَيْتِ نَظِيرٌ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَظِيرُهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

وَلَسْتُ بِجَائِيءٍ ابَدًا طَعَامًا   حِذَارَ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعَامُ

وَهٰذَا وَانْ كَانَ نَظِيرَهُ فِي ٱلتَّأْلِيفِ فَإِنَّهُ دُونَهُ لِمَا تَكَرَّرَ فِيهِ مِنْ لَفْظِ غَدٍ. فَانْ كَانَ ٱلْكَلَامُ قَدْ جَمَعَ ٱلْعُذُوبَةَ وَٱلْجَزَالَةَ وَٱلسُّهُولَةَ وَٱلرَّصَانَةَ مَعَ ٱلسَّلَاسَةِ وَٱلنَّصَاعَةِ. وَٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلرَّوْنَقِ وَٱلطَّلَاوَةِ. وَسَلِمَ مِنْ سَخَفِ ٱلتَّأْلِيفِ. وَبَعُدَ مِنْ سَمَاجَةِ ٱلتَّرْكِيبِ. وَرَدَ عَلَى ٱلْفَهْمِ ٱلثَّاقِبِ فَقَبِلَهُ وَلَمْ يَرُدَّهُ. وَعَلَى ٱلسَّمْعِ ٱلْمُصِيبِ ٱسْتَوْعَبَهُ وَلَمْ يَمُجَّهُ. وَٱلنَّفْسُ تَقْبَلُ ٱللَّطِيفَ وَتَنْبُو عَنِ ٱلْغَلِيظِ وَتَقْلَقُ مِنَ ٱلْجَاسِيءِ ٱلْبَشِعِ. وَجَمِيعُ جَوَارِحِ ٱلْبَدَنِ وَحَوَاسِّهِ يَسْكُنُ إِلَى مَا يُوَافِقُهُ وَيَنْفِرُ عَمَّا يُضَادُّهُ وَيُخَالِفُهُ. وَٱلْعَيْنُ تَأْلَفُ ٱلْحَسَنَ وَتَقْذَى بِٱلْقَبِيحِ. وَٱلْأَنْفُ يَرْتَاحُ لِلطَّيِّبِ وَيَنْضَرُّ لِلْمُنْتِنِ. وَٱلْفَمُ يَلْتَذُّ بِٱلْحُلْوِ وَيَمُجُّ ٱلْمُرَّ. وَٱلسَّمْعُ يَتَشَوَّقُ لِلصَّوَابِ ٱلرَّائِعِ وَيَنْزَوِي عَنِ ٱلْجَهِيرِ ٱلْهَائِلِ. وَٱلْيَدُ تَنْعَمُ بِٱللَّيِّنِ وَتَتَأَذَّى بِٱلْخَشِنِ. وَٱلْفَهْمُ يَأْنَسُ مِنَ ٱلْكَلَامِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَسْكُنُ إِلَى ٱلْمَأْلُوفِ وَيُصْغِي إِلَى ٱلصَّوَابِ وَيَهْرُبُ مِنَ ٱلْمُحَالِ وَيَنْقَبِضُ عَنِ ٱلْوَخِمِ وَيَتَأَخَّرُ عَنِ ٱلْجَافِي ٱلْغَلِيظِ. وَلَا يَقْبَلُ ٱلْكَلَامَ ٱلْمُضْطَرِبَ إِلَّا ٱلْفَهْمُ ٱلْمُضْطَرِبُ وَٱلرَّوِيَّةُ ٱلْفَاسِدَةُ. وَلَيْسَ ٱلشَّأْنُ فِي إِيرَادِ ٱلْمَعَانِي لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ يَعْرِفُهَا ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ وَٱلْقَرَوِيُّ وَٱلْبَدَوِيُّ وَإِنَّمَا هُوَ فِي جُودَةِ ٱللَّفْظِ وَصَفَائِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ وَنَزَاهَتِهِ وَنَقَائِهِ وَكَثْرَةِ طَلَاوَتِهِ وَمَائِهِ مَعَ صِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَٱلتَّرْكِيبِ وَٱلْخُلُوِّ مِنْ اوَدِ ٱلنَّظْمِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَلَيْسَ يُطْلَبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى إِلَّا انْ يَكُونَ صَوَابًا. وَلَا يُقْنَعُ مِنَ ٱللَّفْظِ بِذٰلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ نُعُوتِهِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ. أَلَا تَرَى

إِلَى قَوْلِ حَبِيبٍ :

مُسْتَسْلِمٌ لِلّٰهِ سَائِسُ أُمَّةٍ   بِذَوِي تَجَهْضُمِهَا لَهُ ٱسْتِسْلَامُ

فِيهِ صَوَابُ ٱللَّفْظِ وَلَيْسَ هُوَ بِحَسَنٍ وَلَا مَقْبُولٍ . وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَدَارَ ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ أَنَّ ٱلْخُطَبَ ٱلرَّائِعَةَ وَٱلْأَشْعَارَ ٱلرَّائِقَةَ مَا عُمِلَتْ لِإِفْهَامِ ٱلْمَعَانِي فَقَطْ لِأَنَّ ٱلرَّدِيءَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ يَقُومُ مَقَامَ جَيِّدِهَا فِي ٱلْإِفْهَامِ وَإِنَّمَا يَدُلُّ حُسْنُ ٱلْكَلَامِ وَإِحْكَامُ صَنْعَتِهِ وَرَوْنَقُ أَلْفَاظِهِ وَجَوْدَةُ مَطَالِعِهِ وَحُسْنُ مَقَاطِعِهِ وَبَدِيعُ مَبَادِئِهِ وَغَرِيبُ مَبَانِيهِ عَلَى فَضْلِ قَائِلِهِ وَفَهْمِ مُنْشِئِهِ . وَأَكْثَرُ هٰذِهِ ٱلْأَوْصَافِ تَرْجِعُ إِلَى ٱلْأَلْفَاظِ دُونَ ٱلْمَعَانِي . وَتَوَخِّي صَوَابِ ٱلْمَعْنَى أَحْسَنُ مِنْ تَوَخِّي هٰذِهِ ٱلْأُمُورِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ . فَلِهٰذَا تَأَنَّقَ ٱلْكَاتِبُ فِي ٱلرِّسَالَةِ وَٱلْخَطِيبُ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَٱلشَّاعِرُ فِي ٱلْقَصِيدَةِ وَهُمْ يُبَالِغُونَ فِي تَجْوِيدِهَا . وَيَغْلُونَ فِي تَرْتِيبِهَا لِيَدُلُّوا عَلَى بَرَاعَتِهِمْ وَحِذْقِهِمْ بِصِنَاعَتِهِمْ . وَلَوْ كَانَ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلْمَعَانِي لَطَرَحُوا أَكْثَرَ ذٰلِكَ فَرَبِحُوا كَدًّا كَثِيرًا وَأَسْقَطُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ تَعَبًا طَوِيلًا . وَلِهٰذَا دَلِيلٌ آخَرُ : أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَ لَفْظُهُ حُلْوًا عَذْبًا وَسَلِسًا سَهْلًا وَمَعْنَاهُ وَسَطًا دَخَلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْجَيِّدِ وَجَرَى مَعَ ٱلرَّائِعِ ٱلنَّادِرِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ   وَمَسَّحَ بِٱلْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ ٱلْمَهَارِي رِحَالُنَا   وَلَمْ يَنْظُرِ ٱلْغَادِي ٱلَّذِي هُوَ رَائِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا   وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلْأَبَاطِحُ

وَلَيْسَ تَحْتَ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ كَبِيرُ مَعْنًى وَهِيَ رَائِقَةٌ مُعْجِبَةٌ . وَإِنَّمَا

هِيَ : وَلَمَّا قَضَيْنَا ٱلْحَجَّ وَمَسَّحْنَا ٱلْأَرْكَانَ وَشُدَّتْ رِحَالُنَا عَلَى مَهَازِيلِ ٱلْإِبِلِ وَلَمْ يَنْتَظِرْ بَعْضُنَا بَعْضًا جَعَلْنَا نَتَحَدَّثُ وَتَسِيرُ بِنَا ٱلْإِبِلُ فِي بُطُونِ ٱلْأَوْدِيَةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْمَعْنَى صَوَابًا وَٱللَّفْظُ بَارِدًا وَفَاتِرًا وَٱلْفَاتِرُ شَرٌّ مِنَ ٱلْبَارِدِ كَانَ مُسْتَهْجَنًا مَلْفُوظًا وَمَذْمُومًا مَرْدُودًا . وَٱلْبَارِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ كَقَوْلِ عَمْرِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

قَدْ عَلِمَتْ سَلْمَى وَجَارَاتُهَا   مَا قَطَّرَ ٱلْفَارِسَ إِلَّا أَنَا

شَكَكْتُ بِٱلرُّمْحِ سَرَابِيلَهُ   وَٱلْخَيْلُ تَعْدُو زِيَمًا حَوْلَنَا

وَقَوْلِ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ :

مَاتَ وَٱللَّهِ سَعِيدُ بْنُ وَهْبٍ   رَحِمَ ٱللَّهُ سَعِيدَ بْنَ وَهْبِ

يَا أَبَا عُثْمَانَ أَبْكَيْتَ عَيْنِي   يَا أَبَا عُثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي

وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمَعَانِي إِذَا ٱسْتُكْرِهَتْ قَهْرًا وَفِي ٱلْأَلْفَاظِ إِذَا جُرَّتْ قَسْرًا . وَلَا خَيْرَ فِيمَا أُجِيدَ لَفْظُهُ إِذَا سَخُفَ مَعْنَاهُ . وَلَا فِي غَرَابَةِ ٱلْمَعْنَى إِلَّا إِذَا شَرُفَ لَفْظُهُ مَعَ وُضُوحِ ٱلْمَغْزَى وَظُهُورِ ٱلْمَقْصَدِ . وَقَدْ غَلَبَ ٱلْجَهْلُ عَلَى قَوْمٍ فَصَارُوا يَسْتَجِيدُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى مَعْنَاهُ بِكَدٍّ وَيَسْتَفْصِحُونَهُ إِذَا وَجَدُوا أَلْفَاظَهُ كَزَّةً غَلِيظَةً وَجَاسِئَةً غَرِيبَةً . وَيَسْتَحْقِرُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبًا وَسَهْلًا حُلْوًا . وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱلسَّهْلَ أَمْنَعُ جَانِبًا وَأَعَزُّ مَطْلَبًا وَهُوَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا وَأَعْذَبُ مُسْتَمَعًا وَلِهٰذَا قِيلَ : أَجْوَدُ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّهْلُ ٱلْمُمْتَنِعُ . وَصَفَ ٱلْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ عَمْرَ ٱبْنَ مَسْعَدَةَ فَقَالَ : هُوَ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ . وَمِنْ بَلَاغَتِهِ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَظُنُّ أَنْ يَكْتُبَ مِثْلَ كُتُبِهِ فَإِذَا رَآهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ . حَدَّثَنَا ٱلْحَسَنُ بْنُ

مُخَلَّدٍ قَالَ: أَنْشَدَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ لِخَالِهِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ:

إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ وَإِنْ سِيلَ لَمْ م يَبْذُلْ وَإِنْ عُوتِبَ لَمْ يُعْتِبِ

صَبٌّ بِعِصْيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي لَا تَشْرَبِ ٱلْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

ثُمَّ قَالَ: هٰذَا ٱلشِّعْرُ ٱلْحَسَنُ ٱلْمَعْنَى ٱلسَّهْلُ ٱللَّفْظِ ٱلْعَذْبُ ٱلْمُسْتَمَعِ ٱلْقَلِيلُ ٱلنَّظِيرِ ٱلْعَزِيزُ ٱلشَّبِيهِ ٱلْمُطْمِعُ ٱلْمُمْتَنِعُ ٱلْبَعِيدُ مَعَ قُرْبِهِ ٱلصَّعْبُ فِي سُهُولَتِهِ. (قَالَ) فَجَعَلْنَا نَقُولُ: هٰذَا ٱلْكَلَامُ أَحْسَنُ مِنْ شِعْرِهِ. وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَطْبُوعِ ٱلسَّهْلِ مَا وَقَّعَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى: قَدْ بَلَّغْتُكَ أَقْصَى طِلْبَتِكَ وَأَنَلْتُكَ غَايَةَ بُغْيَتِكَ وَأَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ تَسْتَقِلُّ كَثِيرِي لَكَ وَتَسْتَقْبِحُ حَسَنِي فِيكَ. فَأَنْتَ كَمَا قَالَ رُؤْبَةُ:

كَٱلْحُوتِ لَا يَكْفِيهِ شَيْءٌ يَلْهَمُهْ يُصْبِحُ ظَمْآنَ وَفِي ٱلْبَحْرِ فَمُهْ

وَمِنَ ٱلْمَنْظُومِ ٱلْمُطْمِعِ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ:

أَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ ٱلَّذِي طَلَبَ ٱلْجُو دَ فَأَبْلَى كُومَ ٱلْمَطَايَا وَأَنْضَى

رِدْ حِيَاضَ ٱلْإِمَامِ تَلْقَ نَوَالًا يَسَعُ ٱلرَّاغِبِينَ طُولًا وَعَرْضَا

هُوَ أَنْدَى مِنَ ٱلْغَمَامِ وَأَوْحَى وَقَعَاتٍ مِنَ ٱلْحُسَامِ وَأَمْضَى

يَتَوَخَّى ٱلْإِحْسَانَ قَوْلًا وَفِعْلًا وَيُطِيعُ ٱلْإِلٰهَ بَسْطًا وَقَبْضَا

فَضَّلَ ٱللهُ جَعْفَرًا بِخِلَالٍ جَعَلَتْ حُبَّهُ عَلَى ٱلنَّاسِ فَرْضَا

وَلَدَى ٱلْمَجْدِ بَيْنَ عَارِفَةٍ مِنْكَ م تُرَجَّى وَعَزْمَةٍ مِنْكَ تُمْضَى

وَقَوْلُهُ:

خَلَقَ ٱللهُ جَعْفَرًا قَيِّمَ ٱلدُّنْيَا م سَدَادًا وَقَيِّمَ ٱلدِّينِ رُشْدَا

أَكْرَمُ ٱلنَّاسِ شِيمَةً وَأَتَمُّ م ٱلنَّاسِ حِلْمًا وَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ رِفْدَا

هُوَ بَحْرُ ٱلسَّمَاحِ وَٱلْجُودِ فَازْدَدْ ... مِنْهُ قُرْبًا تَزْدَدْ مِنَ ٱلْفَقْرِ بُعْدَا
يَا ثِمَالَ ٱلدُّنْيَا عَطَاءً وَبَذْلًا ... وَكَمَالَ ٱلدُّنْيَا سَنَاءً وَمَجْدَا
اِبْقَ عُمْرَ ٱلزَّمَانِ حَتَّى نُؤَدِّي ... شُكْرَ إِحْسَانِكَ ٱلَّذِي لَا يُؤَدَّى

وَأَمَّا ٱلْجَزْلُ ٱلْمُخْتَارُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهُوَ ٱلَّذِي تَعْرِفُهُ ٱلْعَامَّةُ إِذَا سَمِعَتْهُ وَلَا تَسْتَعْمِلُهُ فِي مُحَاوَرَاتِهَا. فَمِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْجَيِّدِ ٱلْمُخْتَارِ قَوْلُ مُسْلِمٍ:

وَرَدْنَا رِوَاقَ ٱلْفَضْلِ فَضْلِ بْنِ جَعْفَرٍ ... فَحَطَّ إِلَيْنَا ٱلْجَزْلَ نَائِلُهُ ٱلْجَزْلُ
بِكَفَّيْ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ يُسْتَمْطَرُ ٱلْغِنَى ... وَيُسْتَنْزَلُ ٱلنُّعْمَى وَيُسْتَرْعَفُ ٱلنَّصْلُ
وَيُسْتَعْطَفُ ٱلْأَمْرُ ٱلْأَبِيُّ بِحَزْمِهِ ... إِذَا ٱلْأَمْرُ لَمْ يَعْطِفْهُ نَقْضٌ وَلَا فَتْلُ

وَمِمَّا هُوَ خَيْرٌ مِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱلْمَرَّارِ ٱلْفَقْعَسِيِّ:

لَا تَسْأَلِي ٱلْقَوْمَ عَنْ مَالِي وَكَثْرَتِهِ ... قَدْ يُقْتِرُ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا وَهْوَ مَحْمُودُ
أَمْضِي عَلَى سُنَّةٍ مِنْ وَالِدِي سَلَفَتْ ... وَفِي أَرُومَتِهِ مَا يُنْبِتُ ٱلْعُودُ

فَهٰذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَامَّةِ فَإِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ ٱلْغَرَضَ وَيَقِفُونَ عَلَى أَكْثَرِ مَعَانِيهِ لِحُسْنِ تَرْتِيبِهِ وَجُودَةِ نَسْجِهِ

وَمِنَ ٱلنَّثْرِ قَوْلُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ: أَعْطَانَا ٱلدَّهْرُ فَأَسْرَفَ. ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْنَا فَعَسَفَ. وَقَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ: وَأَنَا مَنْ لَا يُحَاجُّكَ عَنْ نَفْسِهِ. وَلَا يُغَالِطُكَ عَنْ جُرْمِهِ. وَلَا يَلْتَمِسُ رِضَاكَ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِ. وَلَا يَسْتَدْعِي بِرَّكَ إِلَّا مِنْ طَرِيقَتِهِ. وَلَا يَسْتَعْطِفُكَ إِلَّا بِٱلْإِقْرَارِ بِٱلذَّنْبِ. وَلَا يَسْتَمِيلُكَ إِلَّا بِٱلِٱعْتِرَافِ. نَبَتْ بِي عَنْكَ غِرَّةُ ٱلْحَدَاثَةِ. وَرَدَّتْنِي إِلَيْكَ ٱلْحُنْكَةُ. وَبَاعَدَتْنِي مِنْكَ ٱلثِّقَةُ بِٱلْأَيَّامِ فَأَدْنَتْنِي إِلَيْكَ ٱلضَّرُورَةُ. فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَسْتَقْبِلَ ٱلصَّنِيعَةَ بِقَبُولِ ٱلْعُذْرِ

وَتُجدِّدَ ٱلنِعمَةَ بِاطِّرَاحِ ٱلحِقْدِ فَإِنَّ قَدِيمَ ٱلْحُرمَةِ وَحَدِيثَ ٱلتَّوبَةِ يَمحَقَانِ مَا بَينَهُمَا مِنَ ٱلإِسَاءَةِ . فَإِنَّ اَيَّامَ ٱلْقُدرَةِ وَإِنْ طَالَتْ قَصِيرَةٌ وَٱلْمُتعَةَ بِهَا وَإِنْ كَثُرَتْ قَلِيلَةٌ فَعَلْتَ . وَفِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ وَمَا قَبلَهُ قُوَّةٌ فِي سُهُولَةٍ . وَمِمَّا هُوَ اَجزَلُ مِن هٰذَا قَولُ ٱلشَّعبِيِّ لِلحَجَّاجِ وَاَرَادَ قَتلَهُ لِخُرُوجِهِ عَلَيهِ مَعَ ٱبنِ ٱلاَشعَثِ : اَجدبَ بِنَا ٱلْجَنَابُ وَاَحزَنَ بِنَا ٱلْمَنزِلُ وَٱستَحلَسنَا ٱلْحَذَرَ وَٱكتَحَلنَا ٱلسَّهَرَ . وَاَصَابَتنَا فِتنَةٌ وَلَم نَكُنْ فِيهَا بَرَرَةً اَتقِيَاءَ وَلَا فَجَرَةً اَقوِيَاءَ . فَعَفَا عَنهُ . وَاَجوَدُ ٱلْكَلَامِ مَا يَكُونُ جَزلًا سَهلًا لَا يَنغَلِقُ مَعنَاهُ وَلَا يُستَبهَمُ مَغزَاهُ . وَلَا يَكُونُ مَكدُودًا مُستَكرَهًا وَمُتَوَعِّرًا مُتَقَعِّرًا . وَيَكُونُ بَرِيئًا مِنَ ٱلْغَثَاثَةِ عَارِيًا مِنَ ٱلرَّثَاثَةِ . وَٱلْكَلَامُ إِذَا كَانَ لَفظُهُ غَثًّا وَمَعرِضُهُ رَثًّا كَانَ مَردُودًا وَلَوِ ٱحتَوَى عَلَى اَجَلِّ مَعنًى وَاَنبَلِهِ وَاَرفَعِهِ وَاَفضَلِهِ كَقَولِهِ :

لَمَّا اَطَعنَاكُمْ فِي سُخطِ خَالِقِنَا ... لَا شَكَّ سُلَّ عَلَينَا سَيفُ نِقمَتِهِ

وَقَولِ ٱلآخَرِ :

اَرَى رِجَالًا بِاَدنَى ٱلدِّينِ قَد قَنِعُوا ... وَلَا اَرَاهُمْ رَضُوا فِي ٱلعَيشِ بِٱلدُّونِ

فَٱستَغنِ بِٱلدِّينِ عَن دُنيَا ٱلْمُلُوكِ كَمَا ... ٱستَغنَى ٱلْمُلُوكُ بِدُنيَاهُم عَنِ ٱلدِّينِ

وَلَا يَدخُلُ هٰذَا فِي جُملَةِ ٱلْمُختَارِ وَمَعنَاهُ كَمَا تَرَى نَبِيلٌ فَاضِلٌ جَلِيلٌ . وَاَمَّا ٱلْجَزلُ ٱلرَّدِيءُ ٱلْفَجُّ ٱلَّذِي يَنبَغِي تَركُ ٱستِعمَالِهِ فَمِثلُ قَولِ تَأَبَّطَ شَرًّا وَكَانَ خَرَجَ مَعَ صَاحِبَينِ لَهُ فَقُتِلَا فِي ٱلْغَزوِ وَرَجَعَ هُوَ سَالِمًا :

إِذَا مَا تَرَكتُ صَاحِبِي لِثَلَاثَةٍ ... اَوِ ٱثنَينِ مِثلَينَا فَلَا اُبتُ آمِنَا

وَلَمَّا سَمِعتُ ٱلْعُوصَ تَدعُو تَنَفَّرَتْ ... عَصَافِيرُ رَأسِي مِن غُوَاةٍ فَرَاتِنَا

هِجَفٌّ رَأَى قَصْرًا سِمَاكًا وَدَاجِنًا ... وَتَخْتَخْتُ مَشْغُوفَ ٱلنَّجَاءِ كَأَنَّنِي

إِذَا ٱسْتَدْرَجَ ٱلْفِيفَا وَمَدَّ ٱلْمَغَابِنَا ... مِنَ ٱلْحُصِّ هُزْرُوفٌ كَأَنَّ عِفَاءَهُ

هِزَفٌّ يَبِذُّ ٱلنَّاجِيَاتِ ٱلصَّوَافِنَا ... أَزَجُّ زَلُوجٌ هِزْرَفِيٌّ زَفَازِفٌ

فَهٰذَا مِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْبَغِيضِ ٱلْجِلْفِ ٱلْفَاسِدِ ٱلنَّسْجِ ٱلْقَبِيحِ ٱلرَّصْفِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُجْتَنَبَ مِثْلُهُ وَتَمْيِيزُ ٱلْأَلْفَاظِ شَدِيدٌ . وَلَوْلَا كَرَاهَةُ ٱلْإِطَالَةِ وَتَخَوُّفُ ٱلْإِمْلَالِ لَزِدْتُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَلٰكِنْ يَكْفِي مِنَ ٱلْبَحْرِ جَرْعَةٌ . قَالُوا : وَجِيزُ ٱلْكَلَامِ مَا قَلَّ وَجَلَّ وَدَلَّ وَلَمْ يُمَلَّ

البحث الثاني

في التنبيه على خطإ المعاني وصوابها

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

إِنَّ ٱلْكَلَامَ أَلْفَاظٌ تَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا وَتُعَبِّرُ عَنْهَا فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ ٱلْبَلَاغَةِ إِلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى كَحَاجَتِهِ إِلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ . لِأَنَّ ٱلْمَدَارَ بَعْدَ ٱللَّفْظِ عَلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْمَعَانِي تَحُلُّ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحَلَّ ٱلْأَبْدَانِ وَٱلْأَلْفَاظُ تَجْرِي مَعَهَا مَجْرَى ٱلْكُسْوَةِ . وَمَرْتَبَةُ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى مَعْرُوفَةٌ وَمَنْ عَرَفَ تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى وُجُوهِهَا بِلُغَةٍ مِنَ ٱللُّغَاتِ ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى تَهَيَّأَ لَهُ فِيهَا مِنْ صَنْعَةِ ٱلْكَلَامِ مِثْلُ مَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنَ ٱلْأُولَى . أَلَا تَرَى أَنَّ عَبْدَ ٱلْحَمِيدِ ٱلْكَاتِبَ ٱسْتَخْرَجَ أَمْثِلَةَ ٱلْكِتَابَةِ ٱلَّتِي رَسَمَهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْفَارِسِيِّ فَحَوَّلَهَا إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . فَلَا يَكْمُلُ لِصِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ إِلَّا مَنْ يَكْمُلُ لِإِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى وَتَصْحِيحِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ .

وَٱلْمَعَانِي عَلَى ضَرْبَيْنِ : ضَرْبٌ يَبْتَدِعُهُ صَاحِبُ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ إِمَامٌ يَقْتَدِي بِهِ فِيهِ أَوْ رُسُومٌ قَائِمَةٌ فِي أَمْثِلَةٍ مَاثِلَةٍ يَعْمَلُ عَلَيْهَا . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ رُبَّمَا يَقَعُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْخُطُوبِ ٱلْحَادِثَةِ وَيَتَنَبَّهُ لَهُ عِنْدَ ٱلْأُمُورِ ٱلطَّارِئَةِ . وَٱلْآخَرُ مَا يَحْتَذِيهِ عَلَى مِثَالٍ تَقَدَّمَ وَرَسْمٍ فُرِضَ . وَيَنْبَغِي أَنْ تُطْلَبَ ٱلْإِصَابَةُ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَتُتَوَخَّى فِيهِ ٱلصُّورَةُ ٱلْمَقْبُولَةُ وَٱلْعِبَارَةُ ٱلْمُسْتَحْسَنَةُ وَلَا يَتَّكِلَ فِيمَا ٱبْتَكَرَهُ عَلَى فَضِيلَةِ ٱبْتِكَارِهِ إِيَّاهُ . وَلَا يَغُرَّهُ ٱبْتِدَاعُهُ لَهُ فَيُسَاهِلَ نَفْسَهُ فِي تَهْجِينِ صُورَتِهِ فَيَذْهَبَ حُسْنُهُ وَيَطْمَسَ نُورُهُ وَيَكُونُ فِيهِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلذَّمِّ مِنْهُ إِلَى ٱلْحَمْدِ . وَٱلْمَعَانِي بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَى وُجُوهٍ : مِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ حَسَنٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : رَأَيْتُ زَيْدًا . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ قَبِيحٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : قَدْ زَيْدًا رَأَيْتُ . وَإِنَّمَا قَبُحَ لِأَنَّكَ أَفْسَدْتَ ٱلنِّظَامَ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمُ ٱلنَّظْمِ وَهُوَ كَذِبٌ مِثْلُ قَوْلِكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَشَرِبْتُ مَاءَ ٱلْبَحْرِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُحَالٌ كَقَوْلِكَ : آتِيكَ أَمْسِ وَأَتَيْتُكَ غَدًا . وَكُلُّ ذٰلِكَ مُحَالٌ فَاسِدٌ . وَلَيْسَ كُلُّ فَاسِدٍ مُحَالًا . أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَكَ : قَامَ زَيْدٍ . فَاسِدٌ وَلَيْسَ بِمُحَالٍ . وَٱلْمُحَالُ مَا لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ ٱلْبَتَّةَ كَقَوْلِكَ : ٱلدُّنْيَا فِي بَيْضَةٍ . وَأَمَّا قَوْلُكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَأَشْبَاهُهُ وَأَمْثَالُهُ فَكَذِبٌ . وَلَيْسَ بِمُحَالٍ إِنْ جَازَ أَنْ يَزِيدَ ٱللهُ فِي قُدْرَتِكَ فَتَحْمِلَهُ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ كَذِبًا مُحَالًا وَهُوَ قَوْلُكَ : رَأَيْتُ قَاعِدًا قَائِمًا وَمَرَرْتُ بِيَقْظَانَ نَائِمٍ . فَتَصِلُ كَذِبًا بِمُحَالٍ فَصَارَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْكَذِبُ هُوَ ٱلْمُحَالَ بِٱلْجَمْعِ بَيْنَهُمَا . وَإِنْ كَانَ لِكُلٍّ

مِنْهُمَا مَعْنًى عَلَى حِيَالِهِ . وَذٰلِكَ لِأَنَّ بَعْضَهَا عُقِدَ بِبَعْضٍ حَتَّى صَارَا كَلَامًا وَاحِدًا. وَمِنْهَا ٱلْغَلَطُ وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: ضَرَبَنِي زَيْدٌ . وَأَنْتَ تُرِيدُ: ضَرَبْتُ زَيْدًا . فَغَلِطْتَ . فَإِنْ تَعَمَّدْتَ ذٰلِكَ كَانَ كَذِبًا . وَلِلْخَطَإِ صُوَرٌ مُخْتَلِفَةٌ نَبَّهْتُ عَلَى أَشْيَاءَ مِنْهَا فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ وَبَيَّنْتُ وُجُوهَهَا وَشَرَحْتُ أَبْوَابَهَا لِتَقِفَ عَلَيْهَا فَتَجْتَنِبَهَا كَمَا عَرَّفْتُكَ بِمَوَاضِعِ ٱلصَّوَابِ لِتَعْتَمِدَهَا. وَلِيَكُونَ فِيمَا أَوْرَدْتُ دَلَالَةٌ عَلَى أَمْثَالِهِ مِمَّا تَرَكْتُ . وَمَنْ لَا يَعْرِفُ ٱلْخَطَأَ كَانَ جَدِيرًا بِٱلْوُقُوعِ فِيهِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

أَلَمْ تَسْأَلِ ٱلرَّبْعَ ٱلْقَدِيمَ بِعَسْعَسَا كَأَنِّي أُنَادِي أَوْ أُكَلِّمُ أَخْرَسَا

هٰذَا مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْفَاسِدِ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ : كَلَّمْتُ حَجَرًا فَلَمْ يُجِبْ فَكَأَنَّهُ كَانَ حَجَرًا . وَٱلَّذِي جَاءَ بِهِ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مَقْلُوبٌ . وَٱلْجَيِّدُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ فِي ٱمْرَأَةٍ :

فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزَّ كُلُّ مُصِيبَةٍ إِذَا وُطِّنَتْ يَوْمًا لَهَا ٱلنَّفْسُ ذَلَّتِ
كَأَنِّي أُنَادِي صَخْرَةً حِينَ أَعْرَضَتْ مِنَ ٱلصُّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا ٱلْعُصْمُ زَلَّتِ

فَشَبَّهَ ٱلْمَرْأَةَ عِنْدَ ٱلسُّكُوتِ وَٱلتَّغَافُلِ بِٱلصَّخْرَةِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱبْنِ أَحْمَرَ :

لَمْ يَدْرِ مَا نَسْجُ ٱلْيَرَنْدَجِ قَبْلَهَا وَدِرَاسُ أَعْوَصَ دَارِسٍ مُتَجَدِّدِ

ظَنَّ أَنَّ ٱلْيَرَنْدَجَ يُنْسَجُ . وَٱلْيَرَنْدَجُ جِلْدٌ أَسْوَدُ يُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْخِفَافُ فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ وَأَصْلُهُ : رَنْدَه . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

وَمِنْ أَنَابِيبِ تُفَّاحٍ وَرُمَّانِ

ظَنَّ أَنَّ ٱلرُّمَّانَ وَٱلتُّفَّاحَ أَنَابِيبُ . وَقِيلَ: إِنَّ ٱلْأَنَابِيبَ ٱلطَّرَائِقُ ٱلَّتِي فِي ٱلرُّمَّانِ . وَإِذَا حُمِلَ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ صَحَّ ٱلْمَعْنَى . وَمِمَّا أُخِذَ عَلَى

امرئ القيس قوله في الفرس :

فللسوط الهوب وللساق درة ... وللزجر منه وقع اخرج مهذب

فلو وصف اخس حمار واضعفه ما زاد على ذلك . والجيد قوله :

على سابح يعطيك قبل سؤاله ... افانين جري غير كز ولا واني

وما سمعنا اجود ولا ابلغ من قوله : افانين جري . وقول علقمة :

فادركهن ثانيا من عنانه ... يمر كمر الرائح المتحلب

فادرك طريدته وهو ثان من عنانه لم يضربه بسوط ولم يمره بساق ولم يزجره بصوت ومما يعاب قول الاخطل :

وقد جعل الله الخلافة منهم ... لابلج لا عاري الخوان ولا جدب

يقوله في عبد الملك . ومثل هذا لا يمدح به الملوك . وانما تمدح الملوك بمثل قول الشاعر :

له همم لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى اجل من الدهر

له راحة لو ان معشار جودها ... على البر كان البر اندى من البحر

ومن الخطأ قول جنادة :

من حبه اتمنى ان يلاقيني ... من نحو بلدته ناع فينعاه

لكي يكون فراق لا لقاء له ... وتضمر النفس يأسا ثم تسلاه

فاذا تمنى المحب لحبيبه الموت فما عسى ان يتمنى المبغض لبغيضه . وشتان ما بين هذا وبين من يقول :

الا ليتنا عشنا جميعا وكان بي ... من الداء ما لا يعرف الناس ما بيا

فهذا اقرب الى الصواب ولو ان جنادة كان يتمنى وصله ولقاءه

لَكَانَ قَدْ قَضَى وَطَرًا مِنَ ٱلْمُنَى وَلَمْ تَلْزَمْهُ ٱلْهُجْنَةُ. كَمَا قَالَ ٱلْعَبَّاسُ ٱبْنُ ٱلْأَحْنَفِ :

فَإِنْ تَبْخَلُوا عَنِّي بِبَذْلِ نَوَالِكُمْ ... وَبِٱلْوَصْلِ مِنْكُمْ كَيْ أُصَبَّ وَأَحْزَنَا
فَإِنِّي بِلَذَّاتِ ٱلْمُنَى وَنَعِيمِهَا ... أَعِيشُ إِلَى أَنْ يَجْمَعَ ٱللّٰهُ بَيْنَنَا

وَمِنْ وَضْعِ ٱلشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

يَمْشِي بِهَا كُلُّ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ ... مَشْيَ ٱلْهَرَابِذِ حَجُّوا بِيعَةَ ٱلزُّورِ

فَٱلْغَلَطُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : أَحَدُهَا أَنَّ ٱلْهَرَابِذَ ٱلْمَجُوسُ لَا ٱلنَّصَارَى. وَٱلثَّانِي أَنَّ ٱلْبِيعَةَ لِلنَّصَارَى لَا لِلْمَجُوسِ. وَٱلثَّالِثُ أَنَّ ٱلنَّصَارَى لَا يَعْبُدُونَ ٱلْأَصْنَامَ وَلَا ٱلْمَجُوسُ . وَمِنَ ٱلْمُحَالِ ٱلَّذِي لَا وَجْهَ لَهُ قَوْلُ ٱلْقَسِّ :

وَإِنِّي إِذَا مَا ٱلْمَوْتُ حَلَّ بِنَفْسِهَا ... يُزَالُ بِنَفْسِي قَبْلَ ذَاكَ فَأُقْبَرُ

وَهٰذَا شَبِيهٌ بِقَوْلِ قَائِلٍ لَوْ قَالَ : إِذَا دَخَلَ زَيْدٌ ٱلدَّارَ دَخَلَ عَمْرٌو قَبْلَهُ وَهٰذَا عَيْنُ ٱلْمُحَالِ ٱلْمُمْتَنِعِ ٱلَّذِي لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ .وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَعْنَى مُخَالَفَةُ ٱلْعُرْفِ وَذِكْرُ مَا لَيْسَ فِي ٱلْعَادَةِ كَقَوْلِ ٱلْمَرَّارِ :

وَخَالٍ عَلَى خَدَّيْهِ يَبْدُو كَأَنَّهُ ... سَنَا ٱلْبَدْرِ فِي دَعْجَاءَ بَادٍ دُجُونُهَا

وَٱلْمَعْرُوفُ أَنَّ ٱلْخِيلَانَ سُودٌ أَوْ سُمْرٌ وَٱلْخُدُودَ ٱلْحَسَنَةَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْبِيضُ .فَأَتَى هٰذَا ٱلشَّاعِرُ بِقَلْبِ ٱلْمَعْنَى. وَمِنَ ٱلْمَعَانِي مَا يَكُونُ مُقَصِّرًا غَيْرَ بَالِغٍ مَبْلَغَ غَيْرِهِ فِي ٱلْإِحْسَانِ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَدِيحِ عُدُولُ ٱلْمَادِحِ عَنِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ إِلَى مَا يَلِيقُ بِأَوْصَافِ ٱلْجِسْمِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْبَهَاءِ وَٱلزِّينَةِ . كَمَا قَالَ

ٱبْنُ قَيْسِ ٱلرُّقَيَّاتِ فِي عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَأْتَلِقُ ٱلتَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ   عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ ٱلذَّهَبُ

فَغَضِبَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ وَقَالَ : قَدْ قُلْتَ فِي مُصْعَبٍ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللهِ   تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

فَأَعْطَيْتَهُ ٱلْمَدْحَ بِكَشْفِ ٱلْغُمَمِ وَجَلَاءِ ٱلظُّلَمِ وَأَعْطَيْتَنِي مَا لَا فَخْرَ فِيهِ وَهُوَ ٱعْتِدَالُ ٱلتَّاجِ فَوْقَ جَبِينِي ٱلَّذِي هُوَ كَٱلذَّهَبِ فِي ٱلنَّضَارَةِ .

وَمِثْلُ ذٰلِكَ قَوْلُ أَيْمَنَ بْنِ خُزَيْمٍ فِي بِشْرِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَا ٱبْنَ ٱلْمَكَارِمِ مِنْ قُرَيْشٍ كُلِّهَا   وَٱبْنَ ٱلْخَلَائِفِ وَٱبْنَ كُلِّ قَلَمَّسِ

مِنْ فَرْعِ آدَمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ   حَتَّى ٱنْتَهَيْتَ إِلَى أَبِيكَ ٱلْعَنْبَسِ

مَرْوَانَ إِنَّ قَنَاتَهُ خَطِّيَّةٌ   غُرِسَتْ أُرُومَتُهَا أَعَزَّ ٱلْمَغْرِسِ

وَبَنَيْتَ عِنْدَ مَقَامِ رَبِّكَ قُبَّةً   خَضْرَاءَ كُلِّلَ تَاجُهَا بِٱلْفُسْفُسِ

فَسَمَاؤُهَا ذَهَبٌ وَأَسْفَلُ أَرْضِهَا   وَرِقٌ يُلَأْلَأُ فِي صَمِيمِ ٱلْحِنْدِسِ

فَمَا فِي هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَدْحِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ وَإِنَّمَا ذَكَرَ سُؤْدَدَ ٱلْآبَاءِ وَفِيهِ فَخْرٌ لِلْأَبْنَاءِ . وَلٰكِنْ لَيْسَ ٱلْعِصَامِيُّ كَٱلْعِظَامِيِّ . وَرُبَّمَا كَانَ سُؤْدَدُ ٱلْوَالِدِ وَفَضِيلَتُهُ نَقِيصَةً لِلْوَلَدِ إِذَا تَأَخَّرَ عَنْ رُتْبَةِ ٱلْوَالِدِ . وَيَكُونُ ذِكْرُ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَاضِلِ تَقْرِيعًا لِلْوَلَدِ ٱلنَّاقِصِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : لِمَ لَا تَكُونُ كَأَبِيكَ . فَقَالَ : لَيْتَ أَبِي لَمْ يَكُنْ ذَا فَضْلٍ فَإِنَّ فَضْلَهُ صَارَ نَقْصًا لِي . وَقَدْ قَالَ ٱلْأَوَّلُ :

إِنَّمَا ٱلْمَجْدُ مَا بَنَى وَالِدُ ٱلصِّدْ   قِ وَأَحْيَا فَعَالَهُ ٱلْمَوْلُودُ

وَقَالَ غَيْرُهُ فِي خِلَافِهِ :

لَـئِنْ فَخَرْتَ بِآبَاءٍ ذَوِي شَرَفٍ   لَقَدْ صَدَقْتَ وَلٰكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

وَقَالَ آخَرُ :

عَلَتْ مَقَابِحُ أَخْلَاقٍ خُصِصْتَ بِهَا   عَلَى مَحَاسِنَ أَبْقَاهَا أَبُوكَ لَكَا
لَئِنْ تَقَـدَّمَ أَبْنَاءُ الْكِرَامِ بِهِ   لَقَدْ تَقَدَّمَ آبَاءُ اللِّئَامِ بِكَا

ثُمَّ ذَكَرَ أَيْمَنُ بِنَاءَ قُبَّةٍ حَسَنَةٍ وَلَيْسَ بِنَاءُ الْقِبَابِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جُودٍ وَكَرَمٍ . بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَبْنِيَ اللَّئِيمُ الْبَخِيلُ الْأَبْنِيَةَ النَّفِيسَةَ وَيَتَوَسَّعَ فِي النَّفَقَةِ عَلَى الدُّورِ الْحَسَنَةِ مَعَ مَنْعِ الْحَقِّ وَرَدِّ السَّائِلِ وَلَيْسَ الْيَسَارُ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ مَدْحاً حَقِيقِيّاً . أَلَا تَرَى كَيْفَ يَقُولُ أَشْجَعُ السُّلَمِيُّ :

يُرِيدُ الْمُلُوكُ مَدَى جَعْفَرٍ   وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ
وَلَيْسَ بِأَوْسَعِهِمْ فِي الْغِنَى   وَلٰكِنَّ مَعْرُوفَـهُ أَوْسَعُ

وَالْجَيِّدُ فِي الْمَدِيحِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْوَلُوا الْمَالَ يُخْوِلُوا   وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا
وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ   وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْـلُ

فَلَمَّا اسْتَتَمَّ وَصْفَهُمْ بِحُسْنِ الْمَقَالِ وَتَصْدِيقِ الْقَوْلِ بِالْفِعْـلِ وَصَفَهُمْ بِحُسْنِ الْوُجُوهِ ثُمَّ قَالَ :

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ   وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَـذْلُ

فَلَمْ يُخْلِ مُكْثِرًا مِنْهُمْ وَلَا مُقِلًّا مِنْ بِرٍّ وَفَضْلٍ . ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ   مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا الْجَهْلُ

فَوَصَفَهُمْ بِالْحِلْمِ ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ قَامَ مِنْهُمْ قَائِمٌ قَالَ قَاعِـدٌ   رَشَدْتَ فَلَا غُرْمٌ عَلَيْكَ وَلَا خَذْلُ

فوصفهم ايضاً بالتضافر والتعاون فلما اتى بهذه الصفات النفيسة ذكر فضل آبائهم فقال :

وما يكُ من فضلٍ اتوه فانما ... توارثه آباء آبائهم قبلُ
وهل ينبتُ الخطيَّ الا وشيجهُ ... وتغرس الا في منابتها النخلُ

وقول مروان بن ابي حفصة :

بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهم ... أسودٌ لهم في غيلِ خفّان اشبلُ
هم المانعون الجار حتى كأنما ... لجارهم فوق السماكين منزلُ
بهاليلُ في الاسلام سادوا ولم يكنْ ... كأولهم في الجاهلية اولُ
هم القوم إن قالوا اصابوا وإن دُعوا ... اجابوا وإن أُعطوا اطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم ... وإن احسنوا في النائبات وأجملوا
ثلاثٌ بأمثال الجبال حباهمُ ... وأحلامهم منها لدى الوزن اثقلُ

وكقول الآخر :

علّم الغيثَ الندى حتى اذا ... ما حكاه علّم البأس الاسدْ
فله الغيثُ مقرٌّ بالندى ... وله الليثُ مقرٌّ بالجلدْ

ومع ما ذكرناه فانه لا ينبغي ان يخلو المدح من مناقب آباء الممدوح وتقريظ من يعرف به وينسب اليه . وانشد مروان ابن ابي حفصة :

نقرت فلا شُلّت يدٌ خالدية ... رتقت بها الفتق الذي بين هاشمِ

فقال له الفضل قل : برمكية . فقد يشركنا في خالدٍ بشرٌ كثيرٌ ولا يشركنا في برمك احدٌ

وَٱلْهِجَاءُ اَيضًا اِذَا لَمْ يَكُنْ بِسَلْبِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا ٱلنَّفْسُ وَاِثْبَاتِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَقْبَحَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا اَيضًا لَمْ يَكُنْ مُخْتَارًا . وَٱلْاِخْتِيَارُ اَنْ تَنْسُبَ ٱلْمَهْجُوَّ اِلَى ٱللُّؤْمِ وَٱلْبُخْلِ وَٱلشَّرَهِ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَلَيْسَ بِٱلْمُخْتَارِ فِي ٱلْهِجَاءِ اَنْ يَنْسُبَهُ اِلَى قُبْحِ ٱلْوَجْهِ وَصِغَرِ ٱلْحَجْمِ وَضُؤُولَةِ ٱلْجِسْمِ وَيَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْقَائِلُ :

قَقُلْتُ لَهَا لَيْسَ ٱلشُّحُوبُ عَلَى ٱلْفَتَى ... بِعَارٍ وَلَا خَيْرُ ٱلرِّجَالِ سَمِينُهَا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

تَنَالُ ٱلْخَيْرَ مِمَّنْ تَزْدَرِيهِ ... وَيُخْلِفُ ظَنَّكَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّرِيرُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

رَاَوْهُ فَٱزْدَرَوْهُ وَهْوَ حِذْقٌ ... وَيَنْفَعُ اَهْلَهُ ٱلرَّجُلُ ٱلْقَبِيحُ

وَذَكَرَ ٱلسَّمَوْأَلُ اَنَّ قِلَّةَ ٱلْعَدَدِ لَيْسَ بِعَيْبٍ فَقَالَ :

تُعَيِّرُنَا اَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا ... فَقُلْتُ لَهَا اِنَّ ٱلْكِرَامَ قَلِيلُ

وَمِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلْجَيِّدِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

ٱللُّؤْمُ اَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَوَالِدِهِ ... وَٱللُّؤْمُ اَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَمَا وَلَدَا

قَوْمٌ اِذَا مَا جَنَى جَانِيهِمِ اَمِنُوا ... مِنْ لُؤْمِ اَحْسَابِهِمْ اَنْ يُقْتَلُوا قَوَدَا

وَقَوْلُ اَعْشَى بَاهِلَةَ :

بَنُو تَيْمٍ قَرَارَةُ كُلِّ لُؤْمٍ ... كَذَاكَ لِكُلِّ سَائِلَةٍ قَرَارُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوْ كَانَ يَخْفَى عَلَى ٱلرَّحْمَانِ خَافِيَةٌ ... مِنْ خَلْقِهِ خَفِيَتْ عَنْهُ بَنُو اَسَدِ

وَمِنْ خَبِيثِ ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

إِنْ يَغْدِرُوا أَوْ يَجْبُنُوا أَوْ يَبْخَلُوا لَا يَحْفِلُوا
يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجَّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوِ ٱطَّلَعَ ٱلْغُرَابُ عَلَى تَمِيمٍ   وَمَا فِيهَا مِنَ ٱلسَّوْءَاتِ شَابَا

وَمِنْ خَطَإِ ٱللَّفْظِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي   صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ لِأَنَّ ٱلصُّدَاعَ لَا يَكُونُ فِي ٱلرِّجْلِ وَلَا فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْأَعْضَاءِ . وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرُ مِنَ ٱلْعَيْبِ : وَهُوَ أَنَّ ٱلذَّاكِرَ لِمَا قَدْ فَاتَ مِنْ مَحْبُوبٍ يُوصَفُ بِأَلَمِ ٱلْقَلْبِ وَٱحْتِرَاقِهِ لَا بِالصُّدَاعِ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱللَّفْظِ ٱرْتِكَابُ ٱلضَّرُورَاتِ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُتَلَمِّسُ :

إِنْ تَسْلُكِي سُبُلَ ٱلْمَجَاةِ مُنْجِدَةً   مَا عَاشَ عَمْرٌو وَمَا عُمِّرَتْ قَابُوسُ

أَرَادَ (وَمَا عُمِّرَ قَابُوسُ) . وَقَوْلُ ٱلْأَعْشَى حَكَاهُ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ وَعَابَهُ

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ سُجُوفُ ٱلْحِجَالِ   فَلَمْ تَرَ شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيرَا

قَالَ : لَا تُوضَعُ ٱلشَّمْسُ مَعَ ٱلزَّمْهَرِيرِ (قَالَ :) وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَقُولَ : لَمْ تَرَ شَمْساً وَلَا قَمَراً وَلَمْ يُصِبْهَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ وَقَدْ أَخْطَأَ . وَكَقَوْلِ عَلْقَمَةَ :

يَحْمِلْنَ أُتْرُجَّةً نَضْخُ ٱلْعَبِيرِ بِهَا   كَأَنَّ تَطْيَابَهَا فِي ٱلْأَنْفِ مَشْمُومُ

وَٱلتَّطْيَابُ هَا هُنَا عَلَى غَايَةِ ٱلسَّمَاجَةِ وَٱلطِّيبُ أَيْضاً مَشْمُومٌ لَا مَحَالَةَ

فَقَوْلُهُ: (كَأَنَّهُ مَشْمُومُ) هُجْنَةٌ وَقَوْلُهُ: (فِي الآنِفِ اهْجَنُ). لِأَنَّ الشَّمَّ لَا يَكُونُ بِالْعَيْنِ. وَمِنَ الْمُتَنَاقِضِ قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ اُذَيْنَةَ:

تَرَلُوا ثَلَاثَ مِنًى بِمَنْزِلِ غِبْطَةٍ ... وَهُمْ عَلَى غَرَضٍ لَعَمْرُكَ مَا هُمُ

مُتَجَاوِرِينَ بِغَيْرِ دَارِ إِقَامَةٍ ... لَوْ قَدْ اَجَدَّ رَحِيلُهُمْ لَمْ يَنْدَمُوا

(فَقَالَ) لَبِثُوا فِي دَارِ غِبْطَةٍ ثُمَّ قَالَ: لَوْ رَحَلُوا لَمْ يَنْدَمُوا. وَمِمَّا جَاءَ فِي ذٰلِكَ مِنْ اَشْعَارِ الْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارٍ:

وَإِذَا اَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا ... غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلْ

وَمِنَ الْمَعَانِي الْبَشِعَةِ قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ:

بِاَحْمَدَ الْمُرْتَجَى فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ... قُمْ سَيِّدِي نَعْصِ جَبَّارَ السَّمَاوَاتِ

فَهٰذَا مَعَ كُفْرِهِ مَمْقُوتٌ. وَمِنَ الْخَطَإِ قَوْلُ اَبِي الْعَتَاهِيَةِ:

غَنِيتَ عَلَى الْوَمْلِ الْقَدِيمِ غَنِيتَا ... وَضَيَّعْتَ وُدًّا كَانَ لِي وَنَسِيتَا

وَمِنْ اَعْجَبِ الْاَشْيَاءِ اَنْ مَاتَ مَأْلَفِي ... وَمَا كُنْتَ تَرْعَانِي لَهُ وَبَقِيتَا

تَجَاهَلْتَ عَمَّا كُنْتَ تُحْسِنُ وَصْفَهُ ... وَمُتَّ عَنِ الْاِحْسَانِ حِينَ حَيِيتَا

وَلَيْسَ مِنَ الْعَجَبِ اَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَيَبْقَى بَعْدَهُ إِنْسَانٌ آخَرُ. بَلْ هٰذِهِ عَادَةُ الدُّنْيَا وَالْمَعْهُودُ مِنْ اَمْرِهَا وَلَوْ قَالَ: (مِنْ ظُلْمِ الْاَيَّامِ) كَانَ الْمَعْنَى مُسْتَوِيًا. وَسَمِعْتُ بَعْضَ الْاُدَبَاءِ يَقُولُ: وَمِنَ الْمَعَانِي الْبَارِدَةِ قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ الْبَازِي:

فِي هَامَةٍ غَلْبَاءَ تَهْدِي مِنْسَرَا ... كَعَطْفَةِ الْجِيمِ بِكَفٍّ اَعْسَرَا

ثُمَّ قَالَ:

يَقُولُ مَنْ فِيهَا بِعَقْلٍ فَكَّرَا ... لَوْ زَادَهَا عَيْنًا اِلَى فَاءٍ وَرَا

فَٱتَّصَلَتْ بِٱلْجِيمِ صَارَ جَعْفَرَا

فَمَنْ يَجْهَلُ اَنَّ ٱلْجِيمَ اِذَا اُضِيفَ اِلَيْهَا ٱلْعَيْنُ وَٱلْفَاءُ وَٱلرَّاءُ يَصِيرُ (جَعْفَرَا) وَمَا يَدْخُلُ فِي صِفَةِ ٱلْبَازِي مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ شَيْءٌ. وَتَبِعَهُ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ:

هُنَّ ٱلْحَمَامُ فَاِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً ... مِنْ حَائِهِنَّ فَاِنَّهُنَّ حِمَامُ

فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي جَهِلَ اَنَّ ٱلْحَمَامَ اِذَا كُسِرَتْ حَاؤُهَا صَارَ حِمَامًا. وَاِنَّمَا اَرَادَ اَبُو نُوَاسٍ اَنَّهُ يُشْبِهُ ٱلْجِيمَ لَا يُغَادِرُ مِنْ شَبَهِهَا شَيْئًا حَتَّى لَوْ زِدتَ عَلَيْهَا هٰذِهِ ٱلْاَحْرُفَ صَارَتْ جَعْفَرَا لِشِدَّةِ شَبَهِهَا بِهِ وَهُوَ عِنْدِي صَوَابٌ. اِلَّا اَنَّهُ لَوِ ٱكْتَفَى بِقَوْلِهِ: (كَعَطْفَةِ ٱلْجِيمِ بِكَفِّ اَعْسَرَا) وَلَمْ يَزِدِ ٱلزِّيَادَةَ ٱلَّتِي بَعْدَهَا كَانَ اَجْوَدَ وَاَرْشَقَ وَاَدْخَلَ فِي مَذَاهِبِ ٱلْفُصَحَاءِ وَاَشْبَهَ بِٱلشِّعْرِ ٱلْقَدِيمِ. وَاَمَّا قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ: فَلَهُ مَعْنًى خِلَافُ مَا ذَكَرَهُ وَذٰلِكَ اَنَّهُ اَرَادَ اَنَّكَ اِذَا اَرَدتَّ ٱلزَّجْرَ وَٱلْعِيَافَةَ اَدَّاكَ ٱلْحَمَامُ اِلَى ٱلْحِمَامِ كَمَا اَنَّ صَوْتَهَا ٱلَّذِي تَظُنُّ اَنَّهُ بُكَاءٌ اِنَّمَا هُوَ طَرَبٌ وَيُؤَدِّيكَ اِلَى ٱلْبُكَاءِ ٱلْحَقِيقِيِّ وَهٰذَا مَعْنًى صَحِيحٌ. اِلَّا اَنَّ ٱلْمَعْنَى اِذَا صَارَ بِهٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةِ مِنَ ٱلدِّقَّةِ كَانَ كَٱلْمُعَمَّى وَٱلتَّعْمِيَةُ حَيْثُ يُرَادُ ٱلْبَيَانُ عِيٌّ. وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَعْنَى قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ ٱلْاَسَدِ:

كَاَنَّمَا عَيْنُهُ اِذَا نَظَرَتْ ... بَارِزَةَ ٱلْجَفْنِ عَيْنُ مَخْنُوقِ

فَوَصَفَ عَيْنَ ٱلْاَسَدِ بِٱلْجُحُوظِ وَهِيَ تُوصَفُ بِٱلْغُؤُورِ كَقَوْلِ اَبِي زُبَيْدٍ:

وَعَيْنَانِ كَٱلْوَقْبَيْنِ فِي قَلْبِ صَخْرَةٍ ... تَرَى فِيهِمَا كَٱلْجَمْرَتَيْنِ تَسَعُّرَا

وَمِنَ ٱلْغَلَطِ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ:

رَقِيقُ حَوَاشِي ٱلْحِلْمِ لَوْ اَنَّ حِلْمَهُ   بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ فِي اَنَّهُ بُرْدُ

وَمَا وَصَفَ اَحَدٌ مِنْ اَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَلَا اَهْلِ ٱلْاِسْلَامِ ٱلْحِلْمَ بِٱلرِّقَّةِ وَاِنَّمَا يُوصَفُ بِٱلرُّجْحَانِ وَٱلرَّزَانَةِ كَمَا قَالَ اَبُو ذُؤَيْبٍ :

وَصَبْرٌ عَلَى حَدَثِ ٱلنَّائِبَاتِ   وَحِلْمٌ رَزِينٌ وَعَقْلٌ ذَكِي

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَاِذَا ذَمُّوا ٱلرَّجُلَ قَالُوا : خَفَّ حِلْمُهُ وَطَاشَ . وَمِنَ ٱلْخَطَاِ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

ظَعَنُوا فَكَانَ بُكَايَ حَوْلًا بَعْدَهُمْ   ثُمَّ ٱرْعَوَيْتُ وَذَاكَ حِلْمُ لَبِيدِ

اَجْدِرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ اِطْفَاؤُهَا   بِٱلدَّمْعِ اَنْ تَزْدَادَ طُولَ وُقُودِ

هٰذَا خِلَافُ مَا يَعْرِفُهُ ٱلنَّاسُ لِاَنَّهُمْ قَدْ اَجْمَعُوا اَنَّ ٱلْبُكَاءَ يُطْفِئُ ٱلْغَلِيلَ وَيُبَرِّدُ حَرَارَةَ ٱلْحُزْنِ وَيُزِيلُ شِدَّةَ ٱلْوَجْدِ . وَقَدْ شَهِدَ اَبُو تَمَّامٍ بِصِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَخَالَفَ قَوْلَهُ ٱلْاَوَّلَ فَقَالَ :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ يُنْظَمِ   وَٱلدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ ثِقْلِ ٱلْمُغْرَمِ

وَمِنَ ٱلْخَطَاِ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ اِنَّ حَمْدَهُمْ   مِنَ ٱلدُّرِّ مَا اَصْفَرَّتْ حَوَاشِيهِ فِي ٱلْعِقْدِ

وَاِنَّمَا يُوصَفُ ٱلدُّرُّ بِشِدَّةِ ٱلْبَيَاضِ وَاِذَا اُرِيدَ ٱلْمُبَالَغَةُ فِي وَصْفِهِ وُصِفَ بِٱلنُّصُوعِ . وَمِنْ اَعْيَبِ عُيُوبِهِ ٱلصُّفْرَةُ . وَقَالُوا : كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ لِبَيَاضِهِ . وَاِذَا اَصْفَرَّ ٱحْتِيلَ فِي اِزَالَةِ صُفْرَتِهِ لِيَتَضَوَّأَ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْحَوَاشِي فِي ٱلدُّرِّ اَيْضًا خَطَأٌ . وَلَوْ قَالَ : (نَوَاحِيهِ) لَكَانَ اَجْوَدَ . وَٱلْحَاشِيَةُ لِلْبُرْدِ وَٱلثَّوْبِ . فَاَمَّا حَاشِيَةُ ٱلدُّرِّ فَغَيْرُ مَعْرُوفٍ . وَفِيهَا :

وَحَرَتْ عَلَى ٱلْاَيْدِي مَجَسَّةُ جِسْمِهِ   كَذٰلِكَ مَوْجُ ٱلْبَحْرِ مُلْتَهِبُ ٱلْوَقْدِ

وَهٰذَا غَلَطٌ لِاَنَّ ٱلْبَحْرَ غَيْرُ مُلْتَهِبِ ٱلْمَوْجِ وَلَا مُتَّقِدِ ٱلْمَاءِ . وَلَوْ كَانَ مُتَّقِدًا لَمَا اَمْكَنَ رُكُوبُهُ. وَاِنَّمَا اَرَادَ اَنْ يُعَظِّمَ اَمْرَ ٱلْمَمْدُوحِ فَجَاءَ بِمَا لَا يُعْرَفُ . وَفِيهَا :

وَلَسْتَ تَرَى شَوْكَ ٱلْقَتَادَةِ خَائِفًا   سَمُومَ رِيَاحِ ٱلْقَادِحَاتِ مِنَ ٱلزَّنْدِ

وَهٰذَا خَطَأٌ لِاَنَّهُ شَبَّهَ ٱلْعَلِيلَ بِشَوْكِ ٱلْقَتَادِ لَا يَخَافُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُقْدَحُ بِٱلزِّنَادِ . وَقَدْ عَلِمْنَا اَنَّ ٱلنَّارَ تَفْلِقُ ٱلصَّخْرَ وَتُلِينُ ٱلْحَدِيدَ فَكَيْفَ يَسْلَمُ مِنْهَا ٱلْقَتَادُ . وَلَيْسَ لِذِكْرِ ٱلسَّمُومِ وَٱلرِّيَاحِ اَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فَائِدَةٌ وَلَا مَوْقِعٌ . وَنُورِدُ هٰهُنَا جُمْلَةً تَتِمُّ بِهَا مَعَانِي هٰذَا ٱلْبَابِ : يَنْبَغِي اَنْ تَعْرِفَ اَنَّ اَجْوَدَ ٱلْوَصْفِ مَا يَسْتَوْعِبُ اَكْثَرَ مَعَانِي ٱلْمَوْصُوفِ حَتَّى كَاَنَّهُ يُصَوِّرُ ٱلْمَوْصُوفَ لَكَ فَتَرَاهُ نُصْبَ عَيْنِكَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو ٱلطَّائِيِّ :

اَلَا مَنْ رَاَى قَوْمِي كَاَنَّ رِجَالَهُمْ   نَخِيلٌ اَتَاهَا عَاضِدٌ فَاَمَالَهَا

فَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ كَاَنَّهُ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلْقَتْلَى مُصَرَّعِينَ . وَقَوْلِ ٱلْعَتَابِيِّ فِي ٱلسَّحَابِ :

وَٱلْغَيْمُ كَٱلثَّوْبِ فِي ٱلْآفَاقِ مُنْتَشِرٌ   مِنْ فَوْقِهِ طَبَقٌ مِنْ تَحْتِهِ طَبَقُ

اِنْ مَعْمَعَ ٱلرَّعْدُ فِيهِ قُلْتَ مُنْخَرِقٌ   اَوْ لَأْلَأَ ٱلْبَرْقُ فِيهِ قُلْتَ مُحْتَرِقُ

وَلَمَّا كَانَتْ اَغْرَاضُ ٱلشُّعَرَاءِ كَثِيرَةً وَمَعَانِيهَا مُتَشَعِّبَةً جَمَّةً لَا يَبْلُغُهَا ٱلْاِحْصَاءُ. كَانَ مِنَ ٱلْوَجْهِ اَنْ نَذْكُرَ مَا هُوَ اَكْثَرُ ٱسْتِعْمَالًا وَاَطْوَلُ مُدَاوَمَةً وَهُوَ ٱلْمَدْحُ . وَٱلْهِجَاءُ . وَٱلْوَصْفُ . وَٱلْمَرَاثِي. وَٱلْفَخْرُ . وَقَدْ ذَكَرْتُ قَبْلَ هٰذَا ٱلْمَدِيحَ وَٱلْهِجَاءَ وَمَا يَنْبَغِي ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِمَا . ثُمَّ

ذَكَرْتُ ٱلْآنَ ٱلْوَصْفَ وَتَرَكْتُ ٱلْمَرَاثِيَ وَٱلْفَخْرَ . لِأَنَّهُمَا دَاخِلَانِ فِي ٱلْمَدِيحِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَخْرَ مَدْحُكَ نَفْسَكَ بِٱلطَّهَارَةِ وَٱلْعَفَافِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْحَسَبِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذٰلِكَ . وَٱلْمَرْثِيَةُ مَدْحُ ٱلْمَيْتِ وَٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ ٱلْمَدِيحِ أَنْ تَقُولَ : كَانَ كَذَا وَكَذَا . وَتَقُولُ فِي ٱلْمَدِيحِ : هُوَ كَذَا وَأَنْتَ كَذَا . فَيَنْبَغِي أَنْ يُتَوَخَّى فِي ٱلْمَرْثِيَةِ مَا يُتَوَخَّى فِي ٱلْمَدِيحِ . إِلَّا أَنَّكَ إِذَا أَرَدتَّ أَنْ تَذْكُرَ ٱلْمَيْتَ بِٱلْجُودِ وَٱلشَّجَاعَةِ تَقُولُ : مَاتَ ٱلْجُودُ وَهَلَكَتِ ٱلشَّجَاعَةُ . وَلَا تَقُولُ : كَانَ فُلَانٌ جَوَادًا وَشُجَاعًا فَإِنَّ ذٰلِكَ بَارِدٌ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ . وَكَذٰلِكَ مَا كَانَ ٱلْمَيْتُ يَرْكَبُهُ فِي حَيَاتِهِ . فَيَنْبَغِي أَنَّهُ لَا يُذْكَرُ أَنَّهُ يَبْكِي عَلَيْهِ مِثْلُ ٱلْخَيْلِ وَٱلْإِبِلِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا وَإِنَّمَا يُذْكَرُ ٱغْتِبَاطُهُمَا بِمَوْتِهِ . وَقَدْ أَحْسَنَتِ ٱلْخَنْسَاءُ حَيْثُ تَقُولُ :

فَقَدْ فَقَدَتْكَ طَلْقَةُ وَٱسْتَرَاحَتْ   فَلَيْتَ ٱلْخَيْلَ فَارِسُهَا يَرَاهَا

بَلْ يُوصَفُ بِٱلْبُكَاءِ عَلَيْهِ مَنْ كَانَ يُحْسِنُ إِلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ . كَمَا قَالَ ٱلْغَنَوِيُّ :

لِيَبْكِكَ شَيْخٌ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُعِينُهُ   وَطَاوِي ٱلْحَشَى نَائِي ٱلْمَزَارِ غَرِيبُ

فَهٰذِهِ جُمْلَةٌ إِذَا تَدَبَّرَهَا صَانِعُ ٱلْكَلَامِ ٱسْتَغْنَى بِهَا عَنْ غَيْرِهَا . وَبِٱللّٰهِ ٱلتَّوْفِيقُ

البحث الثالث

في كيفية نظم الكلام وما ينبغي استعماله في تأليفه

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

إِذَا أَردتَ أَنْ تَصْنَعَ كَلَاماً فَأَخطِرْ مَعَانِيَهُ بِبَالِكَ وَتَنَوَّقْ لَهُ كَرَائِمَ ٱللَّفظِ وَٱجْعَلْهَا عَلَى ذِكْرٍ مِنْكَ لِيَقْرُبَ عَلَيْكَ تَنَاوُلُهَا وَلَا يُتْعِبَكَ تَطَلُّبُهَا . وَٱعْمَلْهُ مَا دُمْتَ فِي شَبَابِ نَشَاطِكَ فَإِذَا غَشِيَكَ ٱلْفُتُورُ وَتَخَوَّنَكَ ٱلْمَلَالُ فَأَمْسِكْ . فَإِنَّ ٱلْكَثِيرَ مَعَ ٱلْمَلَالِ قَلِيلٌ وَٱلنَّفِيسَ مَعَ ٱلضَّجَرِ خَسِيسٌ وَٱلْخَوَاطِرَ كَٱلْيَنَابِيعِ يُسْقَى مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ فَتَجِدُ حَاجَتَكَ مِنَ ٱلرِّيِّ وَتَنَالُ أَرَبَكَ مِنَ ٱلْمَنْفَعَةِ. فَإِذَا أَكْثَرْتَ عَلَيْهَا نَضَبَ مَاؤُهَا وَقَلَّ عَنْكَ غَنَاؤُهَا. وَيَنْبَغِي أَنْ تَجْرِيَ مَعَ ٱلْكَلَامِ مُعَارَضَةً فَإِذَا مَرَرْتَ بِلَفْظٍ حَسَنٍ أَخَذْتَ بِرَقَبَتِهِ أَوْ بِمَعْنًى بَدِيعٍ تَعَلَّقْتَ بِذَيْلِهِ . وَتَحْذَرُ أَنْ يَسْبِقَكَ فَإِنَّهُ إِنْ سَبَقَكَ تَعِبْتَ فِي تَتَبُّعِهِ وَنَصِبْتَ فِي طَلَبِهِ وَلَعَلَّكَ لَا تَلْحَقُهُ عَلَى طُولِ ٱلطَّلَبِ وَمُوَاصَلَةِ ٱلدَّأْبِ وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا ضَيَّعْتَ أَوَّلَ كُلِّ أَمْرٍ أَبَتْ أَعْجَازُهُ إِلَّا ٱلْتِوَاءَ

وَقَالُوا : يَنْبَغِي لِصَانِعِ ٱلْكَلَامِ أَنْ لَا يَتَقَدَّمَ ٱلْكَلَامَ تَقَدُّماً وَلَا يَتَّبِعَ ذُنَابَاهُ تَتَبُّعاً وَلَا يَحْمِلَهُ عَلَى لِسَانِهِ حَمْلًا فَإِنَّهُ إِنْ تَقَدَّمَ ٱلْكَلَامَ لَمْ تَتْبَعْهُ خَفِيفَتُهُ وَهَزِيلُهُ وَٱلْعَجِفُهُ وَٱلشَّارِدُ مِنْهُ. وَإِنْ تَتَبَّعَهُ فَاتَتْهُ سَوَابِقُهُ وَلَوَاحِقُهُ وَتَبَاعَدَتْ عَنْهُ جِيَادُهُ وَغُرَرُهُ . وَإِنْ حَمَلَهُ عَلَى لِسَانِهِ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ أَوْسَاقُهُ وَأَعْبَاؤُهُ وَدَخَلَتْ مَسَاوِيهِ فِي مَحَاسِنِهِ وَلَكِنَّهُ يَجْرِي مَعَهُ

فَلَا تَنِدُّ عَنْهُ نَادَّةٌ مُعْجِبَةٌ سَهْمَاءُ إِلَّا كَبَحَهَا وَلَا تَتَخَلَّفُ عَنْهُ مُثْقَلَةٌ هَزِيلَةٌ إِلَّا أَرْهَقَهَا فَطَوْرًا تُفَرِّقُهُ لِيَخْتَارَ أَحْسَنَهُ وَطَوْرًا تَجْمَعُهُ لِتُقَرِّبَ عَلَيْكَ خُطْوَةَ الْفِكْرِ وَيَتَنَاوَلَ اللَّفْظَ مِنْ تَحْتِ لِسَانِهِ وَلَا يُسَلِّطُ الْمَلَلَ عَلَى قَلْبِهِ. وَالْإِكْثَارَ عَلَى تَفَكُّرِهِ فَيَأْخُذُ عَفْوَهُ وَلَا يَسْتَغْزِرُ دَرَّهُ وَلَا يُكْرِهُ آبِيًا وَلَا يَدْفَعُ آتِيًا . وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ : خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ إِنْشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا لَكَ . فَإِنَّ تِلْكَ السَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حُسْنًا وَأَحْسَنُ فِي الْأَسْمَاعِ وَأَحْلَى فِي الصُّدُورِ وَأَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ الْخَطَإِ وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغُرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ كَرِيمٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ . وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ الْأَطْوَلُ بِالْكَدِّ وَالْمُطَالَبَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالتَّكَلُّفِ وَالْمُعَاوَدَةِ . وَمَهْمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يُخْطِئْكَ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا أَوْ خَفِيفًا عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا وَكَمَا خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدِنِهِ . وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ فَإِنَّ التَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ أَلْفَاظَكَ . وَمَنْ أَرَادَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ الْمَعْنَى الشَّرِيفِ اللَّفْظُ الشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا أَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُدَنِّسُهُمَا وَيُفْسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا فَيَصِيرُ بِهِمَا إِلَى حَدٍّ يَكُونُ فِيهِ أَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ أَنْ تَلْتَمِسَ الْبَلَاغَةَ وَتَرْتَهِنَ نَفْسَكَ فِي مَلَابِسِهَا . فَكُنْ فِي ثَلَاثِ مَنَازِلَ . فَأَوَّلُ الثَّلَاثِ : أَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ شَرِيفًا عَذْبًا وَفَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا . فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ لَا تُوَاتِيكَ وَلَا تَسْنَحُ لَكَ عِنْدَ أَوَّلِ خَاطِرٍ وَتَجِدُ اللَّفْظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَهَا

وَلَمْ تَصِلْ إِلَى مَرْكَزِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِسِلْكِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَوْضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى ٱغْتِصَابِ ٱلْأَمَاكِنِ وَٱلنُّزُولِ فِي غَيْرِ أَوْطَانِهَا . فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرِيضَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَنْظُومِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ ٱخْتِيَارَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِذَلِكَ أَحَدٌ . وَإِنْ تَكَلَّفْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا عَابَكَ مَنْ أَنْتَ أَقَلُّ عَيْبًا مِنْهُ وَزَرَى عَلَيْكَ مَنْ هُوَ دُونَكَ . فَإِنِ ٱبْتُلِيتَ بِتَكَلُّفِ ٱلْقَوْلِ وَتَعَاطِي ٱلصِّنَاعَةِ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ ٱلطَّبِيعَةُ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَتَعَصَّى عَلَيْكَ بَعْدَ إِجَالَةِ ٱلْفِكْرَةِ فَلَا تَعْجَلْ وَدَعْهُ سَحَابَةَ يَوْمِكَ وَلَا تَضْجَرْ وَأَمْهِلْهُ سَوَادَ لَيْلَتِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ فَإِنَّكَ لَا تَعْدَمُ ٱلْإِجَابَةَ وَٱلْمُؤَاتَاةَ . وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ وَأُجْرِيتَ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى عُرْفٍ فَهِيَ ٱلْمَنْزِلَةُ ٱلثَّانِيَةُ . فَإِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَ تَرْوِيحِ ٱلْخَاطِرِ وَطُولِ ٱلْإِمْهَالِ فَٱلْمَنْزِلَةُ ٱلثَّالِثَةُ . أَيْ أَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِلَى أَشْهَى ٱلصِّنَاعَاتِ إِلَيْكَ وَأَخَفِّهَا عَلَيْكَ فَإِنَّكَ لَمْ تَشْتَهِهَا إِلَّا وَبَيْنَكُمَا نَسَبٌ . وَٱلشَّيْءُ لَا يَحِنُّ إِلَّا إِلَى مَا شَاكَلَهُ وَإِنْ كَانَتِ ٱلْمُشَاكَلَةُ قَدْ تَكُونُ فِي طَبَقَاتٍ فَإِنَّ ٱلنُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا مَعَ ٱلرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ مَعَ ٱلرَّغْبَةِ وَٱلْمَحَبَّةِ . وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْرِفَ أَقْدَارَ ٱلْمَعَانِي فَتُوَازِنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَوْزَانِ ٱلْمُسْتَمِعِينَ وَبَيْنَ أَقْدَارِ ٱلْحَالَاتِ فَتَجْعَلَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ كَلَامًا وَلِكُلِّ حَالٍ مَقَامًا حَتَّى تَقْسِمَ أَقْدَارَ ٱلْمَعَانِي عَلَى أَقْدَارِ ٱلْمَقَامَاتِ وَأَقْدَارَ ٱلْمُسْتَمِعِينَ عَلَى أَقْدَارِ ٱلْحَالَاتِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمَنْفَعَةَ مَعَ مُوَافَقَةِ ٱلْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ

مِنَ ٱلْمَقَالِ . فَإِنْ كُنْتَ مُتَكَلِّماً اَوِ ٱحْتَجْتَ إِلَى عَمَلِ خُطْبَةٍ لِبَعْضِ مَنْ تَصْلُحُ لَهُ ٱلْخُطَبُ اَوْ قَصِيدَةً لِبَعْضِ مَا يُرَادُ لَهُ ٱلْقَصْدُ فَتَخَطَّ ٱلْفَاظَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِثْلَ ٱلْجِسْمِ وَٱلْعَرَضِ وَٱلْكَوْنِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَٱلْجَوْهَرِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُجْنَةٌ ...

البحث الرابع

في خواص الكلام الحرّ

(عن ابن المعتز والرمّاني)

قِيلَ إِنَّ اَحْسَنَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ تَرْجُمَانًا لِلْقُلُوبِ وَصَيْقَلًا لِلْعُقُولِ وَمُجْلِيًّا لِلشُّبْهَةِ وَمُوجِبًا لِلْحُجَّةِ . وَٱلْحَاكِمَ عِنْدَ ٱخْتِصَاصِ ٱلظُّنُونِ وَٱلْمُفَرِّقَ بَيْنَ ٱلشَّكِّ وَٱلْيَقِينِ . يَنْقَادُ بِهِ ٱلْمُسْتَصْعَبُ وَيَسْتَقِيمُ لَهُ ٱلْاَصْيَدُ . وَخَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقِّيهِ . وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللَّفْظِ تَعَاطِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُبْلِغُ ٱلَّذِي لَا يُمَلُّ وَٱلْجَدِيدُ ٱلَّذِي لَا يَخْلَقُ . وَٱلْحَقُّ ٱلسَّاطِعُ . وَٱلْمَاحِي لِظُلَمِ ٱلضَّلَالِ . وَلِسَانُ ٱلصِّدْقِ ٱلنَّافِي لِلْكَذِبِ . إِنْ اَوْجَزَ كَانَ كَافِيًا وَإِنْ اَكْثَرَ كَانَ مُذَكِّرًا . وَإِنْ اَوْمَا كَانَ مُقْنِعًا . وَإِنْ اَطَالَ كَانَ مُفْهِمًا . وَإِنْ اَمَرَ فَنَاصِحًا . وَإِنْ حَكَمَ فَعَادِلًا . وَإِنْ اَخْبَرَ فَصَادِقًا . وَإِنْ بَيَّنَ فَشَافِيًا . سَهْلٌ عَلَى ٱلْفَهْمِ . صَعْبٌ عَلَى ٱلْمُتَعَاطِي . قَرِيبُ ٱلْمَأْخَذِ بَعِيدُ ٱلْمَرَامِ . سِرَاجٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ٱلْقُلُوبُ حُلْوٌ إِذَا تَذَوَّقَتْهُ ٱلْعُقُولُ . وَقَدْ قِيلَ : اَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَطَّ ٱلتَّكَلُّفَ عَنْهُ وَبُنِيَ عَلَى ٱلتَّبْيِينِ وَكَانَتِ ٱلْفَائِدَةُ اَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْقَافِيَةِ بِاَنْ جَمَعَ مَعَ ذٰلِكَ سُهُولَةَ ٱلْمَخْرَجِ

مَعَ قُرْبِ ٱلْمُتَنَاوَلِ . وَعُذُوبَةَ ٱللَّفْظِ مَعَ رَشَاقَةِ ٱلْمَعْنَى . وَانْ يَكُ
حُسْنُ ٱلِٱبْتِدَاءِ كَحُسْنِ ٱلِٱنْتِهَاءِ . وَحُسْنُ ٱلْوَصْلِ كَحُسْنِ ٱلْقَطْعِ
ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّمْعِ . وَكَانَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ قَدْ وَقَعَتْ فِي حَقِّهَا وَالَى جَنْ
أُخْتِهَا حَتَّى لَا يُقَالَ : لَوْ كَانَ كَذَا فِي مَوْضِعِ كَذَا لَكَانَ اوْلَى
لَا يَكُونَ فِيهِ لَفْظٌ مُخْتَلِفٌ وَلَا مَعْنًى مُسْتَكْرَهٌ . ثُمَّ أُلْبِسَ بَهَاءَ ٱلْحِ
وَنُورَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَشَرَفَ ٱلْمَعْنَى وَجَزَالَةَ ٱللَّفْظِ وَكَانَتْ حَلَاوَتُهُ فِي ٱلصَّ
وَجَلَالَتُهُ فِي ٱلنَّفْسِ تَفْتُقُ ٱلْفَهْمَ وَتَنْثُرُ دَقَائِقَ ٱلْحِكَمِ وَكَانَ ظَا
ٱلنَّفْعِ شَرِيفَ ٱلْقَصْدِ مُعْتَدِلَ ٱلْوَزْنِ جَمِيلَ ٱلْمَذْهَبِ كَرِيمَ ٱلْمَطْلَبِ
فَصِيحًا فِي مَعْنَاهُ بَيِّنًا فِي فَحْوَاهُ . . . وَجَاءَ ايْضًا فِي كُتُبِ ٱلْادَبِ
انَّ لَحْظَةَ ٱلْقَلْبِ اسْرَعُ خَطْرَةً مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَابْعَدُ مَجَالًا وَ
ٱلْغَائِصَةُ فِي اعْمَاقِ اوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَأَمِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ . وَٱلْجَا
بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ . وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ . وَٱلْقَلْ
كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ اذَا نَطَقَ وَٱلْيَدِ اذَا كَتَبَتْ . وَٱلْعَا
يَكْسُو ٱلْمَعَانِي وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِٱلْفَاظٍ كَيِّسَةٍ بِاحْسَ
زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِاظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِ
وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ : بِمَ فُقْتَ اهْلَ عَصْرِ
فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ ٱلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِانِّي لَمْ اقْبَلْ
مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْ
الَى مَغَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْ
الَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَاحْكَمْتُ سَبْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُرَ

وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَٱحْتَرَزْتُ عَنْ مُتَكَلَّفِهَا . وَمَا مَلَكَ قَطُّ قِيَادِي ٱلْاعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : إِنَّ ٱلْمَعْنَى إِذَا كَانَ شَرِيفًا وَكَانَ ٱللَّفْظُ بَلِيغًا وَكَانَ صَحِيحَ ٱلطَّبْعِ بَعِيدًا مِنَ ٱلِاسْتِكْرَاهِ مُنَزَّهًا عَنِ ٱلِاخْتِلَالِ مَصُونًا عَنِ ٱلتَّكَلُّفِ صَنَعَ فِي ٱلْقَلْبِ صَنِيعَ ٱلْغَيْثِ فِي ٱلتُّرْبَةِ ٱلْكَرِيمَةِ . وَمَتَى فُصِّلَتِ ٱلْكَلِمَةُ عَلَى هٰذِهِ ٱلشَّرِيطَةِ وَنَفَذَتْ مِنْ قَائِلِهَا عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ كَسَاهَا ٱللهُ مِنَ ٱلتَّوْفِيقِ وَمَنَحَهَا مِنَ ٱلتَّأْيِيدِ مَا لَا يَمْتَنِعُ مِنْ تَعْظِيمِهَا بِهِ صُدُورُ ٱلْجَبَابِرَةِ وَلَا يَذْهَلُ عَنْ فَهْمِهَا مَعَهُ عُقُولُ ٱلْجَهَلَةِ

البحث الخامس

في تهذيب الكلام وتنقيحه

(عن خزانة الادب للحموي وزهر الآداب للحصري)

وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْدَادِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكَلَامِ بَعْدَ عَمَلِهِ وَٱلشُّرُوعِ فِي تَهْذِيبِهِ وَتَنْقِيحِهِ نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا وَتَغْيِيرِ مَا يَجِبُ تَغْيِيرُهُ وَحَذْفِ مَا يَنْبَغِي حَذْفُهُ وَإِصْلَاحِ مَا يَتَعَيَّنُ إِصْلَاحُهُ وَكَشْفِ مَا يُشْكِلُ عَنْ غَرِيبِهِ وَإِعْرَابِهِ . وَتَحْرِيرِ مَا يَدِقُّ مِنْ مَعَانِيهِ . وَٱطِّرَاحِ مَا يَتَجَافَى عَنْ مَضَاجِعِ ٱلرِّقَّةِ مِنْ غَلِيظِ أَلْفَاظِهِ لِتُشْرِقَ شُمُوسُ ٱلتَّهْذِيبِ فِي سَمَاءِ بَلَاغَتِهِ وَتَرْشُفَ ٱلْأَسْمَاعُ عَلَى ٱلطَّرَبِ رَقِيقَ سُلَافَتِهِ . فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَ مَوْصُوفًا بِٱلْمُهَذَّبِ مَنْعُوتًا بِٱلْمُنَقَّحِ عَلَتْ رُتْبَتُهُ . وَإِنْ كَانَتْ مَعَانِيهِ غَيْرَ مُبْتَكَرَةٍ . وَكُلُّ كَلَامٍ قِيلَ فِيهِ : لَوْ كَانَ مَوْضِعَ هٰذِهِ

ٱلْـكَلِمَةِ غيرِهَا . وَلَوْ تَقَدَّمَ هٰذَا ٱلْمُتَأَخِّرُ وَتَأَخَّرَ هٰذَا ٱلْمُتَقَدِّمُ . أَوْ لَوْ تُمِّمَ هٰذَا ٱلنَّقْصُ بِكَذَا . أَوْ لَوْ تَـكَمَّلَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ بِكَذَا . أَوْ لَوْ حُذِفَتْ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ . أَوْ لَوِ ٱتَّضَحَ هٰذَا ٱلْمَقْصَدُ وَسَهُلَ هٰذَا ٱلْمَطْلَبُ لَـكَانَ ٱلْـكَلَامُ أَحْسَنَ وَٱلْمَعْنَى أَبْيَنَ . كَانَ ذٰلِـكَ ٱلْـكَلَامُ غَيْرَ مُنْتَظِمٍ فِي سِلْكِ نَوْعِ ٱلتَّهْـذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ . وَكَانَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى مَعْرُوفًا بِٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّهْذِيبِ . وَلَهُ قَصَائِـدُ تُعْرَفُ بِٱلْحَوْلِيَّاتِ . قِيلَ : إِنَّهُ كَانَ يَنْظِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَيُهَذِّبُهَا وَيُنَقِّحُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَيَعْرِضُهَا عَلَى عُلَمَاءِ قَبِيلَتِهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ . وَيُرْوَى : أَنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي شَهْرٍ وَيُنَقِّحُهَا وَيُهَذِّبُهَا فِي أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا وَلَا جَرَمَ أَنَّهُ قَلَّمَا يَسْقُطُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَلِهٰـذَا كَانَ ٱلْإِمَامُ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ مَعَ جَلَالَتِهِ فِي ٱلْعِلْمِ وَتَقَدُّمِهِ فِي ٱلنَّقْدِ يُقَدِّمُهُ عَلَى سَائِرِ ٱلْفُحُولِ مِنْ طَبَقَتِهِ . وَمَا أَحْسَنَ مَا أَشَارَ أَبُو ٱلتَّمَّامِ إِلَى ٱلتَّهْذِيبِ بِقَوْلِهِ :

خُذْهَا ٱبْنَةَ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُهَذَّبِ فِي ٱلدُّجَى ... وَٱللَّيْلُ أَسْوَدُ رُقْعَةِ ٱلْجِلْبَـابِ

فَإِنَّهُ خَصَّ تَهْذِيبَ ٱلْفِـكْرِ بِٱلدُّجَى لِـكَوْنِ ٱللَّيْلِ تَهْدَأُ فِيهِ ٱلْأَصْوَاتُ وَتَسْـكُنُ ٱلْحَرَكَاتُ فَيَكُونُ ٱلْفِـكْرُ فِيهِ مُجْتَمِعًا وَمِرْآةُ ٱلتَّهْذِيبِ فِيهِ صَقِيلَةً لِخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ وَصَفَاءِ ٱلْقَرِيحَةِ . لَا سِيَّمَا وَسَطَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّفْسُ قَدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ ٱلرَّاحَةِ بَعْدَ نَيْلِ قِسْطِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَخَفَّ عَلَيْهَا ثِقَلُ ٱلْغِذَاءِ وَصَحَّ ذِهْنُهَا وَصَارَ صَدْرُهَا مُنْشَرِحًا وَقَلْبُهَا بِٱلتَّأْلِيفِ مُنْبَسِطًا . وَمَا قَدَّمُوا وَسَطَ ٱللَّيْلِ فِي ٱلتَّأْلِيفِ عَلَى ٱلسَّحَرِ مَعَ مَا فِيهِ مِنِ ٱنْتِبَاهِ أَكْثَرِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلنَّاطِقِ وَٱرْتِفَاعِ ٱلْأَصْوَاتِ وَجَرْشِ ٱلْحَرَكَاتِ وَتَقَشُّعِ

الظَّماء بِطَلائِعِ الأنواء . وَبِدُونِ ذلكَ يَنْقَسِمُ الفكرُ وَيَشْتَغِلُ القَلْبُ وَوَسَطُ اللّيلِ خالٍ مِمَّا ذكرناهُ . وَلِهذا خصَّ ابو تمَّام تهذيبَ الفِكرِ بِالدُّجى عادِلًا عَنِ الطَّرَفَيْنِ لِما فِيهِما مِنَ الشَّواغِلِ المَذْكُورَةِ. وحكتِ الثِّقاتُ عَنْ ابي عِبادَةَ البُحْتُرِيِّ قالَ : كُنتُ في حداثتِي اروم الشِّعرَ وكُنتُ ارجِعُ فِيهِ إلى طَبعٍ سَليمٍ وَلَمْ اكُنْ وقفتُ لهُ على تَسهِيلِ مأخذٍ ووُجوهِ اقتِضابٍ حتَّى قصدتُ ابا تمَّامٍ وانقطعتُ اليهِ واتَّكلتُ في تعريفِهِ عليهِ فكانَ اوَّلُ ما قالَ لي : يا ابا عِبادةَ تَخَيَّرِ الأوقاتَ وانتَ قليلُ الهُمومِ صِفْرٌ مِنَ الغُمومِ . واعلم انَّ العادَةَ في الأوقاتِ إذا قصدَ الإنسانُ تأليفَ شيءٍ او حِفظَهُ ان يَختارَ وقتَ السَّحَرِ . وذلكَ انَّ النَّفسَ تكونُ قد اخذَتْ حظَّها مِنَ الرَّاحةِ وقِسطَها مِنَ النَّومِ وخَفَّ عَنها ثِقَلُ الغِذاءِ . وصفا مِن اكثرِ الأبخرةِ والأدخِنَةِ جِسمُ الهَواءِ . وسكنَتِ الغَمائِمُ . ورقَّتِ النَّسائِمُ . وتغنَّتِ الحَمائِمُ . وإذا شَرَعتَ في التَّأليفِ تَغَنَّ بِالشِّعرِ فإنَّ الغِناءَ مِضمارُهُ الَّذِي يَجْرِي فِيهِ . واجتَهِدْ في إيضاحِ مَعانِيهِ . فإنْ اردتَ ذِكرَ الأحبابِ فاجعلِ اللَّفظَ رقيقًا والمَعنَى رشيقًا واكثِرْ فيهِ مِنْ بيانِ الكآبةِ . وقَلَقِ الأشواقِ . ولوعةِ الفِراقِ والتَّعَلُّلِ بِاستِنشاقِ النَّسائِمِ . وغِناءِ الحَمائِمِ . والبُروقِ اللَّامِعَةِ . والنُّجومِ الطَّالِعةِ . والتَّبَرُّمِ مِنَ العُذَّالِ . والوُقوفِ على الأطلالِ . وإذا اخذتَ في مدحِ سيِّدٍ فاشهرْ مناقِبَهُ واظهِرْ مناسِبَهُ وارهِبْ مِن عزائِمِهِ وارغِبْ في مكارِمِهِ . واحذَرِ المَجهُولَ مِنَ المَعانِي وإيَّاكَ انْ تَشِينَ شِعرَكَ بِالعِبارةِ والألفاظِ

ٱلْوَحْشِيَّةِ وَنَاسِبْ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ وَكُنْ كَأَنَّكَ خَيَّاطٌ تُقَدِّرُ ٱلثِّيَابَ عَلَى مَقَادِيرِ ٱلْأَجْسَامِ . وَإِذَا عَارَضَكَ ٱلضَّجَرُ فَأَرِحْ نَفْسَكَ وَلَا تَعْمَلْ إِلَّا وَأَنْتَ فَارِغُ ٱلْقَلْبِ وَلَا تَنْظِمْ إِلَّا بِشَهْوَةٍ فَإِنَّ ٱلشَّهْوَةَ نِعْمَ ٱلْمُعِينُ عَلَى حُسْنِ ٱلنَّظْمِ . وَجُمْلَةُ ٱلْحَالِ أَنْ تَعْتَبِرَ شِعْرَكَ بِمَا سَلَفَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمَاضِينَ فَمَا ٱسْتَحْسَنَ ٱلْعُلَمَاءُ فَٱقْصِدْهُ وَمَا ٱسْتَقْبَحُوهُ فَٱجْتَنِبْهُ

وَأَوْرَدَ ٱلْعَلَّامَةُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ وَصِيَّةً لِنَفْسِهِ أَوْرَدَهَا أَيْضًا عَلَى نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ فَٱخْتَرْتُ مِنْهَا مَا هُوَ ٱللَّائِقُ بِٱلْحَالِ وَأَوَّلُهَا : يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ فِي ٱلْعَمَلِ ٱلسَّائِلُ عَنْ أَوْضَحِ ٱلسُّبُلِ أَنْ تُحَصِّلَ ٱلْمَعْنَى قَبْلَ ٱلشُّرُوعِ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلْقَوَافِي قَبْلَ ٱلْأَبْيَاتِ (قُلْتُ وَهٰذَا مَذْهَبُنَا) . ثُمَّ قَالَ أَيْضًا : وَلَا تُكْرِهِ ٱلْخَاطِرَ عَلَى وَزْنٍ مَخْصُوصٍ وَرَوِيٍّ مَقْصُودٍ وَتَوَخَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْجَزْلَ دُونَ ٱلرَّذْلِ وَٱلسَّهْلَ دُونَ ٱلصَّعْبِ وَٱلْعَذْبَ دُونَ ٱلْمُسْتَكْرَهِ وَٱلْمُسْتَحْسَنَ دُونَ ٱلْمُسْتَهْجَنِ . وَلَا تَعْمَلْ نَظْمًا وَلَا نَثْرًا عِنْدَ ٱلْمَلَلِ فَإِنَّ ٱلْكَثِيرَ مَعَهُ قَلِيلٌ وَٱلنَّفِيسَ مَعَهُ خَسِيسٌ . وَٱلْخَوَاطِرُ يَنَابِيعُ إِذَا رُفِقَ بِهَا جَمَّتْ وَإِذَا كَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهَا نَزَحَتْ . وَٱكْتُبْ كُلَّ مَعْنًى يَسْنَحُ وَقَيِّدْ كُلَّ فَائِدَةٍ تَعْرِضُ فَإِنَّ نَتَائِجَ ٱلْأَفْكَارِ كَلَمْعَةِ ٱلْبَرْقِ وَلَمْحَةِ ٱلطَّرْفِ إِنْ لَمْ تُقَيِّدْهَا شَرَدَتْ وَنَدَّتْ وَإِنْ لَمْ تَسْتَعْطِفْ بِٱلتَّكْرَارِ عَلَيْهَا صَدَّتْ وَٱلتَّرَنُّمُ بِٱلشِّعْرِ مِمَّا يُعِينُ عَلَيْهِ . فَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ إِمَّا كُنْتَ قَائِلَهُ ⁂ إِنَّ ٱلْغِنَاءَ لِقَوْلِ ٱلشِّعْرِ مِضْمَارُ

البحث السادس

في شروط الكلام

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

اِعلَمْ اَنَّ لِلكَلَامِ شُرُوطاً لَا يَسْلَمُ ٱلْمُتَكَلِّمُ مِنَ ٱلزَّلَلِ اِلَّا بِهَا وَلَا يَعرَى مِنَ ٱلنَّقصِ اِلَّا بَعْدَ اَنْ يَسْتَوْفِيَهَا وَهِيَ اَربَعَةٌ : (فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ لِداعٍ يَدْعُو اِلَيهِ اِمَّا فِي اَجْتِلَابِ نَفْعٍ اَوْ فِي دَفْعِ ضَرَرٍ.(وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَأْتِيَ بِهِ فِي مَوْضِعِهِ وَيَتَوَخَّى بِهِ اِصَابَةَ فُرْصَتِهِ .(وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) اَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ . (وَٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَتَخَيَّرَ ٱللَّفْظَ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ.فَهٰذِهِ اَرْبَعَةُ شُرُوطٍ مَتَى اَخَلَّ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِشَرْطٍ مِنْهَا فَقَدْ اَوْهَنَ فَضِيلَةَ بَاقِيهَا .وَسَنَذْكُرُ تَعْلِيلَ كُلِّ شَرْطٍ مِنْهَا بِمَا يُنْبِئُ عَنْ لُزُومِهِ.فَاَمَّا ٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ وَهُوَ ٱلدَّاعِي اِلَى ٱلْكَلَامِ فَلِاَنَّ مَا لَا دَاعِيَ لَهُ هَذَيَانٌ وَمَا لَا سَبَبَ لَهُ هُجْرٌ وَمَنْ سَامَحَ نَفْسَهُ فِي ٱلْكَلَامِ اِذَا عَنَّ وَلَمْ يُرَاعِ صِحَّةَ دَوَاعِيهِ وَاِصَابَةَ مَعَانِيهِ كَانَ قَوْلُهُ مَرْذُولًا وَرَأْيُهُ مَعْلُولًا . كَٱلَّذِي حَكَى ٱبْنُ عَائِشَةَ : اِنَّ شَابًّا كَانَ يُجَالِسُ ٱلْاَحْنَفَ وَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَاَعْجَبَ ذٰلِكَ ٱلْاَحْنَفَ فَخَلَتِ ٱلْحَلْقَةُ يَوماً فَقَالَ لَهُ ٱلْاَحْنَفُ : تَكَلَّمْ يَا ٱبْنَ اَخِي . فَقَالَ : يَا عَمُّ لَوْ اَنَّ رَجُلًا سَقَطَ مِنْ شَرَفِ هٰذَا ٱلْمَسْجِدِ هَلْ كَانَ يَضُرُّهُ شَيْءٌ . فَقَالَ : يَا ٱبْنَ اَخِي لَيْتَنَا تَرَكْنَاكَ مَسْتُورًا . ثُمَّ تَمَثَّلَ ٱلْاَحْنَفُ بِقَوْلِ ٱلْاَعْوَرِ ٱلشَّنِّيِّ :

كَاَيِّن تَرَى مِن صَاحِبٍ لَكَ مُعْجِبٍ زِيَادَتُهُ اَوْ نَقْصُهُ فِي اَلتَّكَلُّمِ
لِسَانُ اَلْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ اِلَّا صُورَةُ اَللَّحْمِ وَاَلدَّمِ

وَكَالَّذِي حُكِيَ عَنْ اَبِي اَلْفَقِيهِ : اِنَّ رَجُلًا كَانَ يَجْلِسُ اِلَيْهِ فَيُطِيلُ اَلصَّمْتَ فَقَالَ لَهُ اَبُو يُوسُفَ : اَلَا تَسْاَلُ . قَالَ : بَلَى مَتَى يُفْطِرُ اَلصَّائِمُ . قَالَ : اِذَا غَرَبَتِ اَلشَّمْسُ . قَالَ : فَاِنْ لَمْ تَغْرُبْ اِلَى نِصْفِ اَللَّيْلِ . (قَالَ) فَتَبَسَّمَ اَبُو يُوسُفَ وَتَمَثَّلَ بِبَيْتَيِ اَلْخَطَفِيِّ جَدِّ جَرِيرٍ :

عَجِبْتُ لِاِزْرَاءِ اَلْعَيِيِّ بِنَفْسِهِ وَصَمْتِ اَلَّذِي قَدْ كَانَ بِالْعِلْمِ اَعْلَمَا
وَفِي اَلصَّمْتِ سِتْرٌ لِلْعَيِيِّ وَاِنَّمَا صَحِيفَةُ لُبِّ اَلْمَرْءِ اَنْ يَتَكَلَّمَا

فَاَنْظُرْ اِلَى هٰؤُلَاءِ كَيْفَ اَبَانُوا بِالْكَلَامِ عَنْ جَهْلِهِمْ وَاَعْرَبُوا بِالسُّؤَالِ عَنْ نَقْصِهِمْ اِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَاعٍ اِلَيْهِ وَلَا رَوِيَّةٌ فِيمَا تَكَلَّمُوا بِهِ وَلَوْ صَدَرَ عَنْ رَوِيَّةٍ دَعَا اِلَيْهَا دَاعٍ لَسَلِمُوا مِنْ شَيْنِهِ وَبَرِئُوا مِنْ عَيْبِهِ . وَلِذٰلِكَ قِيلَ : لِسَانُ اَلْعَاقِلِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ فَاِذَا اَرَادَ اَلْكَلَامَ رَجَعَ اِلَى قَلْبِهِ فَاِنْ كَانَ لَهُ تَكَلَّمَ وَاِنْ كَانَ عَلَيْهِ اَمْسَكَ . وَقَلْبُ اَلْجَاهِلِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا عَرَضَ لَهُ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اَلْعَزِيزِ : مَنْ لَمْ يَعُدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ كَثُرَتْ خَطَايَاهُ . وَقَالَ بَعْضُ اَلْحُكَمَاءِ : عَقْلُ اَلْمَرْءِ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَقَالَ بَعْضُ اَلْبُلَغَاءِ : اَحْبِسْ لِسَانَكَ قَبْلَ اَنْ يُطِيلَ حَبْسَكَ اَوْ يُتْلِفَ نَفْسَكَ فَلَا شَيْءَ اَوْلَى بِطُولِ حَبْسٍ مِنْ لِسَانٍ يُقْصِرُ عَنِ اَلصَّوَابِ وَيُسْرِعُ اِلَى اَلْجَوَابِ . وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ اَلطَّائِيُّ :

وَمِمَّا كَانَتِ ٱلْحُكَمَاءُ قَالَتْ لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مِنْ تَبَعِ ٱلْفُؤَادِ

وَكَانَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ يَحْسِمُ ٱلرُّخْصَةَ فِي ٱلْكَلَامِ وَيَقُولُ: إِذَا جَالَسْتَ ٱلْجُهَّالَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ وَإِذَا جَالَسْتَ ٱلْعُلَمَاءَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ. فَإِنَّ فِي إِنْصَاتِكَ لِلْجُهَّالِ زِيَادَةً فِي ٱلْحِلْمِ وَفِي إِنْصَاتِكَ لِلْعُلَمَاءِ زِيَادَةً فِي ٱلْعِلْمِ. وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) فَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ بِٱلْكَلَامِ فِي مَوْضِعِهِ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ فِي غَيْرِ حِينِهِ لَا يَقَعُ مَوْقِعَ ٱلِٱنْتِفَاعِ بِهِ وَمَا لَا يَنْفَعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِأَنَّهُ هَذَيَانٌ وَهُجْرٌ. فَإِنْ قَدَّمَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّأْخِيرَ كَانَ عَجَلَةً وَخُرْقًا. وَإِنْ أَخَّرَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّقْدِيمَ كَانَ تَوَانِيًا وَعَجْزًا لِأَنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ قَوْلًا وَفِي كُلِّ زَمَانٍ عَمَلًا. وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

يَضَعُ ٱلْحَدِيثَ عَلَى مَوَاضِعِهِ وَكَلَامُهُ مِنْ بَعْدِهَا نَزْرُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ. فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِنْ لَمْ يَنْحَصِرْ بِٱلْحَاجَةِ وَلَمْ يُقَدَّرْ بِٱلْكِفَايَةِ لَمْ يَكُنْ لِحَدِّهِ غَايَةٌ وَلَا لِقَدْرِهِ نِهَايَةٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُورًا كَانَ حَصَرًا وَإِنْ قَصُرَ وَهَذَرًا وَإِنْ كَثُرَ. وَرُوِيَ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا تَكَلَّمَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ وَطَوَّلَ فَقَالَ لَهُ: كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ. قَالَ: شَفَتَايَ وَلِسَانِي. قَالَ: فَإِنَّ ٱللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ يَكْرَهُ ٱلِٱنْبِعَاقَ فِي ٱلْكَلَامِ فَنَضَّرَ ٱللّٰهُ وَجْهَ ٱمْرِئٍ أَوْجَزَ فِي كَلَامِهِ فَٱقْتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ. وَحُكِيَ أَنَّ بَعْضَ ٱلْحُكَمَاءِ رَأَى رَجُلًا يُكْثِرُ ٱلْكَلَامَ وَيُقِلُّ ٱلسُّكُوتَ فَقَالَ: إِنَّ ٱللّٰهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ لَكَ أُذُنَيْنِ وَلِسَانًا وَاحِدًا لِيَكُونَ مَا تَسْمَعُهُ ضِعْفَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ

كَثُرَتْ آثَامُهُ . وَقَالَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ : أُنذِرُكُم فُضُولَ ٱلْمَنطِقِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : كَلَامُ ٱلْمَرْءِ بَيَانُ فَضْلِهِ وَتَرْجُمَانُ عَقْلِهِ فَٱقْصِرْهُ عَلَى ٱلْجَمِيلِ وَٱقْتَصِرْ مِنْهُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَإِيَّاكَ مَا يُسْخِطُ سُلْطَانَكَ وَيُوحِشُ إِخْوَانَكَ . فَمَنْ أَسْخَطَ سُلْطَانَهُ تَعَرَّضَ لِلْمَنِيَّةِ . وَمَنْ أَوْحَشَ إِخْوَانَهُ تَبَرَّأَ مِنَ ٱلْحُرِّيَّةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَزِنِ ٱلْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا ۞ يُبْدِي عُيُوبَ ذَوِي ٱلْعُيُوبِ ٱلْمَنطِقُ

وَلِمُخَالَفَةِ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ حَالَتَانِ : تَقْصِيرٌ يَكُونُ حَصَرًا وَتَكْثِيرٌ يَكُونُ هَذَرًا . وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَشَيْنُ ٱلْهَذَرِ أَشْنَعُ وَرُبَّمَا كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ أَخْوَفَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : مَقْتَلُ ٱلرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱلْحَصَرُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْهَذَرِ لِأَنَّ ٱلْحَصَرَ يُضْعِفُ ٱلْحُجَّةَ وَٱلْهَذَرَ يُتْلِفُ ٱلْمُهْجَةَ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

رَأَيْتُ ٱللِّسَانَ عَلَى أَهْلِهِ ۞ إِذَا سَاسَهُ ٱلْجَهْلُ لَيْثًا مُغِيرَا

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : يَا رُبَّ أَلْسِنَةٍ كَٱلسُّيُوفِ تَقْطَعُ أَعْنَاقَ أَصْحَابِهَا وَمَا يَنْقُصُ مِنْ هَيْئَاتِ ٱلرِّجَالِ يَزِيدُ فِي بَهَائِهَا وَأَلْبَابِهَا . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَعَوَّدُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَقَدْ ذُمَّ ٱلْكَلَامُ فِي مَجْلِسِهِ : كَلَّا إِنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَسْكُتَ فَيُحْسِنَ وَلَيْسَ مَنْ سَكَتَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ فَيُحْسِنَ . وَوَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَاتِبَ فَقَالَ : مَنْ إِذَا أَخَذَ شِبْرًا كَفَاهُ وَإِذَا وَجَدَ طُومَارًا

اَمْلَاهُ . وَاَنْشَدَ بَعْضُهُمْ فِي خُطَبَاءِ اِيَادٍ :

يَرْمُونَ بِالْخُطَبِ الطِّوَالِ وَتَارَةً وَحْيَ الْمَلَاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَبَاءِ

وَقَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ صَالِحٍ لِابْنِهِ : يَا بُنَيَّ اِذَا اَقْلَلْتَ مِنَ الْكَلَامِ اَكْثَرْتَ مِنَ الصَّوَابِ . فَقَالَ : يَا اَبَتِ فَاِنْ اَنَا اَكْثَرْتُ وَاَكْثَرْتُ (يَعْنِي كَلَامًا وَصَوَابًا) . فَقَالَ : يَا بُنَيَّ مَا رَاَيْتُ مَوْعُوظًا اَحَقَّ بِاَنْ يَكُونَ وَاعِظًا مِنْكَ . وَاَنْشَدتُّ لِاَبِي الْفَتْحِ الْبُسْتِيِّ :

تَكَلَّمْ وَسَدِّدْ مَا اسْتَطَعْتَ فَاِنَّمَا كَلَامُكَ حَيٌّ وَالسُّكُوتُ جَمَادُ

فَاِنْ لَمْ تَجِدْ قَوْلًا سَدِيدًا تَقُولُهُ فَصَمْتُكَ عَنْ غَيْرِ السَّدَادِ سَدَادُ

وَقِيلَ لِاِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ : مَا فِيكَ عَيْبٌ اِلَّا كَثْرَةُ الْكَلَامِ . فَقَالَ : اَفَتَسْمَعُونَ صَوَابًا اَوْ خَطَأً . قَالُوا : لَا بَلْ صَوَابًا . قَالَ : فَالزِّيَادَةُ مِنَ الْخَيْرِ خَيْرٌ . وَقَالَ اَبُو عُثْمَانَ الْجَاحِظُ : لِلْكَلَامِ غَايَةٌ وَلِنَشَاطِ السَّامِعِينَ نِهَايَةٌ وَمَا فَضَلَ عَنْ مِقْدَارِ الِاحْتِمَالِ وَدَعَا اِلَى الِاسْتِثْقَالِ وَالْمَلَالِ فَذٰلِكَ الْفَاضِلُ هُوَ الْهَذَرُ . وَصَدَقَ اَبُو عُثْمَانَ لِاَنَّ الْاِكْثَارَ مِنْهُ وَاِنْ كَانَ صَوَابًا يُمِلُّ السَّامِعَ وَيُكِلُّ الْخَاطِرَ وَهُوَ صَادِرٌ عَنْ اِعْجَابٍ بِهِ لَوْلَاهُ قَصَّرَ عَنْهُ . وَمَنْ اُعْجِبَ بِكَلَامِهِ اسْتَرْسَلَ فِيهِ وَالْمُسْتَرْسِلُ فِي الْكَلَامِ كَثِيرُ الزَّلَلِ دَائِمُ الْعِثَارِ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : مَنْ اَعْجَبَ بِقَوْلِهِ اُصِيبَ بِعَقْلِهِ وَلَيْسَ لِكَثْرَةِ الْهَذَرِ رَجَاءٌ يُقَابِلُ خَوْفَهُ وَلَا نَفْعٌ يُوَازِي ضَرَّهُ لِاَنَّهُ يَخَافُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّلَلَ وَمِنْ سَامِعِيهِ الْمَلَلَ وَلَيْسَ فِي مُقَابَلَةِ هٰذَيْنِ حَاجَةٌ دَاعِيَةٌ وَلَا نَفْعٌ مَرْجُوٌّ . قَالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى : اِذَا كَانَ الْاِيجَازُ كَافِيًا كَانَ الْاِكْثَارُ عِيًّا وَاِنْ

كَانَ ٱلْاِكْثَارُ وَاجِبًا كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ عَجْزًا. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ: اِذَا تَمَّ ٱلعَقْلُ نَقَصَ ٱلْكَلَامُ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْاُدَبَاءِ: مَنْ اَطَالَ صَمْتَهُ ٱجْتَلَبَ مِنَ ٱلْهَيْبَةِ مَا يَنْفَعُهُ وَمِنَ ٱلْوَحْشَةِ مَا لَا يَضُرُّهُ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: عِيٌّ تَسْلَمُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ مَنْطِقٍ تَنْدَمُ عَلَيْهِ فَٱقْتَصِرْ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى مَا يُقِيمُ حُجَّتَكَ وَيَبْلُغُ حَاجَتَكَ وَاِيَّاكَ وَفُضُولَهُ فَاِنَّهُ يُزِلُّ ٱلْقَدَمَ وَيُورِثُ ٱلنَّدَمَ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْفُصَحَاءِ: فَمُ ٱلْعَاقِلِ مُلْجَمٌ اِذَا هَمَّ بِٱلْكَلَامِ اَحْجَمَ وَفَمُ ٱلْجَاهِلِ مُطْلَقٌ كُلَّمَا شَاءَ اَطْلَقَ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

اِنَّ ٱلْكَلَامَ يُعِدُّ ٱلْقَوْمُ جَلْوَتَهُ ۝ حَتَّى يَلِجَّ بِهِ عِيٌّ وَاِكْثَارُ

وَامَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) وَهُوَ ٱخْتِيَارُ ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ فَلِاَنَّ ٱللِّسَانَ عُنْوَانُ ٱلْاِنْسَانِ يُتَرْجِمُ عَنْ مَجْهُولِهِ وَيُبَرْهِنُ عَنْ مَحْصُولِهِ فَيَلْزَمُ اَنْ يَكُونَ بِتَهْذِيبِ اَلْفَاظِهِ حَرِيًّا وَتَقْوِيمِ لِسَانِهِ مَلِيًّا. وَقَالَ خَالِدُ ٱبْنُ صَفْوَانَ: مَا ٱلْاِنْسَانُ لَوْلَا ٱللِّسَانُ هَلْ اِلَّا بَهِيمَةٌ مُهْمَلَةٌ اَوْ صُورَةٌ مُمَثَّلَةٌ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: ٱللِّسَانُ وَزِيرُ ٱلْاِنْسَانِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: يُسْتَدَلُّ عَلَى عَقْلِ ٱلرَّجُلِ بِقَوْلِهِ وَعَلَى اَصْلِهِ بِفِعْلِهِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

وَاِنَّ لِسَانَ ٱلْمَرْءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ ۝ حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ

وَلَيْسَ يَصِحُّ ٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ اِلَّا لِمَنْ اَخَذَ نَفْسَهُ بِٱلْبَلَاغَةِ وَكَلَّفَهَا لُزُومَ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى يَصِيرَ مُتَدَرِّبًا بِهَا مُعْتَادًا لَهَا فَلَا يَأْتِي بِكَلَامٍ مُسْتَكْرَهِ ٱللَّفْظِ وَلَا مُخْتَلِّ ٱلْمَعْنَى لِاَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ عَلَى مَعَانٍ

مُفرَدةٍ وَلا لِألفَاظِها غايةٌ . وَإنَّمَا ٱلبَلاغَةُ ان تكُونَ بِٱلمَعانِي ٱلصَّحِيحَةِ مُستَودَعَةً فِي الفاظٍ فَصِيحَةٍ فَتكُونُ فَصاحَةُ ٱلالفَاظِ مَعَ صِحَّةِ ٱلمَعانِي هِيَ ٱلبَلاغَةَ

البحث السابع

في عيوب الكلام

(عن الجاحظ والعسكري)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

قَالَ بَعضُ ٱلاوائِلِ : لَا تَكمُلُ آلَةُ ٱلبليغِ إِلَّا إِذا خَلا كَلامُهُ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَسُوءِ ٱلصَّنعَةِ وَكانَ غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأمُّلِ مُتَبَاعِدًا عَنِ ٱلحَشوِ . فَقَولُهُ : (يَكُونُ سَلِيمًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ) فَٱلتَّكَلُّفُ طَلَبُ ٱلشَّيْءِ بِصُعُوبَةٍ لِلجَهلِ بِطَرائقِ طَلَبِهِ بِٱلسُّهُولَةِ . فَٱلكَلامُ اذا جُمِعَ بِتَعَبٍ وَجُهدٍ وَتُنُوِّلَتْ ألفَاظُهُ مِن بُعدٍ فَهُوَ مُتَكَلَّفٌ . وَقَالُوا : لَيسَ ٱلفِقهُ بِٱلتَّفَقُّهِ وَلَا ٱلفَصَاحَةُ بِٱلتَّفَصُّحِ لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ مُتَزَيِّدٌ فِي كَلامِهِ إِلَّا لِنَقصٍ يَجِدُهُ فِي نَفسِهِ . وَمِمَّا ٱتَّفَقَت عَلَيهِ ٱلعَرَبُ وَٱلعَجَمُ قَولُهُم : ٱلطَّبعُ أَملَكُ . قَالَ ٱلعَرجِيُّ :

يَا أَيُّهَا ٱلمُتَحَلِّي غَيرَ شِيمَتِهِ ... وَمَن شَمَائِلُهُ ٱلتَّبدِيلُ وَٱلمَلَقُ

ارجِع إِلَى خُلقِكَ ٱلمَعرُوفِ دَيدَنُهُ ... إِنَّ ٱلتَّخَلُّقَ يَأتِي دُونَهُ ٱلخُلُقُ

وَقَالَ آخَرُ :

وَمَن يَبتَدِع مَا لَيسَ مِن سُوسِ نَفسِهِ ... يَدَعهُ وَيَغلِبهُ عَلَى ٱلنَّفسِ خِيمُهَا

وَقَالَ آخَرُ :

كُلُّ امْرِئٍ رَاجِعٌ يَوْماً لِشِيمَتِهِ وَإِنْ تَخَلَّقَ أَخْلَاقاً إِلَى حِينِ

وَمِثَالُ ٱلتَّكَلُّفِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي دُعَائِهِ : ٱللَّهُمَّ رَبَّنَا وَإِلٰهَنَا مَنْ أَرَادَ بِنَا سُوءًا فَأَحِطْ ذٰلِكَ ٱلسُّوءَ بِهِ وَأَرْسِخْهُ فِيهِ كَرُسُوخِ ٱلسِّجِّيلِ فِي أَصْحَابِ ٱلْفِيلِ . وَٱنْصُرْنَا عَلَى كُلِّ بَاغٍ وَحَسُودٍ كَمَا ٱنْتَصَرْتَ لِنَاقَةِ ثَمُودٍ . ثُمَّ قَالَ : (بَرِيئاً مِنْ سُوءِ ٱلصَّنْعَةِ) فَسُوءُ ٱلصَّنْعَةِ يَتَصَرَّفُ عَلَى وُجُوهٍ مِنْهَا : سُوءُ ٱلتَّقْسِيمِ وَفَسَادُ ٱلتَّفْسِيرِ وَقُبْحُ ٱلِاسْتِعَارَةِ وَٱلتَّطْبِيقِ وَفَسَادُ ٱلنَّسْجِ وَٱلسَّبْكِ . فَإِذَا أَخَلَّ ٱلْكَاتِبُ بِذٰلِكَ فَاتَتْهُ فَضِيلَتُهُ وَعَلِقَتْ بِهِ رَذِيلَةُ فَوْتِهِ فَعَفَّى عَلَى جَمِيعِ مَحَاسِنِهِ وَعَمَّى سَائِرَ فَضَائِلِهِ . لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ كَلَامٍ جَيِّدٍ وَآخَرَ رَدِيءٍ وَلَفْظٍ حَسَنٍ وَآخَرَ قَبِيحٍ وَشِعْرٍ نَادِرٍ وَآخَرَ بَارِدٍ بَانَ جَهْلُهُ وَظَهَرَ نَقْصُهُ . وَهُوَ أَيْضاً إِذَا أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ قَصِيدَةً أَوْ يُنْشِئَ رِسَالَةً وَقَدْ فَاتَهُ هٰذَا ٱلْعِلْمُ مَزَجَ ٱلصَّفْوَ بِٱلْكَدَرِ وَخَلَطَ ٱلْغُرَرَ بِٱلْعُرَرِ وَٱسْتَعْمَلَ ٱلْوَحْشِيَّ ٱلْعَكِرَ فَجَعَلَ نَفْسَهُ مَهْزَأَةً لِلْجَاهِلِ وَعِبْرَةً لِلْعَاقِلِ . وَإِذَا أَرَادَ أَيْضاً تَصْنِيفَ كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَوْ تَأْلِيفَ شِعْرٍ مَنْظُومٍ وَتَخَطَّى حُسْنَ ٱلصَّنْعَةِ سَاءَ ٱخْتِيَارُهُ لَهُ وَقَبُحَتْ آثَارُهُ فِيهِ فَأَخَذَ ٱلرَّدِيءَ ٱلْمَرْذُولَ وَتَرَكَ ٱلْجَيِّدَ ٱلْمَقْبُولَ فَدَلَّ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ . وَقَدْ قِيلَ : ٱخْتِيَارُ ٱلرَّجُلِ قِطْعَةٌ مِنْ عِلْمِهِ . وَمَا أَكْثَرَ مَا وَقَعَ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فِي هٰذِهِ ٱلرَّذِيلَةِ .

وَقَوْلُهُ : (بَرِيئاً مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ) فَٱلتَّعْقِيدُ وَٱلْإِغْلَاقُ سَوَاءٌ وَهُوَ ٱسْتِعْمَالُ ٱلْوَحْشِيِّ وَشِدَّةُ تَعْلِيقِ ٱلْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ حَتَّى يَشْتَبِهَ ٱلْمَعْنَى .

قَالَ حَبِيبٌ ٱلطَّائِيُّ :

فَمَا لَكَ بِٱلْغَرِيبِ يَدٌ وَلٰكِنْ تَعَاطِيكَ ٱلْغَرِيبَ مِنَ ٱلْغَرِيبِ
أَمَا لَوْ أَنَّ جَهْلَكَ عَادَ عِلْمًا إِذًا لَرَسَخْتَ فِي عِلْمِ ٱلْغُيُوبِ

قَالَ آخَرُ يَمْدَحُ رَجُلًا بِٱسْتِسْهَالِ ٱللَّفْظِ :

قَوْلٌ كَأَنَّ فِرِنْدَهُ سَحْرٌ عَلَى ذِهْنِ ٱللَّبِيبِ
لَمْ يَشْمَئِزَّ عَلَى ٱللِّسَا نِ وَلَا يَشِذُّ عَلَى ٱلْقُلُوبِ
لَمْ يَغْلُ فِي شَنِعِ ٱللُّغَا تِ وَلَا يُوَحِّشُ بِٱلْغَرِيبِ

وَقَوْلُهُ : (غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأَمُّلِ) أَيْ هُوَ مُسْتَغْنٍ لِوُضُوحِهِ عَنْ تَأَمُّلِ مَعَانِيهِ وَتَرْدِيدِ ٱلنَّظَرِ فِيهِ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : إِنَّ مَنْ أَعَارَهُ ٱللّٰهُ مِنْ مَعُونَتِهِ نَصِيبًا وَأَفْرَغَ عَلَيْهِ مِنْ مَحَبَّتِهِ ذَنُوبًا حَبَّبَ إِلَيْهِ ٱلْمَعَانِي وَسَلَّسَ لَهُ نِظَامَ ٱللَّفْظِ وَكَانَ قَبْلُ قَدْ أَعْفَى ٱلْمُسْتَمِعَ مِنْ كَدِّ ٱلتَّلَطُّفِ وَأَرَاحَ قَارِىءَ ٱلْكِتَابِ مِنْ كَدِّ ٱلتَّفَهُّمِ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَقُرْبُ ٱلْمَأْخَذِ وَإِيجَازٌ فِي صَوَابٍ وَقَصْدٌ إِلَى ٱلْحُجَّةِ وَحُسْنُ ٱلِٱسْتِعَارَةِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ : ٱلْبَلَاغَةُ تَقْرِيبُ مَا بَعُدَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ بِأَيْسَرِ ٱلْخِطَابِ وَٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ . وَهُوَ أَنْ يَعْمِدَ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱللَّطِيفِ فَيَكْشِفَهُ وَيَنْفِيَ ٱلشَّوَاغِلَ عَنْهُ فَيَفْهَمَهُ ٱلسَّامِعُ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ فِيهِ وَتَدَبُّرٍ لَهُ . وَقَوْلُهُ : (مُتَبَاعِدًا مِنَ ٱلْحَشْوِ) فَٱلْحَشْوُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ : ٱثْنَانِ مِنْهَا مَذْمُومَانِ وَوَاحِدٌ مَحْمُودٌ . فَأَحَدُ ٱلْمَذْمُومَيْنِ هُوَ : إِدْخَالُكَ فِي ٱلْكَلَامِ لَفْظًا لَوْ أَسْقَطْتَهُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ تَامًّا . مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

أَعِنِّي فَتًى لَمْ تَذُرَّ الشَّمْسُ طَالِعَةً يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا ضَرَّ أَوْ نَفَعَا

قَوْلُهُ : (يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ) حَشْوٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِأَنَّ الشَّمْسَ لَا تَطْلُعُ لَيْلًا . وَالضَّرْبُ الْآخَرُ الْعِبَارَةُ عَنِ الْمَعْنَى بِكَلَامٍ طَوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِي طُولِهِ وَيُمْكِنُ أَنْ يُعَبَّرَ بِأَقْصَرَ مِنْهُ كَقَوْلِ النَّابِغَةِ :

تَبَيَّنْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لِسِتَّةِ أَعْوَامٍ وَذَا الْعَامُ سَابِعُ

فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ : لِسَبْعَةِ أَعْوَامٍ . وَيُتِمَّ الْبَيْتَ بِكَلَامٍ آخَرَ يَكُونُ فِيهِ فَائِدَةٌ فَعَجَزَ عَنْ ذٰلِكَ فَحَشَا الْبَيْتَ بِمَا لَا وَجْهَ لَهُ . وَأَمَّا الضَّرْبُ الْمَحْمُودُ فَكَقَوْلِ كُثَيِّرٍ :

لَوْ أَنَّ الْبَاخِلِينَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ رَأَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ الْمِطَالَا

قَوْلُهُ : (وَأَنْتَ مِنْهُمْ) حَشْوٌ إِلَّا أَنَّهُ مَلِيحٌ وَيُسَمِّي أَهْلُ الصَّنْعَةِ هٰذَا الْجِنْسَ اعْتِرَاضَ كَلَامٍ فِي كَلَامٍ . وَمِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ :

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتَهَا قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانْ

البحث الثامن

في الالتباس والاسباب المانعة من فهم المعاني

(عن الماوردي باختصار)

إِنْ لَمْ يَفْهَمِ الْعَاقِلُ مَعَانِيَ مَا سَمِعَ كَشَفَ عَنِ السَّبَبِ الْمَانِعِ مِنْهَا لِيَعْلَمَ الْعِلَّةَ فِي تَعَذُّرِ فَهْمِهَا فَإِنَّ بِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ الْأَشْيَاءِ وَعِلَلِهَا يَصِلُ إِلَى تَلَافِي مَا شَذَّ وَصَلَاحِ مَا فَسَدَ وَلَيْسَ يَخْلُو السَّبَبُ الْمَانِعُ مِنْ ذٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِعِلَّةٍ فِي الْكَلَامِ

ٱلْمُتَرْجِمِ عَنْهَا. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلْمُسْتَوْدَعِ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلسَّامِعِ ٱلْمُسْتَخْرِجِ . فَإِنْ كَانَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ مِنْ فَهْمِهَا لِعِلَّةٍ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَرْجِمِ عَنْهَا لَمْ يَخْلُ ذٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ: (أَحَدُهَا) أَنْ يَكُونَ لِتَقْصِيرِ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَصِيرَ تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى سَبَبًا مَانِعًا مِنْ فَهْمِ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ: إِمَّا مِنْ حَصَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَعِيِّهِ. وَإِمَّا مِنْ بَلَادَتِهِ وَقِلَّةِ فَهْمِهِ . (ٱلْحَالُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ لِزِيَادَةِ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتَصِيرَ ٱلزِّيَادَةُ عِلَّةً مَانِعَةً مِنْ فَهْمِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ وَهٰذَا قَدْ يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ : إِمَّا مِنْ هَذَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَإِكْثَارِهِ . وَإِمَّا لِسُوءِ ظَنِّهِ بِفَهْمِ سَامِعِهِ . (وَٱلْحَالُ ٱلثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ لِمُوَاضَعَةٍ يَقْصِدُهَا ٱلْمُتَكَلِّمُ بِكَلَامِهِ فَإِذَا لَمْ يَعْرِفْهَا ٱلسَّامِعُ لَمْ يَفْهَمْ مَعَانِيَهَا . وَأَمَّا تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ وَزِيَادَتُهُ فَمِنَ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْخَاصَّةِ دُونَ ٱلْعَامَّةِ لِأَنَّكَ لَسْتَ تَجِدُ ذٰلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ ٱلْكَلَامِ وَإِنَّمَا تَجِدُهُ فِي بَعْضِهِ فَإِذَا عَدَلْتَ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُقَصِّرِ إِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَوْفِي وَعَنِ ٱلزَّائِدِ إِلَى ٱلْكَافِي أَرَحْتَ نَفْسَكَ مِنْ تَكَلُّفِ مَا يَكُدُّ خَاطِرَكَ وَإِنْ أَقَمْتَ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِهِ إِمَّا لِضَرُورَةٍ دَعَتْكَ إِلَيْهِ عِنْدَ إِعْوَازِ غَيْرِهِ أَوْ لِحَمِيَّةٍ دَاخَلَتْكَ عِنْدَ تَعَذُّرِ فَهْمِهِ فَٱنْظُرْ فِي سَبَبِ ٱلزِّيَادَةِ وَٱلتَّقْصِيرِ . فَإِنْ كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ لِحَصَرٍ وَٱلزِّيَادَةُ لِهَذَرٍ سَهُلَ عَلَيْكَ ٱسْتِخْرَاجُ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَا لَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُولٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ٱلْمُخْتَلُّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنَ ٱلصَّحِيحِ وَفِي ٱلْأَكْثَرِ عَلَى ٱلْأَقَلِّ دَلِيلٌ . وَإِنْ كَانَتْ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى

دَلِيلًا بِسُوءِ ظَنِّ ٱلْمُتَكَلِّمِ بِفَهْمِ ٱلسَّامِعِ كَانَ ٱسْتِخْرَاجُهُ أَسْهَلَ . وَإِنْ كَانَ تَقْصِيرًا لِلَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِسُوءِ فَهْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَهُوَ أَصْعَبُ ٱلْأُمُورِ حَالًا وَأَبْعَدُهَا ٱسْتِخْرَاجًا لِأَنَّ مَا لَمْ يَفْهَمْهُ مُكَلِّمُكَ فَأَنْتَ مِنْ فَهْمِهِ أَبْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِفَرْطِ ذَكَائِكَ وَجُودَةِ خَاطِرِكَ تَتَنَبَّهُ بِإِشَارَتِهِ عَلَى ٱلِٱسْتِنْبَاطِ مَا عَجَزَ عَنْهُ وَٱسْتِخْرَاجِ مَا قَصَّرَ فِيهِ فَتَكُونُ فَضِيلَةُ ٱلِٱسْتِيفَاءِ لَكَ وَحَقُّ ٱلتَّقَدُّمِ لَهُ . وَأَمَّا ٱلْمُوَاضَعَةُ فَضَرْبَانِ : عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ . (أَمَّا ٱلْعَامَّةُ) فَهِيَ مُوَاضَعَةُ ٱلْعُلَمَاءِ فِيمَا جَعَلُوهُ أَلْقَابًا لِمَعَانٍ لَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُتَعَلِّمُ عَنْهَا وَلَا يَقِفُ عَلَى مَعْنَى كَلَامِهِمْ إِلَّا بِهَا كَمَا جَعَلَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ ٱلْجَوَاهِرَ وَٱلْأَعْرَاضَ وَٱلْأَجْسَامَ أَلْقَابًا تَوَاضَعُوهَا لِمَعَانٍ ٱتَّفَقُوا عَلَيْهَا . وَلَسْتَ تَجِدُ مِنَ ٱلْعُلُومِ عِلْمًا يَخْلُو مِنْ هٰذَا . وَهٰذِهِ ٱلْمُوَاضَعَةُ ٱلْعَامَّةُ تُسَمَّى عُرْفًا . (وَأَمَّا ٱلْخَاصَّةُ) فَمُوَاضَعَةُ ٱلْوَاحِدِ يَقْصِدُ بِبَاطِنِ كَلَامِهِ غَيْرَ ظَاهِرِهِ . فَإِذَا كَانَتْ فِي ٱلْكَلَامِ كَانَتْ رَمْزًا . وَإِنْ كَانَتْ فِي ٱلشِّعْرِ كَانَتْ لُغْزًا . فَأَمَّا ٱلرَّمْزُ فَلَسْتَ تَجِدُهُ فِي عِلْمٍ مَعْنَوِيٍّ . وَلَا فِي كَلَامٍ لُغَوِيٍّ . وَإِنَّمَا يَخْتَصُّ غَالِبًا بِأَحَدِ شَيْئَيْنِ : إِمَّا بِمَذْهَبٍ شَنِيعٍ يُخْفِيهِ مُعْتَقِدُهُ وَيَجْعَلُ ٱلرَّمْزَ سَبَبًا لِتَطَلُّعِ ٱلنُّفُوسِ إِلَيْهِ وَٱحْتِمَالَ ٱلتَّأْوِيلِ فِيهِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلتُّهْمَةِ عَنْهُ . وَإِمَّا لِمَا يَدَّعِي أَرْبَابُهُ أَنَّهُ عِلْمٌ مُعْوِزٌ . وَأَنَّ إِدْرَاكَهُ بَدِيعٌ مُعْجِزٌ كَٱلصَّنْعَةِ ٱلَّتِي وَضَعَهَا أَرْبَابُهَا ٱسْمًا لِعِلْمِ ٱلْكِيمِيَاءِ فَرَمَزُوا بِأَوْصَافِهِ وَأَخْفَوْا مَعَانِيَهُ لِيُوهِمُوا ٱلشُّحَّ بِهِ وَٱلْأَسَفَ عَلَيْهِ خَدِيعَةً لِلْعُقُولِ ٱلْوَاهِيَةِ وَٱلْآرَاءِ ٱلْفَاسِدَةِ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا ⁂ مُنِعَتْ شَيْئًا فَأَكْثَرْتُ ٱلْوُلُوعَ بِهِ

ثُمَّ لِيَكُونُوا بُرَاءَ مِنْ عُهْدَةِ مَا قَالُوهُ إِذَا جُرِّبَ وَلَوْ كَانَ مَا تَضَمَّنَ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ وَأَشْبَاهَهُمَا مِنَ ٱلرُّمُوزِ مَعْنًى صَحِيحًا وَعِلْمًا مُسْتَفَادًا لَخَرَجَ مِنَ ٱلرَّمْزِ ٱلْخَفِيِّ إِلَى ٱلْعِلْمِ ٱلْجَلِيِّ. فَإِنَّ أَغْرَاضَ ٱلنَّاسِ مَعَ ٱخْتِلَافِ أَهْوَائِهِمْ لَا تَتَّفِقُ عَلَى سَتْرِ سَلِيمٍ وَإِخْفَاءِ مُفِيدٍ. وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ:

ٱلسِّتْرُ دُونَ ٱلْفَاحِشَاتِ وَلَا ⁂ يَلْقَاكَ دُونَ ٱلْخَيْرِ مِنْ سِتْرِ

وَرُبَّمَا ٱسْتُعْمِلَ ٱلرَّمْزُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِيمَا يُرَادُ تَفْخِيمُهُ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَتَعْظِيمُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ لِيَكُونَ أَحْلَى فِي ٱلْقَلْبِ مَوْقِعًا. وَأَجَلَّ فِي ٱلنُّفُوسِ مَوْضِعًا. فَيَصِيرَ بِٱلرَّمْزِ سَائِرًا وَفِي ٱلصُّحُفِ مُخَلَّدًا. كَٱلَّذِي حُكِيَ عَنْ فِيثَاغُورِسَ فِي وَصَايَاهُ ٱلْمَرْمُوزَةِ أَنَّهُ قَالَ: ٱحْفَظْ مِيزَانَكَ مِنَ ٱلْبَذَى وَأَوْزَانَكَ مِنَ ٱلصَّدَى. يُرِيدُ بِحِفْظِ ٱلْمِيزَانِ مِنَ ٱلْبَذَى حِفْظَ ٱللِّسَانِ مِنَ ٱلْخَنَا وَبِحِفْظِ ٱلْأَوْزَانِ مِنَ ٱلصَّدَى حِفْظَ ٱلْعَقْلِ مِنَ ٱلْهَوَى. فَصَارَ بِهٰذَا ٱلرَّمْزِ مُسْتَحْسَنًا وَمُدَوَّنًا وَلَوْ قَالَهُ بِٱللَّفْظِ ٱلصَّرِيحِ وَٱلْمَعْنَى ٱلصَّحِيحِ لَمَا سَارَ عَنْهُ وَلَا ٱسْتُحْسِنَ مِنْهُ. وَعِلَّةُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَحْجُوبَ عَنِ ٱلْأَفْهَامِ كَٱلْمَحْجُوبِ عَنِ ٱلْأَبْصَارِ فِيمَا يَحْصُلُ لَهُ فِي ٱلنُّفُوسِ مِنَ ٱلتَّعْظِيمِ. وَفِي ٱلْقُلُوبِ مِنَ ٱلتَّفْخِيمِ. وَمَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَمْ يَحْتَجِبْ هَانَ وَٱسْتُرْذِلَ. وَهٰذَا إِنَّمَا يَصِحُّ ٱسْتِحْلَاؤُهُ فِيمَا قَلَّ وَهُوَ بِٱللَّفْظِ ٱلصَّرِيحِ مُسْتَقِلٌّ. فَأَمَّا ٱلْعُلُومُ ٱلْمُنْتَشِرَةُ ٱلَّتِي تَتَطَلَّعُ ٱلنُّفُوسُ إِلَيْهَا فَقَدِ ٱسْتَغْنَتْ بِقُوَّةِ ٱلْبَاعِثِ عَلَيْهَا. وَشِدَّةِ ٱلدَّاعِي إِلَيْهَا. عَنِ ٱلِٱسْتِدْعَاءِ إِلَيْهَا بِرَمْزٍ مُسْتَحْلًى وَلَفْظٍ مُسْتَغْرَبٍ. بَلْ ذٰلِكَ يُنَفِّرُ لِمَا فِي ٱلتَّشَاغُلِ بِٱسْتِخْرَاجِ

رُمُوزِهَا مِنَ ٱلْإِبْطَاءِ عَنْ دَرْكِهَا فَهَـذَا حَالُ ٱلرَّمْزِ . وَامَّا ٱللُّغْزُ فَهُوَ تَحَرِّي اَهْلِ ٱلْفَرَاغِ وَشُغْلُ ذَوِي ٱلْبَطَالَةِ لِيَتَنَافَسُوا فِي تَبَايُنِ قَرَائِحِهِمْ وَيَتَفَاخَرُوا فِي سُرْعَةِ خَوَاطِرِهِمْ فَيَسْتَكِدُّوا خَوَاطِرَ قَدْ مُنِحُوا صِحَّتَهَا فِيمَا لَا يُجْدِي نَفْعًا وَلَا يُفِيدُ عِلْمًا كَاَهْلِ ٱلصِّرَاعِ ٱلَّذِينَ قَدْ صَرَفُوا مَا مُنِحُوهُ مِنْ صِحَّةِ اَجْسَامِهِمْ اِلَى صِرَاعٍ كَدُودٍ يَصْرَعُ عُقُولَهُمْ وَيَهُدُّ اَجْسَامَهُمْ وَلَا يُكْسِبُهُمْ حَمْدًا وَلَا يُجْدِي عَلَيْهِمْ نَفْعًا . اُنْظُرْ اِلَى قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رَجُلٌ مَاتَ وَخَلَّفَ رَجُـلًا ... اَبْنَ اُمِّ اَبْنِ اَبِي اُخْتِ اَبِيهِ

مَعَـهُ اُمُّ بَنِي اَوْلَادِهِ ... وَاَبَا اُخْتِ بَنِي عَمِّ اَخِيهِ

اَخْبِرْنِي عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَـيْنِ وَقَدْ رَوَّعَكَ صُعُوبَةُ مَا تَضَمَّنَهُمَا مِنَ ٱلسُّؤَالِ اِذَا ٱسْتَكْدَدْتَ ٱلْفِكْرَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ فَعَلِمْتَ اَنَّهُ اَرَادَ مَيْتًا خَلَّفَ اَبًا وَزَوْجَةً وَعَمًّا . مَا ٱلَّذِي اَفَادَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَنَفَى عَنْكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . اَلَسْتَ بَعْدَ عِلْمِهِ تَجْهَلُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا مِنْ قَبْلِـهِ وَلَوْ اَنَّ ٱلسَّائِلَ قَلَبَ لَكَ ٱلسُّؤَالَ فَاَخَّرَ مَا قَـدَّمَ وَقَدَّمَ مَا اَخَّرَ لَـكُنْتَ فِي ٱلْجَهْلِ بِهِ قَبْلَ ٱسْتِخْرَاجِهِ كَمَا كُنْتَ فِي ٱلْجَهْـلِ ٱلْاَوَّلِ وَقَدْ كَدَدْتَ نَفْسَكَ وَاَتْعَبْتَ خَاطِرَكَ . ثُمَّ لَا تَعْدَمُ اَنْ يَرِدَ عَلَيْكَ مِثْـلُ هٰذَا مِمَّا تَجْهَلُهُ فَتَـكُونُ فِيهِ كَمَا كُنْتَ قَبْلَهُ . فَٱصْرِفْ نَفْسَكَ تَوَلَّى ٱللّٰهُ رُشْدَكَ عَنْ عُلُومِ ٱلنُّوكَى وَتَـكَلُّفِ ٱلْبَطَّالِينَ . ثُمَّ ٱجْعَلْ مَا مَنَّ ٱللّٰهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ صِحَّةِ ٱلْقَرِيحَةِ وَسُرْعَةِ ٱلْخَاطِرِ مَصْرُوفًا اِلَى عِلْمِ مَا يَكُونُ اِنْفَـاقُ خَاطِرِكَ فِيهِ مَذْخُورًا وَكَدُّ فِـكْرِكَ فِيهِ مَشْكُورًا. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : مَنْ اَمْضَى يَوْمَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ قَضَاهُ . اَوْ فَرْضٍ اَدَّاهُ . اَوْ مَجْدٍ اَثَّلَهُ .

اَوْ حَمْدٍ حَصَّلَهُ . اَوْ خَيْرٍ اَسَّسَهُ اَوْ عِلْمٍ اقْتَبَسَهُ . فَقَدْ عَقَّ يَوْمَهُ وَظَلَمَ نَفْسَهُ . وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ :

لَقَدْ هَاجَ الْفَرَاغُ عَلَيْكَ شُغْلًا ۞ وَاَسْبَابُ الْبَلَاءِ مِنَ الْفَرَاغِ

فَهٰذَا تَعْلِيلُ مَا فِي الْكَلَامِ مِنَ الْاَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ مَعَانِيهِ حَتَّى خَرَجَ بِنَا الْاِسْتِيفَاءُ وَالْكَشْفُ اِلَى الْاِغْمَاضِ . (وَاَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ السَّبَبُ الْمَانِعُ مِنْ فَهْمِ السَّامِعِ لِعِلَّةٍ فِي الْمَعْنَى الْمُسْتَوْدَعِ فَلَا يَخْلُو حَالُ الْمَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ : اِمَّا اَنْ يَكُونَ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ اَوْ يَكُونَ مُقَدِّمَةً لِغَيْرِهِ اَوْ يَكُونَ نَتِيجَةً مِنْ غَيْرِهِ . فَاَمَّا الْمُسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ فَضَرْبَانِ : جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ . فَاَمَّا الْجَلِيُّ فَهُوَ يَسْبِقُ اِلَى فَهْمِ مُتَصَوِّرِهِ مِنْ اَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَلَيْسَ هُوَ مِنْ اَقْسَامِ مَا يُشْكِلُ عَلَى مَنْ تَصَوَّرَهُ . وَاَمَّا الْخَفِيُّ فَيَحْتَاجُ فِي اِدْرَاكِهِ اِلَى زِيَادَةِ تَاَمُّلٍ وَفَضْلِ مُعَانَاةٍ لِيَنْجَلِيَ عَمَّا اَخْفَى وَيَنْكَشِفَ عَمَّا اَغْمَضَ . وَبِاسْتِعْمَالِ الْفِكْرِ فِيهِ يَكُونُ الْاِرْتِيَاضُ بِهِ وَبِالْاِرْتِيَاضِ بِهِ يَسْهُلُ مِنْهُ مَا اسْتَصْعَبَ وَيَقْرُبُ مِنْهُ مَا بَعُدَ . فَاِنَّ لِلرِّيَاضَةِ جَرَاءَةً وَلِلدِّرَايَةِ تَاْثِيرًا . وَاَمَّا مَا كَانَ مُقَدِّمَةً لِغَيْرِهِ فَضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا اَنْ تَقُومَ الْمُقَدِّمَةُ بِنَفْسِهَا وَاِنْ تَعَدَّتْ اِلَى غَيْرِهَا فَتَكُونَ كَالْمُسْتَقِلِّ بِنَفْسِهِ فِي تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ مُسْتَدْعِيًا لِنَتِيجَتِهِ . وَالثَّانِي اَنْ يَكُونَ مُفْتَقِرًا اِلَى نَتِيجَةٍ فَيَتَعَذَّرَ فَهْمُ الْمُقَدِّمَةِ اِلَّا بِمَا يَتْبَعُهَا مِنَ النَّتِيجَةِ لِاَنَّهَا تَكُونُ بَعْضًا . وَتَبْعِيضُ الْمَعْنَى اَشْكَلُ لَهُ وَبَعْضُهُ لَا يُغْنِي عَنْ كُلِّهِ . وَاَمَّا مَا كَانَ نَتِيجَةً لِغَيْرِهِ فَهُوَ لَا يُدْرَكُ اِلَّا بِاَوَّلِهِ وَلَا يُتَصَوَّرُ عَلَى حَقِيقَتِهِ

إلّا بمقدّمته والاشتغال به قبل المقدّمة عناء . وإتعاب الفكر في استنباطه قبل قاعدته أذًى . فهذا يوضح تعليل ما في المعاني من الأسباب المانعة من فهمها . (وأمّا القسم الثالث) وهو أن يكون السبب المانع لعلّة في المستمع فذلك ضربان : أحدهما من ذاته . والثاني من طارٍ عليه . (فأمّا ما كان من ذاته) فيتنوّع نوعين : أحدهما ما كان مانعا من تصوّر المعنى . والثاني ما كان مانعًا من حفظه بعد تصوّره وفهمه . فأمّا ما كان مانعًا من تصوّر المعنى وفهمه فهو البلادة وقلّة الفطنة وهو الداء العياء . وقد قال بعض الحكماء : إذا فقد العالم الذهن قلّ على الأضداد احتجاجه . وكثر إلى الكتب احتياجه . وليس لمن بلي به إلّا الصبر والإقلال . لأنّه على القليل أقدر . وبالصبر أحرى أن ينال ويظفر . وأمّا المانع من حفظه بعد تصوّره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير وإهمال التواني فينبغي لمن بلي به أن يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بإدامة النظر . فقد قيل : لا يدرك العلم من لا يطيل درسه ويكدّ نفسه . وكثرة الدرس كدود لا يصبر عليه إلّا من يرى العلم مغنمًا والجهالة مغرمًا . فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وينفي عنه معرّة الجهل . فإنّ نيل العظيم بأمر عظيم . وعلى قدر الرغبة تكون المطالب وبحسب الراحة يكون التعب . وقد قيل : طلب الراحة قلّة الاستراحة . وقال بعض الحكماء : أكمل الراحة ما كانت عن كدّ التعب وأعزّ العلم ما كان عن ذلّ الطلب . .

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلْآدَابَ نَوَافِرُ تَنِدُّ عَنْ أَهْلِ ٱلْأَذْهَانِ فَٱجْعَلُوا ٱلْكُتُبَ عَنْهَا حُمَاةً . وَٱلْأَقْلَامَ لَهَا رُعَاةً . (وَأَمَّا ٱلطَّوَارِئُ) فَنَوْعَانِ : (أَحَدُهُمَا) شُبْهَةٌ تَعْتَرِضُ ٱلْمَعْنَى فَتَمْنَعُ عَنْ نَفْسِ تَصَوُّرِهِ وَتَدْفَعُ عَنْ إِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . فَيَنْبَغِي أَنْ يُزِيلَ تِلْكَ ٱلشُّبْهَةَ عَنْ نَفْسِهِ بِٱلسُّؤَالِ أَوِ ٱلنَّظَرِ لِيَصِلَ إِلَى تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى وَإِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ : لَا تُخْلِ قَلْبَكَ مِنَ ٱلْمُذَاكَرَةِ فَتَعُودَ عَقِيمًا . وَلَا تُعْفِ طَبْعَكَ مِنَ ٱلْمُنَاظَرَةِ فَيَعُودَ سَقِيمًا . وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

شِفَاءُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّؤَالِ وَإِنَّمَا
دَوَامُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّكُوتِ عَلَى ٱلْجَهْلِ

فَكُنْ سَائِلًا عَمَّا عَنَاكَ فَإِنَّمَا ... دُعِيتَ أَخَا عَقْلٍ لِتَبْحَثَ بِٱلْعَقْلِ

(وَٱلثَّانِي) أَفْكَارٌ تُعَارِضُ ٱلْخَاطِرَ فَيَذْهَلُ عَنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا سَبَبٌ قَلَّ مَا يَعْرَى مِنْهُ أَحَدٌ لَا سِيَّمَا فِيمَنِ ٱنْبَسَطَتْ آمَالُهُ وَٱتَّسَعَتْ أَمَانِيُّهُ . وَقَدْ يَقِلُّ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي غَيْرِ ٱلْعِلْمِ أَرَبٌ وَلَا فِيمَا سِوَاهُ هِمَّةٌ فَإِنْ طَرَأَتْ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مُكَابَرَةِ نَفْسِهِ عَلَى ٱلْفَهْمِ وَغَلَبَةِ قَلْبِهِ عَلَى ٱلتَّصَوُّرِ لِأَنَّ ٱلْقَلْبَ مَعَ ٱلْإِكْرَاهِ أَشَدُّ نُفُورًا وَأَبْعَدُ قَبُولًا . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْأَثَرِ : بِأَنَّ ٱلْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ . وَلٰكِنْ يُعْمِلُ فِي دَفْعِ مَا طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ هَمٍّ مُذْهِلٍ أَوْ فِكْرٍ قَاطِعٍ لِيَسْتَجِيبَ لَهُ ٱلْقَلْبُ مُطِيعًا . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَلَيْسَ بِمُغْنٍ فِي ٱلْمَوَدَّةِ شَافِعٌ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلضُّلُوعِ شَفِيعُ

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : إِنَّ لِهٰذِهِ ٱلْقُلُوبِ تَنَافُرًا كَتَنَافُرِ ٱلْوَحْشِ

فَتَأَلَّفُوهَا بِالْاقْتِصَادِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ وَٱلتَّوَسُّطِ فِي ٱلتَّقْدِيمِ لِتَحْسُنَ طَاعَتُهَا وَيَدُومَ نَشَاطُهَا. فَهٰذَا تَعْلِيلُ مَا فِي ٱلْمُسْتَمِعِ مِنَ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ ٱلْمَعَانِي

البحث التاسع

في المعاظلة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

إِنَّ ٱلْمُعَاظَلَةَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: تَعَاظَلَتِ ٱلْجَرَادَتَانِ إِذَا رَكِبَتْ إِحْدَاهُمَا ٱلْأُخْرَى. فَسُمِّيَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمُتَرَاكِبُ فِي أَلْفَاظِهِ وَفِي مَعَانِيهِ ٱلْمُعَاظَلَةَ مَأْخُوذًا مِنْ ذٰلِكَ وَهُوَ ٱسْمٌ لَائِقٌ بِمُسَمَّاهُ. وَوَصَفَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ زُهَيْرَ بْنَ أَبِي سُلْمَى فَقَالَ: كَانَ لَا يُعَاظِلُ بَيْنَ ٱلْكَلَامِ. وَقَدِ ٱخْتَلَفَ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ فِي حَقِيقَةِ ٱلْمُعَاظَلَةِ فَقَالَ قُدَامَةُ ٱبْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ: ٱلتَّعَاظُلُ فِي ٱلْكَلَامِ هُوَ أَنْ يَدْخُلَ بَعْضُ ٱلْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ وَلَا أَعْرِفُ ذٰلِكَ إِلَّا فَاحِشَ ٱلْاسْتِعَارَةِ. كَقَوْلِ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ:

وَذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا   تُصْمِتُ بِٱلْمَاءِ تَوْلَبًا جَدِعَا

فَسَمَّى ٱلظَّبِيَّ تَوْلَبًا وَٱلتَّوْلَبُ وَلَدُ ٱلْحِمَارِ. وَهٰذَا مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ ٱبْنُ جَعْفَرٍ وَهُوَ خَطَأٌ إِذْ لَوْ كَانَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ صَوَابًا لَكَانَتْ حَقِيقَةُ ٱلْمُعَاظَلَةِ دُخُولَ ٱلْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ. وَلَيْسَتْ حَقِيقَتُهَا هٰذِهِ بَلْ حَقِيقَتُهَا مَا تَقَدَّمَ وَهُوَ ٱلتَّرَاكُبُ مِنْ قَوْلِهِمْ: تَعَاظَلَتِ ٱلْجَرَادَتَانِ

اِذَا رَكِبَتْ اِحداهُما الاخرى . وَهٰذَا ٱلْمِثَالُ ٱلَّذِي مَثَّلَ بِهِ قُدَامَةُ لَا تَرَاكُبَ فِي أَلفَاظِهِ وَلَا فِي مَعَانِيهِ . وَامَّا غَيْرُ قُدامَةَ فَإِنَّهُ خَالَفَهُ فِيما ذَهَبَ اِلَيهِ اِلَّا انَّهُ لَمْ يَقْسِمِ ٱلْمُعَاظَلَةَ اِلَى لَفظِيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ وَلٰكِنَّهُ ضَرَبَ لَهَا مَثَلًا . كَقَوْلِ ٱلفَرَزْدَقِ :

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ اِلَّا مُمَلَّكًا   اَبُو اُمِّهِ حَيٌّ اَبُوهُ يُقَارِبُهْ

وَهٰذَا مِنَ ٱلقِسْمِ ٱلْمَعْنَوِيِّ لَا مِنَ ٱلقِسْمِ ٱللَّفظِيِّ . اَلَا تَرَى اِلَى تَرَاكُبِ مَعَانِيهِ بِتَقْدِيمِ مَا كَانَ يَجِبُ تَأْخِيرُهُ وَتَأْخِيرِ مَا كَانَ يَجِبُ تَقْدِيمُهُ لِانَّ ٱلْاَصْلَ فِي مَعْنَاهُ : وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ اِلَّا مُمَلَّكًا اَبُو اُمِّهِ اَبُوهُ . وَاِذْ حَقَّقْتُ ٱلقَوْلَ فِي بَيَانِ ٱلْمُعَاظَلَةِ وَٱلكَشْفِ عَنْ حَقِيقَتِهَا فَاَقُولُ : اِنَّ ٱلْمُعَاظَلَةَ مُعَاظَلَتَانِ لَفظِيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ (فَٱلْمَعْنَوِيَّةُ) اَنْ يُقَدَّمَ مَا ٱلْاَوْلَى بِهِ ٱلتَّأْخِيرُ وَهُوَ مِنْ عُيُوبِ ٱلكَلَامِ لِاَنَّ ٱلْمَعْنَى مُخْتَلٌّ بِذٰلِكَ وَمُضْطَرِبٌ وَذٰلِكَ كَتَقْدِيمِ ٱلصِّفَةِ اَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا عَلَى ٱلْمَوْصُوفِ وَتَقْدِيمِ ٱلصِّلَةِ عَلَى ٱلْمَوْصُولِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

فَقَدْ وَٱلشَّكُّ بَيَّنَ لِي عَنَاءً   بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ صُرَدٌ يَصِيحُ

فَاِنَّهُ قَدَّمَ قَوْلَهُ (بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ) . وَهُوَ مَعْمُولُ يَصِيحُ وَيَصِيحُ صِفَةٌ لِصُرَدٍ عَلَى صُرَد وَذٰلِكَ قَبِيحٌ . اَلَا تَرَى اَنَّهُ لَا يَجُوزُ اَنْ يُقَالَ : هٰذَا مِنْ مَوْضِعِ كَذَا رَجُلٌ وَرَدَ ٱلْيَوْمَ . وَاِنَّمَا يَجُوزُ وُقُوعُ ٱلْمَعْمُولِ بِحَيْثُ يَجُوزُ وُقُوعُ ٱلعَامِلِ فَكَمَا لَا يَجُوزُ تَقْدِيمُ ٱلصِّفَةِ عَلَى مَوْصُوفِهَا فَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ تَقْدِيمُ مَا اتَّصَلَ بِهَا عَلَى مَوْصُوفِهَا . وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحْوِ

قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِهَا كَأَنَّ قَفْرًا رُسُومَهَا قَلَمَا

فَإِنَّهُ قَدَّمَ خَبَرَ كَانَ عَلَيْهَا وَهُوَ قَوْلُهُ : خَطَّ . وَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا لَا يَجُوزُ قِيَاسٌ عَلَيْهِ وَٱلْأَصْلُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ (فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ بَهْجَتِهَا قَفْرًا كَأَنَّ قَلَمًا خَطَّ رُسُومَهَا) إِلَّا أَنَّهُ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالَةِ ٱلْأُولَى فِي ٱلشِّعْرِ مُخْتَلٌّ مُضْطَرِبٌ . وَٱلْمُعَاظَلَةُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهَا فِي ٱلْقُبْحِ وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلْمُشَارُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْبَحِهَا لِأَنَّ مَعَانِيَهُ قَدْ تَدَاخَلَتْ وَرَكِبَ بَعْضُهَا بَعْضًا . وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ أَبُوهُ وَلَا كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

(وَهُوَ يُرِيدُ إِلَى مَلِكٍ أَبُوهُ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ) . وَهٰذَا أَقْبَحُ مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَأَكْثَرُ ٱخْتِلَالًا . . . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْفَرَزْدَقُ مِنَ ٱلتَّعَاظُلِ كَثِيرًا كَأَنَّهُ كَانَ يَقْصِدُ ذٰلِكَ وَيَتَعَمَّدُهُ . لِأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَجِيءُ إِلَّا مُتَكَلَّفًا مَقْصُودًا وَإِلَّا فَإِذَا تَرَكَ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ نَفْسَهُ تَجْرِي عَلَى سَجِيَّتِهَا وَطَبْعِهَا فِي ٱلْإِسْتِرْسَالِ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هٰذَا ٱلتَّعْقِيدِ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَعْدُومٌ فِي هٰذَا ٱلضَّرْبِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ إِذِ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْإِيضَاحُ وَٱلْإِبَانَةُ وَإِفْهَامُ ٱلْمَعْنَى . فَإِذَا ذَهَبَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ذَهَبَ ٱلْمُرَادُ بِهِ وَلَا فَرْقَ عِنْدَ ذٰلِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ ٱللُّغَاتِ كَٱلْفَارِسِيَّةِ وَٱلْهِنْدِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا . وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلْكَلَامِ هُوَ ضِدُّ ٱلْفَصَاحَةِ لِأَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبَيَانُ وَهٰذَا عَارٍ عَنْ هٰذَا ٱلْوَصْفِ . وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ

اَللَّفظِيُّ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) فَانِّي تَامَّلتُهُ بِٱلاِسْتِقْرَاءِ مِنَ ٱلاَشْعَارِ قَدِيمِهَا وَمُحْدَثِهَا وَمِنَ ٱلنَّظَرِ فِي حَقِيقَتِهَا نَفْسِهَا فَوَجَدتُّهَا تَنْقَسِمُ اِلَى خَمْسَةِ اَقْسَامٍ : (اَلاَوَّلُ) مِنْهَا يَخْتَصُّ بِاَدَوَاتِ ٱلْكَلَامِ • مِنْ وَاِلَى وَعَنْ وَعَلَى وَاَشْبَاهِهَا • فَاِنَّ مِنْهَا مَا يَسْهُلُ ٱلنُّطْقُ بِهِ اِذَا وَرَدَ مَعَ اَخَوَاتِهِ • وَمِنْهَا مَا لَا يَسْهُلُ بَلْ يَرِدُ ثَقِيلًا عَلَى ٱللِّسَانِ وَلِكُلٍّ مَوْضِعٌ يَخُصُّهُ مِنَ ٱلسَّبْكِ • فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

اِلَى خَالِدٍ رَاحَتْ بِنَا اَرْحَبِيَّةٌ مَرَافِقُهَا مِنْ عَنْ كَرَاكِرِهَا نُكْبُ

فَقَوْلُهُ : (مِنْ عَنْ كَرَاكِرِهَا) مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَعَاظِلِ ٱلَّذِي يَثْقُلُ ٱلنُّطْقُ بِهِ عَلَى اَنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ هَاتَانِ ٱللَّفْظَتَانِ وَهُمَا : مِنْ وَعَنْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَلَمْ يَثْقُلِ ٱلنُّطْقُ بِهِمَا كَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ : مِنْ عَنْ يَمِينِ ٱلطَّرِيقِ • وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ اَنَّهُمَا وَرَدَتَا فِي بَيْتِ اَبِي تَمَّامٍ مُضَافَتَيْنِ اِلَى لَفْظَةِ ٱلْكَرَاكِرِ فَثَقُلَتْ مِنْهُمَا وَجَعَلَتْهُمَا مَكْرُوهَتَيْنِ كَمَا تَرَى وَاِلَّا فَقَدْ وَرَدَتَا فِي شِعْرِ قَطَرِيِّ بْنِ ٱلْفُجَاءَةِ فَكَانَتَا خَفِيفَتَيْنِ كَقَوْلِهِ :

وَلَقَدْ اَرَانِي لِلرِّمَاحِ دَرِيئَةً مِنْ عَنْ يَمِينِي مَرَّةً وَاَمَامِي

وَٱلاَصْلُ فِي ذٰلِكَ رَاجِعٌ اِلَى ٱلسَّبْكِ فَاِذَا سُبِكَتْ هَاتَانِ ٱللَّفْظَتَانِ اَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا مَعَ اَلْفَاظٍ تَسْهُلُ مِنْهُمَا لَمْ يَكُنْ بِهِمَا مِنْ ثِقَلٍ كَمَا جَاءَتَا فِي بَيْتِ قَطَرِيٍّ • وَاِذَا سُبِكَتَا مَعَ اَلْفَاظٍ تَثْقُلُ مِنْهُمَا جَاءَتَا كَمَا جَاءَتَا فِي بَيْتِ اَبِي تَمَّامٍ • وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ اَيْضًا :

كَاَنَّهُ لِاجْتِمَاعِ ٱلرُّوحِ فِيهِ لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ جِسْمِهِ رُوحُ

فَقَوْلُهُ (فِي) بَعْدَ قَوْلِهِ (فِيهِ لَهُ) مِمَّا لَا يَحْسُنُ وُرُودُهُ. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ   سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

فَقَوْلُهُ : (لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا) مِنَ ٱلثَّقِيلِ ٱلثَّقِيلِ ٱلثَّقِيلِ . . . .

(ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ ٱللَّفْظِيَّةِ) تَخْتَصُّ بِتَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِتَكْرِيرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَا بِتَكْرِيرِ ٱلْمَعَانِي مِمَّا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي بَابِ ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱلْمَقَالَةِ ٱلثَّانِيَةِ . وَإِنَّمَا هُوَ تَكْرِيرُ حَرْفٍ وَاحِدٍ أَوْ حَرْفَيْنِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ أَوِ ٱلْمَنْظُومِ فَيَثْقُلُ حِينَئِذٍ ٱلنُّطْقُ بِهِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

وَقَبْرُ حَرْبٍ فِي مَكَانٍ قَفْرُ   وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فَهٰذِهِ ٱلْقَافَاتُ وَٱلرَّاآتُ كَأَنَّهَا فِي تَتَابُعِهَا سِلْسِلَةٌ وَلَا اخْفَاءَ بِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلثِّقَلِ . وَكَذَا وَرَدَ قَوْلُ ٱلْحَرِيرِيِّ فِي مَقَامَاتِهِ :

وَٱزْوَرَّ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا   وَعَافَ عَافِي ٱلْعُرْفِ عُرْفَانَهُ

فَقَوْلُهُ :(وَعَافَ عَافِي ٱلْعُرْفِ عُرْفَانَهُ) مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ أَيْضًا فِي رِسَالَتَيْهِ ٱللَّتَيْنِ صَاغَهُمَا عَلَى حَرْفَيِ ٱلسِّينِ وَٱلشِّينِ : فَإِنَّهُ أَتَى فِي إِحْدَاهُمَا بِٱلسِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِهَا . وَأَتَى بِٱلْأُخْرَى بِٱلشِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِهَا فَجَاءَتَا كَأَنَّهُمَا رُقَى ٱلْعَقَارِبِ أَوْ خُذْرُوفَةُ ٱلْعَزَائِمِ . وَمَا أَعْلَمُ كَيْفَ خَفِيَ مَا فِيهِمَا مِنَ ٱلْقُبْحِ عَلَى مِثْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِٱلْجَيِّدِ وَٱلرَّدِيءِ مِنَ ٱلْكَلَامِ . . .
وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْعَرَبَ ٱلَّذِينَ هُمُ ٱلْأَصْلُ فِي هٰذِهِ ٱللُّغَةِ قَدْ عَدَلُوا عَنْ

تَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ فِي كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِهِمْ. وَذَاكَ أَنَّهُ إِذَا تَكَرَّرَ ٱلْحَرْفُ عِنْدَهُمْ ادْغَمُوهُ أَسْتِحْسَانًا فَقَالُوا فِي : (جَعَلَ لَكَ) جَعَلَّكَ . وَفِي : (تَضْرِبُونَنِي) تَضْرِبُونِّي . وَكَذٰلِكَ قَالُوا : اسْتَعَدَّ فُلَانٌ لِلْأَمْرِ إِذَا تَاهَّبَ لَهُ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ اسْتَعْدَدَ . وَاسْتَتَبَّ ٱلْأَمْرُ إِذَا تَهَيَّأَ . وَٱلْأَصْلُ فِيهِ اسْتَتْبَبَ . وَاشْبَاهُ ذٰلِكَ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى انَّهُمْ لِشِدَّةِ كَرَاهَتِهِمْ لِتَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ ابْدَلُوا احَدَ ٱلْحَرْفَيْنِ ٱلْمُكَرَّرَيْنِ حَرْفًا آخَرَ غَيْرَهُ فَقَالُوا : امْلَيْتُ ٱلْكِتَابَ . وَٱلْأَصْلُ فِيهِ امْلَلْتُ . فَابْدَلُوا ٱللَّامَ يَاءً طَلَبًا لِلْخِفَّةِ وَفِرَارًا مِنَ ٱلثِّقَلِ . وَإِذَا كَانَ قَدْ فَعَلُوا ذٰلِكَ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا

(ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) انْ تَرِدَ الْفَاظٌ عَلَى صِيغَةِ ٱلْفِعْلِ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَمِنْهَا مَا يَخْتَلِفُ بَيْنَ مَاضٍ وَمُسْتَقْبَلٍ . وَمِنْهَا مَا لَا يَخْتَلِفُ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِ ٱلْقَاضِي ٱلْأَرَّجَانِيِّ فِي ابْيَاتٍ يَصِفُ فِيهَا ٱلشَّمْعَةَ فَقَالَ :

بِٱلنَّارِ فَرَّقَتِ ٱلْحَوَادِثُ بَيْنَنَا ... وَبِهَا نَذَرْتُ أَعُودُ أَقْتُلُ رُوحِي

فَقَوْلُهُ : (نَذَرْتُ أَعُودُ) مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهَا . وَامَّا مَا يَرِدُ عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلصِّيغَةِ ٱلْفِعْلِيَّةِ . فَكَقَوْلِ ابِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

اقِلْ انِلْ اقْطِعْ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ اعِدْ ... زِدْ هِشَّ بِشَّ تَفَضَّلْ ادْنِ سُرَّ صِلِ

فَهٰذِهِ الْفَاظٌ جَاءَتْ عَلَى صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِيغَةُ ٱلْأَمْرِ كَانَّهُ قَالَ : (افْعَلْ افْعَلْ) هٰكَذَا إِلَى آخِرِ ٱلْبَيْتِ . وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلصِّيغَةِ

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا لِلْحُرُوفِ إِلَّا أَنَّهُ أَخُوهُ وَلَا أَقُولُ : ٱبْنُ عَمِّهِ. وَهٰذِهِ أَلْفَاظٌ مُتَرَاكِبَةٌ مُتَدَاخِلَةٌ وَلَوْ عَطَفَهَا بِٱلْوَاوِ لَكَانَتْ أَقْرَبَ حَالًا . كَمَا قَالَ عَبْدُ ٱلسَّلَامِ بْنُ رَغْبَانَ :

فَسَدَ ٱلنَّاسُ فَٱطْلُبِ ٱلرِّزْقَ بِٱلسَّيْفِ م وَإِلَّا فَمُتْ شَدِيدَ ٱلْهُزَالِ
حِلَّ وَأَمِرْ وَضُرَّ وَٱنْفَعْ وَلِنْ وَٱخْشُنْ م وَأَبْرِدْ ثُمَّ ٱنْتَدِبْ لِلْمَعَالِي

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمَّا عَطَفَ هٰهُنَا بِٱلْوَاوِ لَمْ تَتَرَاكَبِ ٱلْأَلْفَاظُ كَتَرَاكُبِهَا فِي بَيْتِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ

(اَلْقِسْمُ ٱلرَّابِعُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُ مُضَافَاتٍ كَثِيرَةً كَقَوْلِهِمْ : سَرْجُ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ . وَإِنْ زِيدَ عَلَى ذٰلِكَ قِيلَ : لِبْدُ سَرْجِ فَرَسِ غُلَامِ زَيْد . وهٰذَا أَشَدُّ قُبْحًا وَأَثْقَلُ عَلَى ٱللِّسَانِ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱبْنِ بَابَكَ ٱلشَّاعِرِ فِي مُفْتَتَحِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ ٱلْجَنْدَلِ ٱسْجَعِي   فَأَنْتِ بِمَرْأًى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ

(اَلْقِسْمُ ٱلْخَامِسُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) أَنْ تَرِدَ صِفَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَلَى نَحْوٍ وَاحِدٍ . كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ مِنْ قَصِيدَةٍ يَصِفُ رُمْحًا :

وَمُرَّ تَهْفُو ذُؤَابَتَاهُ عَلَى   أَسْمَرَ مَتْنٍ يَوْمَ ٱلْوَغَى جَسِدِهْ
مَارِنُهُ لَدْنُهُ مُثَقَّفُهُ   عِرَاضُهُ فِي ٱلْأَكُفِّ مُطَّرِدَهْ

وَهٰذَا كَٱلْأَوَّلِ فِي قُبْحِهِ وَثِقَلِهِ فَقَاتَلَهُ ٱللّٰهُ ! مَا أَمْتَنَ شِعْرَهُ وَمَا أَسْخَفَهُ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ . . . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

دَانٍ بَعِيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ   أَغَرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ

نَدٍ اَبِيٍّ غَرٍ وَافٍ لَخِي ثِقَةٍ   جَعْدٍ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رَضٍ نَدُسٍ

وَهٰذَا كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ بِلَا شَكٍّ وَقَلِيلًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلشُّعَرَاءِ. وَلَمْ اَجِدْهُ كَثِيرًا اِلَّا فِي شِعْرِ ٱلْفَرَزْدَقِ وَتِلْكَ مُعَاظَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ وَهٰذِهِ مُعَاظَلَةٌ لَفْظِيَّةٌ وَهِيَ تُوجَدُ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ كَثِيرًا

البحث العاشر

في المنافرة بين الالفاظ في السبك

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَمْ يُحَقِّقْ اَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ ٱلْقَوْلَ فِيهِ. وَغَايَةُ مَا يُقَالُ: اِنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ لَا تَكُونَ ٱلْاَلْفَاظُ نَافِرَةً عَنْ مَوَاضِعِهَا ثُمَّ يُكْتَفَى بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ وَلَا تَفْصِيلٍ حَتَّى اِنَّهُ قَدْ خُلِطَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ بِٱلْمُعَاظَلَةِ وَكُلٌّ مِنْهَا نَوْعٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَهُ حَقِيقَةٌ تَخُصُّهُ. اِلَّا اَنَّهُمَا قَدِ ٱشْتَبَهَا عَلَى عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ فَكَيْفَ عَلَى جَاهِلٍ لَا يَعْلَمُ. وَقَدْ بَيَّنْتُ هٰذَا ٱلنَّوْعَ وَفَصَّلْتُهُ فِي فَصْلِ ٱلْمُعَاظَلَةِ وَضَرَبْتُ لَهُ اَمْثِلَةً يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى اَخَوَاتِهَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا. وَجُمْلَةُ ٱلْاَمْرِ اَنَّ مَدَارَ سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَٱلَّذِي قَبْلَهُ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعِ ٱلْمَذْكُورَةِ. لِاَنَّ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ اَصْلًا سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ وَمَا عَدَاهُمَا فَرْعٌ عَلَيْهِمَا. وَاِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلنَّاثِرُ اَوِ ٱلنَّاظِمُ عَارِفًا بِهِمَا فَاِنَّ مَقَاتِلَهُ كَثِيرَةٌ. وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُنَافَرَةُ اَنْ يُذْكَرَ لَفْظٌ اَوْ اَلْفَاظٌ يَكُونُ غَيْرُهَا مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهَا اَوْلَى بِٱلذِّكْرِ. وَعَلَى هٰذَا

فَإِنَّ ٱلفرقَ بينهُ وبينَ ٱلمعاظلةِ أنَّ ٱلمعاظلةَ هِيَ ٱلتَّراكُبُ وَٱلتَّداخُلُ إمَّا فِي ٱلألفاظِ أوْ فِي ٱلمعانِي عَلَى مَا أشرتُ إِلَيهِ . وَهٰذَا ٱلنَّوعُ لَا تَراكُبَ فِيهِ وَإِنَّمَا هُوَ إِيرادُ ألفاظٍ غيرِ لَا ئقةٍ بِموضعِها ٱلَّذِي تَرِدُ فِيهِ . وَهُوَ يَنقسِمُ قِسمَينِ : أحدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفظةِ ٱلوَاحِدَةِ وَٱلآخرُ فِي ٱلألفاظِ ٱلمتعدِّدَةِ . (فَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفظَةِ ٱلوَاحِدَةِ) فَإِنَّهُ إِذَا وَرَدَ فِي ٱلكَلَامِ أمكَنَ تَبدِيلُهُ بِغَيرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعنَاهُ سَوَاءٌ كَانَ ذٰلكَ ٱلكَلَامُ نَثرًا أوْ نَظمًا . وَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلألفاظِ ٱلمُتَعَدِّدَةِ فَإِنَّهُ لَا يُمكِنُ تَبدِيلُهُ بِغَيرِهِ فِي ٱلشِّعرِ بَل يُمكِنُ ذٰلكَ فِي ٱلنَّثرِ خَاصَّةً لِأَنَّهُ يَعسُرُ فِي ٱلشِّعرِ مِنْ أجلِ ٱلوَزنِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلقِسمِ ٱلأوَّلِ قَولُ أبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلمُتَنَبِّي :

فَلَا يُبرَمُ ٱلأمرُ ٱلَّذِي هُوَ حَالِلٌ ... وَلَا يُحلَلُ ٱلأمرُ ٱلَّذِي هُوَ يُبرِمُ

فَلَفظَةُ حَالِلٌ نَافِرَةٌ عَنْ مَوضِعِهَا وَكَانَتْ لَهُ مَندُوحَةٌ عَنهَا لِأَنَّهُ لَوِ ٱستَعمَلَ عِوَضًا عَنهَا لَفظَةَ (نَاقِضٌ) لَجَاءَتِ ٱللَّفظَةُ قَارَّةً فِي مَكَانِهَا غَيرَ قَلِقَةٍ وَلَا نَافِرَةٍ . وَبَلَغَنِي عَنْ أبِي ٱلعَلَاءِ : أَنَّهُ كَانَ يَتَعَصَّبُ لِأبِي ٱلطَّيِّبِ حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يُسَمِّيهِ ٱلشَّاعِرَ وَيُسَمِّي غَيرَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بِٱسمِهِ وَكَانَ يَقُولُ : لَيسَ فِي شِعرِهِ لَفظَةٌ يُمكِنُ أَنْ يَقُومَ عَنهَا مَا هُوَ فِي مَعنَاهَا فَيَجِيءُ حَسَنًا مِثلَهَا . فَيَا لَيتَ شِعرِي أَمَا وَقَفَ عَلَى هٰذَا ٱلبَيتِ ٱلمُشَارِ إِلَيهِ لٰكِنَّ ٱلهَوَى كَمَا يُقَالُ أَعمَى . وَكَانَ أَبُو ٱلعَلَاءِ أَعمَى ٱلعَينِ خِلقَةً وَأَعمَاهَا عَصَبِيَّةً فَٱجتَمَعَ لَهُ ٱلعَمَى مِنْ جِهَتَينِ . وَهٰذِهِ ٱللَّفظَةُ ٱلَّتِي هِيَ (حَالِلٌ) وَمَا يَجرِي مَجرَاهَا قَبِيحَةُ ٱلِاستِعمَالِ وَهِيَ فَكٌّ

ٱلْإِدْغَامِ فِي ٱلْفِعْلِ ٱلثُّلَاثِيِّ وَنَقْلُهُ إِلَى ٱسْمِ ٱلْفَاعِلِ . وَعَلَى هٰذَا فَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ : بَلَّ ٱلثَّوْبَ فَهُوَ بَالِلٌ . وَلَا : سَلَّ ٱلسَّيْفَ فَهُوَ سَالِلٌ . وَهٰذَا لَوْ عُرِضَ عَلَى مَنْ لَا ذَوْقَ لَهُ لَأَدْرَكَهُ وَفَهِمَهُ فَكَيْفَ مَنْ لَهُ ذَوْقٌ صَحِيحٌ كَأَبِي ٱلطَّيِّبِ . لٰكِنْ لَا بُدَّ لِكُلِّ جَوَادٍ مِنْ كَبْوَةٍ . وَأَنْشَدَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ بَيْتًا لِدِعْبِلٍ وَهُوَ :

شَفِيعُكَ فَٱشْكُرْ فِي ٱلْحَوَائِجِ إِنَّهُ ‌ ‌ يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ

فَقُلْتُ لَهُ : عَجُزُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ حَسَنٌ وَأَمَّا صَدْرُهُ قَبِيحٌ . لِأَنَّ سَبْكَهُ قَلِقٌ نَافِرٌ . وَتِلْكَ ٱلْفَاءُ ٱلَّتِي فِي قَوْلِهِ : شَفِيعُكَ فَٱشْكُرْ كَأَنَّهَا رُكْبَةُ ٱلْبَعِيرِ وَهِيَ فِي زِيَادَتِهَا كَزِيَادَةِ ٱلْكَرِشِ . . . وَمِثْلُ هٰذِهِ ٱلدَّقَائِقِ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلْكَلَامِ نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا لَا يَتَفَطَّنُ لَهَا إِلَّا ٱلرَّاسِخُ فِي عِلْمِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ وَصْلَةُ هَمْزَةِ ٱلْقَطْعِ وَهِيَ مَحْسُوبَةٌ مِنْ جَائِزَاتِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّتِي لَا تَجُوزُ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ . وَكَذٰلِكَ قَطْعُ هَمْزَةِ ٱلْوَصْلِ لٰكِنَّ وَصْلَ هَمْزَةِ ٱلْقَطْعِ أَقْبَحُ لِأَنَّهُ أَثْقَلُ عَلَى ٱللِّسَانِ . فَمِمَّا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

يُوَسِّطُهُ ٱلْمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ ‌ ‌ طِلَابُ ٱلطَّالِبِينَ لَا ٱلِٱنْتِظَارُ

فَقَوْلُهُ : (لَا ٱلِٱنْتِظَارُ) كَلَامٌ نَافِرٌ مِنْ مَوْضِعِهِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ وَٱلصِّفَةِ بِضَمِيرِ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

حَلَفْتُ لَهُ بِٱللهِ يَوْمَ ٱلتَّفَرُّقِ ‌ ‌ وَبِٱلْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهِ ٱلْمُتَعَلِّقِ

تَقْدِيرُهُ (مِنْ قَلْبِي ٱلْمُتَعَلِّقِ بِهِ) فَلَمَّا فَصَلَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ ٱلَّذِي هُوَ (قَلْبِي) وَٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي هِيَ (ٱلْمُتَعَلِّقُ) بِٱلضَّمِيرِ ٱلَّذِي هُوَ (بِهِ) قَبُحَ ذٰلِكَ . وَلَوْ كَانَ قَالَ مِنْ قَلْبٍ بِهِ مُتَعَلِّقٍ لَزَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ وَذَهَبَتْ تِلْكَ ٱلْهُجْنَةُ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ ايضًا أَنْ تُزَادَ ٱلْأَلِفُ وَٱللَّامُ فِي ٱسْمِ ٱلْفَاعِلِ وَيُقَامَ ٱلضَّمِيرُ فِيهِ مُقَامَ ٱلْمَفْعُولِ . كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

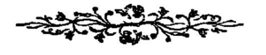
فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ وَٱلزَّائِرِيهِمْ   لَمَا مِزْتَ ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْحَمِيمِ

فَقَوْلُهُ : (ٱلزَّائِرِي) ٱسْمُ فَاعِلٍ . وَقَوْلُهُ : (وَٱلزَّائِرِيهِمْ) هُوَ ٱلضَّمِيرُ فِي مَوْضِعِ ٱلْمَفْعُولِ . تَقْدِيرُهُ : (ٱلزَّائِرِينَ ارْضَهُمْ اوْ دَارَهُمْ اوِ ٱلزَّائِرِينَ إِيَّاهُمْ) فَٱسْتِعْمَالُ هٰذَا مَعَ ٱلْأَلِفِ وَٱللَّامِ قَبِيحٌ جِدًّا . وَإِذَا حَذَفْنَا زَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلشُّعَرَاءُ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ كَثِيرًا

(وَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ أَيضًا :

لَاخَلْقَ أَكْرَمُ مِنْكَ إِلَّا عَارِفٌ   بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا

فَإِنَّ عَجُزَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ نَافِرٌ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَأَمْثَالُ هٰذَا فِي ٱلْأَشْعَارِ كَثِيرٌ



الفصل السادس

في وجوه الكلام

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

البحث الاول

في وجوه البلاغة وطبقات الكلام

(من العقد الفريد لابن عبد ربه)

اَلْبَلَاغَةُ تَكُونُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَوْجُهٍ : تَكُونُ بِاللَّفظِ وَالْخَطِّ وَالْاِشَارَةِ وَالدَّلَالَةِ. وَكُلٌّ مِنهَا لَهُ حَظٌّ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ وَمَوْضِعٌ لَايَجُوزُ فِيهِ غَيْرُهُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ وَلِكُلِّ كَلَامٍ جَوَابٌ. وَرُبَّ اِشَارَةٍ اَبْلَغُ مِنْ لَفظٍ. فَاَمَّا الْخَطُّ وَالْاِشَارَةُ فَمَفْهُومَانِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَاَكْثَرِ الْعَامَّةِ. وَاَمَّا الدَّلَالَةُ فَكُلُّ شَيْءٍ دَلَّكَ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ اَخْبَرَكَ بِهِ . . . . وَقَالَ اَبْرَوِيزُ لِكَاتِبِهِ : اَعْلَمْ اَنَّ دَعَائِمَ الْمَقَالَاتِ اَرْبَعٌ : اِنِ الْتَمِسَ لَهَا خَامِسٌ لَمْ يُوجَدْ فَاِنْ نَقَصَ مِنْهَا وَاحِدٌ لَمْ تَتِمَّ وَهِيَ : سُؤَالُكَ الشَّيْءَ وَاَمْرُكَ بِالشَّيْءِ وَاِخْبَارُكَ عَنِ الشَّيْءِ وَسُؤَالُكَ عَنِ الشَّيْءِ. فَاِذَا طَلَبْتَ فَاَسْجِحْ. وَاِذَا سَاَلْتَ فَاَوْضِحْ وَاِذَا اَمَرْتَ فَاَحْكِمْ. وَاِذَا اَخْبَرْتَ فَحَقِّقْ. وَاَجْمِعِ الْكَثِيرَ مِمَّا تُرِيدُ فِي الْقَلِيلِ مِمَّا تَقُولُ (يُرِيدُ الْكَلَامَ الَّذِي تَقِلُّ حُرُوفُهُ وَتَكْثُرُ مَعَانِيهِ). وَقَالَ رَبِيعَةُ : اَلرَّأْيُ اَنْ لَا اَسْمَعَ الْحَدِيثَ عُطْلًا فَاَشْنِفَهُ وَاُقَرِّطَهُ فَيَحْسُنُ وَمَا زِدْتُ فِيهِ شَيْئًا وَلَا غَيَّرْتُ

لَهُ مَعْنًى . وَقَالُوا : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ يُحْتَجْ بَعْدَهُ إِلَى كَلَامٍ وَلِلْعَرَبِ مِنْ مُوجَزِ ٱللَّفْظِ وَلَطِيفِ ٱلْمَعْنَى فُصُولٌ عَجِيبَةٌ وَبَدَائِعُ غَرِيبَةٌ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلشَّيْبَانِيُّ : إِذَا ٱحْتَجْتَ إِلَى مُخَاطَبَةِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْكُتَّابِ وَٱلْخُطَبَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَأَوْسَاطِ ٱلنَّاسِ وَسُوقَتِهِمْ فَخَاطِبْ كُلًّا عَلَى قَدْرِ أُبَّهَتِهِ وَجَلَالَتِهِ وَعُلُوِّهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَفِطْنَتِهِ وَٱنْتِبَاهِهِ وَٱجْعَلْ طَبَقَاتِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ : مِنْهَا ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْعَلِيَّةُ أَرْبَعٌ وَٱلطَّبَقَاتُ ٱلْأُخَرُ وَهِيَ دُونَهَا أَرْبَعٌ لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْهَا دَرَجَةٌ وَلِكُلٍّ قِسْمَةٌ . لَا يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ ٱلْبَلِيغِ أَنْ يُقَصِّرَ بِأَهْلِهَا عَنْهَا وَيَقْلِبَ مَعْنَاهَا إِلَى غَيْرِهَا . (فَٱلْحَدُّ ٱلْأَوَّلُ) ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْعُلْيَا وَغَايَتُهَا ٱلْقُصْوَى ٱلْخِلَافَةُ ٱلَّتِي أَجَلَّ ٱللهُ قَدْرَهَا وَأَعْلَى شَأْنَهَا عَنْ مُسَاوَاتِهَا بِأَحَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَٱلتَّوْقِيرِ . (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلثَّانِيَةُ) لِوُزَرَائِهَا وَكُتَّابِهَا ٱلَّذِينَ يُخَاطِبُونَ ٱلْخُلَفَاءَ بِعُقُولِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَيَرْتُقُونَ ٱلْفُتُوقَ بِآرَائِهِمْ . (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلثَّالِثَةُ) أُمَرَاءُ ثُغُورِهِمْ وَقُوَّادُ جُنُودِهِمْ فَإِنَّهُ يَجِبُ مُخَاطَبَةُ كُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَى قَدْرِهِ وَمَوْضِعِهِ وَحَظِّهِ وَغَنَائِهِ وَجَزَائِهِ وَٱضْطِلَاعِهِ بِمَا حُمِّلَ مِنْ أَعْبَاءِ أُمُورِهِمْ وَجَلَائِلِ أَعْمَالِهِمْ . (وَٱلرَّابِعَةُ) ٱلْقُضَاةُ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانَ لَهُمْ تَوَاضُعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَحِلْيَةُ ٱلْفُضَلَاءِ فَمَعَهُمْ أُبَّهَةُ ٱلسَّلْطَنَةِ وَهَيْبَةُ ٱلْأُمَرَاءِ . وَأَمَّا ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْأَرْبَعُ ٱلْأُخَرُ فَهُمُ ٱلْمُلُوكُ ٱلَّذِينَ أَوْجَبَتْ نِعَمُهُمْ تَعْظِيمَهُمْ فِي ٱلْكُتُبِ إِلَيْهِمْ وَأَفْضَالُهُمْ تَفَضُّلَهُمْ فِيهَا . (وَٱلثَّانِيَةُ) وُزَرَاؤُهُمْ وَكُتَّابُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمُ ٱلَّذِينَ تُقْرَعُ أَبْوَابُهُمْ وَبِعِنَايَتِهِمْ تُسْتَبَاحُ أَمْوَالُهُمْ . (وَٱلثَّالِثَةُ) هُمُ ٱلْعُلَمَاءُ

يَجِبُ تَوقِيرُهُمْ فِي ٱلْكُتُبِ بِشَرَفِ ٱلعِلْمِ وَعُلُوِّ دَرَجَةِ اَهْلِهِ ٠ (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلرَّابِعَةُ) لِأَهْلِ ٱلْقَدْرِ وَٱلْجَلَالَةِ وَٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطَّلَاوَةِ وَٱلظَّرْفِ وَٱلْأَدَبِ فَإِنَّهُمْ يَضْطَرُّونَكَ بِحِدَّةِ اَذْهَانِهِمْ وَشِدَّةِ تَمْيِيزِهِمْ وَٱنْتِقَادِهِمْ وَادَبِهِمْ وَتَصَفُّحِهِمْ اِلَى ٱلِٱسْتِقْصَاءِ عَلَى نَفْسِكَ فِي مُكَاتَبَتِهِمْ وَٱسْتَغْنَيْنَا عَنِ ٱلتَّرْتِيبِ لِلسُّوقَةِ وَٱلْعَوَامِّ وَٱلتُّجَّارِ بِٱسْتِغْنَائِهِمْ بِمِهَانَتِهِمْ مِنْ هٰذِهِ ٱلْآلَاتِ وَٱشْتِغَالِهِمْ بِمِهْنَاتِهِمْ عَنْ هٰذِهِ ٱلْأَدَوَاتِ ٠ وَلِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلطَّبَقَاتِ مَعَانٍ وَمَذَاهِبُ يَجِبُ عَلَيْكَ اَنْ تَرْعَاهَا فِي مُرَاسَلَتِكَ اِيَّاهُمْ فِي كُتُبِكَ فَتَزِنَ كَلَامَكَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ بِمِيزَانِهِ وَتُعْطِيَهُ قِسْمَهُ وَتُوفِيَهُ نَصِيبَهُ ٠ فَإِنَّكَ مَتَى اَهْمَلْتَ ذٰلِكَ وَاضَعْتَهُ لَمْ آمَنْ عَلَيْكَ اَنْ تَعْدِلَ بِهِمْ عَنْ كَلَامِكَ فِي غَيْرِ مَسْلَكِهِ فَلَا تَعْتَدَّ بِٱلْمَعْنَى ٱلْجَزْلِ مَا لَمْ تُلْبِسْهُ لَفْظًا لَائِقًا عَنْ كَاتِبِهِ وَمُلْمِسًا عَنْ رَاسَلْتَهُ ٠ فَإِنَّ اِلْبَاسَكَ ٱلْمَعْنَى وَإِنْ صَحَّ وَصَرَفَ لَفْظًا مُخْتَلِفًا عَلَى قَدْرِ ٱلْمَكْتُوبِ اِلَيْهِ لَمْ تَجْرِ بِهِ عَادَتُهُمْ تَهْجِينٌ لِلْمَعْنَى وَاِخْلَالٌ بِقَدْرِهِ وَظُلْمٌ بِحَقِّ ٱلْمَكْتُوبِ اِلَيْهِ وَنَقْصٌ بِمَا يَجِبُ لَهُ كَمَا اَنَّ فِي ٱتِّبَاعِ تَعَارُفِهِمْ وَمَا ٱنْتَشَرَتْ بِهِ عَادَاتُهُمْ وَجَرَتْ بِهِ اَلْسِنَتُهُمْ قَطْعًا لِعُذْرِهِمْ وَخُرُوجًا مِنْ حُقُوقِهِمْ وَبُلُوغًا اِلَى غَايَةِ مُرَادِهِمْ وَاِسْقَاطًا لِحُجَّةِ اَدَبِهِمْ ٠ فَمِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمَرْغُوبِ عَنْهَا وَٱلصُّدُورِ ٱلْمُسْتَوْحَشِ مِنْهَا فِي كُتُبِ ٱلسَّادَاتِ وَٱلْمُلُوكِ وَٱلْأُمَرَاءِ عَلَى ٱتِّفَاقِ ٱلْمَعَانِي مِثْلُ : اَبْقَاكَ ٱللّٰهُ طَوِيلًا وَعَمَّرَكَ مَلِيًّا ٠ وَاِنْ كُنَّا نَعْلَمُ اَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَ قَوْلِهِمْ : اَطَالَ ٱللّٰهُ بَقَاءَكَ ٠ وَبَيْنَ قَوْلِهِمْ : اَبْقَاكَ ٱللّٰهُ طَوِيلًا ٠ وَلٰكِنَّهُمْ جَعَلُوا هٰذَا

أَرْجَحَ وَزْنًا وَأَنْبَهَ قَدْرًا فِي ٱلْمُخَاطَبَةِ كَمَا أَنَّهُمْ جَعَلُوا: أَكْرَمَكَ ٱللهُ وَأَبْقَاكَ. أَحْسَنَ مَنْزِلًا فِي كُتُبِ ٱلْفُضَلَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ مِنْ جُعِلْتُ فِدَاكَ عَلَى ٱشْتِرَاكِ مَعْنَاهُ وَٱحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ فِدَاهُ مِنَ ٱلْخَيْرِ كَمَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فِدَاهُ مِنَ ٱلشَّرِّ. عَلَى أَنَّ كُتَّابَ ٱلْعَسْكَرِ وَعَوَامَّهُمْ قَدْ وَلِعُوا بِهٰذِهِ ٱللَّفْظَةِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوهَا فِي جَمِيعِ مُحَاوَرَاتِهِمْ وَجَعَلُوهَا هِجِّيرَاهُمْ فِي مُخَاطَبَةِ ٱلشَّرِيفِ وَٱلْوَضِيعِ وَٱلْكَبِيرِ وَٱلصَّغِيرِ. وَلِذٰلِكَ قَالَ مَحْمُودٌ ٱلْوَرَّاقُ:

كُلُّ مَنْ حَلَّ سُرَّ مَنْ رَا مِنَ ٱلنَّا ... سِ وَمَنْ قَدْ يُدَاخِلُ ٱلْأَمْلَاكَا

لَوْ رَأَى ٱلْكَلْبَ مَاثِلًا بِطَرِيقٍ ... قَالَ لِلْكَلْبِ يَا جُعِلْتُ فِدَاكَا

وَكَذٰلِكَ لَمْ يُجِيزُوا أَنْ يَكْتُبُوا بِمِثْلِ أَبْقَاكَ ٱللهُ وَأَمْتَعَ بِكَ إِلَّا فِي ٱلْأَبْنِ وَٱلْخَادِمِ ٱلْمُنْقَطِعِ إِلَيْكَ. وَأَمَّا فِي كُتُبِ ٱلْإِخْوَانِ فَغَيْرُ جَائِزٍ بَلْ مَذْمُومٌ مَرْغُوبٌ عَنْهُ... وَلِكُلِّ مَكْتُوبٍ إِلَيْهِ قَدْرٌ وَوَزْنٌ يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ لَا يُجَاوِزَهُ عَنْهُ وَلَا يُقَصِّرَ بِهِ دُونَهُ. وَقَدْ رَأَيْتُهُمْ عَابُوا ٱلْأَحْوَصَ حِينَ خَاطَبَ ٱلْمُلُوكَ خِطَابَ ٱلْعَوَامِّ فِي قَوْلِهِ:

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ ... مَذِقُ ٱلْحَدِيثِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

وَهٰذَا مَعْنًى صَحِيحٌ فِي ٱلْمَدْحِ وَلٰكِنَّهُمْ أَجَلُّوا قَدْرَ ٱلْمُلُوكِ أَنْ يُمْدَحَ بِمَا تُمْدَحُ بِهِ ٱلْعَوَامُّ لِأَنَّ صِدْقَ ٱلْحَدِيثِ وَإِنْجَازَ ٱلْوَعْدِ وَإِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمَدْحِ فَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى ٱلْعَامَّةِ. وَٱلْمُلُوكُ لَا يُمْدَحُونَ بِٱلْفَرَائِضِ ٱلْوَاجِبَةِ. إِنَّمَا يَحْسُنُ مَدْحُهُمْ بِٱلنَّوَافِلِ لِأَنَّ ٱلْمَادِحَ لَوْ قَالَ لِبَعْضِ ٱلْمُلُوكِ: إِنَّكَ لَا تَخُونُ مَا ٱسْتُودِعْتَ وَإِنَّكَ لَتَصْدُقُ فِي وَعْدِكَ وَتَفِي

بِعَهْدِكَ . فَكَأَنَّهُ قَدْ أَثْنَى بِمَا يَجِبُ وَلَوْ قَصَدَ بِثَنَائِهِ إِلَى مَقْصَدِهِ كَانَ أَشْبَهَ بِالْمُلُوكِ . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ أَمِيرٍ يَتَوَلَّى مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا فَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمْ يُطْلِقُوا هٰذِهِ اللَّفْظَةَ إِلَّا فِي الْخُلَفَاءِ خَاصَّةً . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْكَيْسَ هُوَ الْعَقْلُ . وَلٰكِنْ إِنْ وَصَفْتَ رَجُلًا فَقُلْتَ : إِنَّهُ لَعَاقِلٌ . كُنْتَ مَدَحْتَهُ عِنْدَ النَّاسِ . وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّهُ لَكَيِّسٌ كُنْتَ قَدْ قَصَّرْتَ بِهِ عَنْ وَصْفِهِ وَصَغَّرْتَ مِنْ قَدْرِهِ . إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِاللُّغَةِ لِأَنَّ الْعَامَّةَ لَا تَلْتَفِتُ إِلَى مَعْنَى الْكَلِمَةِ وَلٰكِنْ إِلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ مِنِ اسْتِعْمَالِهَا فِي الظَّاهِرِ إِذْ كَانَ اسْتِعْمَالُ الْعَامَّةِ لِهٰذِهِ الْكَلِمَةِ مَعَ الْحَدَاثَةِ وَالْغِرَّةِ وَخَسَاسَةِ الْقَدْرِ وَصِغَرِ السِّنِّ . . . فَامْتَثِلْ هٰذِهِ الْمَذَاهِبَ وَاجْرِ عَلَى هٰذِهِ الْقَوَامِ وَتَحَفَّظْ فِي صُدُورِ كُتُبِكَ وَفُصُولِهَا وَخَوَاتِمِهَا وَضَعْ كُلَّ مَعْنًى فِي مَوْضِعٍ يَلِيقُ بِهِ وَتَخَيَّرْ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَعْنًى يُشَاكِلُهَا وَلْيَكُنْ مَا تَخْتِمُ بِهِ فُصُولَكَ فِي مَوْضِعِ ذِكْرِ الْبَلْوَى بِمِثْلِ : (نَسْأَلُ اللّٰهَ دَفْعَ الْمَحْذُورِ وَصَرْفَ الْمَكْرُوهِ) وَأَشْبَاهِ هٰذَا . وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ الْمُصِيبَةِ : إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ النِّعْمَةِ : (الْحَمْدُ لِلّٰهِ خَالِصًا وَالشُّكْرُ لِلّٰهِ وَاجِبًا) . فَإِنَّ هٰذِهِ الْمَوَاضِعَ يَجِبُ عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَتَفَقَّدَهَا وَيَحْتَفِظَ بِهَا . فَإِنَّ الْكَاتِبَ إِنَّمَا يَصِيرُ كَاتِبًا بِأَنْ يَضَعَ كُلَّ مَعْنًى فِي مَوْضِعِهِ فَيُعَلِّقَ كُلَّ لَفْظَةٍ عَلَى طَبَقِهَا مِنَ الْمَعْنَى . وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ فِي الرَّسَائِلِ اسْتِعْمَالُ الِاقْتِصَارِ وَالْحَذْفِ وَمُخَاطَبَةُ الْخَاصِّ بِالْعَامِّ وَالْعَامِّ بِالْخَاصِّ . وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ

أنْ يَجْتَنِبَ اللَّفظَ المُشتَرَكَ وَالمعنَى المُلتَبِسَ . . . وكذلكَ لا يجوزُ أيضاً في الرَّسائلِ والبلاغاتِ المشهورةِ ما يجوزُ في الأشعارِ الموزونةِ لأنَّ الشَّاعِرَ مضطرٌّ والشِّعرَ مقصودٌ مقيَّدٌ بالوزنِ والقوافي. فلذلكَ أجازوا لهُم صرفَ ما لا ينصرفُ مِنَ الأسماءِ وحذفَ ما لا يُحذَفُ منها واغتُفِرَ فيهِ سوءُ النَّظْمِ وأجازوا فيهِ التَّقديمَ والتَّأخيرَ والإضمارَ في موضعِ الإظهارِ وذلكَ كلُّهُ غيرُ سائغٍ في الرَّسائلِ ولا جائزٌ في البلاغاتِ . . . وكذلكَ لا ينبغي في الرَّسائلِ أنْ يُصغَّرَ الاسمُ في موضعِ التَّعظيمِ وإنْ كانَ ذلكَ جائزاً مثلُ قولِهِم : دُوَيهيَةٌ تصغيرُ داهيةٍ . وجُذَيلٌ تصغيرُ جذلٍ . وعُذَيقٌ تصغيرُ عذقٍ . وقالَ لبيدٌ :

وكلُّ أُناسٍ سوفَ تدخلُ بينهم دُوَيهيَةٌ تصفرُّ منها الأناملُ

وقالَ الحُبابُ بنُ المنذرِ يومَ سقيفةِ بني ساعدةَ : أنا عُذَيقُها المُرجَّبُ وجُذَيلُها المُحكَّكُ . وقالَ سرحةُ أبو عُبيدةَ : وممَّا لا يجوزُ في الرَّسائلِ وكرِهوهُ في الكلامِ أيضاً مثلُ قولِهم: كلَّمتُ إيَّاكَ وأعني إيَّاكَ وهو جائزٌ في الشِّعرِ . قالَ الشَّاعرُ :

وأجمِلْ وأحسِنْ في أسيرِكَ إنَّهُ ضعيفٌ ولم يأسِرْ كإيَّاكَ آسِرُ

فتخيَّرْ مِنَ الألفاظِ أرجحَها لفظاً وأجزلَها وأشرفَها جوهراً وأكرمَها حسباً وأليقَها في مكانِها وأشكلَها في موضعِها فإنْ حاولتَ صنعةَ رسالةٍ فزِنِ اللَّفظةَ قبلَ أنْ تُخرِجَها بميزانِ التَّصريفِ إذا عرضَتْ .وعايرِ الكلمةَ بمعيارٍ إذا سنحَتْ. فإنَّهُ ربَّما مرَّ بكَ موضعٌ يكونُ مخرجُ الكلامِ إذا كتبتَ : أنا فاعلٌ. أحسنُ مِنْ أنْ

تكتب : انا افعل . وموضع آخر يكون فيه (استفعلت) احلى من (فعلت) فادر الكلام على اعكانه وقلبه على جميع وجوهه فاي لفظة رأيتها في المكان الذي ندبتها اليه فانزعها الى المكان الذي اوردتها عليه واوقعها فيه . ولا تجعل اللفظة قلقة في موضعها نافرة عن مكانها فانك متى فعلت هجنت الموضع الذي حاولت تحسينه وافسدت المكان الذي اردت اصلاحه فان وضع الالفاظ في غير اماكنها وقصدك بها الى غير مصابها انما هو كترقيع الثوب الذي لم يشابهه رقاعه ولم تتقارب اجزاؤه وخرج من حد الجدة وتغير حسنه . كما قال الشاعر :

ان الجديد اذا ما زيد في خلق   يبين للناس ان الثوب مرقوع

كذلك كلما احلولى الكلام وعذب وراق وسهلت مخارجه كان اسهل وارجى في الاسماع واشد اتصالا بالقلوب واخف على الافواه لا سيما ان كان المعنى البديع مترجما بلفظ مونق شريف ومعايرا بكلام عذب لم يسمه التكليف بميسمه ولم يفسده التعقيد باستهلاكه . . . وقد رأيتهم شبهوا المعنى الخفي بالروح الخفي . واللفظ الظاهر بالجثمان الظاهر . واذا لم ينهض بالمعنى الشريف الجزل لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ولا النظام متسقا . وتضاؤل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضاؤل الحسناء في الاطمار الرثة . وانما يدل على المعنى اربعة اصناف : لفظ واشارة وعقد وخط . وقد ذكر له ارسطاليس صنفا خامسا في كتاب

اَلْمَنْطِقِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلنِّصْبَةَ . وَٱلنِّصْبَةُ ٱلْحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلنَّاطِقَةُ بِغَيْرِ لَفْظٍ وَمُشِيرَةٌ إِلَيْكَ بِغَيْرِ يَدٍ وَذٰلِكَ ظَاهِرٌ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكُلِّ صَامِتٍ وَنَاطِقٍ. وَجَمِيعُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْخَمْسَةِ كَاشِفَةٌ عَنْ أَعْيَانِ ٱلْمَعَانِي وَسَافِرَةٌ عَنْ وُجُوهِهَا وَأَوْضَحُ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ وَأَفْصَحُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ صِنْفَانِ : هُمَا ٱلْقَلَمُ وَٱللِّسَانُ وَكِلَاهُمَا تَرْجُمَانٌ . فَأَمَّا ٱللِّسَانُ فَهُوَ ٱلْآلَةُ ٱلَّتِي يَخْرُجُ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا عَنْ حَدِّ ٱلِٱسْتِبْهَامِ إِلَى حَدِّ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ بِٱلْكَلَامِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ : حَدُّ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْحَيُّ ٱلنَّاطِقُ

البحث الثاني

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع (١)

(من مقدمة ابن خلدون باختصار)

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعِبَارَةُ وَٱلْخِطَابُ إِنَّمَا سِرُّهُ وَرُوحُهُ فِي إِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى . وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُهْمَلًا فَهُوَ كَٱلْمَوَاتِ ٱلَّذِي لَا عِبْرَةَ بِهِ وَكَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ هُوَ ٱلْبَلَاغَةُ عَلَى مَا عَرَفْتَ مِنْ حَدِّهَا عِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هِيَ مُطَابَقَةُ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَمَعْرِفَةُ ٱلشُّرُوطِ وَٱلْأَحْكَامِ ٱلَّتِي بِهَا تُطَابِقُ ٱلتَّرَاكِيبُ ٱللَّفْظِيَّةُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ هُوَ فَنُّ ٱلْبَلَاغَةِ . وَتِلْكَ ٱلشُّرُوطُ وَٱلْأَحْكَامُ تُؤْخَذُ مِنْ عِلْمَيِ

(١) ان هذا الفصل لا يوجد في نسخة مقدمة ابن خلدون المطبوعة في مصر وبيروت بل في طبعة باريز

ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ هُمَا جُزْءَا ٱلْبَلَاغَةِ وَبِهِمَا كَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ وَٱلْمُطَابَقَةُ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ. فَٱلْبَلَاغَةُ عَلَى هٰذَا هِيَ أَصْلُ ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ وَسَجِيَّتُهُ وَرُوحُهُ وَطَبِيعَتُهُ . ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا ٱلْكَلَامَ ٱلْمَطْبُوعَ فَإِنَّهُمْ يَعْنُونَ بِهِ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي كَمُلَتْ طَبِيعَتُهُ وَسَجِيَّتُهُ مِنْ إِفَادَةِ مَدْلُولِهِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ وَخِطَابٌ لَيْسَ ٱلْمَقْصُودُ مِنْهُ ٱلنُّطْقُ فَقَطْ . بَلِ ٱلْمُتَكَلِّمُ يَقْصِدُ بِهِ أَنْ يُفِيدَ سَامِعَهُ مَا فِي ضَمِيرِهِ إِفَادَةً تَامَّةً وَيَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ دَلَالَةً وَثِيقَةً. ثُمَّ يَتْبَعُ تَرَاكِيبَ ٱلْكَلَامِ فِي هٰذِهِ ٱلسَّجِيَّةِ ٱلَّتِي لَهُ بِٱلْأَصَالَةِ ضُرُوبٌ مِنَ ٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّزْيِينِ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِفَادَةِ وَكَأَنَّهَا تُعْطِيهَا رَوْنَقَ ٱلْفَصَاحَةِ مِنْ تَنْمِيقِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِ ٱلْكَلَامِ وَتَقْسِيمِهِ بِٱلْأَقْسَامِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلْأَحْكَامِ وَٱلتَّوْرِيَةِ بِٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ عَنِ ٱلْخَفِيِّ مِنْ مَعَانِيهِ وَٱلْمُطَابَقَةِ بَيْنَ ٱلْمُتَضَادَّاتِ لِيَقَعَ ٱلتَّجَانُسُ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فَيَحْصُلَ لِلْكَلَامِ رَوْنَقٌ وَلَذَّةٌ فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَحَلَاوَةٌ وَجَمَالٌ كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلَى ٱلْإِفَادَةِ . وَهٰذِهِ ٱلصَّنْعَةُ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُعْجِزِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلُ : وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . وَمِثْلُ : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَى وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَى إِلَى آخِرِ ٱلتَّقْسِيمِ . وَكَذَا : فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا إِلَى آخِرِهِ . وَكَذَا : وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . وَأَمْثَالُهُ كَثِيرٌ . وَذٰلِكَ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِفَادَةِ فِي أَصْلِ هٰذِهِ ٱلتَّرَاكِيبِ قَبْلَ وُقُوعِ هٰذَا ٱلْبَدِيعِ فِيهَا . وَكَذَا وَقَعَ فِي كَلَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْهُ لٰكِنْ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّدٍ . وَيُقَالُ

إِنَّهُ وَقَعَ فِي شِعْرِ زُهَيْرٍ . وَأَمَّا ٱلْإِسْلَامِيُّونَ فَوَقَعَ لَهُمْ عَفْوًا وَقَصْدًا وَأَتَوْا مِنْهُ بِٱلْعَجَائِبِ . وَأَوَّلُ مَنْ أَحْكَمَ طَرِيقَتَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ وَٱلْبُحْتُرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ فَقَدْ كَانُوا مُولَعِينَ بِٱلصَّنْعَةِ وَيَأْتُونَ مِنْهَا بِٱلْعَجَبِ . وَقِيلَ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى مُعَانَاتِهَا بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ وَٱبْنُ هَرْمَةَ وَكَانَا آخِرَ مَنْ يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ ٱتَّبَعَهُمَا كُلْثُومُ بْنُ عَمْرٍو وَٱلْعَتَّابِيُّ وَمَنْصُورٌ ٱلنَّمَرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ وَأَبُو نُوَاسٍ . وَجَاءَ عَلَى آثَارِهِمْ حَبِيبٌ وَٱلْبُحْتُرِيُّ . ثُمَّ ظَهَرَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ فَخَتَمَ عَلَى ٱلْبَدِيعِ وَٱلصِّنَاعَةِ أَجْمَعَ

فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُمُ ٱلْمَطْبُوعَ ٱلْفَقِيدَ ٱلصَّنْعَةِ فِي إِحْكَامِ تَأْلِيفِهِ وَثَقَافَةِ تَرْكِيبِهِ فَلَوْ جَاءَتْ فِيهِ ٱلصَّنْعَةُ مِنْ بَعْدِ هٰذَا ٱلْأَصْلِ زَادَتْهُ حُسْنًا . وَأَمَّا ٱلْمَصْنُوعُ فَكَثِيرٌ مِنْ لَدُنْ بَشَّارٍ ثُمَّ حَبِيبٍ وَطَبَقَتِهِمَا ثُمَّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ خَاتَمِ ٱلصَّنْعَةِ ٱلَّذِينَ جَرَى ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بَعْدَهُمْ فِي مَيْدَانِهِمْ وَنَسَجُوا عَلَى مِنْوَالِهِمْ . وَقَدْ تَعَدَّدَتْ أَصْنَافُ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ عِنْدَ أَهْلِهَا وَٱخْتَلَفَتِ ٱصْطِلَاحَاتُهُمْ فِي أَلْقَابِهَا . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَجْعَلُهَا مُنْدَرِجَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى أَنَّهَا غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي ٱلْإِفَادَةِ وَإِنَّمَا هِيَ تُعْطِي ٱلتَّحْسِينَ وَٱلرَّوْنَقَ . وَأَمَّا ٱلْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَدِيعِ فَهِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْبَلَاغَةِ وَلِذٰلِكَ يَذْكُرُونَهَا فِي ٱلْفُنُونِ ٱلْأَدَبِيَّةِ ٱلَّتِي لَا مَوْضُوعَ لَهَا . وَهِيَ رَأْيُ ٱبْنِ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ ٱلْعُمْدَةِ لَهُ وَأُدَبَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ . وَذَكَرُوا فِي ٱسْتِعْمَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ شُرُوطًا مِنْهَا أَنْ تَقَعَ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ فِيمَا يُقْصَدُ مِنْهَا . وَأَمَّا ٱلْعَفْوُ فَلَا كَلَامَ فِيهِ

لِأَنَّهَا إِذَا بَرِئَتْ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ سَلِمَ ٱلْكَلَامُ مِنْ عَيْبِ ٱلْإِسْتِهْجَانِ لِأَنَّ تَكَلُّفَهَا وَمُعَانَاتَهَا يَصِيرُ إِلَى ٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْأَصْلِيَّةِ لِلْكَلَامِ فَتُخِلُّ بِٱلْإِفَادَةِ مِنْ أَصْلِهَا وَتَذْهَبُ بِٱلْبَلَاغَةِ رَأْساً وَلَا يَبْقَى فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا تِلْكَ ٱلتَّحْسِينَاتُ. وَهٰذَا هُوَ ٱلْغَالِبُ ٱلْيَوْمَ عَلَى أَهْلِ ٱلْعَصْرِ وَأَصْحَابِ ٱلْأَذْوَاقِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ يَسْخَرُونَ مِنْ كَلَفِهِمْ بِهٰذِهِ ٱلْفُنُونِ وَيَعُدُّونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقُصُورِ عَنْ سِوَاهُ. ثُمَّ مِنْ شُرُوطِ ٱسْتِعْمَالِهَا عِنْدَهُمْ ٱلْإِقْلَالُ مِنْهَا وَأَنْ تَكُونَ فِي بَيْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنَ ٱلْقَصِيدِ فَتَكْفِي فِي زِينَةِ ٱلشِّعْرِ وَرَوْنَقِهِ وَٱلْإِكْثَارُ مِنْهَا عَيْبٌ. قَالَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ وَغَيْرُهُ. وَكَانَ شَيْخُنَا أَبُو ٱلْقَسِمِ ٱلشَّرِيفُ ٱلسَّبْتِيُّ مُنْفِقُ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْأَنْدَلُسِ لِوَقْتِهِ يَقُولُ: هٰذِهِ ٱلْفُنُونُ ٱلْبَدِيعَةُ إِذَا وَقَعَتْ لِلشَّاعِرِ أَوْ لِلْكَاتِبِ فَيَقْبُحُ أَنْ يُسْتَكْثَرَ مِنْهَا لِأَنَّهَا مِنْ مُحَسِّنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمُزَيِّنَاتِهِ فَهِيَ بِمَثَابَةِ ٱلْخِيلَانِ فِي ٱلْوَجْهِ يَحْسُنُ بِٱلْوَاحِدِ وَٱلِٱثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَقْبُحُ بِتَعْدَادِهَا وَعَلَى نِسْبَةِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْظُومِ هُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَنْثُورُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ كَانَ أَوَّلاً مُرْسَلاً مُعْتَبَرَ ٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِهِ وَتَرَاكِيبِهِ. شَاهِدَةً مُوَازَنَتُهُ بِفَوَاصِلِهِ مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ سَجْعٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ بِصَنْعَةٍ. حَتَّى نَبَغَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِلَالٍ ٱلصَّابِئُ كَاتِبُ بَنِي بُوَيْهِ فَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ وَٱلتَّقْفِيَةَ وَأَتَى مِنْ ذٰلِكَ بِٱلْعَجَبِ وَعَابَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ كَلَفَهُ بِذٰلِكَ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ. وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِي مُلُوكِهِ مِنَ ٱلْعُجْمَةِ وَٱلْبُعْدِ عَنْ صَوْلَةِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْمُنْفِقَةِ لِسُوقِ ٱلْبَلَاغَةِ. ثُمَّ ٱنْتَشَرَتِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي مَنْثُورِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَنُسِيَ عَهْدُ ٱلتَّرْسِيلِ وَتَشَابَهَتِ ٱلسُّلْطَانِيَّاتُ

وَٱلْاخْوَانِيَّاتُ وَٱلْعَرِبِيَّاتُ بِٱلسُّوقِيَّاتِ وَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ . وَهٰذَا كُلُّهُ يَدُلُّكَ عَلَى اَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْمَصْنُوعَ بِٱلْمُعَانَاةِ وَٱلتَّكْلِيفِ قَاصِرٌ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَطْبُوعِ لِقِلَّةِ ٱلْاكْتِرَاثِ فِيهِ بِاَصْلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَٱلْحَاكِمُ فِي ذٰلِكَ ٱلذَّوْقُ

البحث الثالث

في السجع وانواعهِ

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٧٢من علم الادب)

كَلِمَاتُ ٱلْاسْجَاعِ مَوْضُوعَةٌ عَلَى اَنْ تَكُونَ سَاكِنَةَ ٱلْاعْجَازِ مَوْقُوفًا عَلَيْهَا لِاَنَّ ٱلْغَرَضَ اَنْ يُجَانَسَ بَيْنَ ٱلْقَرَائِنِ وَيُزَاوَجَ بَيْنَهَا وَلَا يَتِمُّ ذٰلِكَ اِلَّا بِٱلْوَقْفِ . اَلَا تَرَى اَنَّ قَوْلَهُمْ: مَا اَبْعَدَ مَا فَاتْ . وَمَا اَقْرَبَ مَا هُوَ آتْ. لَوْ اُعْطِيَ اَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ مَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ ٱلْاعْرَابِ لَاخْتَلَفَ اَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ وَفَاتَ ٱلسَّاجِعَ غَرَضُهُ. وَاِذَا رَاَيْنَاهُمْ يُخْرِجُونَ ٱلْكَلِمَةَ عَنْ اَوْضَاعِهَا لِلْازْدِوَاجِ فَيَقُولُونَ آتِيكَ بِٱلْغَدَوَاءِ اَوْ بِٱلْعَشَاءِ . وَهَنَاَنِي ٱلطَّعَامُ وَمَرَاَنِي . وَٱنْصَرِفْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ يُرِيدُونَ : ٱلْغَدَوَاتِ وَٱمْرَاَنِي وَمَوْزُورَاتٍ . مَعَ اَنَّ فِيهِ ٱرْتِكَابًا لِمُخَالَفَةِ ٱللُّغَةِ . وَكَذٰلِكَ : اَعْطِ ٱلْقَوْسَ بَارِيهَا . وَفِيهِ تَرْكُ ٱلْاعْرَابِ مِنْ اَثْنَاءِ ٱلْكَلِمَةِ فَمَا ٱلظَّنُّ بِاَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ ٱلْمُشَبَّهَةِ بِٱلْقَوَافِي . وَٱلْاوْلَى اَنْ يُقَالَ فِي اَوَاخِرِ ٱلْابْيَاتِ ٱلْفَوَاصِلُ اِذَا عُرِفَ هٰذَا

فَالْأَسْجَاعُ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ : اَلتَّرْصِيعُ وَالْمُتَوَازِي وَالْمُطَرَّفُ وَالْمُتَوَازِنُ.
أَمَّا (التَّرْصِيعُ) فَهُوَ أَنْ تَكُونَ الْأَلْفَاظُ مُسْتَوِيَةَ الْأَوْزَانِ مُتَّفِقَةَ الْأَعْجَازِ كَقَوْلِهِ: إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ . وَقَوْلِهِ : إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ . وَقَوْلِهِ: اَللَّهُمَّ اقْبَلْ تَوْبَتِي وَاغْسِلْ حَوْبَتِي . وَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ يَفْتَخِرُ بِالْهِمَمِ الْعَالِيَةِ . لَا بِالرِّمَمِ الْبَالِيَةِ. وَقَوْلِهِمْ: حَتَّى عَادَ تَعْرِيضُكَ وَتَمْرِيضُكَ تَصْحِيحًا . وَمِنَ النَّظْمِ قَوْلُ الْخَنْسَاءِ :

حَامِي الْحَقِيقَةِ مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ مَهْدِيُّ الطَّرِيقَةِ نَفَّاعٍ وَضَرَّارِ
جَوَّابِ قَاصِيَةٍ جَزَّازِ نَاصِيَةٍ عَقَّادِ أَلْوِيَةٍ لِلْخَيْلِ جَرَّارِ

وَكَقَوْلِ أَبِي فِرَاسٍ :

وَأَفْعَالُنَا لِلرَّاغِبِينَ كَرِيمَةٌ وَأَمْوَالُنَا لِلطَّالِبِينَ نِهَابُ

وَقَوْلِ الْأَبِيوَرْدِيِّ :

يَرُوحُ إِلَيْهِمْ عَازِبُ الْحَمْدِ وَافِيًا وَيَغْدُو عَلَيْهِمْ طَالِبُ الرِّفْدِ عَافِيَا

وَقَدْ يَجِيءُ مَعَ التَّجْنِيسِ كَقَوْلِهِمْ : إِذَا قَلَّتِ الْأَنْصَارُ كَلَّتِ الْأَبْصَارُ . وَمَا وَرَاءَ الْخَلْقِ الدَّمِيمِ إِلَّا الْخُلُقُ الذَّمِيمُ . وَمِنَ النَّظْمِ قَوْلُ الْمُطَرِّزِيِّ :

وَدَرَّ جَلَالِهِ أَبَدًا ثَمِينٌ وَدَرَّ نَوَالِهِ أَبَدًا غَزِيرُ

(وَالْمُتَوَازِي) وَهُوَ أَنْ يُرَاعَى فِي الْكَلِمَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ مِنَ الْقَرِينَتَيْنِ الْوَزْنُ مَعَ اتِّفَاقِ الْحَرْفِ الْآخِرِ مِنْهُمَا كَقَوْلِهِ: فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ . وَقَوْلِهِ : اَللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا .

وَاعطِ مُمسكًا تلفًا. وقولِ ٱلْحَرِيرِيّ : ٱلْجَانِي حُكمُ دَهرٍ قَاسِطٍ. إِلَى أَنْ أَنْتَجِعَ أَرضَ وَاسِطٍ . وَقَوْلِهِ : وَأَوْدَى ٱلنَاطِقُ وَٱلصَّامِتُ . وَرَثَى لَنَا ٱلْحَاسِدُ وَٱلشَّامِتُ . (وَٱلْمُطَرَّفُ) وهُوَ أَنْ يُرَاعَى ٱلْحَرفُ ٱلْأَخِيرُ فِي كِلتَا قَرِينَتَيْهِ مِنْ غَيْرِ مُرَاعَاةِ ٱلْوَزْنِ . كَقَوْلِهِ : مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا . وَقَوْلِهِمْ : جِيَامُهُ مَحَطُّ ٱلرِّحَالِ. وَمُخَيَّمُ ٱلْآمَالِ . (وَٱلْمُتَوَازِنُ) وَهُوَ أَنْ يُرَاعَى فِي ٱلْكَلِمَتَيْنِ ٱلْأَخِيرَتَيْنِ مِنَ ٱلْقَرِينَتَيْنِ ٱلْوَزْنُ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱلْحَرْفِ ٱلْآخِرِ مِنْهُمَا . كَقَوْلِهِ : وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ . وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ . وَقَوْلِهِمْ : اِصْبِرْ عَلَى حَرِّ ٱلْقِتَالِ . وَمَضَضِ ٱلنِّزَالِ . وَشِدَّةِ ٱلْمَصَاعِ وَمُدَاوَمَةِ ٱلْمِرَاسِ . فَإِنْ رَاعَى ٱلْوَزْنَ فِي جَمِيعِ كَلِمَاتِ ٱلْقَرَائِنِ أَوْ أَكْثَرِهَا وَقَابَلَ ٱلْكَلِمَةَ مِنْهَا بِمَا تُعَادِلُهَا وَزْنًا كَانَ أَحْسَنَ . كَقَوْلِهِ : وَآتَيْنَاهُمَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . وَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيّ : أَسْوَدُ يَوْمِي ٱلْأَبْيَضُ وَأَبْيَضُ يَوْمِي ٱلْأَسْوَدُ . وَيُسَمَّى هٰذَا فِي ٱلشِّعْرِ ٱلْمُوَازَنَةَ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيّ :

فَقِفْ مُسْعِدًا فِيهِنَّ إِنْ كُنْتَ عَاذِرًا
وَسِرْ مُبْعِدًا عَنْهُنَّ إِنْ كُنْتَ عَاذِلَا

وَمِمَّا هُوَ شَرْطُ ٱلْحُسْنِ فِي هٰذَا ٱلْمُحَافَظَةُ عَلَى تَنَاسُبِهِ وَهُوَ ٱسْمٌ جَامِعٌ لِلْمُلَاءَمَةِ وَٱلتَّنَاسُبِ . فَٱلْمُلَاءَمَةُ تَأْلِيفُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُوَافِيَةِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ فِي ضَرْبِ ٱلْاِعْتِدَالِ . كَقَوْلِ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلْمَرْءُ إِلَّا كَٱلشِّهَابِ وَضَوْئِهِ ... يَعُودُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

وَمَا ٱلْمَالُ وَٱلْاَهْلُونَ اِلَّا وَدِيعَةٌ ... وَلَا بُـدَّ يَوْمًا اَنْ تُرَدَّ ٱلْوَدَائِعُ

وَبَعْضُهُمْ يَعُدُّ ٱلتَّلْفِيقَ مِنْ بَابِ ٱلْمُلَاءَمَـةِ وَهُوَ اَنْ يَضُمَّ اِلَى ذِكْرِ ٱلشَّيْءِ مَا يَلِيقُ بِهِ وَيَجْرِي مَجْرَاهُ وَاَنْ يَجْمَعَ ٱلْاُمُورَ ٱلْمُتَنَاسِبَةَ وَيُقَالُ لَهُ مُرَاعَاةُ ٱلنَّظِيرِ اَيضًا. وَٱلتَّنَاسُبُ هُوَ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُتَآخِيَةِ ٱلَّتِي تَتَلَاءَمُ وَلَا تَتَنَافَرُ . كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

وَٱلرِّفْقُ يُمْنٌ وَٱلْاَنَاةُ سَعَادَةٌ ... فَتَانَّ فِي رِفْقٍ تَنَالَ نَجَاحَا

وَٱلْيَأْسُ مِمَّا فَاتَ يُعْقِبُ رَاحَةً ... وَلَرُبَّ مَطْعَمَةٍ تَعُودُ ذُبَاحَا

وَيُسَمَّى ٱلتَّشَابُهَ اَيضًا . وَقِيلَ ٱلتَّشَابُهُ اَنْ تَكُونَ ٱلْاَلْفَاظُ غَيْرَ مُتَبَايِنَةٍ بَلْ مُتَقَارِبَةً فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلرِّقَّةِ وَٱلْمَتَانَةِ وَٱلسَّلَاسَةِ وَتَكُونُ ٱلْمَعَانِي مُنَاسِبَةً لِاَلْفَاظِهَا مِنْ غَيْرِ اَنْ يُكْسَى ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ ٱلْمَعْنَى ٱلسَّخِيفَ اَوْ عَلَى ٱلضِّدِّ بَلْ يُصَاغَانِ مَعًا صِيَاغَةَ تَنَاسُبٍ وَتَلَاؤُمٍ حَتَّى لَا يَكُونَ ٱلْكَلَامُ كَمَا قِيلَ :

وَبَعْضُ قَرِيضِ ٱلْمَرْءِ اَوْلَادُ عِلَّةٍ ... يَكُدُّ لِسَانَ ٱلنَّاطِقِ ٱلْمُتَحَفِّظِ

البحث الرابع

في اقسام السجع وضروبه

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٧٣ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ ٱلسَّجْعَ قَدْ يَنْقَسِمُ اِلَى ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ : ٱلْاَوَّلُ اَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلَانِ مُتَسَاوِيَيْنِ لَا يَزِيدُ اَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ كَقَوْلِهِ :

وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَٱلْمُورِيَاتِ قَدْحًا . فَٱلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا . فَوَسَطْنَا بِهِ جَمْعًا . أَلَا تَرَى كَيْفَ جَاءَتْ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ مُتَسَاوِيَةَ ٱلْأَجْزَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا أُفْرِغَتْ فِي قَالَبٍ وَاحِدٍ . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ وَهُوَ أَشْرَفُ ٱلسَّجْعِ مَنْزِلَةً لِلْاعْتِدَالِ ٱلَّذِي فِيهِ

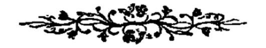
ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي أَطْوَلَ مِنَ ٱلْأَوَّلِ لَا طُولًا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ ٱلِاعْتِدَالِ خُرُوجًا كَثِيرًا فَإِنَّهُ يَقْبُحُ عِنْدَ ذٰلِكَ وَيُسْتَكْرَهُ وَيُعَدُّ عَيْبًا . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : بَلْ كَذَّبُوا بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْفَصْلَ ٱلْأَوَّلَ ثَمَانِي لَفَظَاتٍ وَٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِيَ وَٱلثَّالِثَ تِسْعٌ تِسْعٌ . وَيُسْتَثْنَى مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ مَا كَانَ مِنَ ٱلسَّجْعِ عَلَى ثَلَاثِ قِقَرٍ فَإِنَّ ٱلْقِقْرَتَيْنِ ٱلْأُولَيَيْنِ تُحْسَبَانِ فِي عِدَّةٍ وَاحِدَةٍ . ثُمَّ تَأْتِي ٱلثَّالِثَةُ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ طَوِيلَةً طُولًا يَزِيدُ عَلَيْهَا فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأُولَى وَٱلثَّانِيَةُ أَرْبَعَ لَفَظَاتٍ تَكُونُ ٱلثَّالِثَةُ عَشْرَ لَفَظَاتٍ أَوْ إِحْدَى عَشْرَةَ . إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَجْعَلَ ذٰلِكَ قِيَاسًا مُطَّرِدًا فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ أَيْنَ وَقَعَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَلْ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلْجَوَازَ يَعُمُّ ٱلْجَانِبَيْنِ مِنَ ٱلتَّسَاوِي فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ وَمِنْ زِيَادَةِ ٱلسَّجْعَةِ ٱلثَّالِثَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ ثَلَاثُ سَجَعَاتٍ مُتَسَاوِيَاتٍ كَقَوْلِهِ : وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . فَهٰذِهِ ٱلسَّجَعَاتُ كُلُّهَا مِنْ لَفْظَتَيْنِ لَفْظَتَيْنِ وَلَوْ جُعِلَتِ

ٱلثَّالِثَةُ مِنهَا خَمسَ لَفظَاتٍ اوْ سِتا لِمَا كَانَ ذٰلِكَ مَعِيباً

ٱلْقِسمُ ٱلثَّالِثُ انْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلآخِرُ اقْصَرَ مِنَ ٱلاوَّلِ وَهُوَ عِنْدِي عَيبٌ فَاحِشٌ . وَسَبَبُ ذٰلِكَ : انَّ ٱلسَّجعَ يَكُونُ قَدِ ٱستَوفَى امَدَهُ مِنَ ٱلْفَصْلِ ٱلاوَّلِ بِحُكْمِ طُولِهِ . ثُمَّ يَجِيءُ ٱلْفَصلُ ٱلثَّانِي قَصِيرًا عَنِ ٱلاوَّلِ فَيَكُونُ كَالشَّيْءِ ٱلْمَبْتُورِ فَيَبْقَى ٱلإِنسَانُ عِندَ سَمَاعِهِ كَمَنْ يُرِيدُ ٱلِانْتِهَاءَ اِلَى غَايَةٍ فَيَعْثُرُ دُونَهَا

وَاِذَا ٱنْتَهَينَا اِلَى هٰهُنَا وَبَيَّنَّا اقْسَامَ ٱلسَّجعِ وَلُبَّهُ وَقُشُورَهُ فَنَقُولُ فِيهِ قَوْلًا كُلِّيًا وَهُوَ انَّ ٱلسَّجعَ عَلَى ٱخْتِلَافِ اقْسَامِهِ ضَرْبَانِ : احَدُهُمَا يُسَمَّى ٱلسَّجعَ ٱلْقَصِيرَ وَهُوَ انْ تَكُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلسَّجعَتَينِ مُؤَلَّفَةً مِنْ الْفَاظٍ قَلِيلَةٍ وَكُلَّمَا قَلَّتِ ٱلالْفَاظُ كَانَ احْسَنَ لِقُرْبِ ٱلْفَوَاصِلِ ٱلْمَسْجُوعَةِ مِنْ مَسْمَعِ ٱلسَّامِعِ . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ اوْعَرُ ٱلسَّجعِ مَذْهَبًا وَابْعَدُهُ مُتَنَاوَلًا وَلَا يَكَادُ ٱستِعمَالُهُ يَقَعُ اِلَّا نَادِرًا . وَٱلضَّرْبُ ٱلآخَرُ يُسَمَّى ٱلسَّجعَ ٱلطَّوِيلَ وَهُوَ ضِدُّ ٱلاوَّلِ لِانَّهُ اسهَلُ مُتَنَاوَلًا . وَاِنَّمَا كَانَ ٱلْقَصِيرُ مِنَ ٱلسَّجعِ اوْعَرَ مَسْلَكًا مِنَ ٱلطَّوِيلِ لِانَّ ٱلْمَعْنَى اِذَا صِيغَ بِالْفَاظٍ قَصِيرَةٍ عَزَّ مُوَاتَاةُ ٱلسَّجعِ فِيهِ لِقِصَرِ تِلْكَ ٱلالْفَاظِ وَضِيقِ ٱلْمَجَالِ فِي ٱستِجلَابِهِ . وَامَّا ٱلطَّوِيلُ فَاِنَّ ٱلالْفَاظَ تَطُولُ فِيهِ وَيُستَجلَبُ لَهُ ٱلسَّجعُ مِنْ حَيْثُ لَيسَ كَمَا يُقَالُ وَكَانَ ذٰلِكَ سَهلًا . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلضَّرْبَيْنِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهُ فِي عِدَّةِ ٱلالْفَاظِ . امَّا ٱلسَّجعُ ٱلْقَصِيرُ فَاحْسَنُهُ مَا كَانَ مُؤَلَّفًا مِنْ لَفظَتَيْنِ لَفظَتَيْنِ كَقَوْلِهِ : وَٱلْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا . فَٱلْعَاصِفَاتِ عَصْفًا . وَقَوْلِهِ : يَا ايُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ

فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مُؤَلَّفًا مِنْ ثَلَاثَةِ أَلْفَاظٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسَةٍ وَكَذٰلِكَ إِلَى ٱلْعَشَرَةِ . وَمَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ فَهُوَ مِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا : سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ . وَأَمَّا ٱلسَّجْعُ ٱلطَّوِيلُ فَإِنَّ دَرَجَاتِهِ تَتَفَاوَتُ فِي ٱلطُّولِ أَيْضًا فَمِنْهُ مَا يَقْرُبُ مِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلْقَصِيرِ . وَهُوَ أَنْ يَكُونَ تَأْلِيفُهُ مِنْ إِحْدَى عَشْرَةَ إِلَى ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَأَكْثَرُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَفْظَةً كَقَوْلِهِ : وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . فَٱلْأُولَى إِحْدَى عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَٱلثَّانِيَةُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَمِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ مَا يَكُونُ تَأْلِيفُهُ مِنَ ٱلْعِشْرِينَ لَفْظَةً فَمَا حَوْلَهَا كَقَوْلِهِ : إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللّٰهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلٰكِنَّ ٱللّٰهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللّٰهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ . وَمِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ أَيْضًا مَا يَزِيدُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْعِدَّةِ ٱلْمَذْكُورَةِ وَهُوَ غَيْرُ مَضْبُوطٍ



البحث الخامس

في الايجاز

(عن المثل السائر وكتاب الصناعتين وغيرهما)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْايجازُ حذفُ زِيادَاتِ ٱلْالْفاظِ وَهٰذَا نَوعٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ شَرِيفٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ اِلَّا فُرْسَانُ ٱلْبَلَاغَةِ مَنْ سَبَقَ اِلَى غَايَتِهَا وَمَا صَلَّى. وَضَرَبَ فِي اَعْلَى دَرَجَاتِهَا بِالْقِدْحِ ٱلْمُعَلَّى. وَذٰلِكَ لِعُلوّ مَكَانِهِ. وَتَعذُّرِ اِمْكَانِهِ وَٱلنَّظَرُ فِيهِ اِنَّمَا هُوَ اِلَى ٱلْمَعَانِي لَا اِلَى ٱلْالْفَاظِ. وَلَسْتُ اَعْنِي بِذٰلِكَ اَنْ تُهمَلَ ٱلْالْفَاظُ بِحَيْثُ تَعْرَى عَنْ اَوصَافِهَا ٱلْحَسَنَةِ بَلْ اَعْنِي اَنَّ مَدَارَ ٱلنَّظَرِ فِي هٰذَا ٱلنَّوعِ اِنَّمَا يَخْتَصُّ بِٱلْمَعَانِي. فَرُبَّ لَفْظٍ قَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى كَثِيرٍ. وَرُبَّ لَفظٍ كَثِيرٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى قَلِيلٍ. وَمِثَالُ هٰذَا كَٱلْجَوهَرَةِ ٱلْوَاحِدَةِ بِٱلنِّسبَةِ اِلَى ٱلدَّرَاهِمِ. فَمَنْ يَنظُرُ اِلَى طُولِ ٱلْالْفَاظِ يُؤْثِرُ ٱلدَّرَاهِمَ لِكَثْرَتِهَا. وَمَنْ يَنظُرُ اِلَى شَرَفِ ٱلْمَعَانِي يُؤْثِرُ ٱلْجَوهَرَةَ ٱلْوَاحِدَةَ لِنَفَاسَتِهَا. قَالَ اَصْحَابُ ٱلْايجَازِ: ٱلْايجَازُ قُصُورُ ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَمَا تَجَاوَزَ مِقْدَارَ ٱلْحَاجَةِ فَهُوَ فَضْلٌ دَاخِلٌ فِي بَابِ ٱلْهَذَرِ وَٱلْخَطَلِ وَهُمَا مِنْ اَعْظَمِ اَدْوَاءِ ٱلْكَلَامِ وَفِيهِمَا دَلَالَةٌ عَلَى بَلَادَةِ صَاحِبِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَفِي تَفْضِيلِ ٱلْايجَازِ يَقُولُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى لِكُتَّابِهِ: اِنْ قَدَرْتُمْ اَنْ تَجْعَلُوا كُتُبَكُمْ تَوقِيعَاتٍ فَافْعَلُوا. وَقَالَ

بَعضُهم : اَلزِّيادَةُ فِي اَلْحَدِّ نُقصانٌ . وَقالَ مُحَمَّدٌ اَلامِينُ : عَلَيكُم بِالْإِيجازِ فَإِنَّ لَهُ إِفهاماً وَلِلْإِطالَةِ اَستِبهاماً . وَقالَ شَبِيبُ بنُ شَيبَةَ : اَلْقَلِيلُ اَلْكافِ خَيرٌ مِن كَثِيرٍ غَيرِ شافٍ . وَقالَ آخَرُ : إِذا طالَ اَلْكَلامُ عَرَضَتْ لَهُ اَسبابُ اَلتَّكَلُّفِ وَلا خَيرَ فِي شَيْءٍ يَأْتِي بِهِ اَلتَّكَلُّفُ . وَقِيلَ لِبَعضِهِم : مَا اَلْبَلاغَةُ . فَقالَ : اَلْإِيجازُ . قِيلَ : وَمَا اَلْإِيجازُ . قالَ : حَذفُ اَلْفُضُولِ وَتَقرِيبُ اَلْبَعِيدِ . وَقِيلَ لِبَعضِهِم : لِمَ لا تُطِيلُ اَلشِّعرَ . فَقالَ : حَسبُكَ مِنَ اَلْقِلادَةِ ما اَحاطَ بِالْعُنُقِ . وَقِيلَ ذٰلِكَ لِآخَرَ . فَقالَ : لَستُ اَبِيعُهُ مُذارَعَةً . وَقِيلَ لِلْفَرَزدَقِ : مَا صَيَّرَكَ إِلَى اَلْقِصارِ بَعدَ اَلطِّوالِ . قالَ : لِأَنِّي رَأَيتُها فِي اَلصُّدُورِ اَوقَعَ وَفِي اَلْمَحافِلِ اَجوَلَ . وَقالَتْ بِنتُ اَلْحُطَيئَةِ لِأَبِيها : ما بالُ قِصارِكَ اَكثَرُ مِن طِوالِكَ . قال : لِأَنَّها بِالْآذانِ اَولَجُ وَبِالْأَفواهِ اَعلَقُ . وَقالَ اَبُو سُفيانَ لِأَبنِ اَلزِّبَعرَى : قَصَّرتَ فِي شِعرِكَ . قالَ : حَسبُكَ مِنَ اَلشِّعرِ غُرَّةٌ لائِحَةٌ وَسِمَةٌ واضِحَةٌ . وَقِيلَ لِلنّابِغَةِ اَلذُّبيانِي : اَلا تُطِيلُ اَلْقَصائِدَ كَما اَطالَ صاحِبُكَ اَبنُ حُجرٍ . قالَ : مَنِ اَنتَحَلَ اَنتَقَرَ . وَقِيلَ لِبَعضِ اَلْمُحَدَّثِينَ : مالَكَ لا تَزِيدُ عَلَى اَربَعَةٍ وَاَثنَينِ . قالَ : هِيَ بِالْقُلُوبِ اَوقَعُ وَإِلَى اَلْحِفظِ اَسرَعُ وَبِالْأَلسُنِ اَعلَقُ وَلِلْمَعانِي اَجمَعُ وَصاحِبُها اَبلَغُ وَاَوجَزُ . وَقِيلَ لِأَبنِ حازِمٍ : اَلا تُطِيلُ اَلْقَصائِدَ . فَقالَ :

اَبَى لِي اَن اُطِيلَ اَلشِّعرَ قَصدِي ... إِلَى اَلْمَعنَى وَعِلمِي بِالصَّوابِ
وَإِيجازِي بِمُختَصَرٍ قَرِيبٍ ... حَذَفتُ بِهِ اَلْفُضُولَ مِنَ اَلْجَوابِ

فَابعثهن اربعة وستا متفقة بالفاظ عذاب
وهن اذا وسمت بهن قوما كاطواق الحمائم في الرقاب

وقال عليّ : ما رأيت بليغا قط الا وله في القول ايجاز وفي المعاني اطالة . وقيل لإياس بن معاوية : ما فيك عيب غير انك كثير الكلام . قال : اتسمعون صوابا ام خطأ . قالوا بل صوابا . قال : فالزيادة من الخير خير . وليس كما قال لان للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية . وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا الى الاستثقال وصار سببا للملال فذلك الهذر والاسهاب والخطل وهو معيب عند كل لبيب . وقال بعضهم : البلاغة بالايجاز انجع من البيان بالاطناب . وقالوا : المكثار كحاطب الليل . ومثل الايجاز الحسن كقوله : وخذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . فجمع جميع مكارم الاخلاق بأسرها . لان في العفو صلة القاطعين والصفح عن الظالمين واعطاء المانعين . وفي الامر بالعرف تقوى الله وصلة الرحم وصون اللسان عن الكذب وغض الطرف عن الحرمات والتبرؤ من كل قبيح لانه لا يجوز ان يأمر بالمعروف وهو يلابس شيئا من المنكر . وفي الاعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مقابلة السفيه بما يوتغ الدين ويسقط القدرة . وقوله : حبك الشيء يعمي ويصم . وقوله ان من البيان لسحرا . وقوله : نية المؤمن خير من عمله . وقوله : ترك الشر صدقة . فمعاني هذا الكلام اكثر من الفاظه . واذا اردت ان تعرف صحة ذلك

فَحُلَّهَا وَأَبْنِهَا بِنَاءً آخَرَ فَإِنَّكَ تَجِدُهَا تَجِيءُ فِي أَضْعَافِ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ .
وَقَوْلُهُ : إِذَا أَعْطَاكَ ٱللهُ خَيْرًا فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ مِنَ ٱلْفَضْلِ وَلَا تُلَمْ عَلَى ٱلْكَفَافِ وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ . فَقَوْلُهُ : (فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ) أَيْ فَلْيَظْهَرْ أَثَرُهُ عَلَيْكَ بِٱلصَّدَقَةِ وَٱلْمَعْرُوفِ وَدَلَّ عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : (وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ مِنَ ٱلْفَضْلِ) أَيِ ٱكْسِرْ مِنْ مَالِكَ وَأَعْطِهِ) وَٱسْمُ ٱلشَّيْءِ ٱلرَّضِيخَةُ (وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ) أَيْ لَا تَجْمَعْ لِغَيْرِكَ وَتَبْخَلْ عَنْ نَفْسِكَ فَلَا تُقَدِّمْ خَيْرًا .
وَقَوْلُ أَعْرَابِيٍّ : أُولٰئِكَ قَوْمٌ جَعَلُوا أَمْوَالَهُمْ مَنَادِيلَ لِأَعْرَاضِهِمْ فَٱلْخَيْرُ بِهِمْ زَائِدٌ وَٱلْمَعْرُوفُ لَهُمْ شَاهِدٌ . أَيْ يَقُونَ أَعْرَاضَهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ .
وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ يَسُوقُ مَالًا كَثِيرًا : لِمَنْ هٰذَا ٱلْمَالُ . فَقَالَ : لِلهِ فِي يَدِي . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ يَمْدَحُهُ : إِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ ٱللهَ مَادَّتُهُ . وَقَوْلُ آخَرَ : أَمَّا بَعْدُ فَعِظِ ٱلنَّاسَ بِفِعْلِكَ وَلَا تَعِظْهُمْ بِقَوْلِكَ وَٱسْتَحْيِ مِنَ ٱللهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ.وَخَفْهُ بِقَدْرِ قُدْرَتِهِ عَلَيْكَ.
وَقَالَ آخَرُ : إِنْ شَكَكْتَ فِيَّ فَٱسْأَلْ قَلْبَكَ عَنِّي

وَٱعْلَمْ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ مُدَّعِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : فَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلْإِيجَازُ كَٱلْأَشْعَارِ وَٱلْمُكَاتَبَاتِ . وَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلتَّطْوِيلُ كَٱلْخُطَبِ وَٱلتَّقْلِيدَاتِ وَكُتُبِ ٱلْفُتُوحِ ٱلَّتِي تُقْرَأُ فِي مَلَإٍ مِنْ عَوَامِّ ٱلنَّاسِ . فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا طَالَ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ أَثَّرَ عِنْدَهُمْ وَأَفْهَمَهُمْ وَلَوِ ٱقْتُصِرَ فِيهِ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِشَارَةِ لَمْ يَقَعْ لِأَكْثَرِهِمْ حَتَّى يُقَالَ فِي ذِكْرِ ٱلْحَرْبِ : ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَتَطَاعَنَ

ٱلْفَرِيقَانِ وَٱشْتَدَّ ٱلْقِتَالُ وَحَمِيَ ٱلنِّصَالُ وَمَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى. وَٱلْمَذْهَبُ عِنْدِي فِي ذٰلِكَ مَا أَذْكُرُهُ : وَهُوَ أَنَّ فَهْمَ ٱلْعَامَّةِ لَيْسَ شَرْطًا مُعْتَبَرًا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْكَلَامِ. لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ شَرْطًا لَوَجَبَ عَلَى قِيَاسِهِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْعَامِّيَّةَ ٱلْمُبْتَذَلَةَ عِنْدَهُمْ لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَقْرَبَ إِلَى فَهْمِهِمْ. لِأَنَّ ٱلْعِلَّةَ فِي ٱخْتِيَارِ تَطْوِيلِ ٱلْكَلَامِ إِذَا كَانَتْ فَهْمُ ٱلْعَامَّةِ إِيَّاهُ فَكَذٰلِكَ تُجْعَلُ تِلْكَ ٱلْعِلَّةُ بِعَيْنِهَا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْمُبْتَذَلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ فِي أَنَّ ٱلْعَامَّةَ إِلَى فَهْمِهِ أَقْرَبُ مِنْ فَهْمِ مَا يَقِلُّ ٱبْتِذَالُهُمْ إِيَّاهُ. وَهٰذَا شَيْءٌ مَدْفُوعٌ وَأَمَّا ٱلَّذِي يَجِبُ تَوَخِّيهِ وَٱعْتِمَادُهُ فَهُوَ أَنْ يُسْلَكَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْقَوِيمُ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى ٱلْمَعَانِي بِحَيْثُ لَا تَزِيدُ هٰذِهِ عَلَى هٰذِهِ مَعَ ٱلْإِيضَاحِ وَٱلْإِبَانَةِ وَلَيْسَ عَلَى مُسْتَعْمِلِ ذٰلِكَ أَنْ يَفْهَمَ ٱلْعَامَّةُ كَلَامَهُ فَإِنَّ نُورَ ٱلشَّمْسِ إِذَا لَمْ يَرَهُ ٱلْأَعْمَى لَا يَكُونُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي ٱسْتِنَارَتِهِ وَإِنَّمَا ٱلنَّقْصُ فِي بَصَرِ ٱلْأَعْمَى حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلنَّظَرَ إِلَيْهِ :

عَلَيَّ نَحْتُ ٱلْقَوَافِي مِنْ مَعَادِنِهَا وَمَا عَلَيَّ بِأَنْ لَا تَفْهَمَ ٱلْبَقَرُ

وَحَيْثُ ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْقَوْلُ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَلْنَرْجِعْ إِلَى مَا هُوَ غَرَضُنَا وَمُهِمُّنَا مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَحَدِّهِ وَأَقْسَامِهِ وَنُوضِحُ ذٰلِكَ إِيضَاحًا جَلِيًّا وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ فَنَقُولُ: حَدُّ ٱلْإِيجَازِ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ. وَٱلتَّطْوِيلُ هُوَ ضِدُّ ذٰلِكَ وَهُوَ أَنْ يَدُلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى بِلَفْظٍ يَكْفِيكَ بَعْضُهُ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ. كَقَوْلِ ٱلْمُحَيَّرِ ٱلسَّلُولِيِّ مِنْ أَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا وَسَابِقٌ ... إِلَى غَايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْهَا يُقَدَّمِ

فَصَدْرُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِيهِ تَطْوِيلٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَعَجْزُهُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَوَاصِفَةِ . وَمَوْضِعُ ٱلتَّطْوِيلِ مِنْ صَدْرِهِ أَنَّهُ قَالَ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا) فَإِنَّ لَفْظَةَ ٱلْمَطَايَا فَضْلَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْلُو ٱلْأَمْرُ فِيهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُ سَابِقُ ٱلْهِمَّةِ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ كَمَا قَالَ ٱلْحَجَّاجُ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ عِنْدَ وُصُولِهِ ٱلْعِرَاقَ : أَنَا ٱبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ ٱلثَّنَايَا . أَيْ أَنَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلسَّابِقُ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ . فَإِنْ أَرَادَ ٱلْمُجِيزُ بِقَوْلِهِ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا) مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فَذِكْرُ ٱلْمَطَايَا يُفْسِدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَعَالِيَ ٱلْأُمُورِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا بِٱلْمَطَايَا . وَإِنْ أَرَادَ ٱلْوَجْهَ ٱلْآخَرَ وَهُوَ أَنَّهُ كَثِيرُ ٱلْأَسْفَارِ فَٱخْتِصَاصُهُ ٱلثَّنَايَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَغَيْرِهَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَعَلَى كِلَا ٱلْوَجْهَيْنِ فَإِنَّ ذِكْرَ ٱلْمَطَايَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَهُوَ تَطْوِيلٌ بَارِدٌ غَثٌّ . فَقِسْ عَلَى هٰذَا ٱلْمِثَالِ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ ٱلتَّطْوِيلَاتِ ٱلَّتِي إِذَا أُسْقِطَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ فِي أَلْفَاظٍ يُوصَلُ بِهَا ٱلْكَلَامُ فَتَارَةً تَجِيءُ لِفَائِدَةٍ وَذٰلِكَ قَلِيلٌ وَتَارَةً تَجِيءُ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ . وَأَكْثَرُ مَا تَرِدُ فِي ٱلْأَشْعَارِ لِيُوزَنَ بِهَا ٱلْأَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِمْ : لَعَمْرِي وَلَعَمْرُكَ وَنَحْوُ : أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَظَلَّ وَأَضْحَى وَبَاتَ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ . وَنَحْوُ : يَا صَاحِبِي وَيَا خَلِيلِي وَمَا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

أَقَرُّوا لَعَمْرِي لِحُكْمِ ٱلسُّيُوفِ   وَكَانَتْ أَحَقَّ بِفَصْلِ ٱلْقَضَاءِ

فَإِنْ قَوْلَهُ : (لَعَمْرِي) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ لِلْمَعْنَى إِلَيْهَا وَهِيَ حَشْوٌ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ لَافَائِدَةَ فِيهِ إِلَّا إِصْلَاحُ ٱلْوَزْنِ لَاغَيْرُ . أَلَا تُرَى أَنَّهَا مِنْ بَابِ ٱلْقَسَمِ وَإِنَّمَا يَرِدُ ٱلْقَسَمُ فِي مَوْضِعٍ يُؤَكَّدُ بِهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادُ إِمَّا لِأَنَّهُ يُشَكُّ فِيهِ أَوْ مِمَّا يَعِزُّ وُجُودُهُ أَوْ مَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلشِّعْرِيُّ لَا يَفْتَقِرُ مَعْنَاهُ إِلَى تَوْكِيدٍ قَسَمِيٍّ إِذْ لَاشَكَّ أَنَّ ٱلسُّيُوفَ حَاكِمَةٌ وَأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُقِرُّ لِحُكْمِهَا وَيُذْعِنُ لِطَاعَتِهَا. وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ أَيْضًا :

إِذَا أَنَا لَمْ أَلُمْ عَثَرَاتِ دَهْرٍ   بُلِيتُ بِهِ ٱلْغَدَاةَ فَمَنْ أَلُومُ

فَقَوْلُهُ : (ٱلْغَدَاةَ) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ لِلْمَعْنَى إِلَيْهَا لِأَنَّهُ يَتِمُّ بِدُونِهَا لِأَنَّ عَثَرَاتِ ٱلدَّهْرِ لَمْ تَنَلْهُ ٱلْغَدَاةَ وَلَا ٱلْعَشِيَّ وَإِنَّمَا نَالَتْهُ وَنَيْلُهَا إِيَّاهُ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ فِي زَمَنٍ مِنَ ٱلْأَزْمِنَةِ كَائِنًا مَا كَانَ وَلَاحَاجَةَ إِلَى تَعْيِينِهِ بِٱلذِّكْرِ . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

مَا أَحْسَنَ ٱلْأَيَّامَ إِلَّا أَنَّهَا   يَاصَاحِبَيَّ إِذَا مَضَتْ لَمْ تَرْجِعِ

فَقَوْلُهُ : (يَاصَاحِبَيَّ) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ بِٱلْمَعْنَى إِلَيْهَا إِلَّا أَنَّهَا وَرَدَتْ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَاغَيْرَ . وَهٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظُ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَاعَيْبَ فِيهَا . لِأَنَّا لَوْ عِبْنَاهَا عَلَى ٱلشُّعَرَاءِ لَتَحَجَّرْنَا عَلَيْهِمْ وَضَيَّقْنَا ٱلْوَزْنَ وَيُضْطَرُّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ إِلَى مِثْلِ ذٰلِكَ لٰكِنْ إِذَا وَرَدَتْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ فَإِنَّهَا إِنْ وَرَدَتْ حَشْوًا وَلَمْ تَرِدْ لِفَائِدَةٍ كَانَتْ عَيْبًا . وَقَدْ تَرِدُ فِي ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَيَكُونُ

طَلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا وَسَابِقٌ إِلَى غَايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْهَا يُقَدَّمِ

فَصَدْرُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِيهِ تَطْوِيلٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَعَجُزُهُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَوَاصِفَةِ . وَمَوْضِعُ ٱلتَّطْوِيلِ مِنْ صَدْرِهِ أَنَّهُ قَالَ : (طَلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا) فَإِنَّ لَفْظَةَ ٱلْمَطَايَا فَضْلَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْلُو ٱلْأَمْرُ فِيهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُ سَابِقُ ٱلْهِمَّةِ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ كَمَا قَالَ ٱلْحَجَّاجُ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ عِنْدَ وُصُولِهِ ٱلْعِرَاقَ : أَنَا ٱبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ ٱلثَّنَايَا . أَيْ أَنَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلسَّابِقُ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ . فَإِنْ أَرَادَ ٱلْعَجِيرُ بِقَوْلِهِ: (طَلُوعُ ٱلثَّنَايَا) مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فَذِكْرُ ٱلْمَطَايَا يُفْسِدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَعَالِيَ ٱلْأُمُورِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا بِٱلْمَطَايَا . وَإِنْ أَرَادَ ٱلْوَجْهَ ٱلْآخَرَ وَهُوَ أَنَّهُ كَثِيرُ ٱلْأَسْفَارِ فَٱخْتِصَاصُهُ ٱلثَّنَايَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَغَيْرِهَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَعَلَى كِلَا ٱلْوَجْهَيْنِ فَإِنَّ ذِكْرَ ٱلْمَطَايَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَهُوَ تَطْوِيلٌ بَارِدٌ غَثٌّ . فَقِسْ عَلَى هٰذَا ٱلْمِثَالِ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ ٱلتَّطْوِيلَاتِ ٱلَّتِي إِذَا أُسْقِطَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ فِي أَلْفَاظٍ يُوصَلُ بِهَا ٱلْكَلَامُ فَتَارَةً تَجِيءُ لِفَائِدَةٍ وَذٰلِكَ قَلِيلٌ وَتَارَةً تَجِيءُ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ . وَأَكْثَرُ مَا تَرِدُ فِي ٱلْأَشْعَارِ لِيُوزَنَ بِهَا ٱلْأَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِمْ : لَعَمْرِي وَلَعَمْرُكَ وَنَحْوُ : أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَظَلَّ وَأَضْحَى وَبَاتَ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ . وَنَحْوُ : يَا صَاحِبِي وَيَا خَلِيلِي وَمَا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

اَقرُّوا لَعَمرِي لِحُكمِ ٱلسُّيُوفِ   وَكَانَتْ اَحَقَّ بِفَصلِ ٱلقَضَاء

فَإِنْ قَولَهُ : (لَعَمرِي) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ لِلْمَعنَى اِلَيهَا وَهِيَ حَشوٌ فِي هٰذَا ٱلبَيتِ لَافَائِدَةَ فِيهِ اِلَّا اِصْلَاحُ ٱلوَزنِ لَاغَيرُ . اَلَا تَرَى اَنَّهَا مِنْ بَابِ ٱلقَسَمِ وَاِنَّمَا يَرِدُ ٱلقَسَمُ فِي مَوضِعٍ يُؤَكَّدُ بِهِ ٱلمَعنَى ٱلمُرَادُ اِمَّا لِاَنَّهُ يُشَكُّ فِيهِ اَوْ مِمَّا يَعِزُّ وُجُودُهُ اَوْ مَا جَرَى هٰذَا ٱلمَجرَى . وَهٰذَا ٱلبَيتُ ٱلشِّعرِيُّ لَا يَفتَقِرُ مَعنَاهُ اِلَى تَوكِيدٍ قَسَمِيٍّ اِذْ لَاشَكَّ اَنَّ ٱلسُّيُوفَ حَاكِمَةٌ وَاَنَّ كُلَّ اَحَدٍ يُقِرُّ لِحُكمِهَا وَيَنْعَنِ لِطَاعَتِهَا . وَكَذٰلِكَ قَولُهُ اَيضًا :

اِذَا اَنَا لَمْ اَلُمْ عَثَرَاتِ دَهرٍ   بُلِيتُ بِهِ ٱلغَدَاةَ فَمَنْ اَلُومُ

فَقَولُهُ : (ٱلغَدَاةَ) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ لِلمَعنَى اِلَيهَا لِاَنَّهُ يَتِمُّ بِدُونِهَا لِاَنَّ عَثَرَاتِ ٱلدَّهرِ لَمْ تَنَلْهُ ٱلغَدَاةَ وَلَا ٱلعَشِيَّ وَاِنَّمَا نَالَتْهُ وَنَيلُهَا اِيَّاهُ لَا بُدَّ اَنْ يَقَعَ فِي زَمَنٍ مِنَ ٱلْاَزمِنَةِ كَائِنًا مَا كَانَ وَلَا حَاجَةَ اِلَى تَعيِينِهِ بِٱلذِّكرِ . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَولُ ٱلبُحتُرِيِّ :

مَا اَحسَنَ ٱلْاَيَّامَ اِلَّا اَنَّهَا   يَاصَاحِبَيَّ اِذَا مَضَتْ لَمْ تَرجِعِ

فَقَولُهُ : (يَاصَاحِبَيَّ) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ بِٱلمَعنَى اِلَيهَا اِلَّا اَنَّهَا وَرَدَتْ لِتَصحِيحِ ٱلوَزنِ لَا غَيرَ . وَهٰذِهِ ٱلْاَلفَاظُ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلْاَبيَاتِ ٱلشِّعرِيَّةِ لِتَصحِيحِ ٱلوَزنِ لَاعَيبَ فِيهَا . لِاَنَّا لَوْ عِبنَاهَا عَلَى ٱلشُّعَرَاءِ لَتَحَجَّرنَا عَلَيهِمْ وَضَيَّقنَا ٱلوَزنَ وَيُضطَرُّ فِي بَعضِ ٱلْاَحوَالِ اِلَى مِثلِ ذٰلِكَ لٰكِنْ اِذَا وَرَدَتْ فِي ٱلكَلَامِ ٱلمَنثُورِ فَاِنَّهَا اِنْ وَرَدَتْ حَشوًا وَلَمْ تَرِدْ لِفَائِدَةٍ كَانَتْ عَيبًا . وَقَدْ تَرِدُ فِي ٱلْاَبيَاتِ ٱلشِّعرِيَّةِ وَيَكُونُ

وُرُودُهَا لِفَائِدَةٍ . ∴ فَاعْلَمْ ايُّهَا النَّاظِرُ فِي كِتَابِي هٰـذَا انَّ التَّطْوِيلَ هُوَ زِيَادَاتُ الْأَلْفَاظِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعَانِي وَمَهْمَا امْكَنَكَ حَذْفُ شَيْءٍ مِنَ اللَّفْظِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنًى مِنَ الْمَعَانِي فَإِنَّ ذٰلِكَ اللَّفْظَ هُوَ التَّطْوِيلُ بِعَيْنِهِ . وَامَّا الْإِيجَازُ فَقَدْ عَرَّفْتُكَ انَّهُ دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ انْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (احَدُهُمَا) الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ وَهُوَ مَا يُحْذَفُ مِنْهُ الْمُفْرَدُ وَالْجُمْلَةُ لِدَلَالَةِ فَحْوَى الْـكَلَامِ عَلَى الْمَحْذُوفِ وَلَا يَكُونُ الَّا فِيمَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ . (وَالْقِسْمُ الْآخَرُ) مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ ضَرْبَانِ : (احَدُهُمَا) مَا سَاوَى لَفْظُهُ مَعْنَاهُ وَيُسَمَّى التَّقْـدِيرَ . (وَالْآخَرُ) مَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ وَيُسَمَّى الْقَصْرَ . وَاعْلَمْ انَّ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ الَّذِي هُوَ الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ يُتَنَبَّهُ لَهُ مِنْ غَيْرِ كَبِيرِ كُلْفَةٍ فِي اسْتِخْرَاجِهِ لِـمَكَانِ الْمَحْذُوفِ مِنْهُ . وَامَّا الْقِسْمُ الثَّانِي فَإِنَّ التَّنَبُّهَ لَهُ عَسِرٌ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى فَضْلِ تَأَمُّلٍ وَطُولِ فِـكْرَةٍ لِخَفَاءِ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ وَلَا يَسْتَنْبِطُ ذٰلِكَ الَّا مَنْ رَسَتْ قَدَمُهُ فِي مُمَارَسَةِ عِلْمِ الْبَيَانِ وَصَارَ لَهُ خَلِيقَةً وَمَلَـكَةً . وَلَمْ اجِدْ احَدًا عَلَّمَ هٰذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ بِعَلَامَةٍ وَلَا قَيَّدَهُمَا بِقَيْدٍ . . . فَنَقُولُ امَّا الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ فَإِنَّهُ عَجِيبُ الْأَمْرِ شَبِيـهٌ بِالسِّحْرِ وَذَاكَ انَّكَ تَرَى فِيهِ تَرْكَ الذِّكْرِ افْصَحَ مِنَ الذِّكْرِ وَالصَّمْتَ عَنِ الْإِفَادَةِ ازْيَدَ لِلْإِفَادَةِ وَتَجِدُكَ انْطَقَ مَا تَـكُونُ إِذَا لَمْ تَنْطِقْ وَاتَمَّ مَا تَـكُونُ مُبِيِّنًا إِذَا لَمْ تُبِنْ وَهٰذِهِ جُمْلَةٌ تُنْـكِرُهَا حَتَّى تُخْبَرَ وَتَدْفَعُهَا حَتَّى تَنْظُرَ . وَالْأَصْلُ فِي الْمَحْذُوفَاتِ جَمِيعِهَا عَلَى اخْتِلَافِ ضُرُوبِهَا

انْ يَكُونَ فِي الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْمَحْذُوفِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى الْمَحْذُوفِ فَإِنَّهُ لَغْوٌ مِنَ الْحَدِيثِ لَا يَجُوزُ بِوَجْهٍ وَلَا سَبَبٍ . وَمِنْ شَرْطِ الْمَحْذُوفِ فِي حُكْمِ الْبَلَاغَةِ انَّهُ مَتَى اُظْهِرَ صَارَ الْكَلَامُ إِلَى شَيْءٍ غَثٍّ لَا يُنَاسِبُ مَا كَانَ عَلَيْهِ اوَّلًا مِنَ الطُّلَاوَةِ وَالْحُسْنِ وَقَدْ يَظْهَرُ الْمَحْذُوفُ بِالْإِعْرَابِ كَقَوْلِنَا: اَهْلًا وَسَهْلًا . فَإِنَّ نَصْبَ الْأَهْلِ وَالسَّهْلِ يَدُلُّ عَلَى نَاصِبٍ مَحْذُوفٍ وَلَيْسَ لِهٰذَا مِنَ الْحُسْنِ مَا لِلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِالْإِعْرَابِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ بِالنَّظَرِ إِلَى تَمَامِ الْمَعْنَى كَقَوْلِنَا : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ فَإِنَّ ذٰلِكَ لَا يَظْهَرُ الْمَحْذُوفُ بِهِ بِالْإِعْرَابِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ بِالنَّظَرِ إِلَى تَمَامِ الْمَعْنَى اَيْ إِنَّهُ يَحُلُّ الْأُمُورَ وَيَعْقِدُهَا . وَالَّذِي يَظْهَرُ فِي الْإِعْرَابِ يَقَعُ فِي الْمُفْرَدَاتِ مِنَ الْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرًا وَالَّذِي لَا يَظْهَرُ بِالْإِعْرَابِ يَقَعُ فِي الْجُمَلِ مِنَ الْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرٌ

البحث السادس

في المساواة

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

الْمُسَاوَاةُ هِيَ اَنْ تَكُونَ الْمَعَانِي بِقَدْرِ الْأَلْفَاظِ وَالْأَلْفَاظُ بِقَدْرِ الْمَعَانِي لَا يَزِيدُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَهُوَ الْمَذْهَبُ الْمُتَوَسِّطُ بَيْنَ الْإِيجَازِ وَالْإِطْنَابِ وَإِلَيْهِ اَشَارَ الْقَائِلُ بِقَوْلِهِ : كَأَنَّ اَلْفَاظَهُ قَوَالِبُ لِمَعَانِيهِ

اي لا يزيد بعضها على بعض . فمما جاء من ذلك قوله : لا تزال امتي بخير ما لم تر الامانة مغنماً والزكاة مغرماً . وقوله : إياك والمشاورة فانها تميت الغرة وتحيي العزة . ومن الفاظ هذه الفصول ما كانت معانيه اكثر من الفاظه وانما يكره عيزها كراهة الاطالة . ومن نثر الكتاب قول بعضهم : سألت عن خبري وانا في عافية لا عيب فيها الا فقدك ونعمة لا مزيد فيها الا بك . وقوله : علمتني نبوتك سلوتك واسلمني يأسي منك الى الصبر عنك . وقوله : فحفظ الله النعمة عليك وفيك وتولى اصلاحك والاصلاح اليك واجزل من الخير حظك والحظ منك ومن عليك وعلينا بك . وقال آخر يئست من صلاحك لي واخاف فسادي بك وقد اطنب في ذم الحمار من شبهك به . ومن المنظوم قول طرفة :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالاخبار من لم تزود

وقول الآخر :

تهدا الامور باهل الرأي ما صلحت فان تابت فبالاشرار تنقاد

وقول الآخر :

اما الذي يحصيهم فمكثر اما الذي يطريهم فمقلل

وقول الآخر :

اهابك اجلالا وما بك قدرة علي ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس انك عندها قليل ولكن قل منك نصيبها

البحث السابع

في الاطناب

(من كتاب الصاعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٧٦ من علم الادب)

قَالَ اَصْحَابُ ٱلْاِطْنَابِ: ٱلْمَنْطِقُ اِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ وَٱلْبَيَانُ لَا يَكُونُ اِلَّا بِالْاِشْبَاعِ وَٱلشِّفَاءُ لَا يَقَعُ اِلَّا بِٱلْاِقْنَاعِ . وَافْضَلُ ٱلْكَلَامِ اَبْيَنُهُ وَاَبْيَنُهُ اَشَدُّهُ اِحَاطَةً بِٱلْمَعَانِي وَلَا يُحَاطُ بِٱلْمَعَانِي اِحَاطَةً تَامَّةً اِلَّا بِٱلْاِسْتِقْصَاءِ. وَٱلْاِيجَازُ لِلْخَوَاصِّ وَٱلْاِطْنَابُ مُشْتَرِكٌ فِيهِ ٱلْخَاصَّةُ وَٱلْعَامَّةُ وَٱلْعَيِيُّ وَٱلْفَطِنُ وَٱلرَّيِّضُ وَٱلْمُرْتَاضُ وَلِمَعْنًى مَا اُطِيلَتِ ٱلْكُتُبُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ فِي اِفْهَامِ ٱلرَّعَايَا. وَٱلْقَوْلُ ٱلْقَصْدُ اَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ يُحْتَاجُ اِلَيْهِمَا فِي جَمِيعِ ٱلْكَلَامِ وَكُلِّ نَوْعٍ مِنْهُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَوْضِعٌ فَٱلْحَاجَةُ اِلَى ٱلْاِيجَازِ فِي مَوْضِعِهِ كَٱلْحَاجَةِ اِلَى ٱلْاِطْنَابِ فِي مَكَانِهِ. فَمَنْ اَزَالَ ٱلتَّدْبِيرَ فِي ذٰلِكَ عَنْ وَجْهِهِ فَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِطْنَابَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِيجَازِ وَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِيجَازَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِطْنَابِ اَخْطَاَ . كَمَا رُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى اَنَّهُ قَالَ مَعَ عُجْبِهِ بِٱلْاِيجَازِ : مَتَى كَانَ ٱلْاِيجَازُ اَبْلَغَ كَانَ ٱلْاِكْثَارُ عِيًّا وَمَتَى كَانَتِ ٱلْكِتَابَةُ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِكْثَارِ كَانَ ٱلْاِيجَازُ تَقْصِيرًا . وَاَمَرَ خَالِدُ بْنُ يَحْيَى ٱثْنَيْنِ اَنْ يَكْتُبَا كِتَابًا وَاحِدًا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ فَاَطَالَ اَحَدُهُمَا وَٱخْتَصَرَ ٱلْآخَرُ . فَقَالَ لِلْمُخْتَصِرِ وَقَدْ نَظَرَ فِي كِتَابِهِ : مَا اَرَى مَوْضِعَ مَزِيدٍ . وَقَالَ لِلْمُطِيلِ : مَا

أرى موضع نقصان . وقال غيره : البلاغة الإيجاز في غير عجز والإطناب في غير خطل . ولا شك في أن الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة والفتوح الجليلة وتفخيم النعم الحادثة او الترغيب في الطاعة والنهي عن المعصية . سبيلها أن تكون مشبعة مستقصاة تملأ الصدور وتأخذ بمجامع القلوب . فالإطناب بلاغة والتطويل عيّ . لأن التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلاً بما يقرب . والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نزه يحتوي على زيادة فائدة . وقال الخليل : يختصر الكتاب ليحفظ ويبسط ليفهم . وقيل لأبي عمرو ابن العلاء هل كانت العرب تطيل . قال : نعم كانت تطيل ليسمع منها وتوجز ليحفظ عنها . والإطناب إذا لم يكن منه بدّ إيجاز وهو في المواعظ خاصة محمود كما أن الإيجاز في الأفهام محمود ممدوح . والموعظة كقوله : أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . فتكرير ما كرر من الألفاظ هاهنا في غاية حسن الموقع . وقيل لبعضهم : متى يحتاج إلى الإكثار . قال : إذا عظم الخطب وأنشد :

صموتٌ إذا ما الدهر زيّن أهله ... وفتّاق أبكار الكلام المحبّر

وقال آخر :

يرمون بالخطب الطوال وتارة ... وحي الملاحظ خشية الرقباء

وَقَالَ بعضُهُمْ :

إِذَا مَا ٱنْتَدَى خَاطِباً لَمْ يُقَلْ ... لَهُ اَطِلِ ٱلْقَوْلَ اَوْ قَصِّرِ
طَبِيبٌ بِدَاءِ فُنُونِ ٱلْكَلَا ... مِ لَمْ يَعْيَ يَوْماً وَلَمْ يَهْذِرِ
فَإِنْ هُوَ اَطْنَبَ فِي خُطْبَةٍ ... قَضَى لِلْمُطِيلِ عَلَى ٱلْمُقْصِرِ
وَإِنْ هُوَ اَوْجَزَ فِي خُطْبَةٍ ... قَضَى لِلْمُقِلِّ عَلَى ٱلْمُكْثِرِ

وَوَجَدَ ٱلنَّاسَ إِذَا خَطَبُوا فِي ٱلصُّلْحِ بَيْنَ ٱلْعَشَائِرِ اَطَالُوا . وَإِذَا اَنْشَدُوا ٱلشِّعْرَ بَيْنَ ٱلسِّمَاطَيْنِ فِي مَدِيحِ ٱلْمُلُوكِ اَطْنَبُوا . وَٱلْإِطَالَةُ وَٱلْإِطْنَابُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ إِيجَازٌ . وَقِيلَ لِقَيْسِ بْنِ خَارِجَةَ : مَا عِنْدَكَ فِي حَمَالَاتِ دَاحِسٍ . قَالَ : عِنْدِي قِرَى كُلِّ نَازِلٍ وَرِضَى كُلِّ سَاخِطٍ وَخُطْبَةٌ مِنْ لَدُنْ مَطْلَعِ ٱلشَّمْسِ إِلَى اَنْ تَغْرُبَ آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ وَاَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ . فَقِيلَ لِاَبِي يَعْقُوبَ ٱلْخُزَيْمِيِّ : هَلَّا اَكْتَفَى بِقَوْلِهِ : آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ فَقَالَ : وَاَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ) . قَالَ : اَوَ مَا عَلِمْتَ اَنَّ ٱلْكِنَايَةَ وَٱلتَّعْرِيضَ لَا تَعْمَلُ عَمَلَ ٱلْإِطْنَابِ وَٱلتَّكْشِيفِ . وَقَدْ رَاَيْنَا فِي ٱلْقُرْآنِ اَنَّهُ : إِذَا خَاطَبَ ٱلْعَرَبَ وَٱلْأَعْرَابَ اَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَ ٱلْإِشَارَةِ . وَإِذَا خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ اَوْ حَكَى عَنْهُمْ جَعَلَ ٱلْكَلَامَ مَبْسُوطاً . وَقَلَّ مَا تَجِدُ قِصَّةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ٱلْقُرْآنِ إِلَّا مُطَوَّلَةً مَشْرُوحَةً وَمُكَرَّرَةً فِي مَوَاضِعَ مُعَادَةً لِبُعْدِ فَهْمِهِمْ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِمْ . وَكَلَامُ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا هُوَ شَوْبُ ٱلْإِيجَازِ بِٱلْإِطْنَابِ . وَٱلْفَصِيحُ ٱلْعَالِي مَا دُونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقَصْدِ ٱلْمُتَوَسِّطِ لِيُسْتَدَلَّ بِٱلْقَصْدِ عَلَى ٱلْعَالِي وَلِيَخْرُجَ ٱلسَّامِعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ فَيَزْدَادَ

نَشَاطُهُ وَتَتَوَفَّرَ رَغْبَتُهُ فَيَتَصَرَّفُوا فِي وُجُوهِ ٱلْكَلَامِ إِيجَازِهِ وَاطْنَابِهِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوا ٱلتَّكْرَارَ لِتَوَكُّدِ ٱلْقَوْلِ لِلسَّامِعِ . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَفِي فَصِيحِ ٱلشِّعْرِ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . وَقَدْ جَاءَ مِثْلُ ذٰلِكَ عَنْ اَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ . قَالَ مُهَلْهِلٌ :

عَلَى اَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيْبِ

فَكَرَّرَهَا فِي اَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ بَيْتًا . وَهٰكَذَا قَوْلُ ٱلْحَرْثِ ٱبْنِ عَبَّادٍ :

قَرِّبَا مَرْبَطَ ٱلنَّعَامَةِ مِنِّي

كَرَّرَهَا فِي اَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ هٰذَا لَمَّا كَانَتِ ٱلْحَاجَةُ إِلَى تَكْرِيرِهَا مَاسَّةً وَٱلضَّرُورَةُ إِلَيْهِ دَاعِيَةً لِعِظَمِ ٱلْخَطْبِ وَشِدَّةِ مَوْقِعِ ٱلْفَجِيعَةِ فَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى اَنَّ ٱلْاِطْنَابَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَهُمْ مُسْتَحْسَنٌ . كَمَا اَنَّ ٱلْاِيجَازَ فِي مَكَانِهِ مُسْتَحَبٌّ وَلَا بُدَّ لِلْكَاتِبِ فِي اَكْثَرِ اَنْوَاعِ مُكَاتَبَاتِهِ مِنْ شُعْبَةٍ مِنَ ٱلْاِطْنَابِ يَسْتَعْمِلُهَا اِذَا اَرَادَ ٱلْمُزَاوَجَةَ بَيْنَ ٱلْفَصْلَيْنِ وَلَا يُعَاقِبُ ذٰلِكَ مِنْهُ. وَذٰلِكَ مِثْلُ اَنْ يَكْتُبَ عَظُمَتْ نِعَمُنَا عَلَيْهِ وَتَظَاهَرَ اِحْسَانُنَا لَدَيْهِ فَيَكُونُ ٱلْفَصْلُ ٱلْاَخِيرُ دَاخِلًا فِي مَعْنَاهُ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْاَوَّلِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ لَا يَعِيبُهُ اَحَدٌ . وَلَمَّا اُحِيطَ بِمَرْوَانَ قَالَ خَادِمُهُ بَاسِلٌ : مَنْ اَغْفَلَ ٱلْقَلِيلَ حَتَّى يَكْثُرَ وَٱلصَّغِيرَ حَتَّى يَكْبُرَ وَٱلْخَفِيَّ حَتَّى يَظْهَرَ اَصَابَهُ مِثْلُ هٰذَا . وَهٰذَا كَلَامٌ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَاِنْ كَانَ مَعْنَى ٱلْفَصْلَيْنِ ٱلْاَخِيرَيْنِ دَاخِلًا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْاَوَّلِ .

وَهٰكَذَا قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ حَبِيبِ بْنِ أَوْسٍ :

رُبَّ خَفْضٍ تَحْتَ ٱلسُّرَى وَغَنَاءٍ مِنْ عَنَاءٍ وَنَضْرَةٍ مِنْ شُحُوبِ

وَٱلْغَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلْخَفْضِ وَٱلْعَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلسُّرَى. وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُعْظَمَ ٱلْمَدَارِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ إِذَا دَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلدُّخُولِ وَكَانَتِ ٱلْأَلْفَاظُ مُخْتَارَةً حَسُنَ ٱلْكَلَامُ . وَإِذَا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي مُرَتَّبَةً حَسَنَةً وَٱلْمَعَارِضُ سَيِّئَةً كَانَ ٱلْكَلَامُ مَرْدُودًا فَٱعْتَمِدْ عَلَى مَا مَثَّلْتُهُ لَكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن

في مواقع الاطناب

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرّف)

هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ أَنْعَمْتُ نَظَرِي فِيهِ وَفِي ٱلتَّكْرِيرِ وَفِي ٱلتَّطْوِيلِ فَمَلَكَتْنِي حَيْرَةُ ٱلشَّبَهِ بَيْنَهُمَا طَوِيلًا . ثُمَّ وَجَدْتُهُ أَنَّهُ ضَرْبٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ . لِأَنَّ مِنَ ٱلتَّأْكِيدِ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ كَمَا مَرَّ وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْإِطْنَابُ لَيْسَ كَذٰلِكَ . وَرَأَيْتُ عُلَمَاءَ ٱلْبَيَانِ قَدِ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَلْحَقَهُ بِٱلتَّطْوِيلِ ٱلَّذِي هُوَ ضِدُّ ٱلْإِيجَازِ وَهُوَ عِنْدَهُ قِسْمٌ غَيْرُهُ فَأَخْطَأَ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي كَأَبِي هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيِّ وَٱلْغَانِمِيِّ حَتَّى أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ كُتُبَ ٱلْفُتُوحِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا مِمَّا يُقْرَأُ عَلَى عَوَامِّ ٱلنَّاسِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُطَوَّلَةً مُطْنَبًا فِيهَا . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فَاسِدٌ لِأَنَّهُ إِنْ عَنَى

بذلِكَ انها تكُونُ ذَاتَ معَانٍ مُتَعَدِدَةٍ قَدِ ٱستُقْصِي فيها شَرحُ تِلْكَ ٱلحَادِثَةِ مِنْ فتحٍ اوْ غيرِهِ فذلِكَ مُسلَّمٌ. وَانْ عَنَى بِذلِكَ انها تكُونُ مُكَرَّرَةَ ٱلمَعَانِي مُطَوَّلَة ٱلأَلفَاظِ قَصْدًا لِإِفْهَامِ ٱلعَامَّةِ فَهذَا غَيْرُ مُسلَّمٍ . وَهُوَ مِمَّا لَا يَذْهَبُ إِلَيهِ مَنْ عِندَهُ ادْنَى مَعْرِفَةٍ بِعِلْمِ ٱلفَصَاحَةِ وَٱلبَلَاغَةِ . وَعَلَى هٰذَا فَيَنْبَغِي انْ تَكُونَ ٱلكُتُبُ جَمِيعُهَا مِمَّا يُقْرَأُ عَلَى عَوَامِّ ٱلنَّاسِ وَخَوَاصِّهِمْ ذَاتَ أَلفَاظٍ سَهْلَةٍ مَفْهُومَةٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلأَشْعَارُ وَٱلخُطَبُ وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ فَإِنَّهُ بِنَجْوَةٍ عَنْ هٰذَا ٱلفَنِّ . وعَلَى هٰذَا فَإِنَّ ٱلإِطْنَابَ لَا يَخْتَصُّ بِهِ عَوَامُّ ٱلنَّاسِ وَإِنَّمَا هُوَ لِلخَوَاصِّ كَمَا هُوَ لِلعَوَامِّ . وَسَأُبَيِّنُ حَقِيقَتَهُ وَأُحَقِّقُ ٱلقَوْلَ فِيهِ بِحَيْثُ تَزُولُ ٱلشُّبْهَةُ ٱلَّتِي خَبَطَ ارْبَابُ عِلْمِ ٱلبَيَانِ مِنْ اجْلِهَا وَقَالُوا اقْوَالًا لَا تُعْرِبُ عَنْ فَائِدَةٍ . وَٱلَّذِي عِنْدِي فِيهِ: انَّهُ اذَا رَجَعْنَا إِلَى ٱلأَسْمَاء وَٱشْتِقَاقِهَا وَجَدْنَا هٰذَا ٱلاسْمَ مُنَاسِبًا لِمُسَمَّاهُ وَهُوَ فِي اصْلِ ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ (مِنْ اطْنَبَ فِي ٱلشَّيْءِ) اِذَا بَالَغَ فِيهِ . وَيُقَالُ: اطْنَبَتِ ٱلرِّيحُ اِذَا ٱشْتَدَّتْ فِي هُبُوبِهَا . وَاطْنَبَ فِي ٱلسَّيْرِ اِذَا ٱشْتَدَّ فِيهِ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى مُقْتَضَى مُسَمَّاهُ كَانَ مَعْنَاهُ ٱلمُبَالَغَةَ فِي إِيرَادِ ٱلمَعَانِي . وَهٰذَا لَا يَخْتَصُّ بِنَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ انْوَاعِ عِلْمِ ٱلبَيَانِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ فِيهَا جَمِيعًا اِذْ مَا مِنْ نَوْعٍ مِنْهَا اِلَّا وَيُمْكِنُ ٱلمُبَالَغَةُ فِيهِ . وَاِذَا كَانَ ٱلأَمْرُ كَذٰلِكَ فَيَنْبَغِي انْ يُفْرَدَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنْ بَيْنِهَا وَلَا يَتَحَقَّقُ اِفْرَادُهُ اِلَّا بِذِكْرِ حَدِّهِ ٱلدَّالِّ عَلَى حَقِيقَتِهِ . وَٱلَّذِي يُحَدُّ بِهِ انْ يُقَالَ: هُوَ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلمَعْنَى لِفَائِدَةٍ فَهٰذَا حَدُّهُ ٱلَّذِي يُمَيِّزُهُ

عَنِ ٱلتَّطْوِيلِ إِذِ ٱلتَّطْوِيلُ هُوَ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَأَمَّا ٱلتَّكْرِيرُ فَإِنَّهُ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا كَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَدْعِيهِ : أَسْرِعْ أَسْرِعْ. فَإِنَّ ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدٌ وَٱللَّفْظَ وَاحِدٌ. وَٱلتَّكْرِيرُ جُزْءٌ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ وَهُوَ أَخَصُّ مِنْهُ فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : إِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِفَائِدَةٍ فَهُوَ إِطْنَابٌ وَلَيْسَ كُلُّ إِطْنَابٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِفَائِدَةٍ . وَأَمَّا ٱلَّذِي يَأْتِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ فَهُوَ جُزْءٌ مِنَ ٱلتَّطْوِيلِ وَهُوَ أَخَصُّ مِنْهُ . فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : إِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ تَطْوِيلٌ وَلَيْسَ كُلُّ تَطْوِيلٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَكُنْتُ قَدَّمْتُ ٱلْقَوْلَ فِي بَابِ ٱلْإِيجَازِ بِأَنَّ ٱلْإِيجَازَ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ . وَإِذَا تَقَرَّرَتْ هٰذِهِ ٱلْحُدُودُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْمُشَارُ إِلَيْهَا فَإِنَّ مِثَالَ ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِطْنَابِ وَٱلتَّطْوِيلِ مِثَالُ مَقْصِدٍ يُسْلَكُ إِلَيْهِ فِي ثَلَاثَةِ طُرُقٍ : فَٱلْإِيجَازُ هُوَ أَقْرَبُ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ إِلَيْهِ وَٱلْإِطْنَابُ وَٱلتَّطْوِيلُ هُمَا ٱلطَّرِيقَانِ ٱلْمُتَسَاوِيَانِ فِي ٱلْبُعْدِ إِلَيْهِ . إِلَّا أَنَّ طَرِيقَ ٱلْإِطْنَابِ تَشْتَمِلُ عَلَى مُنْزَهٍ مِنَ ٱلْمَنَازِهِ لَا يُوجَدُ فِي طَرِيقِ ٱلتَّطْوِيلِ وَٱلْإِطْنَابُ يُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَيُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ وَٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ أَبْلَغُ لِٱتِّسَاعِ ٱلْمَجَالِ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّهُ بِجُمْلَتِهِ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ يَرِدُ حَقِيقَةً وَمَجَازًا. أَمَّا (ٱلْحَقِيقَةُ) فَمِثْلُ قَوْلِهِمْ : رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي وَقَبَضْتُهُ بِيَدِي وَوَطِئْتُهُ بِقَدَمِي وَذُقْتُهُ بِفَمِي . وَكُلُّ هٰذَا يَظُنُّ ٱلظَّانُّ أَنَّهُ زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ

اِلَيْهَا وَيَقُولُ : إِنَّ ٱلرُّؤْيَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِٱلْعَيْنِ وَٱلْقَبْضَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْيَدِ وَٱلْوَطْءَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْقَدَمِ وَٱلذَّوْقَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْفَمِ . وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ بَلْ هٰذَا يُقَالُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَعْظُمُ مِثَالُهُ وَيَعِزُّ ٱلْوُصُولُ إِلَيْهِ فَيُؤَكَّدُ ٱلْأَمْرُ فِيهِ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ دَلَالَةً عَلَى نَيْلِهِ وَٱلْحُصُولِ عَلَيْهِ . وَأَمَّا مَا جَاءَ مِنْهُ (عَلَى سَبِيلِ ٱلْمَجَازِ) فَقَوْلُهُ : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . فَفَائِدَةُ ذِكْرِ ٱلصُّدُورِ هٰهُنَا أَنَّهُ قَدْ تُعُورِفَ وَعُلِمَ أَنَّ ٱلْعَمَى عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ مَكَانُهُ ٱلْبَصَرُ وَهُوَ أَنْ تُصَابَ ٱلْحَدَقَةُ بِمَا يَطْمِسُ نُورَهَا . وَٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلْقَلْبِ تَشْبِيهٌ وَمَثَلٌ فَلَمَّا أُرِيدَ إِثْبَاتُ مَا هُوَ خِلَافُ ٱلْمُتَعَارَفِ مِنْ نِسْبَةِ ٱلْعَمَى إِلَى ٱلْقُلُوبِ حَقِيقَةً وَنَفْيُهُ عَنِ ٱلْأَبْصَارِ ٱحْتَاجَ هٰذَا ٱلْأَمْرُ إِلَى زِيَادَةِ تَصْوِيرٍ وَتَعْرِيفٍ لِيَتَقَرَّرَ أَنَّ مَكَانَ ٱلْعَمَى إِنَّمَا هُوَ ٱلْقُلُوبُ لَا ٱلْأَبْصَارُ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ مِنْ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ كَثِيرَةٌ مَحَاسِنُهُ وَافِرَةٌ لَطَائِفُهُ وَٱلْمَجَازُ فِيهِ أَحْسَنُ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ لِمَكَانِ زِيَادَةِ ٱلتَّصْوِيرِ فِي إِثْبَاتِ وَصْفِ ٱلْحَقِيقِيِّ لِلْمَجَازِيِّ وَنَفْيِهِ عَنِ ٱلْحَقِيقِيِّ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) ٱلْمُخْتَصُّ بِٱلْجُمَلِ فَإِنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَى ضُرُوبٍ أَرْبَعَةٍ : (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا أَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ فَيُؤْتَى فِيهِ بِمَعَانٍ مُتَدَاخِلَةٍ . إِلَّا أَنَّ كُلَّ مَعْنًى يَخْتَصُّ بِخَصِيصَةٍ لَيْسَتْ لِلْآخَرِ . وَذٰلِكَ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

قَطَعَتْ إِلَيَّ ٱلزَّابِيَيْنِ هِبَاتُهُ ... وَٱلْتَاثَ مَأْمُورُ ٱلسَّحَابِ ٱلْمُسْبَلِ

مِنْ مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ ... بِكْرٍ وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ

فَقَوْلُهُ : (مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ)

تَداخلَتْ مَعَانِيهِ إِذِ ٱلْمِنَّةُ وَٱلصَّنِيعَةُ وَٱلْاِحْسَانُ مُتقَارِبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْض وَلَيس ذٰلِكَ بِتَكْرِيرٍ لِأَنَّهُ لَو اُقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ : مِنَّةٍ وَصَنِيعَةٍ وَإِحْسَانٍ لَجَازَ أَنْ يَكُونَ تَكْرِيرًا . وَلٰكِنَّهُ وَصَفَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ بِصِفَةٍ أَخرَجَتْهَا عَنْ حُكْمِ ٱلتَّكْرِيرِ فَقَالَ : (مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ) فَوَصَفَهَا بِٱلْأَشْتِهَارِ لِعِظَمِ شَأْنِهَا . (وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ) فَوَصَفَهَا بِٱلْبَكَارَةِ أَيْ أَنَّهَا لَمْ يُؤْتَ بِمِثْلِهَا مِنْ قَبْلُ . (وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْغُرَّةِ وَٱلتَّحْجِيلِ أَيْ هُوَ ذُو مَحَاسِنَ مُتَعَدِّدَةٍ . فَلَمَّا وَصَفَ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ ٱلْمُتَدَاخِلَةَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِأَوْصَافٍ مُتَبَايِنَةٍ صَارَ ذٰلِكَ إِطْنَابًا وَلَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا . وَلَمْ أَجِدْ فِي ضُرُوبِ ٱلْإِطْنَابِ أَحْسَنَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَا أَلْطَفَ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي شِعْرِهِ كَثِيرًا بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَقَوْلِهِ :

ذَكِيٌّ سَجَايَاهُ تُضِيفُ ضُيُوفُهُ وَيُرْجَى مُرَجِّيهِ وَيُسْأَلُ سَائِلُهْ

فَإِنَّ غَرَضَهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ ٱلْمَمْدُوحِ بِٱلْكَرَمِ وَكَثْرَةِ ٱلْعَطَاءِ إِلَّا أَنَّهُ وَصَفَهُ بِصِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَجَعَلَ ضُيُوفَهُ تُضِيفُ وَرَاجِيَهُ يُرَجَّى وَسَائِلَهُ يُسْأَلُ . وَلَيْسَ هٰذَا تَكْرِيرًا لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ ضُيُوفِهِ تُضِيفُ أَنْ تَكُونَ رَاجِيهِ مَرْجُوًّا وَلَا أَنْ يَكُونَ سَائِلُهُ مَسْئُولًا لِأَنَّ ضَيْفَهُ يَسْتَصْحِبُ ضَيْفًا طَمَعًا فِي كَرَمِ مُضِيفِهِ وَسَائِلَهُ يُسْأَلُ أَنْ يُعْطِيَ ٱلسَّائِلَ عَطَاءً كَثِيرًا يَصِيرُ بِهِ مُعْطِيًا . وَرَاجِيهِ يُرَجَّى أَيْ أَنَّهُ إِذَا تَعَلَّقَ بِهِ رَجَاءُ رَاجٍ فَقَدْ أَيْقَنَ بِٱلْفَلَاحِ وَٱلنَّجَاحِ فَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُرَجَّى لِمَكَانِ رَجَائِهِ إِيَّاهُ . وَهٰذَا أَبْلَغُ ٱلْأَوْصَافِ ٱلثَّلَاثَةِ . (ٱلضَّرْبُ

ٱلثَّانِي) يُسَمَّى ٱلنَّفْيَ وَٱلْإِثْبَاتَ وَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ عَلَى سَبِيلِ ٱلنَّفْيِ ثُمَّ يُذْكَرَ عَلَى سَبِيلِ ٱلْإِثْبَاتِ أَوْ بِٱلْعَكْسِ . وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي أَحَدِهِمَا زِيَادَةٌ لَيْسَتْ فِي ٱلْآخَرِ وَإِلَّا كَانَ تَكْرِيرًا . وَٱلْغَرَضُ بِهِ تَأْكِيدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَٱعْلَمْ أَنَّ لِهٰذَا ٱلضَّرْبِ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ فَائِدَةً كَبِيرَةً وَهُوَ أَوْكَدُ وُجُوهِهِ أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . وَٱلْمَعْنَى فِي ذٰلِكَ سَوَاءٌ إِلَّا أَنَّهُ زَادَ فِي ٱلثَّانِيَةِ قَوْلَهُ : وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْلَا هٰذِهِ ٱلزِّيَادَةُ لَكَانَ حُكْمُ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ حُكْمَ ٱلتَّكْرِيرِ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَنْبَغِي أَنْ يُتَأَمَّلَ وَيُنْعَمَ ٱلنَّظَرُ فِيهِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّالِثُ) هُوَ أَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدُ تَامًّا لَا يَحْتَاجُ إِلَى زِيَادَةٍ ثُمَّ يُضْرَبَ لَهُ مِثَالٌ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

تَرَدَّدَ فِي خُلْقَيْ سُؤْدَدٍ سَمَاحًا مُرَجًّى وَبَأْسًا مَهِيبَا
فَكَالسَّيْفِ إِنْ جِئْتَهُ صَارِخًا وَكَالْبَحْرِ إِنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي يَدُلُّ عَلَى ٱلْأَوَّلِ لِأَنَّ ٱلْبَحْرَ وَٱلسَّيْفَ لِلْبَأْسِ ٱلْمَهِيبِ إِلَّا أَنَّ فِي ٱلثَّانِي زِيَادَةَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّتِي تُفِيدُ تَخْيِيلًا وَتَصْوِيرًا .

(اَلضَّرْبُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَسْتَوْفِيَ مَعَانِيَ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْ كِتَابٍ اَوْ خُطْبَةٍ اَوْ قَصِيدَةٍ. وَهٰذَا اَصْعَبُ ٱلضُّرُوبِ ٱلْاَرْبَعَةِ طَرِيقًا اَوْ اَضْيَقُهَا بَابًا لِاَنَّهُ يَتَفَرَّعُ اِلَى اَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَاَرْبَابُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ يَتَفَاوَتُونَ فِيهِ وَلَيْسَ ٱلْخَاطِرُ ٱلَّذِي يَقْذِفُ بِٱلدُّرَرِ فِي مِثْلِهِ اِلَّا مَعْدُومَ ٱلْوُجُودِ وَمِثَالُهُ وَمِثَالُ ٱلْاِيجَازِ مِثَالُ مُجْمَلٍ وَمُفَصَّلٍ. وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِاَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ وَٱلتَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةِ مَقْصِدٍ يُسْلَكُ اِلَيْهِ بِثَلَاثَةِ طُرُقٍ: وَقَدْ اَوْرَدْتُ هٰهُنَا مِثَالًا لِهٰذِهِ ٱلْاَسَالِيبِ ٱلثَّلَاثَةِ وَجَعَلْتُهَا عَلَى هَيْئَةِ ٱلْمَقْصِدِ ٱلَّذِي تُسْلَكُ اِلَيْهِ ٱلطُّرُقُ ٱلثَّلَاثَةُ... فَاَقُولُ: قَدْ وَرَدَ فِي بَابِ ٱلْاِيجَازِ كِتَابٌ كَتَبَهُ طَاهِرُ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ اِلَى ٱلْمَأْمُونِ يُخْبِرُهُ بِهَزِيمَةِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَقَتْلِهِ اِيَّاهُ وَهُوَ: كِتَابِي اِلَى اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَرَأْسُ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ بَيْنَ يَدَيَّ وَخَاتَمُهُ فِي يَدِي وَعَسْكَرُهُ مُصَرَّفٌ تَحْتَ اَمْرِي وَٱلسَّلَامُ. وَهٰذَا كِتَابٌ جَامِعٌ لِلْمَعْنَى شَدِيدُ ٱلِاخْتِصَارِ. وَاِذَا كُتِبَ مَا هُوَ مَعْنَاهُ عَلَى وَجْهِ ٱلْاِطْنَابِ قِيلَ فِيهِ مَا اَذْكُرُهُ وَهُوَ مَا اَنْشَأْتُهُ مِثَالًا فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ لِيُعْلَمَ بِهِ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَهُوَ: اَصْدَرَ كِتَابَهُ هٰذَا وَقَدْ نُصِرَ بِٱلْفِئَةِ ٱلْقَلِيلَةِ عَلَى ٱلْفِئَةِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱنْقَلَبَ بِٱلْيَدِ ٱلْمَلْأَى وَٱلْعَيْنِ ٱلْقَرِيرَةِ وَكَانَ ٱنْتِصَارُهُ بِجَدِّ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَا بِجَدِّ نَصْلِهِ وَٱلْجَدُّ اَغْنَى مِنَ ٱلْجَيْشِ. وَاِنْ كَثُرَتْ اَمْدَادُ خَيْلِهِ وَرَجْلِهِ وَجِيءَ بِرَأْسِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَهُوَ عَلَى جَسَدٍ غَيْرِ جَسَدِهِ وَلَيْسَ لَهُ قَدَمٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَسْعَى بِقَدَمِهِ. وَلَا يَدٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَبْطِشُ بِيَدِهِ. وَلَقَدْ طَالَ وَطُولُهُ

مُؤْذِنٌ بِقِصَرِ شَأْنِهِ وَحَسَدَتِ الضِّبَاعُ الطَّيْرَ عَلَى مَكَانِهَا مِنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مَحْسُودٍ عَلَى مَكَانِهِ. وَأَحْضِرَ خَاتَمُهُ وَهُوَ الْخَاتَمُ الَّذِي كَانَ الْأَمْرُ يَجْرِي عَلَى نَقْشِ أَسْطُرِهِ. وَكَانَ يَرْجُو أَنْ يُصَدِّرَ كِتَابَ الْفَتْحِ بِخَتْمِهِ فَحَالَ وُرُودُ الْمَنِيَّةِ دُونَ مَصْدَرِهِ . وَكَذَلِكَ الْبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَبِيلٌ . وَمَصْرَعُهُ جَلِيلٌ وَسَيْفُهُ وَإِنْ مَضَى فَإِنَّهُ عِنْدَ الضَّرْبِ كَلِيلٌ . وَالْعَسَاكِرُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَرْبًا صَارَتْ لَهُ سِلْمًا وَأَعْطَتْهُ الْبَيْعَةَ عِلْمًا بِفَضْلِهِ وَلَيْسَ مَنْ تَابَعَ تَقْلِيدًا كَمَنْ هُوَ تَابِعٌ عِلْمًا. وَهُمُ الْآنَ مُصَرَّفُونَ تَحْتَ الْأَوَامِرِ مُمْتَحَنُونَ بِكَشْفِ السَّرَائِرِ مُطِيعُونَ بِاللِّوَاءِ الَّذِي خَصَّهُ اللهُ بِاسْتِفْتَاحِ الْمَقَالِدِ وَاسْتِيطَاءِ الْمَنَابِرِ وَعَلَى اللهِ إِتْمَامُ النِّعَمِ الَّتِي افْتَتَحَهَا وَإِجَابَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُقْتَرَحَاتِهِ الَّتِي اقْتَرَحَهَا وَالسَّلَامُ. وَهَذَا الْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا أَنَّهُ فَصَّلَ ذَلِكَ الْإِجْمَالَ. وَلَوْ كَتَبْتَ عَلَى وَجْهِ التَّطْوِيلِ الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ لَقِيلَ: أَصْدَرَ كِتَابَهُ فِي يَوْمِ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا وَالْتَقَى عَسْكَرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَسْكَرُ عَدُوِّ الْبَاغِي. وَتَطَاعَنَ الْفَرِيقَانِ وَتَزَاحَفَ الْجَمْعَانِ . وَحَمِيَ الْقِتَالُ وَاشْتَدَّ النِّزَالُ . وَتَرَادَفَتِ الْكَتَائِبُ وَتَلَاحَقَتِ الْمَقَانِبُ. وَقُتِلَ عِيسَى بْنُ مَاهَانَ وَاحْتُزَّ رَأْسُهُ وَنُزِعَ الْخَاتَمُ مِنْ يَدِهِ وَخُلِعَ وَتُرِكَ جَسَدُهُ طَعَامًا لِلطُّيُورِ وَالسِّبَاعِ وَالذِّئَابِ وَالضِّبَاعِ. وَانْجَلَتِ الْوَقْعَةُ عَنْ غَلَبِ الْخَلِيفَةِ وَنَصْرِهِ وَخِذْلَانِ عَدُوِّهِ وَقَهْرِهِ وَالسَّلَامُ. فَهَذَا الْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى تَطْوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِأَنَّهُ كَرَّرَ فِيهِ مَعَانِيَ يَتِمُّ الْغَرَضُ بِدُونِهَا. فَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ وَتَأَمَّلْهَا وَقِسْ عَلَيْهَا مَا يَأْتِي مِنْهَا

الفصل السابع

في البديع

البحث الاوَّل

في حقيقة علم البديع

(عن ابن جابر الاندلسي والحاج خلفا)

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

اَلْبديعُ مَأْخُوذٌ مِنْ بدعَ اَلشيْءَ يبْدعُهُ بَدْعًا اِذَا اَنشَاَهُ وَبدَاَهُ. ويُقَالُ اْبتَدعَ اَلشَّيْءَ اِذَا اْختَرَعَهُ مِنْ غيْرِ مِثَالٍ . وَاْلبَديعُ يُطْلَقُ بِاِزَاءِ مَعَانٍ يُقَالُ هذَا بَدِيعٌ اَيْ مُحْدَثٌ عَجِيبٌ فَيكُونُ فِي صِيغَةِ اَلْمَفْعُولِ وَيَكُونُ اَيضًا مِنْ صِيغَةِ اَلْفَاعِلِ. وَمِنْهُ اَلْبَدِيعُ فِي اَسْمَاءِ اَللهِ تَعَالَى لِاِبْدَاعِهِ اَشيَاءَ وَاِحْدَاثِهِ اِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ. وَاْلبَدِيعُ اَيضًا اَلْجَدِيدُ يُقَالُ : سِقَاءٌ بَدِيعٌ وَحَبْلٌ بَدِيعٌ اَيْ جَدِيدَانِ. وَيُقَالُ : اَبْدَعَ اَلشَّاعِرُ اِذَا صَنَعَ اَلْبَدِيعَ فِي شِعْرِهِ . وَاَمَّا اَلْبَدِيعُ اَصْطِلَاحًا فَهُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ اَلْمُطَابِقِ لِمُقْتَضَى اَلْحَالِ اَلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ فِي اَلدَّلَالَةِ وُضُوحًا وَخَفَاءً . فَقَوْلُهُ : (عِلْمٌ) جِنْسٌ دَخَلَ تَحْتَهُ كُلُّ عِلْمٍ . وَقَوْلُهُ : (يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ اَلْعُلُومَ كُلَّهَا مَا عَدَا عِلْمَ اَلْمَعَانِي وَاَلْبَيَانِ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْهَا لِاَنَّ غَيْرَهُمَا مِنَ اَلْعُلُومِ لَا يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ . وَقَوْلُهُ :

(ٱلْمُطَابِقُ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ) فَصْلٌ أَخْرَجَ بِهِ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي لَمْ يُطَابِقْ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَإِنَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . وَقَوْلُهُ : (ٱلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ إِلَى آخِرِهِ) فَصْلٌ أَخْرَجَ بِهِ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي يُطَابِقُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ يَذْكُرْ كَيْفِيَّاتِ طُرُقِ دَلَالَتِهِ فَإِنَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . فَتَحَصَّلَ مِنْ هٰذَا ٱلْحَدِّ أَنَّ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ لَا يُسَمَّى بَدِيعًا إِلَّا بِشَرْطَيْنِ : أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ مُطَابِقًا لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَأَنْ تَكُونَ كَيْفِيَّاتُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ مَعْلُومَةَ ٱلْوُضُوحِ وَٱلْخَفَاءِ . فَٱلشَّرْطُ ٱلْأَوَّلُ هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ فَإِنْ عُدِمَ ٱلشَّرْطَانِ أَوْ أَحَدُهُمَا مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . أَمَّا (مَرْتَبَةُ) هٰذَا ٱلْعِلْمِ فَبَعْدَ مَرْتَبَةِ عِلْمَيِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَجْعَلْهُ عِلْمًا عَلَى حِدَةٍ فَتَأَمَّلْ . وَظَهَرَ مِنْ هٰذَا مَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ . وَأَمَّا مَنْفَعَتُهُ فَإِظْهَارُ رَوْنَقِ ٱلْكَلَامِ حَتَّى يَلِجَ ٱلْأُذُنَ بِغَيْرِ أَذًى وَيَتَعَلَّقَ بِٱلْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَإِنَّمَا دَوَّنُوا هٰذَا ٱلْعِلْمَ لِأَنَّ ٱلْأَصْلَ وَإِنْ كَانَ ٱلْحُسْنَ ٱلذَّاتِيَّ وَكَانَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِمَّا يَكْفِي فِي تَحْصِيلِهِ لٰكِنَّهُمُ ٱعْتَنَوْا بِشَأْنِ ٱلْحُسْنِ ٱلْعَرَضِيِّ أَيْضًا لِأَنَّ ٱلْحُسْنَ إِذَا عَرِيَ مِنَ ٱلْمُزَيِّنَاتِ رُبَّمَا يَذْهَلُ بَعْضُ ٱلْقَاصِرِينَ عَنْ تَتَبُّعِ مَحَاسِنِهِ فَيَفُوتُ ٱلتَّمَتُّعُ بِهِ

البحث الثاني

في ان البديع احد علوم الادب الستة

(عن بديعية العميان)

وَذٰلِكَ أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ إِمَّا أَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُ ٱللَّفظُ وَهُوَ عِلْمُ ٱللُّغَةِ . وَإِمَّا أَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذَاتِ ٱللَّفظِ بِحَسَبِ مَا يَعْتَرِيهِ مِنَ ٱلْحَذْفِ وَٱلْقَلْبِ وَٱلْبَدَلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَهُوَ عِلْمُ ٱلتَّصْرِيفِ . وَإِمَّا أَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُفْهَمُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرَكَّبِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ أَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْعَرَبِيَّةِ . وَإِمَّا أَنْ تَبْحَثَ عَنْ مُطَابَقَةِ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِحَسَبِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَإِمَّا أَنْ تَبْحَثَ عَنْ طُرُقِ دَلَالَةِ ٱلْكَلَامِ إِيضَاحاً وَخَفَاءً بِحَسَبِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ . وَإِمَّا أَنْ تَبْحَثَ عَنْ وُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ . فَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْأُوَلُ لَا يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا إِلَّا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ نَظْماً وَنَثْرًا . لِأَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِيهَا ٱلْفَاظُهُ . وَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْآخِرَةُ يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِأَنَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى ٱلْمَعَانِي وَلَا فَرْقَ فِيهَا فِي ذٰلِكَ بَيْنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُوَلَّدِينَ إِذْ هُوَ أَمْرٌ رَاجِعٌ إِلَى ٱلْعَقْلِ وَلِذٰلِكَ قُبِلَ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلِٱسْتِشْهَادُ بِكَلَامِ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَأَبِي تَمَّامٍ وَأَبِي ٱلطَّيِّبِ وَأَبِي ٱلْعَلَاءِ وَهَلُمَّ جَرًّا . (وَهُنَا تَنْبِيهٌ) وَهُوَ أَنَّ أَنْوَاعَ ٱلْبَدِيعِ فِي ٱلْكَلَامِ كَٱلْمِلْحِ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخَالِ

فِي ٱلْوَجَنَاتِ وَٱلشِّيَةِ فِي ٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَاتِ . وَإِذَا كَثُرَ ٱلْمِلْحُ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخِيلَانُ فِي ٱلْخَدِّ وَٱلشِّيَةُ فِي ٱلْخَيْلِ قَبُحَ ذٰلِكَ وَخَرَجَ عَنْ بَابِ ٱلِٱسْتِحْسَانِ فَكَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ إِذَا كَثُرَ وَتُكُلِّفَ تَمُجُّهُ ٱلطِّبَاعُ وَإِنَّمَا يُسْتَحْسَنُ إِذَا وَقَعَ فِي ٱلْكَلَامِ سَهْلًا عَلَى ٱلطِّبَاعِ مُسْتَعْذَبًا فِي ٱلْأَسْمَاعِ عَارِيًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ ٱلَّذِي يَذْهَبُ بِٱلْحُسْنِ وَاقِعًا مَوْقِعَ ٱلزَّهْرِ مِنَ ٱلْغُصْنِ فَإِذَا فَرَطَ فِي ٱلزِّيَادَةِ خَاطَبَتْهُ ٱلطِّبَاعُ :

لَوِ ٱخْتَصَرْتُمْ مِنَ ٱلْإِحْسَانِ زُرْتُكُمُ وَٱلْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي ٱلْخَصَرِ

البحث الثالث

في نسبة علم البديع الى علمَي المعاني والبيان

(من شرح بديعيَّة العميان ايضاً)

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ أَنَّ عِلْمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ دَاخِلَانِ فِي حَدِّ ٱلْبَدِيعِ عَلِمْتَ أَنَّ نِسْبَتَهُ إِلَيْهِمَا نِسْبَةُ ٱلْمُرَكَّبِ إِلَى مُفْرَدَاتِهِ إِذْ لَا يَدْخُلُ فِي ٱلْحَدِّ إِلَّا مَا هُوَ مِنْ مُفْرَدَاتِ ٱلْمَحْدُودِ ٱلَّتِي تَرَكَّبَ مِنْهَا . فَكَمَا أَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُ إِلَّا بِوُجُودِ مُفْرَدَاتِهِ كَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِوُجُودِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَإِذَا عُدِمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِنَ ٱلْكَلَامِ عُدِمَ ٱلْبَدِيعُ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ يُعْدَمُ بِعَدَمِ مُفْرَدَاتِهِ فَلَوْ وُجِدَ كَلَامٌ خَالٍ مِنْ سَابِقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي أَوْ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِكَيْفِيَّةِ طُرُقِ ٱلدَّلَالَةِ فِي ٱلظُّهُورِ وَٱلْخَفَاءِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . وَٱعْلَمْ أَنَّ أَعَمَّ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ عِلْمُ

ٱلْمَعَانِي وَانصّها عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ لِأَنَّهُ مُتَرَكِّبٌ مِنَ ٱلْفَنَّيْنِ ٱلْآخَرَيْنِ وَزِيَادَةٍ وَٱلْقَاعِدَةُ أَنَّ ٱلْأَخَصَّ يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلْأَعَمِّ وَزِيَادَةٍ . وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَهُمَا فَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلْمَعَانِي مُنْدَرِجٌ تَحْتَ ٱلْبَدِيعِ وَكُلُّ بَدِيعٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُمَا جُزْءَاهُ . وَكُلُّ بَيَانٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي لِأَنَّهُ جُزْؤُهُ وَلَيْسَتِ ٱلْمَعَانِي مُسْتَلْزِمَةً لِلْبَيَانِ وَلَا لِلْبَدِيعِ إِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِمَا وَذٰلِكَ مِنْ كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ تُعْلَمْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَلَا وُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَلَا ٱلْبَيَانُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبَدِيعِ إِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِ فِي كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَعُلِمَتْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَوُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَإِذَا عَلِمْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ فَٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْبَدِيعِ كَٱلْحَيَوَانِ وَٱلنُّطْقِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَلَا يُوجَدُ ٱلْبَدِيعُ بِدُونِهِمَا كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلْإِنْسَانُ بِدُونِ ٱلْحَيَاةِ . وَٱلنُّطْقُ وَٱلْمَعَانِي بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْبَيَانِ كَٱلْحَيَوَانِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلنُّطْقِ فَتُوجَدُ ٱلْمَعَانِي بِلَا بَيَانٍ كَمَا يُوجَدُ ٱلْحَيَوَانُ بِلَا نُطْقٍ . وَلَا يُوجَدُ ٱلْبَيَانُ بِلَا مَعَانٍ كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلنُّطْقُ بِدُونِ ٱلْحَيَوَانِ . وَهٰذَا بَسْطُ مَا يُوجَدُ فِي بَيَانِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ أَنَّ ٱلْمَعَانِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ وَٱلْبَيَانَ رَاجِعٌ إِلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ . فَكَمَا أَنَّ ٱلْبَدِيعَ لَا بُدَّ لَهُ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ . كَذٰلِكَ فِي ٱلْبَيَانِ لَا بُدَّ لَهُ أَيْضًا مِنْ مُطَابَقَةِ ٱلْحَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَلَوْ قَالَ فِي ٱلْمَعَانِي : (زَيْدٌ قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) . أَوْ

قَالَ : (إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ قَائِمٌ) كَانَ خَطَأً . كَذٰلِكَ ٱلْبَيَانُ لَوْ قَالَ : (زَيْدٌ جَوَادٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) أَوْ قَالَ : (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ جَوَادٌ) كَانَ خَطَأً

البحث الرابع

في اقسام البديع

(عن شرح بديعية العميان)

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَصُّوا عَلَى أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ أَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِبَابَيْنِ : بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ وَبَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱلْمَعْنَى أَوْ بِٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ مَعًا فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱللَّفْظِ فَقَطْ فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَهِيَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى فَقَط كَٱلتَّوْرِيَةِ وَتَجَاهُلِ ٱلْعَارِفِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱللَّفْظِ . وَقِسْمٌ بِٱللَّفْظِ فَقَطْ كَٱلتَّجْنِيسِ وَرَدِّ ٱلْعَجُزِ عَلَى ٱلصَّدْرِ وَنَحْوِهِمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱلْمَعْنَى . وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى كَٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُقَابَلَةِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا مِمَّا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فِيهِ حَظٌّ . وَأَسْقَطَ صَاحِبُ ٱلْإِيضَاحِ هٰذَا ٱلْقِسْمَ وَجَعَلَ ٱلْبَدِيعَ قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى وَهُوَ ٱلْآتِي

البحث الخامس

في تاريخ علم البديع وفي اصحاب البديعيّات

(عن كشف الظنون باختصار وتصرُّف)

اِعلَمْ انَّ قُدَمَاءَ ٱلْمُصَنِّفِينَ كَانُوا يَذْكُرُونَ هٰذَا ٱلْفَنَّ فِي آخِرِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ . اِلَّا انَّ ٱلْمُتَاخِّرِينَ زَادُوا عَلَيْهِ شَيْئًا كَثِيرًا وَنَظَمُوا فِيهِ قَصَائِدَ وَالَّفُوا كُتُبًا.وَمِنَ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُخْتَصَّةِ بِعِلْمِ ٱلْبَدِيعِ كِتَابٌ لِابِي ٱلْعَبَّاسِ عَبْدِٱللّٰهِ بْنِ ٱلْمُعْتَزِّ ٱلْعَبَّاسِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٩٦ ﻫ (٩٠٩ م) وَهُوَ اوَّلُ مَنْ صَنَّفَ فِيهِ . وَكَانَ جُمْلَةُ مَاجَمَعَ مِنْهَا سَبْعَةَ عَشَرَ نَوْعًا اَلَّفَهُ سَنَةَ ٢٧٤ ﻫ (٨٨٧ م). وَعَاصَرَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَجَمَعَ مِنْهَا عِشْرِينَ نَوْعًا تَوَارَدَ مَعَهُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنْهَا فَتَكَامَلَ لَهُمَا ثَلَاثُونَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِنَقْدِ ٱلشِّعْرِ . امَّا ٱلسَّكَّاكِيُّ فَلَمْ يَذْكُرْ مِنْ انْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ سِوَى تِسْعَةٍ وَعِشْرِينَ نَوْعًا.ثُمَّ اقْتَدَى ٱلنَّاسُ بِقُدَامَةَ وَٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَكَانَ غَايَةُ مَاجَمَعَ مِنْهَا ابُو هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٩٥ ﻫ (١٠٠٥ م) سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِكِتَابِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ.ثُمَّ جَمَعَ فِيهَا ٱبْنُ ٱلرَّشِيقِ ٱلْقَيْرَوَانِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٥٦ ﻫ (١٠٦٣ م) فِي ٱلْعُمْدَةِ مِثْلَهَا وَاضَافَ اِلَيْهَا خَمْسَةً وَسِتِّينَ بَابًا فِي احْوَالِ ٱلشِّعْرِ وَاغْرَاضِهِ . وَتَلَاهُمَا شَرَفُ ٱلدِّينِ ٱلتِّيفَاشِيُّ فَبَلَغَ بِهَا ٱلسَّبْعِينَ.ثُمَّ تَصَدَّى لَهَا ٱلشَّيْخُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ ابِي ٱلْاصْبَعِ فَاوْصَلَهَا اِلَى ٱلتِّسْعِينَ وَاضَافَ اِلَيْهَا مِنْ مُسْتَخْرَجَاتِهِ ثَلَاثِينَ سُلِّمَ لَهُ مِنْهَا عِشْرُونَ . وَاجْرَى تِلْكَ ٱلْانْوَاعَ فِي ٱلْآيَاتِ ٱلْقُرْآنِيَّةِ

وسماهُ التحرير وهو اصحّ كتابٍ صُنّفَ فيهِ لانهُ لم يتّكل على النقل دون النقد . وذكر انهُ وقف على اربعين كتابًا في هذا العلم والبديعيات المشتهرة هي بديعيّة الشيخ الاديب صفيّ الدين الحلّي سمّاها كافية البديعيّة وشرحها شرحا حسنا . حذا حذوهُ الشيخ عبد الرحمان الحُميديّ . وبديعيّة ابي جعفر احمد الرعينيّ المتوفّى سنة ٧٧٩هـ(١٣٧٧ م)وهذه البديعيّة تُعرف ببديعيّة العُميان.وبديعيّة الشيخ شمس الدين ابي عبدالله محمد بن جابرٍ الاندلسيّ المتوفّى سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م)وبديعيّة الشيخ عزّ الدين الموصليّ ووجيه الدين اليمنيّ المتوفّى في حدود سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٨ م) وبديعيّة الشيخ تقيّ الدين بن حجّة الحمويّ المتوفّى سنة ٨٣٧ هـ(١٤٣٣ م) وسمّاها التقديم تشتمل على مئةٍ وستّةٍ وثلاثين نوعًا ثم شرحها شرحا مفيدًا وهو مجموع ادبٍ قلّ ان يُوجد في غيره .وبديعيّة الشيخ جلال الدين السّيوطيّ المتوفّى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٠ م) وتسمّى نظم البديع ثم شرحها . وبديعيّة الفاضلة عائشة الباعونيّة نظمتها على مثال قصيدة الحمويّ مع عدم تسمية النوع . واتى بعدها الشيخ عبد الغنيّ النابلسيّ ونظم قصيدتين التزم باحداهما تسمية النوع

بديعيَّة الخوري الفاضل ارسانيوس الفاخوري

مدح بها السيد المسيح ورسلهُ الاطهار

وهي مشتملة على مائة وثمانين نوعاً مع التزام تسمية النوع

براعة المطلع

بَرَاعَةُ ٱلْمَدْحِ فِي نَجْمٍ ضِيَاهُ سَمِي   تَهْدِي بِمَطْلَعِهَا مَنْ عَنْ سَنَاهُ عَمِي

الجناس المطلق والمركب

تَطْلِيقُ هَمِّي بِتَرْكِيبِ ٱلْمَدِيحِ لَهُ   رُحْ لِي اِلَيْهِ بِهِ رُحْبِي كَذَا هِمَمِي

الجناس المذيل

سَنَاهُ فِي ٱلْكَوْنِ بَاهٍ بَاهِرٌ عَجَبٌ   وَذَيَّلَ ٱلْكَوْنَ نُورًا مَاحِقَ ٱلظُّلَمِ

الجناس اللاحق

دَرْبُ ٱلْهُدَى مَنْ بِهِ قَدْ سَارَ ٱلْحَقَهُ   كَمْ حَائِرٍ بَائِرٍ بِٱلرُّشْدِ مِنْهُ رُمِي

الجناس التام والمطرف

اَتَمَّ بَدْرَ ٱلسَّمَا مِصْبَاحُهُ وَسَمَا   فَإِنْ هَوِيتَ بِهِ ٱلتَّطْرِيفَ لُمْ اُلَمِ

الجناس المصحف والمحرف

اَرَاحَ تَصْحِيفُهُ ذِهْنًا اَزَاحَ لَهُ   تَحْرِيفَ قَوْلٍ غَدَا فِي ٱلْحُكْمِ وَٱلْحِكَمِ

الافتنان

فَاقَ ٱفْتِنَانِي وَمَدْحِي فِي مَحَاسِنِهِ   يَا تَعْسَ عُمْرٍ مَضَى بِٱلْمَدْحِ لَمْ يَقُمِ

المطابقة

فَلَمْ اُطَابِقْ عَلَى بُعْدِ ٱلْاَحِبَّةِ بَلْ   اِنِّي اُطَابِقُ فِي قُرْبِي لِخِدْمِهِمِ

سلامة الاختراع

سَلَامَتِي فِي ٱخْتِرَاعِي نَظْمَ قَافِيَةٍ   اَرْجُو بِهَا ٱلنَّظْمَ فِي اَجْزَاءِ سِلْكِهِمِ

الاستعارة

اِنِّي اَستَعَرتُ جِيادَ الدَّمعِ فِي سَفَرِي جَرْيًا وَرَاءَ مَتَـابٍ فِي سَبِيلِهِمِ

الجناس المعنوي

وَعُدتُ بِاسمِ ابنِ رَعدٍ ثُمَّ بِاسمِ اَبِي اِمْحَقَ يَامَعنَوِيَّ فِي الهَوَى بِهِمِ

الاستطراد

مُستَطرِدًا فِي هَوَاهُم خَيلَ مُنعَطَفِي كَادَمعِي قَدْ جَرَتْ شَوقًا لِقُربِهِم

الاستخدام

سَقَى الاِلٰهُ الحَيَا خَيلًا رعتهُ قَدِ اسْـ تَخدَمتُهَا قَصدَ اِدرَاكِ لِوَصلِهِمِ

التخيير

بِرَبعِهِمْ قَدْ تَخَيَّرتُ الفَنَاءَ وَلَا م البَقَاءَ فِي سَعَـةٍ فِي غَيرِ رَبعِهِمِ

التذييل

اَذُمُّ تَذيِيلَ عَذلٍ طَالَ مِنكَ كَفَى يَاعَاذِلِي العَذلُ مَذمُومٌ مِنَ الاُمَمِ

الايداع

وَعِندَ اِيدَاعِهِ سَمعِي مَلَامَتَـهُ مَزَجتُ دَمعًا جَرَى مِنْ مُقلَةٍ بِدَمِ

الجناس اللفظي وجناس القلب

قَدْ ضَلَّ رَأيًا بِطَعنٍ ظَلَّ يَلفِظُهُ فَالقَلبُ مَاحَالَ مِنْ لَاحٍ عَنِ الذِّمَمِ

الاكتفاء

لَمْ يَكتَفِ العَاذِلُ النَّمَّامُ مِنْ حِيَلٍ فَكَمْ لِذَاكَ خَبَا لِلعَاشِقِينَ كَمِي

التفويف

اِرحَمْ وَدَعْ وَاتَّئِدْ وَاشفِقْ وَلِنْ وَارِحْ فَزِفْ وَوَشِّ وَجُدْ وَانظِمْ وَرِقْ وَهِمِ

الملفق

اَبَى نَوَالِي بِالتَّلفِيقِ مِنهُ كَمَا اَبَانَ وَالِي وَجدٍ عَنْ وَلَائِهِمِ

الارقط

قَدْ خَابَ مَنْ مِنْهُ يَرْجُو خُطَّةً وَجَدًى ... وَشَانَ رَقْطٌ بِهِ قَدْ بَانَ مِنْ اَضَمِ

الالتفات

فَمَا ٱلْتَفَتُّ اِلَى مَكْرٍ بِتَوْشِيَةٍ ... عَرِّجْ رِكَابَكَ عَنْ تِيهٍ اِلَى ٱللَّقَمِ

الحاس المقلوب المستوي

حَرِّفْ اَخَا كَرْبٍ بِرَّكَ اَخَا فَرَحٍ ... فَيَسْتَوِي ٱلْقَلْبُ بِٱلْاَفْرَاحِ لَا ٱلْغُمَمِ

المواربة

يَا لَائِمِي خَلِّ قَوْلًا فِي مُوَارَبَةٍ ... فَعَاقِلٌ اَنْتَ يَا ذَا ٱلْعَذْلِ فَٱسْتَقِمِ

الالتزام

اِنِّي لَمُلْتَزِمٌ خُلْدًا بِحُبِّهِمِ ... حَتَّى ٱلْمَنَايَا بِهَا عَيْشٌ لِصَبِّهِمِ

رد العجز على الصدر

بِهِمْ اَرُدُّ عَلَى صَدْرِ ٱلْمُخَاصِمِ عَجْ ... زَهُ وَاُخْزِي ٱلْعِدَى يَوْمَ ٱلْوَغَى بِهِمِ

المقابلة

اِنْ رُحْتُ مُنْزَعِجًا خَوْفًا بِمَسْئَلَةٍ ... فَقَابِلُوا بِٱلشِّفَا وَٱلْاَمْنِ وَٱلنِّعَمِ

المراجعة

قَالَ اَسْلُهُمْ قُلْتُ حَاشَالِي فَرَاجَعَنِي ... فَقَالَ دَعْهُمْ فَقُلْتُ ٱلسَّمْعُ فِي صَمَمِ

الهزل الذي يراد به الجد

بِٱلْجِدِّ هَازَلَنِي وَٱلدَّمْعُ مُنْسَجِمٌ ... فَقَالَ ارْوِ ٱلظَّمَا مِنْ مَنْهَلٍ شَبِمِ

القول بالموجب

قَوْلِي لَهُ مُوجَبٌ اِذْ قَالَ اَنْتَ لَهُمْ ... سَالٍ فَقُلْتُ لِجِسْمِي مِنْ سَعِيرِهِمِ

المتراكم

قَدْ قَدَّ قَدَّ فُؤَادِي عَضْبُ غَيْبَتِهِ ... مِنْهَا تَرَاكَمَتِ ٱلْاَحْزَانُ مِنْ اَلَمِي

الاستدراك

فَقَالَ مَكْرًا بِسُقْمٍ أَنتَ بَلْ شُغُلٍ ... فَقُلْتُ مُسْتَدْرِكاً لٰكِنْ بِعِشْقِهِمِ

المناقضة

إِنِّي أُنَاقِضُ عَهْدِي لِلنُّجُبِ إِذَا ... مَا شِبْتُ أَوْ عُدتُّ طِفْلاً بَعْدَ مَا هَرِمِ

حسن الاتباع

حُسْنُ اتِّبَاعٍ لَهُمْ قَلْبِي اصْطَفَاهُ هَوًى ... فَالْقَلْبُ عِنْدِي لِغَيْرِ الْعِشْقِ لَمْ يَقُمِ

تشابه الاطراف

تَشْبِيهُ أَطْرَافِ أَقْوَالِي سَمَا بِهِمِ ... بِهِمْ مَدِيحِي غَدَا فِي أَبْلَغِ الْحِكَمِ

السهولة

سُهُولَةُ النَّظْمِ تَحْلُو فِي مَدِيحِهِمِ ... لَا فِي مَدِيحِ الظِّبَا وَالْغِيدِ لِلْحَشَمِ

الخاص الخالي او المعجم

نَبَذْتُ تَفْنِينَ تَشْبِيبٍ بِذِي شَغَفٍ ... يَفْتَنُّ فِي غُنْجِ جَفْنٍ جُنَّ بِالْعَجَمِ

التهكم

بِهِمْ رَأَى عِزَّهُ تِيهًا فَذَلَّ بِهِمْ ... تَهَكُّمًا قُلْتُ يَا بُشْرَاكَ بِالنَّدَمِ

الهجاء في معرض المدح

بِمَعْرِضِ الْمَدْحِ قَدْ يَهْجُوكَ قَائِلُهُ ... مَا مِثْلُكُمْ بِاحْتِمَالِ الضُّرِّ وَالرَّغَمِ

الابهام

كَمْ زَادَ إِبْهَامَ نُصْحِي ذَا الْعَذُولِ وَكَمْ ... يَا لَيْتَ إِبْهَامَهُ فِي حَيِّزِ الْعَدَمِ

النزاهة

تَنَزَّهَتْ سَمْعِي بِحَقٍّ عَنْ نَصَائِحِهِ ... إِذْ لَمْ أَرَ الْحَقَّ فِي قَوْلٍ وَلَا كَلِمِ

المغايرة

أُغَايِرُ النَّاسَ فِي حُبِّي لِذِي عَذَلٍ ... مُسْتَنْطِقًا فَمُهُ حُبًّا لِذِكْرِهِمِ

الجناس الموصل

تَفْسِي لَهُمْ عَشِقَتْ حُبَّاً بِهِمْ شُغِفَتْ   فَحُبُّهُمْ صِلَةٌ تُنْفَى بِهَا غُمَمِي

الاستثناء

اَهْوَى ٱلْخُطُوبَ بِلَا ٱسْتِثْنَا لِحُبِّهِمِ   اِلَّا مَـلَامَ عَذُولِي لِي لِأَجْلِهِمِ

الجناس المهمل

كَلَّا ٱلْإِلٰهُ أَمْرءًا رَامَ ٱلْوِدَادَ لَهُ   وَأَهْمَـلَ ٱلْوُدَّ لِلْاَسْوَاءِ وَٱلْحُرَمِ

الجناس الاخيف

اَحَلَّهُ خَيْفَ سَعْدٍ فِي لِوَا نُجُبٍ   كَسَا شَبِيبَةَ عُمْرٍ جُبَّـةَ ٱلسَّلَمِ

الالغاز

مِنْ مَرْمَرِ ٱلرُّشْدِ خُذْ شَطْرًا بِشَطْرِ م   يَمِينِ ٱللّٰهِ مُتَحِمًا لِلْغُزِ تَفْتَهِمِ

الجناس المقطع

وَاِنْ اَرَدتَّ دَوَاءً زُرْ ذُرَاهُ وَرُدْ   وَاِنْ اَرَدتَّ رِوَى دَعْ وِرْدَ ذِي زَامِ

المحاجاة

وَٱسْتَشْفِهِ فِي ٱلتَّحَاجِي مُمْعِنًا نَظَرًا   بِقَوْلِهِ فَٱلْاِسَا مِلْكِي وَمِنْهُ رُمِ

الكلام الجامع

جَمْعُ ٱلْـكَلَامِ اِذَا لَمْ يَشْتَمِلْ حِكَمًا   لَمْ يُلْفِ مَنْ ذَاقَ فِيهِ لَذَّةَ ٱلدَّسَمِ

الاقتباس

مِنْ مَجْمَعِ ٱلشَّوْكِ هَلْ مَنْ يَجْتَنِي عِنَبًا   لَمْ تَقْتَبِسْ لَذَّةٌ مِنْ عَاطِلِ ٱلْـكَلِمِ

التوجيه

وَجِّهْ اِلَى ٱلرَّبِّ نَعْتًا اَنْتَ تَابِعُهُ   يَرْفَعْكَ مِنْ خَفْضِ رُتْبَاتٍ اِلَى ٱلْعِظَمِ

عكس الاشارة

بِحَقِّ بِرٍّ فَقُمْ لَا فِي اِشَارَتِـهِ   فَاِنَّ عَـكْسَ ٱسْمِهِ مَعْنَاهُ كَٱلْعَلَمِ

المطمع

قَدْ طَابَ لِلنَّفْسِ فِي ٱلْأَسْوَاءِ مَطْمَعُهَا بَلْ طَالَ فِيهَا وَلَمْ تَعْدِلْ إِلَى ٱلنَّدَمِ

الرجوع

مَا لِي رُجُوعٌ إِلَى حَالِي لِأُصْلِحَهَا بَلَى إِذَا مَعْ هُدَى رَبِّي سَعَى قَدَمِي

عتاب النفس

يَا نَفْسُ عِي وَٱرْعَوِي وَأَصْغِي إِلَى عَتَبِي حَتَّامَ أَنْتِ بِجَهْلٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ

التسليم

هَبِي لِزَعْمِكِ قَدْ سَلَّمْتُ مُرْتَضِيًا فَمَا يَكُونُ جَوَابِي يَوْمَ مُحْتَكَمِي

القسم

فَلَا أُنِلْتُ ٱلْمُنَى إِنْ مِلْتُ مُتَّبِعًا هَوَاكِ فِي غَيْرِ مَا أَهْوَى وَذَا قَسَمِي

حسن التخلص

فَرَغْبَتِي وَٱلْهَوَى حُسْنُ ٱلتَّخَلُّصِ مِنْ إِثْمِي بِمَدْحِ وَسِيطِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ

الاطراد

يَسُوعُ بِكْرُ ٱلْإِلٰهِ ٱبْنُ ٱلْبَتُولِ سُلَا لَةُ ٱلْمُلُوكِ وَرَبٌّ فِي أَطِّرَادِهِمِ

حصر الجزئي والحاقه بالكلي

فَرْدٌ بِهِ تُحْصَرُ ٱلْأَنْصَارُ أَجْمَعُهُمْ فَٱلْجُزْءُ يُلْحَقُ بِٱلْكُلِّيِّ لِلْعِظَمِ

العكس

نَفْسُ ٱلْجَمَالِ جَمَالُ ٱلنَّفْسِ فِيهِ بَدَا يَا عَكْسَ مَنْ عَنْ سَنَا هٰذَا ٱلْجَمَالِ عَمِي

المماثلة

فَٱلْآبُ مَاثَلَهُ وَٱلرُّوحُ وَافَقَهُ وَٱلْكُنْهُ شَارَكَهُ بِٱلْعِظَمِ وَٱلْقِدَمِ

التفسير

كُنْهٌ ثُلَاثِيُّ أُقْنُومٍ يُفَسِّرُهُ آبٌ وَٱبْنٌ وَرُوحٌ فِي وَحِيدِهِمِ

المذهب الكلامي

فَمَذهَبِي فِي كَلَامِي مِنهُ مُنقِذُنَا لَوْ لَمْ يَصِرْ بَشَرًا لَمْ نَنْجُ مِنْ ضَرَمِ

المناسبة

لَاهُوتُهُ كَامِلٌ وَالطُّهرُ نَاسَبَهُ نَاسُوتُهُ فَاضِلٌ فِي الخَلْقِ وَالشِّيَمِ

ارسال المثل

فَالحُسْنُ فِي الخَلْقِ اَرْبَى فِيهِ عَنْ مَثَلٍ وَالفَضْلُ اَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمِ

الترديد

فَهوَ البَدِيعُ لَنَا هٰذَا البَدِيعُ سَنًى بِهِ البَدِيعُ حَلَا تَرْدِيدُهُ بِفَمِي

التكرار

تَكْرَارُ مَدْحِي بِمَا بِالوَاهِبِ النِّعَمِ م اَبْنِ الوَاهِبِ النِّعَمِ اَبْنِ الوَاهِبِ النِّعَمِ

الترتيب

لَهُ المَلَائِكُ وَالاِنْسَانُ اَجْمَعُهُ وَمَا سِوَاهُمْ فِي التَّرْتِيبِ كَالخَدَمِ

التشريع

لَمَّا انْحَنَى وَبِتَشْرِيعِ الفِدَاءِ بَدَا نِلْنَا المُنَى فَنَجَوْنَا مِنْ رَدَى العَرِمِ

التكميل

اَوْفَى اَبَاهُ تَمَامًا دَيْنَ آدَمِهِ حَمْدًا لَهُ فَاقَ تَكْمِيلًا بِذَا الكَرَمِ

الجناس المرفوّ

هَيَّا مَدَارَ نَعِيمٍ قَدْ رَفَاهُ بِهِ وَطَمَّ دَارَ جَحِيمٍ حَالِكِ الظُّلَمِ

الجناس المشتق

هَدَى اِلَى المَنْهَجِ الهَادِي بُغَاةَ هُدًى وَمِنْ هُدَاهُ الخَلَاصُ اشْتُقَّ لِلاُمَمِ

النقل

تَمَّتْ نُقُولُ نُبُوَّاتٍ بِهِ وَمَضَتْ بِهِ الخَلِيلُ نَجَا مِنْ وَابِلِ الضَّرَمِ

تشبيه شيئين بشيئين

شَيْئَانِ قَدْ اَشْبَهَا شَيْئَيْنِ فِيهِ لَنَا   تَعَطُّفٌ وَنَدًى كَالْبَحْرِ وَالدِّيَمِ

التشطير

تَشْطِيرُ نِعْمَتِهِ مَا بَيْنَ اُمَّتِـهِ   كَاللُّجِ فِي عِظَمٍ قَدْ كَانَ فِي الْقِسَمِ

الطيّ والنشر

فَالطَّيُّ وَالنَّشْرُ وَالتَّبْدِيلُ مِنْهُ كَرَم   لِلْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْاَحْوَالِ وَالشِّيَمِ

الايغال

فِي السَّعْيِ اَوْغَلَ فِي تَمْهِيدِهِ سُبُلًا   اِلَى الْخَلَاصِ بِحُبٍّ غَيْرِ مُنْكَتِمِ

الاشارة

وَمِنْ اِشَارَاتِهِ بِالْوَعْظِ كَمْ نَجَمَتْ   لَهُمْ فُنُونٌ بِهَا زَادُوا بِبِرِّهِمِ

الايجاز

وَقَوْلُهُ مُوجَزٌ فِي صُنْعِ مُعْجِـزَةٍ   اِنْ قَالَ اَشْفَى وَاَحْيَا بَالِيَ الرِّمَمِ

التوشيع

تَوْشِيعُ مَذْهَبِهِ فِي فَضْلِ سُنَّتِـهِ   مُثْبِتُ الْاَمْجَدَيْنِ الْعَهْدِ وَالذِّمَمِ

التورية

وَكَمْ عُقُودٍ لَهُمْ حَلَّتْ فَوَائِـدُهُ   بِحُسْنِ تَوْرِيَةٍ حَلَّتْ لِسَانَ فَمِي

النوادر

كَمْ مِنْ نَوَادِرِ بَذْلٍ مَارَسَتْ يَدُهُ   حَتَّى جَرَى دَمُهَا الْبَـذْلِ كَالدِّيَمِ

البسط

تَعَوَّدَ الْجُودَ مَعْ بَسْطِ لِرَاحَتِـهِ   لِلْعُـودِ جَادَ بِهَا مَدًّا بِلَا سَقَمِ

الجمع مع التقسيم

جَمْعٌ تَقَسَّمَ يَوْمَ الصَّلْبِ فِي فِرَقٍ   مِنْ قَاتِـلٍ وَمُهِينٍ ثُمَّ مُنْتَقِمِ

الجمع

فَٱلْجَلْدُ وَٱلْهَزْؤُ وَٱلتَّشْتِيمُ مَعْ عَذَلٍ   اِهَانَــةٌ نَالَهَا مِنْ بَغْيِ جُمعِهِم

جناس البعض

بَعْضُ حَمَاقَتِهِمْ زَادَتْ حَمَاسَتُهُمْ   جَوْرًا وَبَعْضٌ كَـكَلْبٍ كَالِبٍ نَهِمِ

المشوَّش

وَشَوَّشُوا ٱلْفَرْعَ مِنْ خَدْشٍ بِهَامَتِهِ   وَٱلْقَدْعُ فِي ٱلْجِسْمِ وَٱلْـكَفَّيْنِ وَٱلْقَدَمِ

التشبيه

وَٱلْجِسْمُ اِنْ جِئْتُ تَشْبِيهًا لِحَالَتِهِ   قُلْ كَٱلْخِلَالِ نُحُولًا مِنْ نَـكَالِهِمِ

تجاهل العارف

تَجَاهَلَ ٱلنَّاسُ فِي عِرْفَانِ صُورَتِهِ   قَالُوا اَسُقْمٌ بِهِ اَمْ بِٱلنَّـكَالِ رُمِي

المساواة

بِٱلْمَوْتِ سَاوَى ٱلْمَلَا امَّا قِيَامَتُهُ   فَاوْضَحَتْ قُدْرَةَ ٱللَّاهُوتِ كَٱلْعَلَمِ

التوهيم

تَهِيمُ قَلْبٍ جَلَتْ بُشْرَى قِيَامَتِهِ   جَلَّتْ بِنَصْرٍ وَعَزَّتْ سَاعَةَ ٱلْغُمَمِ

الجناس الكامل

وَبَعْدَمَا قَدْ قَضَى فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ اِلَى   ٱلْعَلَا ارْتَقَى ذَا ٱلْجَمِيلُ ٱلْـكَامِلُ ٱلشِّيَمِ

الانسجام

وَمِنْ لَدُنْهُ ٱلْمُعَزِّي حَلَّ مُنْسَجِمًا   عَلَى تَلَامِيذِهِ كَٱلْلُسْنِ مِنْ ضَرَمِ

التسهيم

تَسَهَّمُوا ٱلْأَرْضَ لِلْبُشْرَى فَقَالَ لَهُمْ   وَتَلْمِذُوا عَمِّدُوا كُلًّا مِنَ ٱلْأُمَمِ

التمكين

جَالُوا بِتَمْكِينِ عَزْمٍ فِي بِشَارَتِهِمْ   وَلَمْ يُبَالُوا بِتَعْذِيبٍ وَسَفْكِ دَمِ

الجناس المركب المجموع

جَادُوا بِأَنْفُسِهِمْ حُبّاً كَمَالِهِمِ ... وَجَمْعُ تَرْكِيبِ فَضْلٍ فِي كَمَالِهِمِ

الإرداف

وَأَرْدَفُوا الْعَزْمَ بَأْساً أَسْكَنُوهُ مَحَلَّ ... م الْحُبِّ فِي السَّيْرِ لِلْبُشْرَى بِرَبِّهِمِ

الاتساع

بِيضُ الْمَفَارِقِ بَلْ طُهْرُ النُّفُوسِ هُمُ ... وَبِاتِّسَاعِ الْحِجَى فَازُوا بِقَصْدِهِمِ

الاستتباع

يَسْتَتْبِعُونَ بِمَحْضِ النُّصْحِ فِعْلَ هُدًى ... وَيَحْفَظُونَ تُقَاهُمْ حِفْظَ دِينِهِمِ

المردَّد

وَمِنْ مُرَدَّدِ إِنْذَارٍ حَكَوْهُ فَذُو ... م الْهَوَى هَوَى كَذَاكَ الْعَابِدُ الصَّنَمِ

الترصيع

هُمْ رَصَّعُوا أَدَباً مِنْ دُرِّ لَفْظِهِمِ ... كَمْ أَبْدَعُوا خُطَباً فِي سِرِّ وَعْظِهِمِ

ايتلاف اللفظ مع الوزن

تَآلَفَ اللَّفْظُ مَعْ وَزْنٍ بِمَدْحِهِمِ ... لِرَبِّهِمْ ضِمْنَ نَظْمٍ فِيهِ مُنْسَجِمِ

ايتلاف اللفظ مع المعنى

اللَّفْظُ فِي الْمَدْحِ مَعْ مَعْنَاهُ مُؤْتَلِفٌ ... فَلِلْمَعَانِي تَرَى الْأَلْفَاظَ كَالْخَدَمِ

الفرائد

وَكَمْ مِنْ فَرَائِدِ دُرٍّ فِيهِ قَدْ نَظَمُوا ... عِقْدَ النَّشِيدِ فَأَعْجِبْ بِانْتِظَامِهِمِ

ايتلاف المعنى مع الوزن

تُؤَلِّفُ الْوَزْنَ وَالْمَعْنَى نَشَائِدُهُمْ ... صَحِيحَةً عَذْبَةً فِي اللَّحْنِ وَالنَّغَمِ

التسميط

تَسْمِيطُهُمْ دُرَراً أَضْحَى بِهِ غُرَراً ... أَمْسَى لَنَا قَمَراً فِي لَيْلَةِ الْغُمَمِ

ايتلاف اللفظ مع اللفظ

وَٱللَّفظُ لِلحَمْدِ فِي ٱلْأَفوَاهِ مُؤْتَلِفٌ ... مَعْ لَفظِ مَدْحٍ بَدَا مِنْ أَلْسُنِ ٱلدِّيَمِ

الابداع

اِبْدَاعُ نَظْمِهِمِ دَمْعِي جَلَا وَحَلَا ... اِيدَاعُ نَثْرِهِمِ سَمْعِي كَمُنْتَظِمِ

التفريع

مَا نَسْمَةٌ حَمَلَتْ مِسْكًا لَطَائِفُهَا ... يَوْمًا بِأَطْيَبَ مِنْ تَفْرِيعِ فَضْلِهِمِ

المدح في معرض الذم

فِي مَعْرِضِ ٱلذَّمِّ مَدْحًا قَدْ خَصَصْتُ بِهِمْ ... لَا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى ٱلْإِيفَاءِ بِٱلذِّمَمِ

الجناس المرفل

وَبِٱلْأَيَادِي أَيَادِيهِمْ سَمَتْ كَرَمًا ... فَرَاحَ يَرْفُلُ بِٱلْإِثْرَاءِ ذُو ٱلْعَدَمِ

الكناية

تَزَاحُمٌ لِعُفَاةٍ يُسْرِعُونَ إِلَى ... فِرَاتِهِمْ ذَا يُكَنِّي عَنْ سَخَائِهِمِ

التوزيع

عَلَى ٱلْعُفَاةِ جَمِيعًا وَزَّعُوا نِعَمًا ... فَعَادَ أَعْوَزُهُمْ بِٱلْعِزِّ وَٱلْعِظَمِ

الاشتراك

سَادُوا بِصَدْرٍ غَدَا بِٱلْعِزِّ مُشْتَرَكًا ... صَدْرِ ٱلْجُلُوسِ عَلَى كُرْسِي قَضَائِهِمِ

الموازنة

مُوَازِنٍ وَاتِنٍ مُسْتَرْكِنٍ حَسَنٍ ... مُسْتَعْلِنٍ فَاتِنٍ مُسْتَمْكِنٍ فَخِمِ

المؤتلف والمختلف

فَجَمْعُ مُؤْتَلِفٍ فِيهِمْ وَمُخْتَلِفٍ ... حُكْمًا وَفَضْلًا فَسِمْعَانُ بِذَاكَ سُمِي

الايضاح

مَا بَيْنَهُمْ صَخْرَةٌ لِلْحَقِّ مُوضِحَةٌ ... بَنَى ٱلْمَسِيحُ عَلَيْهَا بَيْتَ جَمْعِهِمِ

الطاعة والعصيان

مَنْ يُطِعْ حُكْمَهُ يُرْحَمْ لَدَى شَجَبٍ وَمَنْ عَصَى أَمْرَهُ يُحْرَمْ مِنَ ٱلنِّعَمِ

حسن النسق

نَثْرِي يُنَاسِقُهُمْ شِعْرِي يُطَابِقُهُمْ ثَغْرِي يُوَافِقُهُمْ فِي مَدْحِ رَبِّهِمِ

التجزئة

أَرْبَيْتُ فِي هَمِّي جَزَّأْتُ فِي كَاسِي رَوَّيْتُ فِي قَلْبِي أَرْوَيْتُ كُلَّ ظَمِي

التوازن

تَوَازَنَتْ حِكَمِي حَمْدًا لِمُنْمَسِحٍ مُلَازِمًا مَدْحَهُ نَظْمًا بِمُنْسَجِمِ

التسجيع

سَجْعِي وَمُنْتَظَمِي مَدْحًا حَلَا بِفَمِي حَاكَيْتُ فِي رَنَمِي ٱلشُّحْرُورَ بِٱلنَّغَمِ

الاتفاق

يَسُوعُ وَٱسْمُهُ فِي تَخْلِيصِنَا ٱتَّفَقَا فَهْوَ ٱلْخَلَاصُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نِقَمِ

الاعتراض

فَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْنَا فِي عِبَادَتِهِ وَهْوَ ٱلْإِلٰهُ وَمَنْ يَعْبُدْهُ يَعْتَصِمِ

العنوان

بِهِ ٱلسَّفِينَةُ نَجَّتْ نُوحَ وَهْيَ غَدَتْ عُنْوَانَ بِيعَتِهِ تُوقِي مِنَ ٱلْعَرِمِ

الترشيح

فَحَلَّ مَرْكَبَ تِيهٍ حِينَ رَكَّبَهَا فَكَمْ تَرَشَّحَ مِنْهَا ٱلرُّشْدُ فِي ٱلظُّلَمِ

التلميح

تَلْمِيحُ تَعْلِيمِهَا ذَاكَ ٱلسِّرَاجُ بِهِ يُهْدَى وَفِي ٱلسُّرْجِ إِرْشَادٌ إِلَى ٱللَّقَمِ

التتميم

تَتْمِيمُ سِرِّ ٱلْفِدَا وَٱلْحُبِّ سَلَّمَهَا يَا سَعْدَهَا وَٱضْمَحَلَّ ٱلْبُؤْسُ بِٱلنِّعَمِ

التصريع

تَصْرِيعُ أَبْوَابِهَا يُوقِي مِنَ الْخَصِمِ ‏ فَالْمَرْءُ دَاخِلُهَا كَالْمَرْءِ فِي الْأُطُمِ

التجريد

يَنَالُ صَوْبَ الْحَيَا مِنْ بَسْطِ رَاحَتِهَا ‏ مَنْ قَدْ تَجَرَّدَ عَنْ كُفْرٍ بِرَبِّهِمِ

المعمّى

حَوَى أَرِيجَ بَهَارٍ قَلْبُـهُ وَسَمَا ‏ مِنْ شَمِّهِ يَهْتَدِي مَنْ عَنْ غِنَاهُ عَمِي

التعريض

تَطْوِيلُ تَعْرِيضِ هَاجِيهَا يُعَظِّمُهَا ‏ وَالْبُغْضُ لِلْحَقِّ مَكْرُوهٌ كَذِي أَضَمِ

التنكيت

دَعِ الْمُنَكِّتَ إِذْ فِي ذِي الْكَنِيسَةِ وَحْـ ‏ ـدَهَا نَجَاةٌ مِنَ الطُّوفَانِ وَالضَّرَمِ

التوشيح

فَالرَّبُّ وَشَّحَهَا مِنْ عِصْمَةٍ حُلَلًا ‏ أَوْقَتْ خُطَى حُكْمِهَا مِنْ زَلَّةِ الْقَدَمِ

تنسيق الصفات

فَاسْجُدْ لَهُ عِنْدَ تَنْسِيقِ الصِّفَاتِ وَقُلْ ‏ رَبٌّ إِلٰهٌ قَدِيرٌ كَامِلُ الشِّيَمِ

العطف

فَاخْتَارَ ذَاكَ الصَّفَا رَأْسًا وَقَالَ لِذَا ‏ الْمُخْتَارِ كُنْ رَاعِيًا وَاعْطِفْ عَلَى الْغَنَمِ

العقد

مَهْمَا تَحُلُّ بِأَرْضٍ يَنْحَلِـلْ بِسَمَا ‏ وَمَا رَبَطْتَ بِعَقْدِ الرَّبْطِ مِنْكَ رُمِي

التعليل

لَوْ لَمْ يَجِئْنَا بِتَعْلِيلٍ تَجَسُّـدُهُ ‏ مِنْ مَرْيَمٍ مَا شُفِينَا مِنْ ضَنَى السَّقَمِ

المجاز

هِيَ الْمَجَازُ لِإِدْرَاكِ الشِّفَاءِ هِيَ الْـ ‏ ـعَرْشُ الرَّفِيعُ وَبُرْجُ الْبَارِئِ النَّسَمِ

المبالغة

بِهَا خَلَاصُ جَمِيعِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ   أَرَدتَّ بَالِغْ وَقُلْ بَلْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ

التوليد

لِكُلِّ هَوْلٍ طَرَا تُرْجَى شَفَاعَتُهَا   نَالَ ٱلْعِبَادُ بِهَا تَوْلِيدَ أَمْنِهِمِ

الاغراق

لَوْ تَابَ إِبْلِيسُ يَبْغِي مَاءَ نِعْمَتِهَا   لَأَغْرَقَتْهُ بِتَيَّارٍ مِنَ ٱلنِّعَمِ

الغلوّ

فَقَطْرَةٌ مِنْ نَدَاهَا لَا غُلُوَّ بِهَا   تَكَادُ تُحْيِي رَمِيمًا صَارَ كَالْعَدَمِ

التضمين

وَخَلْقُهَا فَاقَ فِي حُسْنٍ تَضَمَّنَهُ   وَإِنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ ٱللّٰهِ كُلِّهِمِ

المدح المفرّع

يَسْمُو ٱلْمَدِيحُ بِتَفْرِيعٍ لِطَلْعَتِهَا   سُمُوَّ خُلْقٍ حَوَتْ بِٱلْحِلْمِ مُلْتَئِمِ

التعديد

تَعْدِيدُ أَفْضَالِهَا يُبْدِي لِسَامِعِهِ   طُهْرًا وَبِرًّا وَحِلْمًا مَعْ عُلَى ٱلشِّيَمِ

التهذيب والتأديب

تَهْذِيبُ تَأْدِيبِهَا قَدْ زَادَنَا عَجَبًا   بِصَبْرِهَا حِينَ تَعْذِيبِ ٱبْنِهَا ٱلْعَلَمِ

التفصيل

فِي شَرْحِ آلَامِهِ ٱلتَّفْصِيلُ مُتَّسِعٌ   يَكِلُّ عَنْ شَرْحِهَا ذُو ٱلْفَهْمِ وَٱلْحِكَمِ

ايتلاف المعنى مع المعنى

وَصْلٌ وَفَضْلٌ لَهُ لِلْمَعْنَيَيْنِ غَدَا   تَآلُفٌ نَحْوَ صِدِّيقٍ وَمُحْتَرِمِ

التوكيد

لَهُ ٱلْقَضَاءُ بِتَوْكِيدٍ يَدِينُ بِهِ   أَمَا تَرَى أَنَّهُ ٱلدَّيَّانُ لِلْأُمَمِ

صناعة التوزيع

تَوْزِيعُ سَطْوَتِهِ يَوْمًا يُحَاكِمُهُمْ كَٱلَّيْثِ كَٱلسَّيْفِ كَٱلْجَبَّارِ كَٱلضَّرِمِ

المشاكلة

يَجْزِي إِسَاءَةَ شَانِيهِ بِسَيِّئَتِهِ يُشَاكِلُ ٱلْخَيْرَ خَيْرًا حُفَّ بِٱلْكَرَمِ

مجنح القلب

مُدْنٍ لِصَفْحٍ جَنَاحَ ٱلْقَلْبِ عَاطِفُهُ إِذَا رَاَى تَوْبَةً وَٱلدَّمْعُ فِي نَدَمِ

الجمع مع التفريق

فِي وَجْهِهِ ٱلنُّورُ لِلْأَصْحَابِ يَشْمَلُهُمْ وَلِلْعِدَا ٱلنَّارُ فِي تَفْرِيقِ جَمْعِهِمِ

مراعاة النظير

وَجْهُ ٱلسَّمَاءِ بِهِ كَٱلْبَرْقِ مُلْتَمِعٌ رَاعَى ٱلنَّظِيرَ بِوَجْهٍ لِلظِّبَاءِ سَمِي

التفريق

قَالُوا هُوَ ٱلْمَلِكُ وَٱلتَّفْرِيقُ يَظْهَرُ لِي فَذَاكَ فَانٍ وَهٰذَا غَيْرُ مُنْعَدِمِ

السلب والايجاب

لَا يُوجِبُ ٱلسَّلْبَ فِي إِعْزَازِ عُصْبَتِهِ وَيُوجِبُ ٱلذُّلَّ لِلْأَشْرَارِ فِي ٱلنِّقَمِ

المتقارب

اَرْجُو ٱلتَّقَارُبَ مِنْ اَعْدَادِ زُمْرَتِهِ لَا مِنْ عَدِيدِ ٱلْعِدَا فِي ٱلْحَشْرِ وَٱلزَّحَمِ

حسن البيان

حُسْنُ ٱلْبَيَانِ بِنُورٍ مِنْهُ اَرْشَدَنِي إِلَى ٱلتَّقَرُّبِ مِنْ اُولٰئِكَ ٱلْخَدَمِ

المزاوجة

إِذَا تَزَاوَجَ هَمِّي وَٱلْتَجَأْتُ لَهُ بِٱلْمَدْحِ فُزْتُ وَوَقَانِي مِنَ ٱلْغُمَمِ

الاستعانة

مَا سَامَنِي ٱلدَّهْرُ ضَيْمًا وَٱسْتَعَنْتُ بِهِ إِلَّا وَنِلْتُ جِوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضَمِ

التقسيم

فَالْكَوْنُ قَدْ عَمَّهُ تَقْسِيمُ أَنْعُمِهِ   جِنْسًا وَنَوْعًا وَفَرْدًا وَهُوَ فِي شَمَمِ

التمثيل

تُرْبِي عَلَى السَّيْلِ فِي التَّمْثِيلِ نِعْمَتُهُ   شَتَّانَ مَا بَيْنَ طَلٍّ وَالْحَيَا الْعَرِمِ

نفي الشيء بايجابه

لَا يَنْتَفِي الْجُودُ مِنْ اِيجَابِهِ أَبَدًا   وَلَا يَشِينُ بِمَنٍّ رَوْنَقَ النِّعَمِ

مختوم الطرفين

مِنْ فَضْلِهِ أَرْتَجِي تَخْتِيمَهُ طَرَفَيْ   قَضِيَّتِي فِي الْقَضَا بِالْمَجْدِ وَالْعِظَمِ

التضمين المزدوج

تَضْمِينُ حَمْدِي لَهُ لِلْفَضْلِ مُزْدَوِجًا   عَقْلًا وَنَقْلًا جَنَانِي جَاءَهُ وَفَمِي

المواردة

تَوَارَدَ الْفِكْرُ فِي مَدْحٍ الْأَزِمَّةُ   لِمَنْ غَدَا لِخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ

التطريز

تَطْرِيزُ حَمْدِي بِمَدْحِي فِيهِ مُلْتَحِمٌ   يَاحُسْنَ مُلْتَحِمٍ يَاحُسْنَ مُلْتَحِمِ

الاحتراس

اِلَيْكَ جِئْتُ أَيَا مَوْلَايَ مُنْسَحِقًا   قَلْبًا وَمُحْتَرِسًا خُذْنِي مِنَ الْخَدَمِ

المصغر

نُفَيْسَتِي مِنْ زُلَيْلَاتٍ جَنَتْ صَغُرَتْ   وَلِّي عُزَيْمِي مُهَيْزِيًا وَلَمْ يَقُمِ

التدبيج

فَازْرَقَّ أَبْيَضُ وَجْهِي حِينَ دَبَّجَهُ   سَوَادُ إِثْمِي بِصِبْغٍ فِيهِ مُتَّسِمِ

المضارع

وَبِاضْطِرَابِ جَنَانٍ وَاضْطِرَامِ حَشًا   ضَارَعْتُ ذَا زَلَّةٍ فِي يَوْمِ مُحْتَكَمِ

التصريف

فَالْقَلْبُ حَرَّقَهُ التَّصْرِيفُ فِي عِلَلٍ وَالْجَفْنُ قَرَّحَهُ التَّدْمِيعُ فِي نَدَمِ

براعة الطلب

بَرَاعَتِي فِي مَدِيحِي مُنْتَهَى طَلَبِي فَاسْأَلْ سَخَاكَ فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَى الْكَلِمِ

الادماج

اَدْمَجْتُ فِي مَدْحِهِ شَكْوَايَ مِنْ زَلَلِي وَعَسْجَدُ الْخَدِّ مِنْ ذَا الدَّمْعِ كَالْعَنَمِ

الحذف

اَرُومُ مِنْهُ انْتِصَارًا حَاذِفًا هَلَعًا وَعَاضِدًا وَقْتَ هَوْلِ الْحَشْرِ وَالنِّقَمِ

التاريخ

بِهِ الْآثِمُ جَنَى بِرًّا فَقُلْتُ بِهِ مُذْ اَرِّخُوهُ لَنَا بِالْبِرِّ مُغْتَنِمِي *

حسن الختام

بِهِ غَدَا فِي عَلَاءٍ حُسْنُ مُبْتَدَايَ هَنِّي بِهِ يَا اِلٰهِي حُسْنَ مُخْتَتَمِي

ختام الختام

وَاخْتِمْ خِتَامِي بِاَنْ اَحْظَى بِطَلْعَتِهِ م الْبَاهِي بِجَدْرِ السَّنَى يَا مُرْشِدَ الْأُمَمِ



* قوله: (لنا بالبر مغتنمي) تاريخ بحساب الجُمَّل للسنة التي فيها نُظمت هذه البديعيّة وهي سنة ١٨٥٨

البحث السادس

في المطابقة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٩٤ من علم الادب)

هٰذَا ٱلنَّوعُ هُوَ فِي ٱلْمَعَانِي ضِدُّ ٱلتَّجْنِيسِ فِي ٱلْأَلفَاظِ لِأَنَّ ٱلتَّجْنِيسَ هُوَ أَنْ يَتَّحِدَ ٱللَّفْظُ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا هُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَيَانِ ضِدَّيْنِ. وَقَدْ أَجْمَعَ أَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى أَنَّ ٱلْمُطَابَقَةَ فِي ٱلْكَلَامِ هِيَ ٱلْجَمْعُ بَيْنَ ٱلشَّيْءِ وَضِدِّهِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ وَٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ. وَخَالَفَهُمْ فِي ذٰلِكَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ ٱلْمُطَابَقَةُ إِيرَادُ لَفْظَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ فِي ٱلْبِنَاءِ وَٱلصِّيغَةِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي ٱلْمَعْنَى. وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلتَّجْنِيسُ بِعَيْنِهِ. غَيْرَ أَنَّ ٱلْأَسْمَاءَ لَا مُشَاحَّةَ فِيهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ مُشْتَقَّةً. وَلْنَنْظُرْ نَحْنُ فِي ذٰلِكَ وَهُوَ أَنْ نَكْشِفَ عَنْ أَصْلِ ٱلْمُطَابَقَةِ فِي وَضْعِ ٱللُّغَةِ وَقَدْ وَجَدْنَا ٱلطِّبَاقَ فِي ٱللُّغَةِ مِنْ طَابَقَ ٱلْبَعِيرُ فِي سَيْرِهِ إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ مَوْضِعَ يَدِهِ وَهٰذَا يُؤَكِّدُ مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ لِأَنَّ ٱلْيَدَ غَيْرُ ٱلرِّجْلِ لَا ضِدُّهَا وَٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يَقَعَانِ فِيهِ وَاحِدٌ وَكَذٰلِكَ ٱلْمَعْنَيَانِ يَكُونَانِ مُخْتَلِفَيْنِ وَٱللَّفْظُ ٱلَّذِي يَجْمَعُهُمَا وَاحِدٌ. فَقُدَامَةُ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُطَابَقَةً حَيْثُ كَانَ ٱلِٱسْمُ مُشْتَقًّا مِمَّا سُمِّيَ بِهِ وَذٰلِكَ مُنَاسِبٌ وَوَاقِعٌ فِي مَوْقِعِهِ إِلَّا أَنَّهُ جَعَلَ لِلتَّجْنِيسِ ٱسْمًا آخَرَ وَهُوَ ٱلْمُطَابَقَةُ وَلَا بَأْسَ بِهِ إِلَّا إِنْ كَانَ مِثْلَهُ بِٱلضِّدَّيْنِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ خَالَفَ ٱلْأَصْلَ ٱلَّذِي

اَصَلَهُ بِالْمِثَالِ اَلَّذِي مَثَّلَهُ . وَاَمَّا غَيْرُهُ مِنْ اَرْبَابِ هٰذِهِ اَلصِّنَاعَةِ فَاِنَّهُمْ سَمَّوْا هٰذَا اَلضَّرْبَ مِنَ اَلْكَلَامِ مُطَابِقًا لِغَيْرِ اَشْتِقَاقٍ وَلَا مُنَاسَبَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُسَمَّاهُ . هٰذَا اَلظَّاهِرُ لَنَا مِنْ هٰذَا اَلْقَوْلِ اِلَّا اَنْ يَكُونُوا عَلِمُوا لِذٰلِكَ مُنَاسَبَةً لَطِيفَةً لَمْ نَعْلَمْهَا نَحْنُ . وَلْنَرْجِعْ اِلَى ذِكْرِ هٰذَا اَلْقِسْمِ مِنَ اَلتَّأْلِيفِ وَاِيضَاحِ حَقِيقَتِهِ فَنَقُولُ : اَلْأَلْيَقُ مِنْ حَيْثُ اَلْمَعْنَى اَنْ يُسَمَّى هٰذَا اَلنَّوْعُ اَلْمُقَابَلَةَ لِاَنَّهُ لَا يَخْلُو اَلْحَالُ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : اِمَّا اَنْ يُقَابَلَ اَلشَّيْءُ بِضِدِّهِ اَوْ يُقَابَلَ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . وَلَيْسَ لَنَا وَجْهٌ ثَالِثٌ . (فَاَمَّا اَلْاَوَّلُ) وَهُوَ مُقَابَلَةُ اَلشَّيْءِ بِضِدِّهِ كَالسَّوَادِ وَاَلْبَيَاضِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا فَاِنَّهُ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : اَحَدُهُمَا مُقَابَلَةٌ فِي اَللَّفْظِ وَاَلْمَعْنَى وَاَلْآخَرُ مُقَابَلَةٌ فِي اَلْمَعْنَى دُونَ اَللَّفْظِ . اَمَّا اَلْمُقَابَلَةُ فِي اَللَّفْظِ وَاَلْمَعْنَى فَكَقَوْلِهِ : فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا . فَقَابَلَ بَيْنَ اَلضَّحِكِ وَاَلْبُكَاءِ وَاَلْقَلِيلِ وَاَلْكَثِيرِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ : لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ . وَهٰذَا مِنْ اَحْسَنِ مَا يَجِيءُ فِي هٰذَا اَلْبَابِ . وَقَالَ اَيْضًا : خَيْرُ اَلْمَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنٍ نَائِمَةٍ . وَمِنَ اَلْحَسَنِ اَلْمَطْبُوعِ اَلَّذِي لَيْسَ بِمُتَكَلَّفٍ قَوْلُ عَلِيٍّ لِعُثْمَانَ : اِنَّ اَلْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ وَاَلْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ وَاَنْتَ رَجُلٌ اِنْ صُدِقْتَ سَخِطْتَ وَاِنْ كُذِبْتَ رَضِيتَ . فَقَابَلَ اَلْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَاَلثَّقِيلَ اَلْمَرِيَّ بِالْخَفِيفِ اَلْوَبِيِّ وَاَلصِّدْقَ بِالْكَذِبِ وَاَلسُّخْطَ بِالرِّضَا وَهٰذِهِ خَمْسُ مُقَابَلَاتٍ فِي هٰذِهِ اَلْكَلِمَاتِ اَلْقِصَارِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ لَمَّا قَالَ اَلْخَوَارِجُ : (لَا حُكْمَ اِلَّا لِلّٰهِ تَعَالَى) : هٰذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ اُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ .

وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَدْ أَحْضَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَقْتُلَهُ فَقَالَ لَهُ : مَا ٱسْمُكَ . قَالَ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ . قَالَ بَلْ أَنْتَ شَقِيُّ بْنُ كُسَيْرٍ . وَقَدْ كَانَ ٱلْحَجَّاجُ مِنَ ٱلْفُصَحَاءِ ٱلْمَعْدُودِينَ وَفِي كَلَامِهِ هٰذَا مُطَابَقَةٌ حَسَنَةٌ فَإِنَّهُ نَقَلَ ٱلِاسْمَيْنِ إِلَى ضِدِّهِمَا فَقَالَ : فِي (سَعِيدٍ) شَقِيٌّ . وَفِي (جُبَيْرٍ) كُسَيْرٌ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ تَخْتَصَّ بِهِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱللُّغَاتِ . وَمِمَّا وَجَدْتُهُ فِي لُغَةِ ٱلْفُرْسِ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ قُبَاذُ أَحَدُ مُلُوكِهِمْ قَالَ وَزِيرٌ : حَرَّكَنَا بِسُكُونِهِ . وَأَوَّلُ كِتَابِ ٱلْفُصُولِ لِبُقْرَاطَ فِي ٱلطِّبِّ قَوْلُهُ : ٱلْعُمْرُ قَصِيرٌ وَٱلصِّنَاعَةُ طَوِيلَةٌ . (وَأَمَّا ٱلْمُقَابَلَةُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلْأَضْدَادِ) فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ ٱلْمُقَنَّعِ ٱلْكِنْدِيِّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ:

لَهُمْ جُلُّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمْ رِفْدَا

فَقَوْلُهُ: (تَتَابَعَ لِي غِنًى). بِمَعْنَى قَوْلِهِ: كَثُرَ مَالِي فَهُوَ إِذًا مُقَابَلَةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لِأَنَّ حَقِيقَةَ ٱلْأَضْدَادِ ٱللَّفْظِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ نَحْوُ : قَامَ وَقَعَدَ . وَحَلَّ وَعَقَدَ. وَقَلَّ وَكَثُرَ . فَإِنَّ ٱلْقِيَامَ ضِدُّ ٱلْقُعُودِ. وَٱلْحَلَّ ضِدُّ ٱلْعَقْدِ. وَٱلْقَلِيلَ ضِدُّ ٱلْكَثِيرِ . فَإِذَا تُرِكَ ٱلْمُفْرَدُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَتُوُصِّلَ إِلَى مُقَابَلَتِهِ بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ كَانَ ذٰلِكَ مُقَابَلَةً مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَقَوْلِ هٰذَا ٱلشَّاعِرِ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى). فِي مَعْنَى (كَثُرَ مَالِي) وَهٰذِهِ مُقَابَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ لَا لَفْظِيَّةٌ فَٱعْرِفْ ذٰلِكَ. (وَأَمَّا مُقَابَلَةُ ٱلشَّيْءِ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ. فَهِيَ ضَرْبَانِ : (أَحَدُهُمَا) أَنْ لَا يَكُونَ مِثْلًا . (وَٱلْآخَرُ) أَنْ

يَكُونَ مِثْلًا . فَالضَّرْبُ الْاَوَّلُ يَتَفَرَّعُ اِلَى فَرْعَيْنِ : (اَلْاَوَّلُ) مَا كَانَ بَيْنَ الْمُقَابَلِ بِهِ وَالْمُقَابَلِ نَوْعُ مُنَاسَبَةٍ وَتَقَارُبٍ . كَقَوْلِ قُرَيْطِ ابْنِ اُنَيْفٍ :

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ اَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً   وَمِنْ اِسَاءَةِ اَهْلِ السُّوءِ اِحْسَانَا

فَقَابَلَ الظُّلْمَ بِالْمَغْفِرَةِ وَلَيْسَ هُوَ ضِدًّا لَهَا. اِلَّا اَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ الْمَغْفِرَةُ قَرِيبَةً مِنَ الْعَدْلِ حَسُنَتِ الْمُقَابَلَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الظُّلْمِ . (اَلْفَرْعُ الثَّانِي) مَا كَانَ بَيْنَ الْمُقَابَلِ وَالْمُقَابَلِ بِهِ بُعْدٌ وَذَاكَ مِمَّا لَا يَحْسُنُ اسْتِعْمَالُهُ . كَقَوْلِ اَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي :

لِمَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا اِذَا لَمْ يُرِدْ بِهَا   سُرُورَ مُحِبٍّ اَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ

فَاِنَّ الْمُقَابَلَةَ الصَّحِيحَةَ بَيْنَ الْمُحِبِّ وَالْمُبْغِضِ لَا بَيْنَ الْمُحِبِّ وَالْمُجْرِمِ وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِهٰذَا الضَّرْبِ ضَرْبٌ مِنَ الْكَلَامِ يُسَمَّى الْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ الْمَعَانِي وَالْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ الْمَبَانِي وَكَانَ يَنْبَغِي اَنْ نَعْقِدَ لَهُ بَابًا مُفْرَدًا لٰكِنْ اِذْ رَاَيْنَاهُ يَنْظُرُ اِلَى التَّقَابُلِ مِنْ وَجْهٍ وَصَلْنَاهُ بِهِ. اَمَّا الْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ الْمَعَانِي فَهُوَ اَنْ يُذْكَرَ الْمَعْنَى مَعَ اَخِيهِ لَا مَعَ الْاَجْنَبِيِّ . مِثَالُهُ اَنْ تَذْكُرَ وَصْفًا مِنَ الْاَوْصَافِ وَتَقْرِنَهُ بِمَا يَقْرُبُ مِنْهُ وَيَلْتَئِمُ بِهِ فَاِنْ ذَكَرْتَهُ مَعَ مَا يَبْعُدُ مِنْهُ كَانَ ذٰلِكَ قَدْحًا فِي الصِّنَاعَةِ وَاِنْ كَانَ جَائِزًا . وَقَدْ رَاَيْتُ اَبَا نُوَاسٍ يَقَعُ فِي هٰذَا الْغَلَطِ كَثِيرًا كَقَوْلِهِ فِي وَصْفِ الدِّيكِ :

لَهُ اعْتِدَالٌ وَانْتِصَابُ قَدّ   وَجِلْدُهُ يُشْبِهُ وَشْيَ الْبُرْدِ

كَاَنَّمَا الْهُدَّابُ فِي الْفِرِنْدِ   مُحْدَوْدِبُ الظَّهْرِ كَرِيمُ الْجَدِّ

فَإِنَّهُ ذَكَرَ ٱلظَّهْرَ وَقَرَنَهُ بِذِكْرِ ٱلْجَدِّ وَهٰذَا لَا يُنَاسِبُ هٰذَا لِأَنَّ ٱلظَّهْرَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَلْقِ وَٱلْجَدَّ فِي ٱلنَّسَبِ. وَأَمَّا (ٱلْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي) فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَبَانِي ٱلْأَلْفَاظِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ:

فَٱذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ   يُثْنِي عَلَيْهَا ٱلسَّهْلُ وَٱلْأَوْعَارُ

وَٱلْأَحْسَنُ أَنْ: يُقَالَ ٱلسَّهْلُ وَٱلْوَعْرُ أَوِ ٱلسُّهُولُ وَٱلْأَوْعَارُ. لِيَكُونَ ٱلْبِنَاءُ ٱللَّفْظِيُّ وَاحِدًا أَيْ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظَانِ وَارِدَيْنِ عَلَى صِيغَةِ ٱلْجَمْعِ أَوِ ٱلْإِفْرَادِ. وَإِذَا أَنْصَفْنَا هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ وَجَدْنَا ٱلنَّاثِرَ مُطَالَبًا بِهِ دُونَ ٱلنَّاظِمِ لِمَكَانِ إِمْكَانِهِ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ. (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) هُوَ فِي مُقَابَلَةِ ٱلشَّيْءِ بِمِثْلِهِ وَهُوَ يَتَفَرَّعُ إِلَى فَرْعَيْنِ: (أَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمُفْرَدِ بِٱلْمُفْرَدِ. (وَٱلْآخَرُ) مُقَابَلَةُ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ. (ٱلْفَرْعُ ٱلْأَوَّلُ) كَقَوْلِهِ: نَسُوا ٱللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ. وَقَدْ رُوعِيَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ فِي ٱلْقُرْآنِ كَثِيرًا فَإِذَا وَرَدَ فِي صَدْرِ آيَةٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ كَانَ جَوَابُهُ مُمَاثِلًا كَقَوْلِهِ: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ. وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ غَيْرَ جَوَابٍ فَإِنَّهُ لَا يَلْتَزِمُ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْمُرَاعَاةَ ٱللَّفْظِيَّةَ. (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي فِي مُقَابَلَةِ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ) اِعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ ٱلْجُمْلَةُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُسْتَقْبَلَةً قُوبِلَتْ بِمُسْتَقْبَلَةٍ. وَإِنْ كَانَتْ مَاضِيَةً قُوبِلَتْ بِمَاضِيَةٍ وَرُبَّمَا قُوبِلَتِ ٱلْمَاضِيَةُ بِمُسْتَقْبَلَةٍ وَٱلْمُسْتَقْبَلَةُ بِٱلْمَاضِيَةِ إِذَا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا بِمَعْنَى ٱلْأُخْرَى فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ: قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي. فَإِنَّ هٰذَا تَقَابُلٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى وَلَوْ كَانَ ٱلتَّقَابُلُ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لَقَالَ: وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَإِنَّمَا أَهْتَدِي لَهَا

البحث السابع

في حقيقة التجنيس

(عن كتاب جنان الجناس للصفدي وعن التبريشي وابن الاثير)

(راجع صفحة ١١٨ من علم الادب)

اِعلَمْ انَّ ٱلتَّجنِيسَ غُرَّةٌ شادِخَةٌ فِي وَجهِ ٱلـكَلَامِ وَقَدْ تصرَّفَ ٱلْعلَماءُ مِنْ اربابِ هٰذِهِ ٱلصِّناعَةِ فِيهِ فغَرَّبوا وشَرَّقوا لاسِيَّما ٱلمُحَدِّثِينَ مِنْهُم. وصنَّفَ ٱلنَّاسُ فِيهِ كُتُباً كثِيرَةً وجعلوهُ ابوابًا مُتعدِّدَةً وٱختلَفُوا فِي ذٰلِكَ وادخلُوا بعضَ تِلْكَ ٱلأَبوابِ فِي بعضٍ . وَإِنَّمَا سُمِّي هٰذَا ٱلنَّوعُ مِنَ ٱلـكَلَامِ مُجانِساً لِأَنَّ حُروفَ الفاظِهِ يَكونُ تركيبُها مِنْ جِنْسٍ واحِدٍ . امَّا حقيقتُهُ فاعْلَمْ انَّ اربابَ ٱلبلاغَةِ عرَّفوهُ بحُـدُودٍ ٱختلَفَتْ اقوالُهُمْ فِيها . فقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ : هوَ بيانُ ٱلمعَانِي بِأنواعٍ مِنَ ٱلـكَلَامِ يَجمَعُها اصلٌ واحِدٌ مِنَ ٱللُّغَةِ . وقالَ قُدامةُ : هُوَ ٱشْتِراكُ ٱلمعَانِي فِي الفاظٍ مُتجانِسَةٍ علَى جِهَةِ ٱلاشْتِقاقِ . وقَالَ ٱبنُ ٱلمعتزّ : هُوَ انْ تَجِيَ بِكلِمَـةٍ تُجانِسُ اُختها . وقالَ ٱبنُ ٱلاثِيرِ ٱلجزريُّ : ٱلجِناسُ هُوَ انْ يَكونَ ٱللَّفظُ واحِداً وٱلمعنَى مُختلِفاً. وقالَ بدرُ ٱلدِّينِ ٱبنُ ٱلنَّحوِيَّةِ فِي ضَوْءِ ٱلمِصْباحِ : هُوَ انْ يُؤْتَى بمُتَماثِلَيْنِ فِي ٱلحُروفِ اوْ بعضِها مُتغايِرَيْنِ فِي اصْلِ ٱلمعنَى فِي غيرِ ردِّ ٱلعَجُزِ على ٱلصَّدرِ . فهٰذا جُملَةُ ما حضَرَنِي مِنْ حُدُودِ ٱلقَوْمِ عِنْدَ تعْلِيقِ هٰذَا ٱلفَصْـلِ . (قُلْتُ) اما حَدُّ ٱلرُّمَّانِيِّ فَإِنَّهُ اسْلَمُ مِمَّا بعدَهُ لـكِنَّـهُ غيرُ جامِعٍ

لِانَّهُ يَخْرُجُ عَنهُ جِناسُ التَّصحِيفِ وَالتصرِيفِ وَالمُرَكَّبِ وجِناسُ المعَنى وَالجِناسُ المُطمِعُ . وَامَّا حدُّ قدامَةَ فاِنَّهُ عرَّفَ الشَّيْءَ بنَفسِهِ وهٰذا غيرُ جائِزٍ لِانَّ قولَهُ : (فِي الفاظٍ مُتجانِسةٍ) يُفضِي اِلى الدَّورِ لِانَّنا بِهٰذا لا نَعرِفُ المُتجانِسَ اِلا بعدَ معرِفةِ الجِناسِ ولَا نَعرِفُ الجِناسَ اِلَّا بعدَ معرِفةِ المُتجانِسِ فادَّى ذٰلِكَ اِلى الدَّورِ وهُوَ مُحالٌ . ويُمكِنُ الجَوابُ عنهُ بِانْ يُقالَ : اِنَّهُ مَا ارادَ المُتجانِسَ فِي الاِصطِلاحِ بَلِ المُتجانِسَ فِي اللُّغةِ اَيْ فِي الالفاظِ المتشابِهةِ . وعلَى كُلِّ حالٍ فهوَ حدٌّ مُضطَرِبٌ اِذْ فِيهِ لَفظٌ مُوهِمٌ والحُدودُ يُجتَنَبُ فِيها مِثلُ ذٰلِكَ . وقولُهُ : (علَى جِهةِ الاِشتِقاقِ) يَخرُجُ عنهُ جميعُ انواعِ الجِناسِ اِلَّا الجِناسَ المُشتَقَّ . وامَّا حدُّ ابنِ المُعتزِّ فهوَ ايضاً تعريفٌ دَورِيٌّ وذٰلِكَ غيرُ جائِزٍ فِي صِناعةِ الحُدودِ والرُّسومِ . واماَّ حدُّ ابنِ الاثيرِ فهوَ ايضاً غيرُ جامعٍ لِانَّهُ يَخرُجُ عنهُ مِثلُ الجِناسِ المُزدَوجِ والجِناسِ المُطمِعِ والجِناسِ الخطِّيِّ والجِناسِ المعنوِيِّ علَى ما سَيظهَرُ لكَ عِندَ كَشفِ كُلِّ ماهيَّةٍ مِنْ انواعِهِ . واماَّ حدُّ بَدرِ الدِّينِ ابنِ النَّحوِيَّةِ فاِنَّ قولَهُ : (مُتماثِلَيْنِ) جِنسٌ يَشمَلُ المُماثِلَ مُطلَقاً سواءٌ كانَ لفظاً او معنًى . وقولُهُ : (فِي الحُروفِ) فَصلٌ يُخرِجُ بِهِ المُماثِلَ معنًى . وقولُهُ : (او بَعضِها) مُدخِلٌ لِلجِناسِ المُطمِعِ والمُخالِفِ والاِشتِقاقِ . وقولُهُ : (مُتغايِرَيْنِ فِي اَصلِ المعنَى) لا فائِدةَ فِيهِ لِانَّ هٰذا معلومٌ فِي قولِهِ : (مُتماثِلَيْنِ فِي الحُروفِ) اَيْ دُونَ معناهُما لٰكِنْ فِيهِ زِيادةُ بَيانٍ . وقولُهُ : (فِي غيرِ رَدِّ العَجُز

عَلَى ٱلصَّدْرِ) هٰذَا لَاحَاجَةَ إِلَيْهِ وَلَا فَائِدَةَ فِي هٰذَا ٱلِاحْتِرَازِ كَمَا يَظْهَرُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ وَلَوْ زَادَ قَوْلَهُ: بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ أَوْ بَعْضِهَا أَوْ صُورَتِهَا لَكَانَ أَجْوَدَ لِيَدْخُلَ فِيهِ ٱلْجِنَاسُ ٱلْخَطِّيُّ . وَٱلَّذِي أَخْتَارُهُ أَنَا فِي رَسْمِ ٱلْجِنَاسِ أَنْ أَقُولَ : هُوَ ٱلْإِتْيَانُ بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ أَوْ بَعْضِهَا أَوْ فِي ٱلصُّورَةِ أَوْ زِيَادَةٍ فِي أَحَدِهِمَا أَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ نَظْمًا أَوِ ٱلْحَرَكَاتِ أَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ . وَلَعَلَّ هٰذَا ٱلرَّسْمَ أَقْرَبُ إِلَى ٱلسَّلَامَةِ مِمَّا ذُكِرَ . فَقَوْلِي (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمَلُ ٱلْمُمَاثِلَ لَفْظًا وَمَعْنًى . وَقَوْلِي : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ أَخْرَجَ ٱلْمُمَاثِلَ مَعْنًى كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ زَيْدٌ . وَأَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلتَّامَّ كَقَوْلِكَ يَحْيَى يَحْيَا . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُرَكَّبَ كَقَوْلِكَ : نِعْمَتُهُ ذَاهِبَهْ . إِنْ لَمْ يَكُنْ ذَا هِبَهْ . وَقَوْلِي : (أَوْ بَعْضِهَا) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُطَمِّعَ كَقَوْلِكَ : ٱلْأَمْوَاهُ وَٱلْأَمْوَالُ . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُقَارِبَ كَقَوْلِكَ : ٱلْهُمُومُ عَلَى قَدْرِ ٱلْهِمَمِ . وَقَوْلِي :(أَوْ فِي ٱلصُّورَةِ) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْخَطِّيَّ كَقَوْلِكَ : لَا تُضِعْ يَوْمَكَ فِي نَوْمِكَ . وَقَوْلِي : (أَوْ زِيَادَةٍ) فِي أَحَدِهِمَا أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : ٱلْمَاءُ مِنَ ٱلْأَحْجَارِ جَارٍ . وَقَوْلِي : أَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : بِيضُ ٱلصَّحَائِفِ وَٱلصَّفَائِحِ . وَقَوْلِي (أَوِ ٱلْحَرَكَاتِ) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُغَايِرَ كَقَوْلِكَ : أَغْتَنِمْ هِبَاتِ ٱلْهَبَاتِ . وَقَوْلِي : (أَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ نَظْمًا) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمَعْنَوِيَّ كَقَوْلِكَ : أَمْرٌ عَظِيمٌ تَظْهَرُ ٱللُّوثَةُ فِيهِ بِٱلْأَسَدِ . إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقُولَ :

(بِٱللَّيثِ) ثُمَّ عدلتَ إلى مَا يُرادِفُهُ وهُوَ ٱلأسَدُ . وَقَولِي : (نَظْماً) إِعلَامٌ بِأَنَّ هٰذَا ٱلنَّوعَ مِنَ ٱلجِنَاسِ إِنَّمَا يَجِيءُ فِي ٱلنَّظْمِ دُونَ ٱلنَّثْرِ . وَتَظْهَرُ عِلَّةُ هٰذَا فِي مَكَانِهِ . فَتَدَبَّرْ هٰذَا ٱلرَّسمَ تَجِدْهُ مَا أَخَلَّ بِنَوعٍ مِنْ أَنوَاعِ ٱلجِنَاسِ . وَقَدْ قَالَ عُلَمَاءُ ٱلبَدِيعِ : إِنَّ ٱلجِنَاسَ يَحْسُنُ إِذَا قَلَّ وَأَتَى فِي ٱلكَلَامِ عَفْواً مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَلَا ٱستِكْرَاهٍ وَلَا بُعْدٍ وَلَا مَيْلٍ إِلَى جَانِبٍ . وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَيْهِ بِكَثْرَةِ ٱستِعْمَالِهِ إِلَّا مَنْ قَصُرَتْ هِمَّتُهُ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلمَعَانِي ٱلَّتِي هِيَ كَٱلنُّجُومِ ٱلزَّاهِرَةِ فِي أُفُقِ ٱلأَلفَاظِ . وَإِذَا خَلَتْ بُيُوتُ ٱلأَلفَاظِ مِنْ سُكَّانِ ٱلمَعَانِي تَنَزَّلَتْ مَنْزِلَةَ ٱلأَطْلَالِ ٱلبَالِيَةِ

البحث الثامن

في ذكر انواع التجنيس

إِعْلَمْ أَنَّ أَنوَاعَ ٱلجِنَاسِ كَثِيرَةٌ ٱقْتَصَرْنَا عَلَى ذِكْرِ أَخَصِّهَا وَأَوَّلُهَا ٱلجِنَاسُ (ٱلمُرَكَّبُ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ كَلِمَةً مُفْرَدَةً وَٱلأُخْرَى مُرَكَّبَةً مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ : فَٱلأَوَّلُ مَا تَشَابَهَ لَفظاً وَخَطّاً كَقَولِ ٱلشَّاعِرِ :

عَضَّنَا ٱلدَّهْرُ بِنَابِهْ   لَيتَ مَا حَلَّ بِنَا بِهْ

وَٱلثَّانِي مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ لَفظاً لَا خَطّاً وَيُسَمَّى ٱلمَفرُوقَ كَقَولِ ٱلشَّاعِرِ :

لَا تَعْرِضَنَّ عَلَى ٱلرُّوَاةِ قَصِيدَةً   مَا لَمْ تَكُنْ بَالَغْتَ فِي تَهْذِيبِهَا

وَإِذَا عَرَضْتَ ٱلشِّعْرَ غَيْرَ مُهَذَّبٍ عَدُّوهُ مِنْكَ وَسَاوِسًا تَهْذِي بِهَا

وَلِلْجِنَاسِ ٱلْمُرَكَّبِ نَوْعٌ يُسَمَّى (ٱلْمَرْفُوَّ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ جُزْءًا مُسْتَقِلًّا وَٱلْآخَرُ مُجَزًّا مِنْ كَلِمَةٍ أُخْرَى كَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ :

وَٱلْمَكْرَ مَهْمَا ٱسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ لِتَقْتَنِي ٱلسُّؤْدَدَ وَٱلْمَكْرُمَهْ

وَقَوْلِهِ :

وَلَا تَلْهُ عَنْ تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وَٱبْكِهِ بِدَمْعٍ يُحَاكِي ٱلْمُزْنَ حَالَ مَصَابِهِ

وَمَثِّلْ لِعَيْنَيْكَ ٱلْحِمَامَ وَوَقْعَهُ وَرَوْعَةَ مَلْقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا يَخْلُو مِنْ تَعَسُّفٍ وَتَعْقِيدٍ فِي ٱلتَّرْكِيبِ . وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُلَفَّقُ) وَحَدُّهُ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنَ ٱلرُّكْنَيْنِ مُرَكَّبًا مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُرَكَّبِ وَقَلَّ مَنْ أَفْرَدَهُ عَنْهُ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَكَمْ لِجِبَاهِ ٱلرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ مِنْ مَجَالِ سُجُودٍ فِي مَجَالِسِ جُودِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُذَيَّلُ وَٱللَّاحِقُ) . فَٱلْمُذَيَّلُ هُوَ مَا زَادَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفًا فِي آخِرِهِ فَصَارَ لَهُ كَٱلذَّيْلِ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

يَمُدُّونَ فِي أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

وَقَالَ آخَرُ :

عَذِيرِيَ مِنْ دَهْرٍ مُوَارٍ مُوَارِبٍ لَهُ حَسَنَاتٌ كُلُّهُنَّ ذُنُوبُ

وَقَدْ تَأْتِي ٱلزِّيَادَةُ فِي آخِرِ ٱلذَّيْلِ بِحَرْفَيْنِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي رِثَاءٍ :

فَيالَكَ مِنْ حَزْمٍ وَعَزْمٍ طَواهُمَا   جَدِيدُ ٱلرَّدَى تَحْتَ ٱلصَّفَا وَٱلصَّفَائِحِ

وَأَرَقُّ مَا سَمِعْتُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ :

إِنَّ ٱلْبُكَاءَ هُوَ ٱلشِّفَا   ءُ مِنَ ٱلْجَوَى بَيْنَ ٱلْجَوَانِحْ

وَأَمَّا (ٱللَّاحِقُ) فَهُوَ مَا أُبْدِلَ فِي أَحَدِ رُكْنَيْهِ حَرْفٌ مِنْ غَيْرِ مَخْرَجِهِ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي جَوَابِ رِسَالَةٍ : وَصَلَ كِتَابُكَ فَتَنَاوَلْتُهُ بِٱلْيَمِينِ وَوَضَعْتُهُ مَكَانَ ٱلْعِقْدِ ٱلثَّمِينِ . وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ : أَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْجِنَاسِ ٱللَّاحِقِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمُضَارِعِ أَنَّ حُرُوفَ ٱللَّاحِقِ لَيْسَتْ مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ كَٱلنُّونِ وَٱلْقَافِ فِي : (تَقْهَرْ وَتَنْهَرْ). وَأَمَّا حُرُوفُ ٱلْمُضَارِعِ فَإِنَّهَا مُتَشَابِهَةٌ فِي ٱلْمَخْرَجِ كَمَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ : إِنَّ ٱلْخَيْلَ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا ٱلْخَيْرُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : ٱلْبَرَايَا أَهْدَافُ ٱلْبَلَايَا . فَإِنَّ ٱلرَّاءَ وَٱللَّامَ مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّجْنِيسِ (ٱلتَّامُّ) . وَهُوَ مَا تَمَاثَلَ رُكْنَاهُ وَٱتَّفَقَا لَفْظًا وَٱخْتَلَفَا مَعْنًى مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ فِي تَصْحِيحِ تَرْكِيبِهِمَا وَٱخْتِلَافِ حَرَكَتِهِمَا سَوَاءٌ كَانَا مِنِ ٱسْمَيْنِ أَوْ مِنْ فِعْلَيْنِ أَوْ مِنِ ٱسْمٍ وَفِعْلٍ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : إِذَا ٱنْتَظَمَ رُكْنَاهُ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ كَٱسْمَيْنِ أَوْ فِعْلَيْنِ سُمِّيَ مُمَاثِلًا وَإِنِ ٱنْتَظَمَا مِنْ نَوْعَيْنِ كَٱسْمٍ وَفِعْلٍ سُمِّيَ مُسْتَوْفًى . وَجُلُّ ٱلْقَصْدِ تَمَاثُلُ ٱلرُّكْنَيْنِ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْخَطِّ وَٱلْحَرَكَةِ وَٱخْتِلَافُهُمَا فِي ٱلْمَعْنَى . فَمِنْهُ قَوْلُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ : صَوْلَةُ ٱلْبَاطِلِ سَاعَةٌ وَصَوْلَةُ ٱلْحَقِّ إِلَى ٱلسَّاعَةِ . وَمِنَ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي رِثَاءِ صَغِيرٍ ٱسْمُهُ يَحْيَى :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا وَلَمْ يَكُنْ ... إِلَى رَدِّ أَمْرِ ٱللّٰهِ فِيهِ سَبِيلُ

وَكَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ :

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا ٱحْتَدَمَ ٱلْوَغَى ... وَٱلْفَضْلُ فَضْلٌ وَٱلرَّبِيعُ رَبِيعُ

وَمِنْهُ ٱلْجِنَاسُ (ٱلْمُطَرَّفُ) وَهُوَ مَا زَادَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفًا فِي طَرَفِهِ ٱلْأَوَّلِ . وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُذَيَّلِ . فَإِنَّ ٱلزِّيَادَةَ فِي ٱلْمُذَيَّلِ تَكُونُ فِي آخِرِهِ . وَأَمَّا ٱلْمُطَرَّفُ فَتَكُونُ زِيَادَتُهُ فِي أَوَّلِهِ لِتَصِيرَ لَهُ كَٱلطَّرَفِ وَيُسَمَّى أَيْضًا ٱلنَّاقِصَ وَٱلْمُرْدَفَ وَٱلْمُزْدَوِجَ وَٱلْمُكَرَّرَ وَٱلْمَرْدُودَ وَٱلْمُجَنَّبَ وَفِي تَسْمِيَتِهِ ٱخْتِلَافٌ . وَٱلزِّيَادَةُ تَكُونُ تَارَةً فِي أَوَّلِ ٱلرُّكْنِ ٱلثَّانِي وَتَارَةً فِي أَوَّلِ ٱلرُّكْنِ ٱلْأَوَّلِ كَقَوْلِهِمْ : لَمَّا مَلَأَ ٱلصَّاعَ ٱنْصَاعَ . وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَكَمْ سَبَقَتْ مِنْهُ إِلَيَّ عَوَارِفُ ... ثَنَائِي عَلَى تِلْكَ ٱلْعَوَارِفِ وَارِفُ

وَكَمْ غُرَرٍ مِنْ بِرِّهِ وَلَطَائِفٍ ... لِشُكْرِي عَلَى تِلْكَ ٱللَّطَائِفِ طَائِفُ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱللَّفْظِيُّ) وَهُوَ أَنْ يَتَمَاثَلَ رُكْنَانِ وَيَتَجَانَسَا خَطًّا إِلَّا أَنَّ أَحَدَهُمَا يُخَالِفُ ٱلْآخَرَ بِإِبْدَالِ حَرْفٍ مِنْهُ فِيهِ مُنَاسَبَةٌ لَفْظِيَّةٌ كَمَا ٱلَّذِي يُكْتَبُ بِٱلضَّادِ وَٱلظَّاءِ كَقَوْلِهِ : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَكَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْعَفِيفِ :

أَحْسَنُ خَلْقِ ٱللّٰهِ وَجْهًا وَفَمًا ... إِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَقَّ بِٱلْمَدْحِ فَمَنْ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْجِنَاسُ ٱلْمَقْلُوبُ) وَسَمَّاهُ قَوْمٌ ٱلْمَعْكُوسَ وَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا عَكْسُ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلثَّانِي عَكْسُ ٱلْحُرُوفِ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : عَادَاتُ ٱلسَّادَاتِ سَادَاتُ ٱلْعَادَاتِ وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

إِنَّ ٱللَّيَالِي لِلْأَنَامِ مَنَاهِلٌ ... تُطْوَى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا ٱلْأَعْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مَعَ ٱلْهُمُومِ طَوِيلَةٌ ... وَطِوَالُهُنَّ مَعَ ٱلسُّرُورِ قِصَارُ

وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ لَهُ حَلَاوَةٌ وَعَلَيْهِ رَوْنَقٌ وَقَدْ سَمَّاهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ: (ٱلتَّبْدِيلَ) . وَذٰلِكَ ٱسْمٌ مُنَاسِبٌ لِمُسَمَّاهُ لِأَنَّ مُؤَلِّفَ ٱلْكَلَامِ يَأْتِي بِمَا كَانَ مُقَدَّمًا فِي جُزْءِ كَلَامِهِ ٱلْأَوَّلِ مُؤَخَّرًا فِي ٱلثَّانِي وَبِمَا كَانَ مُؤَخَّرًا فِي ٱلْأَوَّلِ مُقَدَّمًا فِي ٱلثَّانِي . وَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْحُرُوفِ فَكَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

أَهْدَيْتُ شَيْئًا يَقِلُّ لَوْلَا ... أُحْدُوثَةُ ٱلْفَالِ وَٱلتَّبَرُّكْ
كُرْسِي تَفَاءَلْتُ فِيهِ لَمَّا ... رَأَيْتُ مَقْلُوبَهُ يَسُرُّكْ

وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْبَيْتُ كُلُّهُ مَعْكُوسًا يُقْرَأُ طَرْدًا وَعَكْسًا وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي مِنْهُ مَعْكُوسٌ كَقَوْلِ ٱلْأَرَّجَانِيِّ :

أُحِبُّ ٱلْمَرْءَ ظَاهِرُهُ جَمِيلٌ ... لِصَاحِبِهِ وَبَاطِنُهُ سَلِيمُ
مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوْلٍ ... وَهَلْ كُلٌّ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ (ٱلْجِنَاسُ ٱلْمُقَارِبُ) وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّيهِ جِنَاسَ ٱلِٱشْتِقَاقِ وَجِنَاسَ ٱلِٱقْتِضَابِ وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ ٱسْمَيْنِ كَقَوْلِ ٱلصَّاحِبِ : إِنَّ ٱلْهُمُومَ بِقَدْرِ ٱلْهِمَمِ . وَكَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ : رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ . وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ ٱسْمًا وَٱلْآخَرُ فِعْلًا نَحْوُ : وَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى ٱللهِ . وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ فِعْلَيْنِ . كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

اِنْ تَرَ ٱلدُّنيَا اَغارَتْ ‌ ‌ ‌ وَنُجُومَ ٱلسَّعْدِ غَارَتْ
فَصُرُوفُ ٱلدَّهْرِ شَتَّى ‌ ‌ ‌ كُلَّمَا جَارَتْ لَجَارَتْ

وَمِنْ اَنْوَاعِ ٱلجِنَاسِ (ٱلمَعْنَوِيُّ) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَحَدُ رُكْنَيِ ٱلجِنَاسِ دَالًّا عَلَى مَعْنَى ٱلآخَرِ فِي غَيْرِ اَلفَاظِهِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱسْتَدْرَكَهُ فُضَلَاءُ ٱلمُتَاخِرِينَ وَٱسْتَخْرَجُوهُ وَبَعْضُهُمْ لَا يَعُدُّهُ جِنَاسًا لِاَنَّهُ قَلَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلكَلَامِ لِتَوَعُّرِ مَسْلَكِهِ. وَسَبَبُ وُرُودِ هٰذَا ٱلنَّوْعِ فِي ٱلكَلَامِ اَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَقْصِدُ ٱلمُجَانَسَةَ فِي كَلَامِهِ بَيْنَ لَفْظَتَيْنِ فَلَا يُوَافِقُهُ ٱلوَزْنُ عَلَى اِثْبَاتِ اَحَدِ رُكْنَيِ ٱلجِنَاسِ فَيَعْدِلُ اِلَى مَا يُوَافِقُهُ مَعْنًى وَيُخَالِفُهُ لَفْظًا وَعَلَى هٰذَا لَا وُرُودَ لِهٰذَا ٱلنَّوْعِ فِي ٱلكَلَامِ ٱلمَنْثُورِ اِذْ لَا وَزْنَ يَضْطَرُّهُ اِلَى ٱلاِتْيَانِ بِذٰلِكَ. وَمِنْ اَمْثِلَةِ اَرْبَابِ ٱلبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ يَمْدَحُ ٱلمُهَلَّبَ بْنَ اَبِي صُفْرَةَ وَيَذْكُرُ فِعْلَهُ بِقَطَرِيِّ بْنِ ٱلفُجَاءَةِ وَكَانَ قَطَرِيٌّ يُكْنَى اَبَا نَعَامَةَ:

حَدَا بِاَبِي اُمِّ ٱلرِّئَالِ فَاَجْفَلَتْ ‌ ‌ ‌ نَعَامَتُهُ مِنْ عَارِضٍ مُتَلَهِّبِ

اَرَادَ اَنْ يَقُولَ: حَدَا بِاَبِي نَعَامَةَ فَاَجْفَلَتْ نَعَامَتُهُ اَيْ رُوحُهُ فَلَمْ يُسَاعِدْهُ ٱلوَزْنُ فَقَالَ: بِاَبِي اُمِّ ٱلرِّئَالِ لِاَنَّ ٱلرِّئَالَ فِرَاخُ ٱلنَّعَامَةِ. وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلشُّعَرَاءَ عِنْدَ نَظْمِ هٰذِهِ ٱلاَبْيَاتِ مَا لَحَوْا هٰذِهِ ٱلمَقَاصِدَ ٱلبَعِيدَةِ. وَلَا يَخْفَى مَا فِي هٰذَا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَٱلتَّعَسُّفِ

الفصل الثامن

في فنون الانشاء

البحث الاوَّل

في المثل وشرفهِ

(عن الميداني)

(راجع صفحة ١٢٦ من علم الادب)

قَالَ ٱلْمُبرّدُ: ٱلْمَثَلُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْمِثَالِ وَهُوَ قَوْلٌ سَائِرٌ يُشَبَّهُ بِهِ حَالُ ٱلثَّانِي بِٱلْأَوَّلِ وَٱلْأَصلُ فِيهِ ٱلتَّشْبِيهُ. فَقَوْلُهُمْ: مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا ٱنْتَصَبَ مَعْنَاهُ: أَشْبَهَ ٱلصُّورَةَ ٱلْمُنْتَصِبَةَ. وَفُلَانٌ أَمْثَلُ مِنْ فُلَانٍ أَيْ أَشْبَهُ بِمَا لَهُ ٱلْفَضْلُ. وَٱلْمِثَالُ ٱلْقِصَاصُ لِتَشْبِيهِ حَالِ ٱلْمُقْتَصِّ مِنْهُ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ فَحَقِيقَةُ ٱلْمَثَلِ مَا جُعِلَ كَٱلْعَلَمِ لِلتَّشْبِيهِ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ. كَقَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا … وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا ٱلْأَبَاطِيلُ

فَمَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ عَلَمٌ لِكُلِّ مَا لَا يَصِحُّ مِنَ ٱلْمَوَاعِيدِ. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلسِّكِّيتِ: ٱلْمَثَلُ لَفْظٌ يُخَالِفُ لَفْظَ ٱلْمَضْرُوبِ لَهُ وَيُوَافِقُ مَعْنَاهُ مَعْنَى ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ. شَبَّهُوهُ بِٱلْمِثَالِ ٱلَّذِي يُعْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُمَا: سُمِّيَتِ ٱلْحِكَمُ ٱلْقَائِمُ صِدْقُهَا فِي ٱلْعُقُولِ أَمْثَالًا لِأَنْتِصَابِ صُوَرِهَا

فِي ٱلعُقُولِ مُشْتَقَّةٌ مِنَ ٱلْمُثُولِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلِانْتِصَابُ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ٱلنَّظَّامُ : يَجْتَمِعُ فِي ٱلْمَثَلِ أَرْبَعَةٌ لَا تَجْتَمِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِيجَازُ ٱللَّفْظِ وَإِصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وَحُسْنُ ٱلتَّشْبِيهِ وَجُودَةُ ٱلْكِنَايَةِ فَهُوَ نِهَايَةُ ٱلْبَلَاغَةِ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُقَفَّعِ : إِذَا جُعِلَ ٱلْكَلَامُ مَثَلًا كَانَ أَوْضَحَ لِلْمَنْطِقِ وَآنَقَ لِلسَّمْعِ وَأَوْسَعَ لِشُعُوبِ ٱلْحَدِيثِ . قَالَ آخَرُ : إِنَّ ٱلْأَمْثَالَ هِيَ وَشْيُ ٱلْكَلَامِ وَجَوْهَرُ ٱللَّفْظِ وَحُلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّتِي تَخَيَّرَتْهَا ٱلْعَرَبُ وَقَدَّمَتْهَا ٱلْعَجَمُ وَنَطَقَ بِهَا كُلُّ زَمَانٍ وَدَارَتْ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ . فَهِيَ أَبْقَى مِنَ ٱلشِّعْرِ وَأَشْرَفُ مِنَ ٱلْخَطَابَةِ . لَمْ يَسِرْ شَيْءٌ مَسِيرَهَا وَلَا عَمَّ عُمُومَهَا حَتَّى قِيلَ : أَسْيَرُ مِنْ مَثَلٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا أَنْتَ إِلَّا مَثَلٌ سَائِرٌ ‎ ‎ ‎ يَعْرِفُهُ ٱلْجَاهِلُ وَٱلْغَابِرُ

هٰذَا وَإِنَّ ٱلْأَمْثَالَ تَتَحَلَّى بِفَرَائِدِهَا صُدُورُ ٱلْمَحَافِلِ وَٱلْمَحَاضِرِ . وَتَتَجَلَّى بِفَوَائِدِهَا قُلُوبُ ٱلْبَادِي وَٱلْحَاضِرِ . وَتُقَيَّدُ أَوَابِدُهَا فِي بُطُونِ ٱلدَّفَاتِرِ وَٱلصَّحَائِفِ . وَتَطِيرُ نَوَاهِضُهَا فِي رُؤُوسِ ٱلشَّوَاهِقِ وَظُهُورِ ٱلتَّنَائِفِ . يَحْتَاجُ ٱلْخَطِيبُ وَٱلشَّاعِرُ إِلَى إِدْمَاجِهَا وَإِدْرَاجِهَا لِٱشْتِمَالِهَا عَلَى أَسَالِيبِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْجَمَالِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْحَاجَةَ إِلَى ٱلْأَمْثَالِ شَدِيدَةٌ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَرَبَ لَمْ تَضَعِ ٱلْأَمْثَالَ إِلَّا لِأَسْبَابٍ أَوْجَبَتْهَا وَحَوَادِثَ ٱقْتَضَتْهَا . فَصَارَ ٱلْمَثَلُ ٱلْمَضْرُوبُ لِأَمْرٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ عِنْدَهُمْ كَٱلْعَلَامَةِ ٱلَّتِي يُعْرَفُ بِهَا ٱلشَّيْءُ وَلَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ أَوْجَزُ مِنْهَا وَلَا أَشَدُّ ٱخْتِصَارًا . وَسَبَبُ ذٰلِكَ مَا أَذْكُرُهُ لَكَ لِتَكُونَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ عَلَى يَقِينٍ فَأَقُولُ : قَدْ جَاءَ عَنِ

ٱلْعَرَبِ مِنْ جُمْلَةِ أَمْثَالِهِمْ ﴿ إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ ﴾ . وَهُوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلْأَمْرِ ٱلظَّاهِرِ ٱلْمَشْهُورِ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُفَضَّلُ بْنُ مُحَمَّدٍ : أَنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ ضَبَّةَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَرَاهَنُوا عَلَى ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِنَ ٱلشَّهْرِ . فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يُرَى . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَغِيبُ ٱلْقَمَرُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ ٱلشَّمْسُ فَتَرَاضَوْا بِرَجُلٍ جَعَلُوهُ حَكَمًا . فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : إِنَّ قَوْمِي يَبْغُونَ عَلَيَّ . فَقَالَ ٱلْحَكَمُ : إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ . فَذَهَبَتْ مَثَلًا . وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ أَنَّ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ : ﴿ إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ ﴾ . إِذَا أُخِذَ عَلَى حَقِيقَتِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى ٱلْقَرَائِنِ ٱلْمَنُوطَةِ بِهِ وَٱلْأَسْبَابِ ٱلَّتِي قِيلَ مِنْ أَجْلِهَا لَا يُعْطِي مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا قَدْ أَعْطَاهُ ٱلْمَثَلُ . وَذَاكَ ٱلْمَثَلُ لَهُ مُقَدِّمَاتٌ وَأَسْبَابٌ قَدْ عُرِفَتْ وَصَارَتْ مَشْهُورَةً بَيْنَ ٱلنَّاسِ مَعْلُومَةً عِنْدَهُمْ . وَحَيْثُ كَانَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ جَازَ إِيرَادُ هٰذِهِ ٱللَّفَظَاتِ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَلَوْلَا تِلْكَ ٱلْمُقَدِّمَاتُ ٱلْمَعْلُومَةُ وَٱلْأَسْبَابُ ٱلْمَعْرُوفَةُ لَمَا فُهِمَ مِنْ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ : ﴿ إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ ﴾ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ بَلْ مَا كَانَ يُفْهَمُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَعْنًى مُفِيدٌ . لِأَنَّ ٱلْبَغْيَ هُوَ ٱلظُّلْمُ وَٱلْقَمَرُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا فَكَانَ يَصِيرُ مَعْنَى ٱلْمَثَلِ : إِنْ كَانَ يَظْلِمُكَ قَوْمُكَ لَا يَظْلِمُكَ ٱلْقَمَرُ . وَهٰذَا كَلَامٌ مُخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى لَيْسَ بِمُسْتَقِيمٍ . فَلَمَّا كَانَتِ ٱلْأَمْثَالُ كَٱلرُّمُوزِ وَٱلْإِشَارَاتِ ٱلَّتِي يُلَوَّحُ بِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي

تَدْلِيجَا صَارَتْ مِنْ اَوجَزِ ٱلْكَلَامِ وَاَكْثَرِهِ اخْتِصَارًا . وَمِنْ اَجْلِ ذٰلِكَ قِيلَ فِي حَدِّ ٱلْمَثَلِ : إِنَّهُ ٱلقَوْلُ ٱلْوَجِيزُ ٱلْمُرْسَلُ لِيُعْمَلَ عَلَيْهِ وَحَيْثُ هِيَ بِهٰذِهِ ٱلْمَثَابَةِ فَلَا يَنْبَغِي ٱلْاِخْلَالُ بِمَعْرِفَتِهَا

البحث الثاني

في آداب المثل وشروطهِ

(عن الماوردي ومقدمة كليلة ودمنة)

(راجع صفحة ١٣٣ من علم الادب)

وَمِنْ آدَابِ ٱلْحَكِيمِ اَنْ يَجْتَنِبَ اَمْثَالَ ٱلعَامَّةِ ٱلْغَوْغَاءِ وَيَتَخَصَّصَ بِاَمْثَالِ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْأُدَبَاءِ فَإِنَّ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ اَمْثَالًا تُشَاكِلُهُمْ فَلَا تَجِدُ لِسَاقِطٍ إِلَّا مَثَلًا سَاقِطًا وَتَشْبِيهًا مُسْتَقْبَحًا . . . .

وَلِذٰلِكَ عِلَّتَانِ : إِحْدَاهُمَا اَنَّ ٱلْاَمْثَالَ مِنْ هَوَاجِسِ ٱلْهِمَمِ وَخَطَرَاتِ ٱلنُّفُوسِ وَلَمْ يَكُنْ لِذِي ٱلْهِمَّةِ ٱلسَّاقِطَةِ إِلَّا مَثَلٌ مَرْذُولٌ وَتَشْبِيهٌ مَعْلُولٌ . وَٱلثَّانِيَةُ اَنَّ ٱلْاَمْثَالَ مُسْتَخْرَجَةٌ مِنْ اَحْوَالِ ٱلْمُتَمَثِّلِينَ بِهَا فَبِحَسَبِ مَا هُمْ عَلَيْهِ تَكُونُ اَمْثَالُهُمْ . فَلِهَاتَيْنِ ٱلْعِلَّتَيْنِ وَقَعَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ اَمْثَالِ ٱلْخَاصَّةِ وَاَمْثَالِ ٱلْعَامَّةِ وَرُبَّمَا اَلِفَ ٱلْمُتَخَصِّصُ مَثَلًا عَامِيًّا اَوْ تَشْبِيهًا رَكِيكًا لِكَثْرَةِ مَا يَطْرُقُ سَمْعَهُ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱلْاَرَاذِلِ فَيَسْتَرْسِلُ فِي ضَرْبِهِ مَثَلًا فَيَصِيرُ بِهِ مَثَلًا كَٱلَّذِي حُكِيَ عَنِ ٱلْاَصْمَعِيِّ : إِنَّ ٱلرَّشِيدَ سَاَلَهُ يَوْمًا عَنْ اَنْسَابِ بَعْضِ ٱلْعَرَبِ . فَقَالَ : عَلَى ٱلْخَبِيرِ

سَقطتَ يا امِيرَ المُؤمنينَ . فقالَ لهُ الفضلُ بنُ الرَّبيعِ : اسقطَ اللهُ جَنبيكَ أتخاطبُ اميرَ المُؤمنينَ بمثلِ هذا الخطابِ . فكانَ الفضلُ ابنُ الرَّبيعِ مَعَ قلَّةِ عِلمهِ اعلمَ بما يُستعملُ مِنَ الكلامِ في محاورةِ الخلفاءِ مِنَ الاصمعيّ الذي هُوَ واحِدُ عَصرِهِ وقريعُ دَهرِهِ . وللأمثالِ مِنَ الكلامِ موقعٌ في الاسماعِ وتأثيرٌ في القلوبِ لا يكادُ الكلامُ المُرسَلُ يبلغُ مبلغَها ولا يؤثّرُ تأثيرَها لأنَّ المعاني بها لائحةٌ والشواهِدَ بها واضحةٌ والنفوسَ بها وامقةٌ والقلوبَ بها واثقةٌ والعقولَ لها مُوافقةٌ . ولها اربعةُ شروطٍ : احدُها صحّةُ التشبيهِ . والثاني ان يكونَ العلمُ بها سابقًا والكلُّ عليها مُوافقًا . والثالثُ ان يُسرِعَ وصولُها للفهمِ ويعجلَ تصوّرُها في الوهمِ مِن غيرِ ارتياءٍ في استخراجِها ولا كدٍّ في استنباطِها . والرابعُ ان تناسِبَ حالَ السامعِ لتكونَ ابلغَ تأثيرًا واحسنَ موقعًا . فاذا اجتمعتْ في الامثالِ المضروبةِ هذهِ الشروطُ الاربعةُ كانتْ زينةً للكلامِ وجلاءً للمعاني وتدبّرًا للافهامِ

قالَ صاحبُ كليلةَ ودمنةَ : يجبُ على قارئِ الامثالِ ان يُديمَ النظرَ فيها مِن غيرِ ضجرٍ ويلتمسَ جواهرَ معانيها ولا يظنَّ انَّ نتيجتَها انّما هيَ الاخبارُ عن حيلةِ بهيمتَينِ او محاورةِ سبعٍ لثورٍ فينصرفَ بذلكَ عنِ الغرضِ المقصودِ ويكونَ مثلُهُ مثلَ الصيّادِ الذي كانَ في بعضِ الخلجانِ يصيدُ فيهِ السمكَ في زورقٍ . فرأى ذاتَ يومٍ في عميقِ الماءِ صدفةً تتلألأُ حُسنًا فتوهّمها جوهرًا لهُ قيمةٌ . وكانَ قد القى

شَبَكَتَهُ فِي ٱلْبَحْرِ فَٱشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوتَ يَوْمِهِ . فَخَلَّاهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي ٱلْمَاءِ لِيَأْخُذَ ٱلصَّدَفَةَ . فَلَمَّا أَخْرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَا شَيْءَ فِيهَا مِمَّا ظَنَّ فَنَدِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ وَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ . فَلَمَّا كَانَ ٱلْيَوْمُ ٱلثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَكَانِ وَأَلْقَى شَبَكَتَهُ فَأَصَابَ حُوتًا صَغِيرًا وَرَأَى أَيْضًا صَدَفَةً سَنِيَّةً فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا فَتَرَكَهَا . وَٱجْتَازَ بِهَا بَعْضُ ٱلصَّيَّادِينَ فَأَخَذَهَا فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي أَمْوَالًا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلْجُهَّالُ عَلَى إِغْفَالِ أَمْرِ ٱلتَّفَكُّرِ فِي ٱلْأَمْثَالِ وَٱلْاغْتِرَارِ بِهَا وَتَرْكِ ٱلْوُقُوفِ عَلَى أَسْرَارِ مَعَانِيهَا وَٱلْأَخْذِ بِظَاهِرِهَا دُونَ ٱلْأَخْذِ بِبَاطِنِهَا . وَمَنْ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي أَبْوَابِ ٱلْهَزْلِ مِنْهَا فَهُوَ كَرَجُلٍ أَصَابَ أَرْضًا طَيِّبَةً حُرَّةً وَحَبًّا صَحِيحًا فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا حَتَّى إِذَا قَرُبَ خَيْرُهَا تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلزَّهْرِ وَقَطْعِ ٱلشَّوْكِ فَأَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ أَحْسَنَ فَائِدَةً وَأَجْمَلَ عَائِدَةً . وَيَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي ٱلْأَمْثَالِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا تَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَغْرَاضٍ : أَحَدُهَا مَا قُصِدَ فِيهِ إِلَى وَضْعِهَا عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلْبَهَائِمِ غَيْرِ ٱلنَّاطِقَةِ مِنْ مُسَارَعَةِ أَهْلِ ٱلْهَزْلِ مِنَ ٱلشُّبَّانِ إِلَى قِرَاءَتِهَا فَتُسْتَمَالُ بِهِ قُلُوبُهُمْ لِأَنَّ هٰذَا هُوَ ٱلْغَرَضُ بِٱلنَّوَادِرِ مِنْ حِيَلِ ٱلْحَيَوَانَاتِ . وَٱلثَّانِي إِظْهَارُ خَيَالَاتِ ٱلْحَيَوَانَاتِ بِصُنُوفِ ٱلْأَصْبَاغِ وَٱلْأَلْوَانِ لِيَكُونَ أُنْسًا لِقُلُوبِ ٱلْمُلُوكِ وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهَا أَشَدَّ لِلنُّزْهَةِ فِي تِلْكَ ٱلصُّوَرِ . وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَيَتَّخِذَهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلسُّوقَةُ فَيَكْثُرَ بِذٰلِكَ ٱنْتِسَاخُهَا وَلَا يَبْطُلَ فَيَخْلَقَ عَلَى مُرُورِ ٱلْأَيَّامِ . وَلِيَنْتَفِعَ

بِذٰلِكَ ٱلْمُصَوِّرُ وَٱلنَّاسِخُ أَبَدًا . وَٱلْغَرَضُ ٱلرَّابِعُ وَهُوَ ٱلْأَقْصَى مَخْصُوصٌ بِٱلْفَيْلَسُوفِ خَاصَّةً لِتَكُونَ ٱلْأَمْثَالُ رِيَاضَةً لِعَقْلِهِمْ إِذْ فِيهَا يَجِدُونَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ وَجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَأُولَاهُ وَيَحُضُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانَبَتُهُ خَيْرًا لَهُ *

البحث الثالث

في آداب المحادثة والرواية

(عن مروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٦٩ من علم الادب)

قَدْ قَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ : لَا تَحْسُنُ ٱلْمُحَادَثَةُ إِلَّا بِحُسْنِ ٱلْفَهْمِ . وَقَالُوا : تَعَلَّمْ حُسْنَ ٱلِٱسْتِمَاعِ كَمَا تَتَعَلَّمُ حُسْنَ ٱلْكَلَامِ . وَحُسْنُ ٱلِٱسْتِمَاعِ هُوَ أَشْهَى إِلَى ٱلْمُحَدِّثِ حَتَّى يَنْقَضِيَ حَدِيثُهُ . وَمِنْ أَدَبِ

---

* وقال بعضهم في وصف كليلة ودمنة :

اذا افتخر الرجال بفضل علم	ومدّت فيهِ السنة طويلهْ
ففاخر ما استطعت بما حوتهُ	بطون كتاب دمنةَ مع كليلهْ
كتاب يغرق العلماء فيهِ	وألباب الورى منهُ كليلهْ
وكم فيهِ عجائب كامنات	على دنيا وآخرةٍ دليلهْ
وكم حكم على افواه طير	وآداب وامثال مقولهْ
يراها الجاهل المأفون هزلًا	وحكمتها لعالمها فضيلهْ

ٱلْحَدِيثِ وَمُوجِبَاتِهِ انْ لَا يُقْتَضَبَ ٱقْتِضَابًا وَلَا يُهْجَمَ عَلَيْهِ وَانْ يُتَوَصَّلَ اِلَى اِجْرَائِهِ بِمَا يُشَاكِلُهُ . وَانْ يُسْتَنْسَبَ لَهُ مَا يَحْسُنُ انْ يَجْرِيَ فِي غَرَضِهِ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُ ٱلْمُفَاوَضَةِ مُتَعَلِّقًا بِبَعْضٍ عَلَى حَسَبِ مَا قَالُوا فِي ٱلْمَثَلِ : اِنَّ ٱلْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ يُرِيدُونَ بِذٰلِكَ تَشَعُّبَهُ وَتَفَرُّعَهُ عَنْ اَصْلٍ وَاحِدٍ اِلَى وُجُوهٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَثِيرَةٍ اِذْ كَانَ ٱلْعَيْشُ كُلُّهُ فِي ٱلْجَلِيسِ ٱلْمُمْتِعِ . وَقَالَ رَجُلٌ : اِنِّي مَا امَلُّ ٱلْحَدِيثَ . فَقَالَ ٱلسَّامِعُ : اِنَّمَا يُمَلُّ ٱلْعَتِيقُ لَا ٱلْحَدِيثُ . وَقَدْ اَكْثَرَتِ ٱلشُّعَرَاءُ مِنَ ٱلْاِغْرَاقِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱلرُّومِيِّ :

وَسَئِمْتُ كُلَّ مَآرِبِي ... فَكَأَنَّ اَطْيَبَهَا خَبِيثُ
اِلَّا ٱلْحَدِيثَ فَاِنَّهُ ... مِثْلُ ٱسْمِهِ اَبَدًا حَدِيثُ

وَاحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ اِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ :

وَضَجِرْتُ اِلَّا مِنْ لِقَاءِ مُحَدِّثٍ ... حَسَنِ ٱلْحَدِيثِ يَزِيدُنِي تَعْلِيمَا

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ ٱلْمُحَدِّثِينَ مِنْ اَهْلِ ٱلْاَدَبِ اَنَّ مِنَ ٱلْاَدَبِ عَدَمَ اِطَالَةِ ٱلْحَدِيثِ مِنَ ٱلنَّدِيمِ وَاَنَّ اَحْلَى لِحَدِيثِهِ وَاحْسَنَ لِمَوْقِعِهِ اَنْ يَجْتَنِبَ مِنْهُ ٱلْاَحَادِيثَ ٱلطِّوَالَ ذَاتَ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُغْلَقَةِ وَٱلْاَلْفَاظِ ٱلْحُوشِيَّةِ ٱلَّتِي اَفْتَنَّ بِٱقْتِصَاصِهَا سُمَّارُ ٱلْمَجَالِسِ وَتَتَعَلَّقُ بِهَا ٱلنُّفُوسُ وَتُحْتَسَى عَلَى اَوَاخِرِهَا ٱلْكُؤُوسُ . فَاِنَّ ذٰلِكَ بِمَجَالِسِ ٱلْقُصَّاصِ اَشْبَهُ مِنْهُ بِمَجَالِسِ ٱلْخَوَاصِّ . وَقَدْ ذَكَرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَاجَادَ فِيهِ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَوَصَفَ ذٰلِكَ مِنْ اَوْصَافِ ٱلشَّرَابِ عَلَى ٱلْمُعَاقَرَةِ فَقَالَ :

بَيْنَ اَقْدَاحِهِمْ حَدِيثٌ قَصِيرٌ   هُوَ سِحْرٌ وَمَا سِوَاهُ حَرَامُ

وَهٰذِهِ طَرِيقَةُ مَنْ ذَهَبَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى اِلَى ٱسْتِمَاعِ ٱلْمُلَحِ

البحث الرابع

في حقيقة التاريخ وموضوعه

(عن كشف الظنون للحاج خلفا ومروج الذهب للسعودي)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

اَلتَّارِيخُ فِي ٱللُّغَةِ تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ مُطْلَقًا . وَيُقَالُ : اَرَّخْتُ ٱلْكِتَابَ تَارِيخًا وَوَرَّخْتُهُ تَوْرِيخًا كَمَا فِي ٱلصِّحَاحِ وَهُوَ مُعَرَّبٌ . وَعُرْفًا هُوَ تَعْيِينُ وَقْتٍ لِيُنْسَبَ اِلَيْهِ زَمَانٌ يَأْتِي عَلَيْهِ اَوْ مُطْلَقًا يَعْنِي سَوَاءٌ كَانَ مَاضِيًا اَوْ مُسْتَقْبَلًا . وَقِيلَ : تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ بِٱسْتِنَادِهِ اِلَى اوَّلِ حُدُوثِ اَمْرٍ شَائِعٍ مِنْ ظُهُورِ مِلَّةٍ اَوْ دَوْلَةٍ اَوْ اَمْرٍ هَائِلٍ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلسُّفْلِيَّةِ مِمَّا يَنْدُرُ وُقُوعُهُ جُعِلَ ذٰلِكَ مَبْدَأً لِمَعْرِفَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اَوْقَاتِ ٱلْحَوَادِثِ وَٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي يَجِبُ ضَبْطُ اَوْقَاتِهَا فِي مُسْتَأْنَفِ ٱلسِّنِينَ . وَقِيلَ : عَدَدُ ٱلْأَيَّامِ وَٱللَّيَالِي بِٱلنَّظَرِ اِلَى مَا مَضَى مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشُّهُورِ اِلَى مَا بَقِيَ . وَعِلْمُ ٱلتَّارِيخِ هُوَ مَعْرِفَةُ اَحْوَالِ ٱلطَّوَائِفِ وَبُلْدَانِهِمْ وَرُسُومِهِمْ وَصَنَائِعِ اَشْخَاصِهِمْ وَاَنْسَابِهِمْ وَوَفَيَاتِهِمْ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . وَمَوْضُوعُهُ اَحْوَالُ ٱلْاَشْخَاصِ ٱلْمَاضِيَةِ مِنَ ٱلْاَنْبِيَاءِ وَٱلْاَوْلِيَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْحُكَمَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ . وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ٱلْاَحْوَالِ ٱلْمَاضِيَةِ . وَفَائِدَتُهُ ٱلْعِبْرَةُ بِتِلْكَ ٱلْاَحْوَالِ

ٱلْماضِيَةِ وَٱلتَّنَصُّحُ بِهَا وَحُصُولُ مَلَكَةِ ٱلتَّجَارِبِ بِٱلْوُقُوفِ عَلَى تَقَلُّبَاتِ ٱلزَّمَنِ لِيُحْتَرَزَ عَنْ امثَالِ مَا نُقِلَ مِنَ ٱلْمَضَارِّ وَيُسْتَجْلَبَ نَظَائِرُهَا مِنَ ٱلْمَنَافِعِ . وَهٰذَا ٱلْعِلْمُ كَمَا قِيلَ عُمْرٌ آخَرُ لِلنَّاظِرِينَ وَٱنْتِفَاعٌ (لِلْمُطَالِعِ) فِي مِصْرِهِ بِمَنَافِعَ تَحْصُلُ لِلْمُسَافِرِينَ

وَلَوْلَا تَقْيِيدُ ٱلْعُلَمَاءِ خَوَاطِرَهُمْ عَلَى ٱلدَّهْرِ لَبَطَلَ اوَّلُ ٱلْعِلْمِ وَضَاعَ آخِرُهُ اِذْ كَانَ كُلُّ عِلْمٍ مِنَ ٱلْاخْبَارِ يُسْتَنْبَطُ وَٱلْفِقْهُ مِنْهَا يُسْتَشَارُ وَٱلْفَصَاحَةُ مِنْهَا تُسْتَفَادُ وَاصْحَابُ ٱلْقِيَاسِ مِنْهَا يَبْنُونَ . وَاهْلُ ٱلْمَقَالَاتِ بِهَا يَحْتَجُّونَ وَمَعْرِفَةُ ٱلنَّاسِ مِنْهَا تُؤْخَذُ وَامْثَالُ ٱلْحُكَمَاءِ فِيهَا تُوجَدُ وَمَكَارِمُ ٱلْاخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا مِنْهَا تُقْتَبَسُ . وَآدَابُ سِيَاسَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱلْحَرْبِ مِنْهَا تُلْتَمَسُ وَكُلُّ غَرِيبَةٍ مِنْهَا تُعْرَفُ وَكُلُّ اعْجُوبَةٍ مِنْهَا تُسْتَطْرَفُ . وَهُوَ عِلْمٌ يَسْتَمْتِعُ بِسَمَاعِهِ ٱلْعَالِمُ وَٱلْجَاهِلُ وَيَسْتَعْذِبُ مَوْقِعَهُ ٱلْاحْمَقُ وَٱلْعَاقِلُ وَيَأْنَسُ بِمَكَانِهِ وَيَنْزِعُ اِلَيْهِ ٱلْخَاصِّيُّ وَٱلْعَامِّيُّ وَيَمِيلُ اِلَى رِوَايَتِهِ ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ . وَبَعْدُ فَاِنَّهُ يُوصَلُ بِهِ كُلُّ كَلَامٍ وَيُتَزَيَّنُ بِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَيُحْتَمَلُ بِهِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ وَيُحْتَاجُ اِلَيْهِ فِي كُلِّ مَحْفِلٍ . فَفَضِيلَةُ عِلْمِ ٱلْاخْبَارِ بَيِّنَةٌ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ وَشَرَفُ مَنْزِلَتِهِ صَحِيحَةٌ فِي كُلِّ فَهْمٍ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى عِلْمِهِ وَتَيَقُّنِ مَا فِيهِ وَايرَادِهِ وَاصْدَارِهِ اِلَّا اِنْسَانٌ قَدْ تَجَرَّدَ لِلْعِلْمِ وَفَهِمَ مَعْنَاهُ وَذَاقَ ثَمَرَتَهُ وَٱسْتَشْعَرَ مِنْ عِزِّهِ وَنَالَ مِنْ سُرُورِهِ

البحث الخامس

في شرف التاريخ

(عن ابن خلدون)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

اما بعد فان فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الامم والاجيال وتشد اليها الركائب والرحال وتسمو الى معرفتها السوقة والاغفال . وتتنافس فيها الملوك والاقيال . وتتساوى في فهمه العلماء والجهال . اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول . والسوابق من القرون الاول . تنمو فيها الاقوال وتضرب فيها الامثال . وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال . وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال . واتسع للدول فيها النطاق والمجال . وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال . وحان منهم الزوال . وفي باطنه نظر وتحقيق . وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق . وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق . فهو لذلك اصيل في الحكمة عريق . وجدير بان يعد في علومها وخليق . وان فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا اخبار الايام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر واودعوها . وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها . وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها . واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها . وادوها الينا

كَمَا سَمِعُوهَا . وَلَمْ يُلَاحِظُوا أَسْبَابَ ٱلْوَقَائِعِ وَٱلْأَحْوَالِ وَلَمْ يُرَاعُوهَا . وَلَا رَفَضُوا تُرَّهَاتِ ٱلْأَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا . فَٱلتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ . وَطَرْفُ ٱلتَّنْقِيحِ فِي ٱلْغَالِبِ كَلِيلٌ . وَٱلْغَلَطُ وَٱلْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلٌ . وَٱلتَّقْلِيدُ عَرِيقٌ فِي ٱلْآدَمِيِّينَ وَسَلِيلٌ . وَٱلتَّطَفُّلُ عَلَى ٱلْفُنُونِ عَرِيضٌ طَوِيلٌ . وَمَرْعَى ٱلْجَهْلِ بَيْنَ ٱلْأَنَامِ وَخِيمٌ وَبِيلٌ . وَٱلْحَقُّ لَا يُقَاوَمُ سُلْطَانُهُ . وَٱلْبَاطِلُ يُقْذَفُ بِشِهَابِ ٱلنَّظَرِ شَيْطَانُهُ . وَٱلنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ يُمْلِي وَيَنْقُلُ . وَٱلْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ ٱلصَّحِيحَ إِذَا تَمَقَّلَ . وَٱلْعِلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ ٱلصَّوَابِ وَيَصْقُلُ . هٰذَا وَقَدْ دَوَّنَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا . وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ ٱلْأُمَمِ وَٱلدُّوَلِ فِي ٱلْعَالَمِ وَسَطَّرُوا . وَٱلَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ ٱلشُّهْرَةِ وَٱلْإِمَامَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ . وَٱسْتَفْرَغُوا دَوَاوِينَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمُ ٱلْمُتَأَخِّرَةِ . هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ ٱلْأَنَامِلِ . وَلَا حَرَكَاتِ ٱلْعَوَامِلِ . مِثْلُ ٱبْنِ إِسْحٰقَ وَٱلطَّبَرِيِّ وَٱبْنِ ٱلْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ ٱلْوَاقِدِيِّ وَسَيْفِ ٱبْنِ عُمَرَ ٱلْأَسَدِيِّ وَٱلْمَسْعُودِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمَشَاهِيرِ . ٱلْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ ٱلْجَمَاهِيرِ . وَإِنْ كَانَ فِي كُتُبِ ٱلْمَسْعُودِيِّ وَٱلْوَاقِدِيِّ مِنَ ٱلْمَطْعَنِ وَٱلْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ ٱلْأَثْبَاتِ . وَمَشْهُورٌ بَيْنَ ٱلْحَفَظَةِ ٱلثِّقَاتِ . إِلَّا أَنَّ ٱلْكَافَّةَ ٱخْتَصَّتْهُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ . وَٱقْتِفَاءِ سُنَنِهِمْ فِي ٱلتَّصْنِيفِ وَٱتِّبَاعِ آثَارِهِمْ . وَٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ قِسْطَاسُ نَفْسِهِ فِي تَزْيِيفِهِمْ فِيمَا يَنْقُلُونَ أَوِ ٱعْتِبَارِهِمْ . فَلِلْعُمْرَانِ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا ٱلْأَخْبَارُ . وَتُحْمَلُ عَلَيْهَا ٱلرِّوَايَاتُ وَٱلْآثَارُ . ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ ٱلتَّوَارِيخِ لِهٰؤُلَاءِ عَامَّةُ ٱلْمَنَاهِجِ وَٱلْمَسَالِكِ . لِعُمُومِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ فِي

ٱلآفَاقِ وَٱلْمَمَالِكِ وَتَنَاوُلِهَا ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْغَايَاتِ فِي ٱلْمَآخِذِ وَٱلْمَتَارِكِ وَمِنْ هؤُلَاءِ مَنِ ٱسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ مِنَ ٱلدُّوَلِ وَٱلْأُمَمِ. وَٱلْأَمْرِ ٱلْعَمَمِ. كَٱلْمَسْعُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُ. وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ ٱلْإِطْلَاقِ إِلَى ٱلتَّقْيِيدِ. وَوَقَفَ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْإِحَاطَةِ عَنِ ٱلشَّأْوِ ٱلْبَعِيدِ فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِهِ. وَٱسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أُفُقِهِ وَقُطْرِهِ. وَٱقْتَصَرَ عَلَى أَحَادِيثِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ. كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ بِهَا. وَٱبْنُ ٱلرَّقِيقِ مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَةَ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ بِٱلْقَيْرَوَانِ. ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هَؤُلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ. وَبَلِيدُ ٱلطَّبْعِ وَٱلْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ. يَنْسِجُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمِنْوَالِ. وَيَحْتَذِي مِنْهُ بِٱلْمِثَالِ. وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ ٱلْأَيَّامُ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ. وَٱسْتَبْدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ. فَيَجْلُبُونَ ٱلْأَخْبَارَ عَنِ ٱلدُّوَلِ. وَحِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلْأُوَلِ. صُوَرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا. وَصِفَاحًا ٱنْتُضِيَتْ مِنْ أَغْمَادِهَا وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا. إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أُصُولُهَا. وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا. يُكَرِّرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا ٱلْأَخْبَارَ ٱلْمُتَدَاوَلَةَ بِأَعْيَانِهَا. ٱتِّبَاعًا لِمَنْ عُنِيَ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا. وَيُغْفِلُونَ أَمْرَ ٱلْأَجْيَالِ ٱلنَّاشِئَةِ فِي دِيوَانِهَا. بِمَا أَعْوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجُمَانِهَا فَتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا. ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ ٱلدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا. مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهْمًا أَوْ صِدْقًا. لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا. وَلَا يَذْكُرُونَ ٱلسَّبَبَ ٱلَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا. وَلَا عِلَّةَ ٱلْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا. فَيَبْقَى ٱلنَّاظِرُ

مُتطَلِعًا بَعْدُ إِلَى ٱفْتِقَادِ احْوَالِ مَبادِىءِ ٱلدُّولِ وَمَرَاتِبِهَا . مُفَتِّشًا عَنْ اَسْبَابِ تَزَاحُمِهَا اوْ تَعَاقُبِهَا. بَاحِثًا عَنِ ٱلْمُقْنِعِ فِي تَبَايُنِهَا اوْ فِي تَنَاسُبِهَا. ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ ٱلِاخْتِصَارِ . وَذَهَبُوا إِلَى ٱلِاكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلِاقْتِصَارِ . مَقْطُوعَةً عَنِ ٱلْانْسَابِ وَٱلْاخْبَارِ . مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا اَعْدَادُ اَيَّامِهِمْ بِحُرُوفِ ٱلْغُبَارِ . كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ ٱلْعَمَلِ وَمَنِ ٱقْتَفَى هٰذَا ٱلْاثَرَ مِنَ ٱلْهَمَلِ . وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لِهٰؤُلَاءِ مَقَالٌ . وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا ٱنْتِقَالٌ . لِمَا اَذْهَبُوا مِنَ ٱلْفَوَائِدِ . وَاَخَلُّوا بِٱلْمَذَاهِبِ ٱلْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْعَوَائِدِ

وَقَدْ زَلَّتْ اَقْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْاثْبَاتِ وَٱلْمُؤَرِّخِينَ ٱلْحُفَّاظِ فِي مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْاحَادِيثِ وَٱلْآرَاءِ . وَعَلِقَتْ بِأَفْكَارِهِمْ وَنَقَلَهَا عَنْهُمُ ٱلْكَافَّةُ مِنْ ضَعَفَةِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْغَفَلَةِ عَنِ ٱلْقِيَاسِ وَتَلَقَّوْهَا هُمْ اَيْضًا كَذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَٱنْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوظَاتِهِمْ حَتَّى صَارَ فَنُّ ٱلتَّارِيخِ وَاهِيًا مُخْتَلِطًا . وَنَاظِرُهُ مُرْتَبِكًا وَعُدَّ مِنْ مَنَاحِي ٱلْعَامَّةِ . فَإِذًا يَحْتَاجُ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْفَنِّ إِلَى ٱلْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَٱخْتِلَافِ ٱلْاُمَمِ وَٱلْبِقَاعِ وَٱلْاعْصَارِ فِي ٱلسِّيَرِ وَٱلْاخْلَاقِ وَٱلْعَوَائِدِ وَٱلنِّحَلِ وَٱلْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ ٱلْاحْوَالِ وَٱلْاحَاطَةِ بِٱلْحَاضِرِ مِنْ ذٰلِكَ . وَمُمَاثَلَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْغَائِبِ مِنَ ٱلْوِفَاقِ اَوْ بَوْنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْخِلَافِ وَتَعْلِيلِ ٱلْمُتَّفِقِ مِنْهَا وَٱلْمُخْتَلِفِ . وَٱلْقِيَامِ عَلَى اُصُولِ ٱلدُّوَلِ وَٱلْمِلَلِ وَمَبَادِىءِ ظُهُورِهَا وَاَسْبَابِ حُدُوثِهَا وَدَوَاعِي كَوْنِهَا . وَاَحْوَالِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا وَاَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَوْعِبًا لِاَسْبَابِ كُلِّ

حَادِثٍ وَاقِفًا عَلَى أُصُولِ كُلِّ خَبَرٍ وَحِينَئِذٍ يَعْرِضُ ٱلْخَبَرَ ٱلْمَنْقُولَ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ وَٱلْأُصُولِ . فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيحًا وَإِلَّا زَيَّفَهُ وَٱسْتَغْنَى عَنْهُ . وَمَا ٱسْتَكْبَرَ ٱلْقُدَمَاءُ عِلْمَ ٱلتَّارِيخِ إِلَّا لِذٰلِكَ حَتَّى ٱنْتَحَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْبُخَارِيُّ وَٱبْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْأُمَّةِ . وَقَدْ ذَهَلَ ٱلْكَثِيرُ عَنْ هٰذَا ٱلسِّرِّ فِيهِ حَتَّى صَارَ ٱنْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً وَٱسْتَخَفَّ ٱلْعَوَامُّ وَمَنْ لَا رُسُوخَ لَهُ فِي ٱلْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَحَمْلَهُ وَٱلْخَوْضَ فِيهِ وَٱلتَّطَفُّلَ عَلَيْهِ فَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ وَٱللُّبَابُ بِٱلْقِشْرِ وَٱلصَّادِقُ بِٱلْكَاذِبِ وَإِلَى ٱللهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ فَنَّ ٱلتَّارِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ ٱلْمَذْهَبِ جَمُّ ٱلْفَائِدَةِ شَرِيفُ ٱلْغَايَةِ إِذْ هُوَ يُوقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ ٱلْمَاضِينَ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَٱلْأَنْبِيَاءِ فِي سِيَرِهِمْ وَٱلْمُلُوكِ فِي دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ ٱلْإِقْتِدَاءِ فِي ذٰلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفْضِيَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى ٱلْحَقِّ وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ ٱلْمَزَلَّاتِ وَٱلْمَغَالِطِ . لِأَنَّ ٱلْأَخْبَارَ إِذَا ٱعْتُمِدَ فِيهَا مُجَرَّدُ ٱلنَّقْلِ وَلَمْ تُحَكَّمْ أُصُولُ ٱلْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْأَحْوَالُ فِي ٱلْإِجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَلَا قِيسَ ٱلْغَائِبُ مِنْهَا بِٱلشَّاهِدِ وَٱلْحَاضِرُ بِٱلذَّاهِبِ فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ ٱلْعُثُورِ وَمَزَلَّةِ ٱلْقَدَمِ وَٱلْحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ ٱلصِّدْقِ . وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْمُفَسِّرِينَ وَأَئِمَّةِ ٱلنَّقْلِ ٱلْمَغَالِطُ فِي حِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ لِإِعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ ٱلنَّقْلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا . لَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أُصُولِهَا

وَقَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَصِيرَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ ٱلْوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ سِيَّمَا فِي إِحْصَاءِ ٱلْأَعْدَادِ وَٱلْأَمْوَالِ وَٱلْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي ٱلْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ ٱلْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ ٱلْهَذَرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى ٱلْأُصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى ٱلْقَوَاعِدِ

البحث السادس

في شروط التاريخ

(عن الفخري)

(راجع صفحة ١٩٧ من علم الادب)

وَإِنْ بَاشَرْتَ بِكِتَابَةِ تَارِيخٍ عَامٍّ فَتَكَلَّمْ عَلَى دَوْلَةٍ دَوْلَةٍ بِمَجْمُوعِ مَا حَصَّلَ ذِهْنُكَ مِنَ ٱلْهَيْئَةِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ ٱلَّتِي أَفَادَتْكَهَا مُطَالَعَةُ ٱلسِّيَرِ وَٱلتَّوَارِيخِ وَٱذْكُرْ كَيْفَ كَانَ ٱبْتِدَاؤُهَا وَٱنْتِهَاؤُهَا وَطَرَفًا مُمْتِعًا مِنْ مَحَاسِنِ مُلُوكِهَا وَأَخْبَارِ سَلَاطِينِهَا . ثُمَّ إِذَا ذَكَرْتَ دَوْلَةً فَدَوْلَةً تَكَلَّمْتَ عَلَى كُلِّيَّاتِ أُمُورِهَا ثُمَّ ذَكَرْتَ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ مُلُوكِهَا وَمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ مِنَ ٱلْوَقَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلْمَأْثُورَةِ فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ذٰلِكَ ٱلْمَلِكِ ذَكَرْتَ وُزَرَاءَهُ وَاحِدًا وَاحِدًا وَطَرَائِقَ مَا جَرَى لَهُمْ . فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ٱلْمَلِكِ وَوُزَرَائِهِ ٱبْتَدَأْتَ بِٱلْمَلِكِ ٱلَّذِي بَعْدَهُ وَبِمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ وَبِسِيَرِ وُزَرَائِهِ كَذٰلِكَ إِلَى آخِرِ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْتَزِمْ فِيهِ أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ لَا تَمِيلَ فِيهِ إِلَّا مَعَ ٱلْحَقِّ

وَلَا تَنطِقَ فِيهِ اِلَّا بِٱلْعَدْلِ . وَاَنْ تَعزِلَ سُلطَانَ ٱلْهَوَى وَتَخْرُجَ مِنْ حُكْمِ ٱلْمَنشَاءِ وَٱلْمُرَبِّي وَتَفرِضَ نَفْسَكَ غَرِيبًا عَنهُمْ وَاَجْنَبِيًّا بَيْنَهُمْ . وَثَانِيهِمَا اَنْ تُعَبِّرَ عَنِ ٱلْمَعَانِي بِعِبَارَاتٍ وَاضِحَةٍ تَقْرُبُ مِنَ ٱلْاَفهَامِ لِيَنْتَفِعَ بِهِ كُلُّ اَحَدٍ عَادِلًا عَنِ ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُتَصَنَّعَةِ ٱلَّتِي يُقصَدُ فِيهَا اِظْهَارُ ٱلْفَصَاحَةِ وَاِثْبَاتُ ٱلْبَلَاغَةِ فَطَالَمَا رَاَيْتُ مُصَنِّفِي ٱلْكُتُبِ قَدْ اَعْرَضَتْهُمْ مَحَبَّةُ اِظْهَارِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ فَخَفِيَتْ اَغرَاضُهُمْ وَاَعْتَاصَتْ مَعَانِيهِمْ فَقَلَّتِ ٱلْفَائِدَةُ بِمُصَنَّفَاتِهِمْ. هٰذَا وَاِنَّ كُتُبَ ٱلتَّوَارِيخِ اِنْ نُظِرَ بِعَيْنِ ٱلْاِنْصَافِ اِلَيْهَا رُئِيَتْ اَنْفَعَ مِنَ ٱلْحَمَاسَةِ ٱلَّتِي لَهِجَ ٱلنَّاسُ بِهَا وَاَخَذُوا اَوْلَادَهُمْ بِحِفْظِهَا فَاِنَّ ٱلْحَمَاسَةَ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا اَكْثَرُ مِنَ ٱلتَّرْغِيبِ فِي ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلضِّيَافَةِ وَشَيْءٍ يَسِيرٍ مِنَ ٱلْاَخْلَاقِ فِي ٱلْبَابِ ٱلْمُسَمَّى بَابَ ٱلْاَدَبِ وَٱلتَّاَنُّسِ بِٱلْمَذَاهِبِ ٱلشِّعْرِيَّةِ . وَٱلتَّارِيخُ يُسْتَفَادُ مِنْهُ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ ٱلْمَذْكُورَةُ . وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ قَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَاَدَوَاتُ ٱلرِّئَاسَةِ . فَهٰذَا فِيهِ مَا فِي ٱلْحَمَاسَةِ وَلَيْسَ فِي ٱلْحَمَاسَةِ مَا فِيهِ وَاِنَّهُ يُفِيدُ ٱلْعَقْلَ قُوَّةً وَٱلذِّهْنَ حِدَّةً وَٱلْبَصِيرَةَ نُورًا وَهُوَ لِلْخَاطِرِ ٱلذَّكِيِّ بِمَنْزِلَةِ ٱلْمِسَنِّ لِلْفُولَاذِ ٱلْجَيِّدِ وَهُوَ اَيْضًا اَنْفَعُ مِنَ ٱلْمَقَامَاتِ ٱلَّتِي ٱلنَّاسُ فِيهَا مُعْتَقِدُونَ وَفِي تَحَفُّظِهَا رَاغِبُونَ اِذِ ٱلْمَقَامَاتُ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا سِوَى ٱلتَّمَرُّنِ عَلَى ٱلْاِنْشَاءِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى مَذَاهِبِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ . نَعَمْ وَفِيهَا حِكَمٌ وَحِيَلٌ وَتَجَارِبُ اِلَّا اَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُصَغِّرُ ٱلْهِمَّةَ اِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى ٱلسُّؤَالِ وَٱلْاِسْتِجْدَاءِ وَٱلتَّحَيُّلِ ٱلْقَبِيحِ عَلَى تَحْصِيلِ ٱلنَّزْرِ ٱلطَّفِيفِ فَاِنْ نَفَعَتْ مِنْ جَانِبٍ ضَرَّتْ مِنْ جَانِبٍ وَبَعْضُ ٱلنَّاسِ تَنَبَّهُوا عَلَى هٰذَا مِنَ ٱلْمَقَامَاتِ ٱلْحَرِيرِيَّةِ وَٱلْبَدِيعِيَّةِ فَعَدَلَ

نَاسُ اِلَى نَهْجِ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ اَبِي طَالِبٍ : فَاِنَّهُ ٱلْكِتَابُ ٱلَّذِي يُتَعَلَّمُ مِنْهُ ٱلْحِكَمُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَٱلْخُطَبُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلزُّهْدُ وَعُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ وَاَدْنَى فَوَائِدِهِ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ . وَكَذٰلِكَ كُتُبُ ٱلتَّوَارِيخِ فَاِنَّ ٱلْاِنْسَانَ رُبَّمَا اَضْجَرَتْهُ ٱلْمَهَامُّ وَٱلْاَشْغَالُ فَاِذَا رَوَّحَ فِكْرَهُ بِٱلنَّظَرِ فِيهَا دَفَعَ بِهَا ٱلْمَلَالَ وَتَذَكَّرَ بِهَا مَا اَنْسَتْهُ ٱلْاَشْغَالُ . .

البحث السابع

في الاصول العشرة التي يعتمدها الكاتب في المكاتبات

(من كتاب صبح الاعشى لابي العباس احمد القلقشندي)

(راجع صفحة ٢٠٧ من علم الادب)

(اَلْاَصْلُ ٱلْاَوَّلُ حُسْنُ ٱلِاٰفْتِتَاحِ) ٱلْمَطْلُوبُ فِي سَائِرِ اَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنْ نَثْرٍ وَنَظْمٍ مِمَّا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ لِيَكُونَ دَاعِيَةً لِٱسْتِمَاعِ مَا بَعْدَهُ . وَيَرْجِعُ حُسْنُ ٱلِاٰفْتِتَاحِ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ اِلَى مَعْنَيَيْنِ: (ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا اِلَى ٱلْمُبْتَدَاِ بِهِ اِمَّا بِٱلِاٰفْتِتَاحِ بِٱلْحَمْدِ لِلّٰهِ كَمَا فِي بَعْضِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ لِاَنَّ ٱلنُّفُوسَ تَتَشَوَّقُ اِلَى ٱلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى . اَوْ بِٱلسَّلَامِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱلشَّارِعُ مُفْتَتَحَ ٱلْخِطَابِ اَوْ نَحْوِ ذٰلِكَ . فَاِنَّ اَمْرَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَبْنِيٌّ عَلَى ٱلتَّلَطُّفِ وَٱسْتِجْلَابِ ٱلْخَوَاطِرِ وَتَأْلِيفِ ٱلْقُلُوبِ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ اَصْطِلَاحُ كُلِّ زَمَنٍ فِي ٱلْاِبْتِدَاءَاتِ . (ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا اِلَى مَا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ مِنْ سُهُولَةِ ٱللَّفْظِ

وَصِحَّةَ ٱلسَّبْكِ وَوُضُوحِ ٱلْمَعْنَى وَتَجَنُّبِ ٱلْحَشْوِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّانِي) بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ ٱلْمَطْلُوبَةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ ٱلْكَلَامِ بِأَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى عَجُزِهَا فَإِنْ كَانَ ٱلْكَاتِبُ يُهَنِّئُ أَتَى فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّهْنِئَةِ . أَوْ كَانَ ٱلصَّدَدُ فِي ٱلتَّعْزِيَةِ أَتَى فِي أَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعْزِيَةِ أَوْ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي أَتَى فِي أَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لِيُعْلَمَ مِنْ مَبْدَإِ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ . . . ثُمَّ مِنَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَا يَعْسُرُ مَعَهُ ٱلْإِتْيَانُ بِبَرَاعَةِ ٱلِٱسْتِهْلَالِ فَيَأْتِي بِهَا فِيمَا يَلِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي مُقَدِّمَةِ ٱلْمُكَاتَبَةِ قَبْلَ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلْمَقْصُودِ . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّالِثُ) ٱلْمُقَدِّمَةُ ٱلَّتِي يَلْزَمُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا فِي صَدْرِ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ تَأْسِيسًا لِمَا يَأْتِي فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ . مِثْلَ أَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ كُتُبِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْجِهَادِ بِذِكْرِ ٱفْتِرَاضِهِ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَمَا وَعَدَ ٱللّٰهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ نَصْرِ أَوْلِيَائِهِ وَخِذْلَانِ أَعْدَائِهِ وَإِعْزَازِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَقَمْعِ ٱلْمُلْحِدِينَ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ ٱلْفَتْحِ بِإِنْجَازِ وَعْدِ ٱللّٰهِ ٱلَّذِي وَعَدَهُ أَهْلَ ٱلطَّاعَةِ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَٱلظَّفَرِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ جِبَايَةِ ٱلْخَرَاجِ بِحَاجَةِ قِيَامِ ٱلْمُلْكِ إِلَى ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِمَا يُسْتَخْرَجُ مِنْ حُقُوقِ ٱلسُّلْطَانِ فِي عِمَارَةِ ٱلثُّغُورِ وَتَحْصِينِ ٱلْأَعْمَالِ وَتَقْوِيَةِ ٱلرِّجَالِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّمَطِ . قَالَ فِي مَوَادِّ ٱلْبَيَانِ : وَعَلَى هٰذَا ٱلسَّبِيلِ جَرَتْ سُنَّةُ ٱلْكُتَّابِ فِي جَمِيعِ ٱلْكُتُبِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَٱلْفُتُوحِ وَٱلتَّهَانِي وَٱلتَّعَازِي وَٱلتَّهَادِي وَٱلِٱسْتِخْبَارِ وَٱلِٱسْتِبْطَاءِ وَٱلْإِحْمَادِ وَٱلْإِذْمَامِ وَغَيْرِهَا لِيَكُونَ

ذٰلِكَ بِساطاً لِمَا يُرِيدُ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَحُجَّةً يَسْتَظْهِرُ بِهَا ٱلسُّلْطَانُ لِأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَرْشٍ يُفْرَشُ قَبْلَهُ لِيَكُونَ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْأَسَاسِ مِنَ ٱلْبُنْيَانِ . (قَالَ) : وَيُرْجَعُ فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْكَاتِبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي تُشَاكِلُهَا . (ثُمَّ قَالَ) وَٱلطَّرِيقُ فِي إِصَابَةِ ٱلْمَرْمَى فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ أَنْ تُجْعَلَ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَا بَعْدَهَا مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَغْرَاضِ وَأَنْ يُوضَعَ لِلْأَمْرِ ٱلْخَاصِّ مُقَدِّمَةٌ خَاصَّةٌ وَلِلْأَمْرِ ٱلْعَامِّ مُقَدِّمَةٌ عَامَّةٌ وَلَا يُطَوِّلَ فِي مَوْضِعِ ٱلِٱقْتِصَارِ وَلَا يُقَصِّرَ فِي مَوْضِعِ ٱلْإِيجَازِ . وَلَا تُجْعَلَ أَغْرَاضُهَا بَعِيدَةَ ٱلْمَآخِذِ مُعْتَاصَةً عَلَى ٱلْمُتَصَفِّحِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْكَاتِبَ رُبَّمَا قَصَدَ إِظْهَارَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ٱلْكَلَامِ وَٱلتَّصَرُّفِ فِي وُجُوهِ ٱلنُّطْقِ فَخَرَجَ إِلَى ٱلْإِمْلَالِ وَٱلْإِضْجَارِ ٱلَّذِي تَتَبَرَّمُ مِنْهُ ٱلنُّفُوسُ وَذَوُو ٱلْأَخْطَارِ ٱلْجَلِيلَةِ . أَمَّا ٱلْكُتُبُ ٱلَّتِي لَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ كَرِقَاعِ ٱلتُّحَفِ وَٱلْهَدَايَا وَنَحْوِهَا فَلَا تُجْعَلُ لَهَا مُقَدِّمَةٌ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ وَغَيْرُ وَاقِعٍ مَوْقِعَهُ . (ٱلْأَصْلُ ٱلرَّابِعُ) مَوَاقِعُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلدَّائِرَةِ فِي ٱلْكُتُبِ فَيَلْزَمُ أَنْ يُمَيِّزَ مَوْقِعَ كُلٍّ لِيَضَعَهُ مَكَانَهُ . وَقَالَ فِي ذَخِيرَةِ ٱلْكُتَّابِ : يَجِبُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ ٱلرَّئِيسِ أَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَوَاقِعَهَا لِيُرَتِّبَهَا وَيُفَرِّقَ بَيْنَهَا فَرْقاً يَقِفُهُ عَلَى ٱلْوَاجِبِ وَيَنْتَهِي بِهِ إِلَى ٱلصَّوَابِ فَيُخَاطِبُ كُلًّا فِي مُكَاتَبَتِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ ٱلْخِطَابِ . . وَمَتَى ٱسْتَمَرَّ ٱلْكَاتِبُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمُخَالَفَةِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمُنَاقَضَةِ نَقَصَتِ ٱلْمَعَانِي وَرَذُلَتِ ٱلْأَلْفَاظُ وَسَقَطَتِ ٱلْمَقَاصِدُ وَكَانَ

ٱلْكَاتِبُ قَدْ اَخَلَّ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ بِمُعْظَمِهَا وَتَرَكَ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ غَايَةَ مُحْكَمِهَا بَلْ يَجِبُ اِنْ بَدَا بِخِطَابِ رَئِيسٍ اَوْ نَظِيرٍ اَوْ مَرْؤُوسٍ اَنْ يَكُونَ مَا يَتَخَلَّلُ مُكَاتَبَتَهُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ عَلَى ٱتِّسَاقٍ اِلَى آخِرِهَا وَٱطِّرَادٍ مِنْ غَيْرِ مُخَالَفَةٍ بَيْنَهَا وَلَا مُضَادَّةٍ وَلَا مُنَاقَضَةٍ . نَعَمْ يَحْسُنُ ذٰلِكَ فِي مُعَاتَبَاتِ ٱلْاِخْوَانِ وَٱلْمُدَاعَبَاتِ ٱلْجَارِيَةِ بَيْنَ ٱلْخِلَّانِ . . . (ٱلْاَصْلُ ٱلْخَامِسُ) ٱلْاَدْعِيَةُ ٱلَّتِي جَرَتْ عَادَةُ ٱلسَّلَفِ وَتَبِعَهُمْ ٱلْخَلَفُ بِٱسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلْمُكَاتَبَاتِ. وَٱلنَّظَرُ فِيهَا مِنْ سِتَّةِ اَوْجُهٍ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلدُّعَاءِ لِيُوقِعَهَا فِي مَوَاقِعِهَا وَيُورِدَهَا فِي مَوَارِدِهَا . وَيَأْتِي ذٰلِكَ فِي عِدَّةِ اَدْعِيَةٍ مِنْهَا : ٱلدُّعَاءُ بِاِطَالَةِ ٱلْبَقَاءِ وَٱلدُّعَاءُ بِاِطَالَةِ ٱلْعُمْرِ . فَٱلدُّعَاءُ بِاِطَالَةِ ٱلْبَقَاءِ اَرْفَعُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ بِاِطَالَةِ ٱلْعُمْرِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْبَقَاءَ لَا يَدُلُّ عَلَى مُدَّةٍ تَنْقَضِي لِاَنَّهُ ضِدُّ ٱلْفَنَاءِ وَٱلْعُمْرُ يَدُلُّ عَلَى مُدَّةٍ تَنْقَضِي وَلِذٰلِكَ يُوصَفُ ٱللّٰهُ تَعَالَى بِٱلْبَقَاءِ وَلَا يُوصَفُ بِٱلْعُمْرِ . . (ٱلثَّانِي) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ اَرْبَابِ ٱلْمَنَاصِبِ ٱلْجَلِيلَةِ مِنَ ٱلدُّعَاءِ فَيَخُصُّهُ بِهِ فَيَأْتِي بِٱلدُّعَاءِ فِي مُكَاتَبَةِ ٱلْمُلُوكِ بِدَوَامِ ٱلسُّلْطَانِ وَخُلُودِ ٱلْمُلْكِ . وَاِلَى ٱلْاُمَرَاءِ بِٱلدُّعَاءِ بِعِزِّ ٱلنَّصْرِ وَمُدَاوَمَةِ ٱلنِّعْمَةِ . وَاِلَى ٱلْوُزَرَاءِ مِنْ اَرْبَابِ ٱلْاَقْلَامِ بِسُبُوغِ ٱلنَّعْمَاءِ وَتَخْلِيدِ ٱلسَّعَادَةِ وَدَوَامِ ٱلْمَجْدِ. وَاِلَى ٱلْقُضَاةِ وَٱلْحُكَّامِ بِٱلدُّعَاءِ بِعِزِّ ٱلْاَحْكَامِ . وَاِلَى ٱلتُّجَّارِ بِٱلدُّعَاءِ بِمَزِيدِ ٱلْاِقْبَالِ وَشِبْهِ ذٰلِكَ . (وَٱلثَّالِثُ) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِي كُلَّ حَالَةٍ بِمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ ٱلدُّعَاءِ فَتَكُونُ ٱلْاَدْعِيَةُ دَالَّةً عَلَى مَقَاصِدِ ٱلْكُتَّابِ

فَإِنْ كَانَ فِي الْهَنَاءِ وَالشُّكْرِ اَوِ التَّعْزِيَةِ اَتَى كُلاًّ بِمَا يُنَاسِبُهُ. (الرَّابِعُ) اَنْ يَعْرِفَ مَوَاضِعَ الدُّعَاءِ عَلَى الْمَكْتُوبِ اِلَيْهِ ... (الْاَصْلُ السَّادِسُ) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ الْمَكْتُوبَ اِلَيْهِ مِنَ الْاَلْقَابِ فَيُعْطِيَهُ حَقَّهُ مِنْهَا . كَالْمَقَامِ وَالْمَقَرِّ وَالْجَنَابِ وَالنَّادِي وَالْمَجْلِسِ فِي زَمَانِنَا . . . وَكَذٰلِكَ النُّعُوتَ .(الْاَصْلُ السَّابِعُ) اَنْ يُرَاعِيَ مَقَاصِدَ الْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِيَ لِكُلِّ مَقْصَدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ وَمَدَارُ ذٰلِكَ عَلَى اَمْرَيْنِ: (الْاَمْرُ الْاَوَّلُ) اَنْ يَأْتِيَ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ بِمَا يَلِيقُ بِهَا وَيَتَخَيَّرَ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَا يُشَاكِلُهَا فَإِنْ ذَكَرَ النِّعْمَةَ حَمِدَ اللهَ وَاِنْ ذَكَرَ الْبَلْوَى شَفَعَهَا بِالْاِسْتِعَانَةِ بِاللهِ وَالرُّجُوعِ اِلَيْهِ فِيهَا. وَيَلْتَحِقُ بِذٰلِكَ اَيْضاً اَنَّهُ اِذَا ذَكَرَ الرَّئِيسَ فِي اَثْنَاءِ الْمُكَاتَبَةِ دَعَا لَهُ مِثْلَ اَنْ يَقُولَ عِنْدَ ذِكْرِ السُّلْطَانِ : خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا الْمَجْرَى. (الْاَمْرُ الثَّانِي) اَنْ يَتَخَطَّى التَّصْرِيحَ اِلَى التَّلْوِيحِ وَالْاِشَارَةِ اِذَا اَلْجَأَتْهُ الْحَالُ اِلَى الْمُكَاتَبَةِ بِمَا لَا يَجُوزُ كَشْفُهُ وَاِظْهَارُهُ عَلَى صَرَاحَتِهِ بِمَا فِي ذِكْرِهِ اِطِّرَاحُ مَهَابَةِ السُّلْطَانِ وَاِسْمَاعُهُ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ اِخْلَالُ الْاَدَبِ فِي حَقِّهِ كَمَا لَوْ اَطْلَقَ لِسَانَهُ فِيهِ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَسُوءُهُ سَمَاعُهُ فَيَحْتَاجُ الْمُنْشِئُ اِلَى اسْتِعْمَالِ التَّوْرِيَةِ فِي هٰذِهِ الْمَوَاضِعِ وَالتَّلَطُّفِ فِي الْعِبَارَةِ عَنْ هٰذِهِ الْمَعَانِي مِنْ غَيْرِ خِيَانَةٍ فِي طَيِّ مَا لَا غِنَى بِهِ عَنْ عِلْمِهِ . وَهٰذَا مِمَّا لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ اِلَّا الْمُبَرِّزُ فِي الصِّنَاعَةِ الْمُتَصَرِّفُ فِي تَأْلِيفِ الْكَلَامِ . . (الْاَصْلُ الثَّامِنُ) اَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَ فَهْمِ كُلِّ طَبَقَةٍ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ فِي الْمُكَاتَبَاتِ مِنَ اللِّسَانِ فَيُخَاطِبَ كُلَّ اَحَدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ اللَّفْظِ وَمَا

يصلُ إليهِ فهمُهُ مِنَ الخطَابِ (استشهادٌ مِن كِتابِ الصناعتَينِ) . .
(الأصلُ التاسعُ) أن يُراعِيَ رُتبَةَ المكتُوبِ عنهُ والمكتوبِ إليهِ
في الخطَابِ فيُعبّرَ عن كلّ واحدٍ منهما بما يَليقُ بِهِ . ويُخاطِبَ
المكتُوبَ إليهِ بما يليقُ بمقامِهِ . فأمّا المكتوبُ عنهُ فيختلفُ الحالُ
فيهِ باختلافِ منصبهِ ورُتبتِهِ فيُعبَّرُ في الكُتُبِ الصادرةِ عن أبوابِ
الخلافةِ بأميرِ المؤمنينَ مثلُ أن يُقالَ : فجرى أمرُ أميرِ المؤمنينَ
في كذا على كذا . وأوعزَ أميرُ المؤمنينَ إلى فلانٍ بكذا واقتضى
رأيُ أميرِ المؤمنينَ كذا وهلمَّ جرًّا . وكذلكَ أن يعرفَ قدرَ المكتوبِ
إليهِ مِنَ الرؤساءِ والنظراءِ والعلماءِ والوكلاءِ ليفرقَ بينَ من
يكتُبُ إليهِ . . ألا ترى أنّكَ لو خاطبتَ سلطانًا أو وزيرًا بالتعزيةِ
عنِ المصيبةِ مِن مصائبِ الدنيا لما جازَ أن تبنيَ الكلامَ على وعظِهِ
وتبصيرِهِ وإرشادِهِ وحضِّهِ على الأخذِ بحظٍّ مِنَ الصبرِ . . وإنّما الصوابُ
أن تبنيَ الخطابَ على أنّهُ أعلى شأنًا وأرفعُ مكانًا مِن أن يُعزّى
بخلافِ المتأخرِ في الرتبةِ فإنّهُ إنّما يُعزّى تنبيهًا وتذكيرًا وتبصيرًا
وتعريفًا للواجبِ في تلقّي السرّاءِ بالشكرِ والضرّاءِ بالصبرِ . .
(الأصلُ العاشرُ) أن يُراعِيَ مواقعَ الآياتِ والسجعِ في الكُتُبِ
وذِكرَ أبياتِ الشعرِ في المكاتباتِ . . .



الفصل التاسع

في حل الشعر والاحتذاء

البحث الاول

في حسن الاخذ

(من كتاب الصاعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٣٩ من علم الادب)

لَيسَ لِاَحَدٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلْقَائِلِينَ غِنًى عَنْ تَنَاوُلِ ٱلْمَعَانِي مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَٱلصَّبُّ عَلَى قَوَالِبِ مَنْ سَبَقَهُ وَلٰكِنْ عَلَيْهِ اِذَا اَخَذَهَا اَنْ يَكْسُوهَا اَلْفَاظًا مِنْ عِنْدِهِ وَيُبْرِزَهَا فِي مَعَارِضَ مِنْ تَأْلِيفِهِ وَرَصْفِهِ وَيُؤَدِّيَهَا فِي غَيْرِ حِلْيَتِهَا ٱلْاُولَى وَيَزِيدَ فِي حُسْنِ تَأْلِيفِهَا وَجَوْدَةِ تَرْكِيبِهَا وَكَمَالِ حِلْيَتِهَا وَمَعْرِضِهَا . فَاِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ فَهُوَ اَوْلَى بِهَا مِمَّنْ سَبَقَ اِلَيْهَا وَلَوْلَا اَنَّ ٱلْقَائِلَ يُؤَدِّي مَا سَمِعَ لَمَا كَانَ فِي طَاقَتِهِ اَنْ يَقُولَ وَاِنَّمَا يَنْطِقُ ٱلطِّفْلُ بَعْدَ ٱسْتِمَاعِهِ مِنَ ٱلْبَالِغِينَ . وَقَالَ اَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ : لَوْلَا اَنَّ ٱلْكَلَامَ يُعَادُ لَنَفِدَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كُلُّ شَيْءٍ ثَنَيْتَهُ قَصُرَ اِلَّا ٱلْكَلَامَ فَاِنَّكَ اِذَا ثَنَيْتَهُ طَالَ . عَلَى اَنَّ ٱلْمَعَانِيَ مُشْتَرِكَةٌ بَيْنَ ٱلْعُقَلَاءِ فَرُبَّمَا وَقَعَ ٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ لِلسُّوقِيِّ وَٱلنَّبَطِيِّ وَٱلزَّنْجِيِّ وَاِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَلْفَاظِ وَرَصْفِهَا وَتَأْلِيفِهَا وَنَظْمِهَا . وَقَدْ يَقَعُ لِلْمُتَاَخِّرِ مَعْنًى سَبَقَهُ اِلَيْهِ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُلِمَّ بِهِ وَلٰكِنْ

كَمَا وَقَعَ لِلْاَوَّلِ وَقَعَ لِلْآخِرِ . وَهٰذَا اَمْرٌ عَرَفْتُهُ مِنْ نَفْسِي فَلَسْتُ اَمْتَرِي فِيهِ . وَقَدْ قِيلَ : اِنَّ مَنْ اَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ كَانَ لَهُ سَالِخًا وَمَنْ اَخَذَهُ فَكَسَاهُ لَفْظًا مِنْ عِنْدِهِ اَجْوَدَ مِنْ لَفْظِهِ كَانَ هُوَ اَوْلَى بِهِ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ . وَقَالُوا : اِنَّ اَبَا عُذْرَةِ ٱلْكَلَامِ مَنْ سَبَكَ لَفْظَهُ عَلَى مَعْنَاهُ . وَمَنْ اَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ فَلَيْسَ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ . عَلَى اَنَّ اَبْتِكَارَ ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّبْقَ اِلَيْهِ لَيْسَ هُوَ فَضِيلَةً تَرْجِعُ اِلَى ٱلْمَعْنَى وَاِنَّمَا هُوَ فَضِيلَةٌ تَرْجِعُ اِلَى ٱلَّذِي اَبْتَكَرَهُ وَسَبَقَ اِلَيْهِ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ جَيِّدٌ وَاِنْ كَانَ مَسْبُوقًا اِلَيْهِ . وَٱلْوَسَطُ وَسَطٌ وَٱلرَّدِيءُ رَدِيءٌ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مَسْبُوقًا اِلَيْهِمَا . وَقَدْ اَطْبَقَ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ وَٱلْمُتَاخِّرُونَ عَلَى تَدَاوُلِ ٱلْمَعَانِي بَيْنَهُمْ فَلَيْسَ عَلَى اَحَدٍ فِيهِ عَيْبٌ اِلَّا اِذَا اَخَذَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ وَاَخَذَهُ فَاَفْسَدَهُ وَقَصَّرَ فِيهِ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَرُبَّمَا اَخَذَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْقَوْلَ ٱلْمَشْهُورَ وَلَمْ يُبَالِ كَمَا فَعَلَ ٱلنَّابِغَةُ فَاِنَّهُ اَخَذَ قَوْلَ وَهْبِ بْنِ ٱلْحَارِثِ بْنِ زُهَيْرٍ :

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ

وَقَالَ ٱلنَابِغَةُ

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ ... لَا ٱلنُّورُ نُورٌ وَلَا ٱلْاِظْلَامُ اِظْلَامُ

وَاَخَذَ قَوْلَ رَجُلٍ مِنْ كِنْدَةَ فِي عَمْرِو بْنِ هِنْدٍ :

هُوَ ٱلشَّمْسُ وَافَتْ يَوْمَ دَجْنٍ فَاَفْضَلَتْ

عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

فَقَالَ :

فَاِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ ... اِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَسَنَتَّبِعُ ٱلْقَوْلَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ وَٱلْحَاذِقُ يُخْفِي دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى يَأْخُذُهُ فِي سُتْرَةٍ فَيُحْكَمُ لَهُ بِٱلسَّبْقِ إِلَيْهِ . وَذٰلِكَ أَنْ يَأْخُذَ مَعْنًى مِنْ نَظْمٍ فَيُورِدَهُ فِي نَثْرٍ. أَوْ مِنْ نَثْرٍ فَيُورِدَهُ فِي نَظْمٍ أَوْ يَنْقُلَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُسْتَعْمَلَ فِي صِفَةِ خَمْرٍ فَيَجْعَلَهُ فِي مَدِيحٍ أَوْ فِي مَدِيحٍ فَيَنْقُلَهُ إِلَى وَصْفٍ . إِلَّا أَنَّهُ لَا يَكْمُلُ بِهٰذَا إِلَّا ٱلْمُبَرِّزُ وَٱلْكَامِلُ ٱلْمُقَدَّمُ مِمَّنْ أَخْفَى دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَسَتَرَهُ غَايَةَ ٱلسَّتْرِ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ :

جَمَعْتَ عُرَى أَعْمَالِهَا بَعْدَ فُرْقَةٍ   إِلَيْكَ كَمَا ضَمَّ ٱلْأَنَابِيبَ عَامِلُ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْحُبَالِ ٱلرَّبَعِيِّ :

أُولٰئِكَ إِخْوَانُ ٱلصَّفَاءِ رُزِئْتُهُمْ   فَمَا ٱلْكَفُّ إِلَّا إِصْبَعٌ ثُمَّ إِصْبَعُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ وَقَدْ نَقَلَهُ مِنْ مَعْنًى إِلَى آخَرَ :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَأَنَّمَا   تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْأَخْطَلِ :

عَرُوفٌ لِحَقِّ ٱلسَّائِلِينَ كَأَنَّهُ   بِعَقْرِ ٱلْمَتَالِي طَالِبٌ بِذُنُوبِ

وَمِمَّا أَخَذَهُ وَزَادَ فِيهِ عَلَى ٱلْأَوَّلِ قَوْلُهُ :

أَفْنَاهُمُ ٱلصَّبْرُ إِذْ أَبْقَاكُمُ ٱلْجَزَعُ

مِنْ قَوْلِ ٱلسَّمَوْءَلِ :

يُقَرِّبُ حُبُّ ٱلْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا   وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ

أَوْرَدَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي نِصْفِ بَيْتٍ وَٱسْتَوْفَى ٱلتَّطْبِيقَ وَمِنْ هٰذَا ٱلضَّرْبِ قَوْلُهُ :

عَلَّمَنِي جُودُكَ ٱلسَّمَاحَ فَمَا   أَبْقَيْتُ شَيْئًا لَدَيَّ مِنْ صِلَتِكْ

مِنْ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَيَّاطِ :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ ٱبْتَغِي ٱلْغِنَى ... وَلَمْ ادْرِ انَّ ٱلْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي

فَلَا ا نَا مِنْهُ مَا افَادَ ذَوُو ٱلْغِنَى ... افَدتُ وَاعْدَانِي فَا تْلَفْتُ مَا عِنْدِي

وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

أُحِبُّ ٱلرِّيحَ مَا هَبَّتْ شَمَالًا ... وَاحْسُدُهَا اِذَا هَبَّتْ جَنُوبَا

قَسَّمَ تَقْسِيمًا حَسَنًا وَمَعْنَاهُ : انَّ ٱلشَّمَالَ تَجِيءُ مِنْ نَاحِيَةِ صَدِيقِهِ اِلَيْهِ فَاحَبَّهَا وَٱلْجَنُوبَ تَهُبُّ اِلَى ٱلْحَبِيبِ فَحَسَدَهَا لِمُبَاشَرَتِهَا جِسْمَهُ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ جِرَانِ ٱلْعَوْدِ :

اِذَا هَبَّتِ ٱلْاَرْوَاحُ مِنْ نَحْوِ ارْضِكُمْ ... وَجَدتُّ لِرَيَّاهَا عَلَى كَبِدِي بَرْدَا

وَزَادَ مُسْلِمٌ فِي قَوْلِهِ أَيْضًا :

وَيُغْمِدُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱلنَّحْرِ وَٱلْجِيدِ

عَلَى ٱلسَّابِقِ اِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَهُوَ بَعْضُ ٱلْفُرْسَانِ اِذْ يَقُولُ :

جَعَلْتُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱللَّيْثِ مِنْهُ ... وَبَيْنَ سَوَادِ لِحْيَتِهِ عِذَارَا

لِانَّ ٱلْاغْمَادَ فِيهِ اشَدُّ تَأْثِيرًا مِنْ وَضْعِ ٱلْعِذَارِ عَلَيْهِ . وَقَدْ زَادَ أَبُو نُوَاسٍ عَلَى جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ :

وَقَدْ اُطُولُ نِجَادَ ٱلسَّيْفِ مُحْتَبِيًا ... مِثْلَ ٱلرُّدَيْنِيِّ هَزَّتْهُ ٱلْانَابِيبُ

فَقَالَ أَبُو نُوَاسٍ :

سَبْطُ ٱلْبَنَانِ اِذَا ٱحْتَبَى بِنِجَادِهِ ... غَمَرُ ٱلْجَمَاجِمِ وَٱلسِّمَاطُ قِيَامُ

قَوْلُهُ : غَمَرَ ٱلْجَمَاجِمِ احْسَنُ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ مِثْلُ ٱلرُّدَيْنِيِّ .
وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

أَشَمُّ طُوَالُ ٱلسَّاعِدَيْنِ كَأَنَّمَا ... يُلَاثُ نِجَادَا سَيْفِهِ بِلِوَاءِ

أَحْسَنُ لَفْظًا وَسَبْكًا مِنْ قَوْلِ عَنْتَرَةَ :

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ ... يُحْذَى نِعَالَ ٱلسِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ فِي ٱبْنَيْ عُبَيْدِ ٱللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ :

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ ٱلْمَخَايِلِ فِيهِمَا ... لَوْ أُمْهِلَتْ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلَا

لَوْ يُنْسَبَانِ لَكَانَ هٰذَا غَارِبًا ... لِلْمَكْرُمَاتِ وَكَانَ هٰذَا كَاهِلَا

إِنَّ ٱلْهِلَالَ إِذَا رَأَيْتَ نُمُوَّهُ ... أَيْقَنْتَ أَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلَا

أَحْسَنُ وَأَجْوَدُ مِمَّا أَخَذَ مِنْهُ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ وَهُوَ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَفِي جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ ... لَوَ أَنَّ ٱلْمَنَايَا أَنْسَأَتْهُ لَيَالِيَا

لَا يَقَعُ بَيْتُ ٱلْفَرَزْدَقِ مَعَ أَبْيَاتِ أَبِي تَمَّامٍ مَوْقِعًا . وَأَخَذَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَمَا وَامَرَتْنِي ٱلنَّفْسُ فِي رِحْلَةٍ لَهَا ... إِلَى أَحَدٍ إِلَّا إِلَيْكَ ضَمِيرُهَا

فَشَرَحَهُ وَقَالَ :

وَمَا طَوَّفْتُ فِي ٱلْآفَاقِ إِلَّا ... وَمِنْ جَدْوَاكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي

مُقِيمُ ٱلظَّنِّ عِنْدَكَ وَٱلْأَمَانِي ... وَإِنْ قَلِقَتْ رِكَابِي فِي ٱلْبِلَادِ

وَإِلَى بَيْتِ ٱلْفَرَزْدَقِ يُشِيرُ ٱلْقَائِلُ :

مَدَحْتُكَ جَهْدِي بِٱلَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
فَقَصَّرَ عَمَّا فِيكَ مِنْ صَالِحٍ جَهْدِي

فَمَا كُلُّ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَيْرِ قُلْتُهُ
وَلَا كُلُّ مَا فِيهِ يَقُولُ ٱلَّذِي بَعْدِي

وَكُنتُ إِذَا هَيَّأْتُ مَدحًا لِمَاجِدٍ
اَتَانِي ٱلَّذِي فِيهِ بِأَدْنَى ٱلَّذِي عِندِي

وَمِنْ هَا هُنَا اَخَذَ اَبُو نُوَاسٍ قَوْلَهُ :

إِذَا نَحْنُ اَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِي وَفَوقَ ٱلَّذِي نُثْنِي
وَإِنْ جَرَتِ ٱلْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمِدْحَةٍ لِغَيْرِكَ إِنسَانًا فَأَنْتَ ٱلَّذِي نَعْنِي

وَيُشِيرُ إِلَى قَوْلِ ٱلْخَنسَاء :

وَمَا بَلَغَ ٱلْمُهْدُونَ فِي ٱلْقَوْلِ مِدْحَةً وَإِنْ اَطْنَبُوا إِلَّا ٱلَّذِي فِيكَ اَفْضَلُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا ٱلدُّرُوعَ لِمَوْقِفٍ لَبِسَتْهُمُ ٱلْأَحْسَابُ فِيهِ دُرُوعَا

اَتَمُّ وَاَجْوَدُ مِن قَوْلِ ٱلْأَوَّلِ :

لَبِسُوا ٱلْقُلُوبَ عَلَى ٱلدُّرُو عِ مُظَاهِرِينَ لِدَفْعِ ذٰلِكْ

وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ : إِنَّ ٱلنَّدَى حَيْثُ تَرَى ٱلضِّغَاطَا . فَأَخَذَهُ بَشَّارٌ وَقَدْ شَرَحَهُ وَبَيَّنَهُ فَقَالَ :

تَسْقُطُ ٱلطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَشِرُ ٱلْحَبُّ م وَتُغْشَى مَنَازِلُ ٱلْكُرَمَاء

وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

يَزْدَحِمُ ٱلنَّاسُ عَلَى بَابِهِ وَٱلْمَشْرَبُ ٱلْعَذْبُ كَثِيرُ ٱلزِّحَامْ

وَسَمِعَ اَبُو تَمَّامٍ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ اَبِي طَالِبٍ لِلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ : اِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ قَضَاءُ ٱللهِ وَاَنْتَ مَوْزُورٌ . وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَسْلُ اَحْتِسَابًا سَلَوْتَ كَمَا تَسْلُو ٱلْبَهَائِمُ فَحَكَاهُ حِكَايَةً حَسَنَةً فِي قَوْلِهِ :

وَقَالَ عَلِيٌّ فِي ٱلتَّعَازِي لِأَشْعَثٍ   وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضَ تِلْكَ ٱلْمَآثِمِ
أَتَصْبِرُ لِلْبَلْوَى حَيَاءً وَحِسْبَةً   فَتُؤْجَرُ أَمْ تَسْلُو سُلُوَّ ٱلْبَهَائِمِ
خُلِقْنَا رِجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَٱلْأَسَى   وَتِلْكَ ٱلْغَوَانِي لِلْبُكَا وَٱلْمَآتِمِ

وَٱلْبَيْتُ ٱلْأَخِيرُ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ لَمَّا قُتِلَ مُصْعَبٌ. وَإِنَّمَا ٱلتَّسْلِيمُ وَٱلسَّلْوَةُ لِحُزَمَاءِ ٱلرِّجَالِ. وَإِنَّ ٱلْهَلَعَ وَٱلْجَزَعَ لِرَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ وَسَمِعَ قَوْلَ زِيَادٍ لِأَبِي ٱلْأَسْوَدِ. لَوْ أَنَّكَ ضَعِيفٌ لَأَسْتَعْمَلْتُكَ. فَقَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ: إِنْ كُنْتَ تُرِيدُنِي لِلصِّرَاعِ فَإِنِّي لَا أَصْلُحُ لَهُ وَإِلَّا فَغَيْرُ شَدِيدٍ أَنْ آمُرَ وَأَنْهَى فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ:

تَعَجَّبُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفًا   كَأَنَّ ٱلْمَجْدَ يُدْرَكُ بِٱلصِّرَاعِ

وَلَمَّا قَالَ بَشَّارٌ:

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ   وَفَازَ بِٱلطَّيِّبَاتِ ٱلْفَاتِكُ ٱللَّهِجُ

تَبِعَهُ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ فَقَالَ:

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ مَاتَ غَمًّا   وَفَازَ بِٱللَّذَّةِ ٱلْجَسُورُ

فَلَمَّا سَمِعَ بَشَّارٌ هٰذَا ٱلْبَيْتَ قَالَ: ذَهَبَ ٱلْخَبِيثُ بِبَيْتِي. وَمِنْ حُسْنِ ٱلِٱتِّبَاعِ أَيْضًا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ حَيْثُ كَتَبَ: إِذَا كَانَ لِلْمُحْسِنِ مِنَ ٱلثَّوَابِ مَا يُقْنِعُهُ وَلِلْمُسِيءِ مِنَ ٱلْعِقَابِ مَا يَقْمَعُهُ ٱزْدَادَ ٱلْمُحْسِنُ فِي ٱلْإِحْسَانِ رَغْبَةً وَٱنْقَادَ ٱلْمُسِيءُ لِلْحَقِّ رَهْبَةً. أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيٍّ: يَجِبُ عَلَى ٱلْوَالِي أَنْ يَتَعَهَّدَ أُمُورَهُ وَيَتَفَقَّدَ أَعْوَانَهُ حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ ثُمَّ لَا يَتْرُكَ وَاحِدًا مِنْهُمَا بِغَيْرِ جَزَاءٍ. فَإِنْ تَرَكَ ذٰلِكَ تَهَاوَنَ ٱلْمُحْسِنُ وَٱجْتَرَأَ ٱلْمُسِيءُ وَفَسَدَ

اَلْاَمْرُ وَضَاعَ اَلْعَمَلُ . وَسَمِعَ بَعْضُ اَلْكُتَّابِ قَوْلَ نُصَيْبٍ :

وَلَوْ سَكَتُوا اَثْنَتْ عَلَيْكَ اَلْحَقَائِبُ

فَكَتَبَ وَلَوْ اُمْسِكُ لِسَانِي عَنْ شُكْرِكَ لَنَطَقَ اَثَرُكَ عَلَيَّ . وَفِي فَصْلٍ آخَرَ : وَلَوْ جَحَدْتُكَ اِحْسَانَكَ لَاَكْذَبَتْنِي آثَارُهُ وَنَمَّتْ عَلَيَّ شَوَاهِدُهُ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : شَاهِدَاتُ اَلْاَحْوَالِ اَعْدَلُ مِنْ شَهَادَاتِ اَلرِّجَالِ . اَخَذَهُ اَبْنُ اَلرُّومِيِّ فَشَرَحَهُ فِي قَوْلِهِ :

حَالَ اَلسَّدَادُ فِي عَمَّا يُرِيبُكُمْ لٰكِنْ فَمُ اَلْحَالِ مِنِّي غَيْرُ مَسْدُودِ

حَالٌ تَصِيحُ بِمَا اَوْلَيْتَ مُعْلِنَةً وَكُلُّ مَا تَدَّعِيهِ غَيْرُ مَرْدُودِ

كُلِّي هِجَاءٌ وَقَتْلِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ فَمَا يُدَاوِيكُمْ مِنِّي سِوَى اَلْجُودِ

وَمِمَّنْ اَحْسَنَ اَلِاتِّبَاعَ اَيْضًا اَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ سَمِعَ قَوْلَ عَلِيٍّ : لَا تَكُونَنَّ كَمَنْ يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا اُوتِيَ وَيَلْتَمِسُ اَلزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ . فَكَتَبَ : اَحَقُّ مَنْ اَثْبَتَ لَكَ اَلْعُذْرَ فِي حَالِ شُغْلِكَ مَنْ لَمْ يَخْلُ سَاعَةً مِنْ بِرِّكَ فِي وَقْتِ فَرَاغِكَ . وَاَخَذَهُ اَخْذًا ظَاهِرًا اَحْمَدُ بْنُ صُبَيْحٍ فَقَالَ : فِي شُكْرِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ اِحْسَانِ اَلْاَمِيرِ شَاغِلٌ عَنِ اَسْتِبْطَاءِ مَا تَاَخَّرَ مِنْهُ . وَاَخَذَهُ سَعِيدُ بْنُ حُمَيْدٍ فَقَالَ : لَسْتُ مُسْتَقِلًّا لِشُكْرِ مَا مَضَى مِنْ بَلَائِكَ فَاَسْتَبْطِئَ دَرْكَ مَا اُؤَمِّلُ مِنْ مَزِيدِكَ . وَمِنْ هٰذَا اَيْضًا قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ اِلَيَّ عَارِفَةً حَتَّى اَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَاَخْبَرَ اَلْاَخْفَشُ قَالَ : قَالَ اَبُو تَمَّامٍ لِاَبْنِ اَبِي دُؤَادٍ لَمَّا غَضِبَ عَلَيْهِ : اَنْتَ اَلنَّاسُ كُلُّهُمْ وَلَا طَاقَةَ لِي بِغَضَبِ جَمِيعِ اَلنَّاسِ . فَقَالَ

اُبْنُ اَبِي رُؤَادٍ : مَا اَحسَنَ هٰذَا مِنْ اَيْنَ اَخَذْتَهُ . قَالَ : مِنْ قَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ وَلَيسَ عَلَى ٱللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ . اَنْ يَجْمَعَ ٱلْعَالَمَ فِي وَاحِدِ

وَمَنْ سَمِعَ هٰذَا ٱلْكَلَامَ يَظُنُّهُ مَسْرُوقًا مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

اِذَا غَضِبَتْ عَلَيَّ بَنُو تَمِيمٍ   رَاَيتُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَسَمِعَ قُلَيبٌ ٱلْمُعْتَزِلِيُّ اَبيَاتًا لِلْعُتْبِيِّ وَهِيَ :

اَفَلَتْ بَطَالَتُهُ وَرَاجَعَهُ   حِلْمٌ وَاَعْقَبَهُ ٱلْهَوَى نَدَمَا

اَلْقَى عَلَيهِ ٱلدَّهْرُ كَلْكَلَهُ   وَاَعَارَهُ ٱلْإِقْتَارَ وَٱلْعَدَمَا

فَاِذَا اَلَمَّ بِهِ اَخُو ثِقَةٍ   غَضَّ ٱلْجُفُونَ وَمَجْمَجَ ٱلْكَلِمَا

فَقَالَ لِبَعْضِ ٱلْمُلُوكِ يَسْتَعْطِفُهُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ اَهْلِهِ : جَعَلَنِي ٱللهُ فِدَاكَ . لَيسَ هُوَ ٱلْيَومَ كَمَا كَانَ اَمسِ اِنَّهُ وَحَيَاتِكَ اَفَلَتْ بَطَالَتُهُ اِيْ وَٱللهِ وَرَاجَعَهُ حِلْمُهُ وَاَعْقَبَهُ وَحَقِّكَ ٱلْهَوَى نَدَمًا اَلْقَى ٱلدَّهْرُ عَلَيهِ كَلْكَلَهُ فَهُوَ ٱلْيَومَ اِذَا رَاَى اَخَا ثِقَةٍ غَضَّ بَصَرَهُ وَمَجْمَجَ كَلَامَهُ . وَبِهٰذَا يُعْرَفُ اَنَّ حَلَّ ٱلْمَنْظُومِ وَنَظْمَ ٱلْمَحْلُولِ اَسْهَلُ مِنِ ٱبْتِدَائِهِمَا لِاَنَّ ٱلْمَعَانِيَ اِذَا حَلَلْتَ مَنْظُومًا اَوْ نَظَمْتَ مَنْثُورًا حَاضِرَةٌ بَيْنَ يَدَيْكَ تَزِيدُ فِيهَا شَيْئًا فَتَنْحَلُّ اَوْ تَنْقُصُ مِنْهَا شَيْئًا فَتَنْتَظِمُ . وَاِذَا اَرَدتَّ ٱبْتِدَاءَ كَلَامٍ وَجَدتَّ ٱلْمَعَانِيَ غَائِبَةً عَنْكَ فَتَحْتَاجُ اِلَى فِكْرٍ يُحْضِرُهَا وَٱلْمَحْلُولُ مِنَ ٱلشِّعْرِ عَلَى اَرْبَعَةِ اَضْرُبٍ : ضَرْبٌ مِنْهَا يَكُونُ بِاِدْخَالِ لَفْظَةٍ بَيْنَ اَلْفَاظِهِ . وَضَرْبٌ يَنْحَلُّ بِتَأْخِيرِ لَفْظَةٍ مِنْهُ وَتَقْدِيمِ اُخْرَى فَيَحْسُنُ مَحْلُولُهُ وَيَسْتَقِيمُ . وَضَرْبٌ مِنْهُ يَنْحَلُّ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ وَلَا يَحْسُنُ وَلَا يَسْتَقِيمُ . فَاَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلْاَوَّلُ فَمِثَالُهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

صَدرِ كَلَامِ قُلَيبِ ٱلمُعتَزِلِيِّ . وَامَّا ٱلضَّربُ ٱلثَّانِي فَمِثَالُهُ مَا ذَكَرَ بَعضُ ٱلكُتَّابِ مِنْ قَولِ ٱلبُحتُرِيِّ :

تَطلُبُ ٱلاَكثَرَ فِي ٱلدُّنيَا وَقَدْ   تَبلُغُ ٱلحَاجَةُ فِيهَا بِٱلاَقَلْ

ثُمَّ قَالَ : فَاذَا نَثَرتَ ذٰلِكَ وَلَمْ تَزِدْ فِي ٱلفَاظِهِ شَيئًا قُلتَ : تَطلُبُ فِي ٱلدُّنيَا ٱلاَكثَرَ وَتَبلُغُ مِنهَا ٱلحَاجَةَ بِٱلاَقَلِّ . فَامَّا ٱلضَّربُ ٱلثَّالِثُ فَهُوَ اَنْ تُوضَعَ ٱلفَاظُ ٱلبَيتِ فِي مَوَاضِعَ لَا يَحسُنُ وَضعُهَا فِي غَيرِهَا فَيَختَلُّ اِذَا نُثِرَ بِتَأخِيرِ لَفظٍ وَتَقدِيمِ آخَرَ فَيَحتَاجُ نَثرُهُ اِلَى ٱلنُّقصَانِ مِنهُ وَٱلزِّيَادَةِ فِيهِ . كَقَولِ ٱلبُحتُرِيِّ اَيضًا :

يُسَرُّ بِعُمرَانِ ٱلدِّيَارِ مُضَلَّلٌ   وَعُمرَانُهَا مُستَأنَفٌ مِنْ خَرَابِهَا

وَلَمْ اَرتَضِ ٱلدُّنيَا اَوَانَ مَجِيئِهَا   فَكَيفَ ٱرتِضَائِيهَا اَوَانَ ذَهَابِهَا

فَاذَا نُثِرَ عَلَى هٰذَا ٱلوَجهِ قِيلَ : يُسَرُّ مُضَلَّلٌ بِعُمرَانِ ٱلدُّنيَا وَمِنْ خَرَابِهَا عُمرَانُهَا مُستَأنَفٌ وَلَمْ اَرتَضِ اَوَانَ مَجِيئِهَا ٱلدُّنيَا فَكَيفَ اَوَانَ ذَهَابِهَا ٱرتِضَائِيهَا . فَهٰذَا نَثرٌ فَاسِدٌ فَاذَا غَيَّرتَ بَعضَ ٱلفَاظِهِ حَسُنَ وَهُوَ اَنْ تَقُولَ : يُسَرُّ ٱلمُضَلَّلُ بِعُمرَانِ ٱلدِّيَارِ وَاِنَّمَا يُستَأنَفُ عُمرَانُهَا مِنْ خَرَابِهَا . وَمَا ٱرتَضَيتُ ٱلدُّنيَا اَوَانَ مَجِيئِهَا فَكَيفَ اَرتَضِيهَا اَوَانَ ذَهَابِهَا . وَنَحنُ نَقُولُ اِنَّ مِنَ ٱلنَّظمِ مَا لَا يُمكِنُ حَلُّهُ اَصلًا بِتَأخِيرِ لَفظَةٍ وَتَقدِيمِ اُخرَى مِنهُ حَتَّى يَلحَقَ بِهِ ٱلتَّغيِيرُ وَٱلزِّيَادَةُ وَٱلنُّقصَانُ . مِثلُ قَولِ ٱلشَّاعِرِ :

لِسَانُ ٱلفَتَى نِصفٌ وَنِصفٌ فُؤَادُهُ   فَلَمْ يَبقَ اِلَّا صُورَةُ ٱللَّحمِ وَٱلدَّمِ

فَٱلمِصرَاعُ ٱلاَوَّلُ يُمكِنُ اَنْ تُؤَخَّرَ اَلفَاظُهُ وَتُقَدَّمَ فَيَصِيرُ نَثرًا

مُستَقِيمًا وهُوَ أنْ تَقُولَ : فُؤَادُ ٱلْفَتَى نِصفٌ وَلِسانُهُ نِصفٌ . وَلَا يُمكِنُ فِي ٱلْمِصرَاعِ ٱلثَّانِي ذٰلِكَ حَتَّى تَزِيدَ فِيهِ أوْ تَنقُصَ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلْمِصرَاعَ ٱلثَّانِي إنَّمَا هُوَ تَذْيِيلٌ لِلْمِصرَاعِ ٱلْأَوَّلِ فَإِذَا أرَدتَ أنْ تَحُلَّهُ حَلًّا مُقتَصِرًا بِغَيرِ لَفظِهِ قُلتَ : ٱلْإِنسَانُ شَطرَانِ لِسَانٌ وجَنَانٌ . وَمِمَّا لَا يُمكِنُ حَلُّهُ بِتَقدِيمِ لَفظَةٍ مِنهُ وَتَأخِيرِ أُخرَى أيضًا قَولُ أبِي نُوَاسٍ :

ألَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَبَادُوا أمَا وَٱللهِ مَا ذَهَبُوا لِتَبقَى

فَتَحتَاجُ فِي نَثرِهِ إلَى تَغيِيرِهِ وإبدَالِ ألفَاظِهِ فَتَقُولُ: ألَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ مَاتُوا وَمَضَوا وَظَعَنُوا فَنَأَوا فَوَٱللهِ مَا ظَعَنُوا لِتُقِيمَ وَمَا رَامُوا إلَّا لِتَرِيمَ . وَلَا مَاتُوا لِتَحيَا وَلَا فَنُوا لِتَبقَى . وَفِي هٰذِهِ ٱلْأَلفَاظِ طُولٌ وَلَيسَ بِصَائِرٍ عَلَى مَا خَبَّرتُكَ فَإِنْ أرَدتَ ٱختِصَارَهُ قُلتَ : أمَا وَٱللهِ إنَّ ٱلْمَوتَ لَمْ يُصِبكَ فِي أبِيكَ إلَّا لِيُصِيبَكَ فِيكَ . وَٱلضَّربُ ٱلرَّابِعُ أنْ تَكسُوَ مَا تَحُلُّهُ مِنَ ٱلْمَنظُومِ ألفَاظًا مِنْ عِندِكَ . وَهٰذَا أرفَعُ دَرَجَاتِكَ . وَمِنْهُ مَا قَالَ بَعضُهُمْ لِلرَّبِيعِ بْنِ خَيثَمٍ وَقَدْ رَأَى ٱجتِهَادَهُ فِي ٱلْعِبَادَةِ : قَتَلتَ نَفسَكَ . فَقَالَ : رَاحَتَهَا أطلُبُ . فَقَالَ ٱلشَّاعِرُ :

سَأَطلُبُ بُعدَ ٱلدَّارِ مِنكُمْ لِتَقرُبُوا وَتَسكُبُ عَينَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجمُدَا

وَمِنْهُ مَا جَاءَ عَنِ ٱلْحَسَنِ ٱلْبَصرِيِّ فَقَالَ نَثرًا: إنَّ امرأً لَمْ يَعُدَّ بَينَهُ وَبَينَ آدَمَ إلَّا أبًا مَيتًا لَمُعرِقٌ لَهُ فِي ٱلْمَوتِ.فَأَخَذَهُ أبُو نُوَاسٍ فَقَالَ :

وَمَا ٱلنَّاسُ إلَّا هَالِكٌ وَٱبْنُ هَالِكٍ وَذُو نَسَبٍ فِي ٱلْهَالِكِينَ عَرِيقُ

وَسَمِعَ بَعضُ ٱلْكُتَّابِ قَولَ أبِي تَمَّامٍ :

فَإِنْ نَجِدْ عِلَّةً نُعَمْ بِهَا   حَتَّى تَرَانَا نُعَادُ مِنْ مَرَضِهْ

فَكَتَبَ مَنْ تَزَلْ مَنْزِلَتِي مِنْ طَاعَتِكَ وَمُشَارَكَتِكَ كَانَ حَقِيقًا أَنْ يُهَنَّأَ بِالنِّعْمَةِ تَحْدُثُ عِنْدَكَ وَيُعَزَّى عَلَى النَّائِبَةِ تُلِمُّ بِكَ . فَنَقَلَ الْعِيَادَةَ إِلَى الْمُصِيبَةِ وَالتَّعْزِيَةِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْكِتَابَةُ نَقْضُ الشِّعْرِ . وَقِيلَ لِلْعَتَّابِيِّ : بِمَ قَدَرْتَ عَلَى الْبَلَاغَةِ . فَقَالَ : بِحَلِّ مَعْقُودِ الْكَلَامِ وَأَحْسَنَ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ :

إِلَيْكَ هَتَكْنَا جُنْحَ لَيْلٍ كَأَنَّمَا   قَدِ اكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِإِثْمِدِ

وَزَادَ فِيهِ عَلَى أَبِي نُوَاسٍ وَمِنْهُ أَخَذَ . وَهُوَ قَوْلُهُ :

وَجُنْحُ لَيْلٍ مُكْتَحِلٌ بِقَارِ

لِأَنَّ الْاِكْتِحَالَ يَكُونُ بِالْإِثْمِدِ وَلَا يَكُونُ بِالْقَارِ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ الْعَبَّاسِ :

لِفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ يَدٌ   تَقَاصَرَ عَنْهَا الْمَثَلْ

فَبَسْطَتُهَا لِلْغِنَى   وَسَطْوَتُهَا لِلْأَجَلْ

وَبَاطِنُهَا لِلنَّدَى   وَظَاهِرُهَا لِلْقُبَلْ

وَأَخَذَ الْمَعْنَى الْأَمِيرُ أَبُو عَزِيزٍ قَتَادَةُ أَمِيرُ مَكَّةَ فَقَالَ مُشِيرًا إِلَى يَدِهِ مِنْ أَبْيَاتٍ :

تَظَلُّ مُلُوكُ الْأَرْضِ تَلْثِمُ ظَهْرَهَا   وَفِي بَطْنِهَا لِلْمُجْدِبِينَ رَبِيعُ

فَأَتْبَعَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ فَأَحْسَنَ الْإِتْبَاعَ فَقَالَ :

أَصْبَحْتُ بَيْنَ خَصَاصَةٍ وَتَجَمُّلٍ   وَالْحُرُّ بَيْنَهُمَا يَمُوتُ هَزِيلَا

فَامْدُدْ إِلَيَّ يَدًا تَعَوَّدَ بَطْنُهَا   بَذْلَ النَّوَالِ وَظَهْرُهَا التَّقْبِيلَا

وَمَا أَلْطَفَ قَوْلَ مَنْ قَالَ :

وَمَا ٱلدَّهْرُ فِي حَالِ ٱلسُّكُونِ بِسَاكِنٍ
سِوَى أَنَّهُ مُسْتَجْمِعٌ لِوُثُوبِ

وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَقُلْتُ يَا قَوْمُ إِنَّ ٱللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ عَلَى بَرَاثِنِهِ لِوَثْبَةِ ٱلضَّارِي

وَكَذَٰلِكَ قَوْلُهُ :

كَأَنَّ أَبَاهُ حِينَ سَمَّاهُ صَاعِدًا رَأَى كَيْفَ يَرْقَى فِي ٱلْمَعَالِي وَيَصْعَدُ

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

سَمَّاهُ أُسْرَتُهُ ٱلْعَلَاءَ وَإِنَّمَا قَصَدُوا بِذَٰلِكَ أَنْ يَتِمَّ عُلَاهُ

وَزَادَ أَبُو تَمَّامٍ عَلَى ٱلْأَفْوَهِ وَٱلنَّابِغَةِ وَأَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فِي مَعْنًى تَدَاوَلُوهُ وَهُوَ قَوْلُ ٱلْأَفْوَهِ :

وَتَرَى ٱلطَّيْرَ عَلَى أَرْمَاحِنَا رَأْيَ عَيْنٍ ثِقَةً أَنْ سَتُمَارْ

وَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ :

إِذَا مَا غَزَوْا بِٱلْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ

جَوَانِحُ قَدْ أَيْقَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ إِذَا مَا ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

وَقَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

تَتَأَيَّا ٱلطَّيْرُ غَزْوَتَهُ ثِقَةً بِٱلشِّبْعِ مِنْ جَزَرِهْ

وَقَوْلُ مُسْلِمٍ :

قَدْ عَوَّدَ ٱلطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَا فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلِ

فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

اَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ حَتَّى كَأَنَّهَا مِنَ ٱلْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَا تُقَاتِلُ

وَقَوْلُـهُ : (أَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ زِيَادَةٌ) وَزَادَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ فَقَالَ :

حَتَّى تَكَادَ عَلَى أَحْيَائِهِمْ تَقَعُ

وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

هِمَّةٌ تَنْطَحُ ٱلنُّجُومَ وَجَدٌّ آلِفٌ لِلْحَضِيضِ فَهُوَ حَضِيضُ

أَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ فَحَسَّنَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ :

مُتَحَيِّرٌ يَغْدُو بِعَزْمٍ قَائِمٍ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ وَجَدٍّ قَاعِدِ

وَمِمَّا أَخَذَهُ مِنْ أَبِي تَمَّامٍ فَقَسَّمَهُ تَقْسِيمًا حَسَنًا قَوْلُهُ :

مَلِكٌ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ إِقْدَامُ غِرٍّ وَٱعْتِزَامُ مُجَرِّبِ

هُوَ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

وَمُجَرَّبُونَ سَقَاهُمُ مِنْ بَأْسِهِ فَإِذَا لَقُوا فَكَأَنَّهُمْ أَغْمَارْ

وَقَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

كَمْ نِعْمَةٍ لَا يُسْتَقَلُّ بِشُكْرِهَا لِلّٰهِ فِي طَيِّ ٱلْمَكَارِهِ كَامِنَهْ

أَخَذَهُ أَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ :

قَدْ يُنْعِمُ ٱللّٰهُ بِٱلْبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَلِي ٱللّٰهُ بَعْضَ ٱلْقَوْمِ بِٱلنِّعَمِ

فَزَادَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ أَتَى بِعَكْسِ ٱلْمَعْنَى وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

رَأَيْتُ رَجَائِي فِيكَ وَحْدَكَ هِمَّةً وَلٰكِنَّهُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ مَطْمَعُ

فَأَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ فَٱخْتَصَرَهُ فَقَالَ :

ثَنَى أَمَلِي فَٱحْتَازَهُ عَنْ مَعَاشِرٍ يَبِيتُونَ وَٱلْآمَالُ فِيهِمْ مَطَامِعُ

فَاَخَذَهُ اَبْنُ اَلرُّومِيّ فَقَالَ :

بِهِ صَدَقَ اَللّهُ اَلْاَمَانِي حَدِيثَهَا وَقَدْ مَرَّ دَهْرٌ وَاَلْاَمَانِي وَسَاوِسُ

وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ :

اَنضَرَتْ اَيكَتِي عَطَايَاكَ حَتَّى عَادَ غُصْنِي سَاقاً وَكَانَ قَضِيبَا

فَقَالَ اَلْبُحْتُرِيُّ وَزَادَ :

حَتَّى يَعُودَ اَلذِئْبُ لَيْثاً ضَيغَمَا وَاَلْغُصْنُ سَاقاً وَاَلْقَرَارَةُ نِيقَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَفِيمَا اَورَدتُ كِفَايَةٌ

البحث الثاني

في قبح الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٤٣ من علم الادب)

وَقُبْحُ اَلْاَخْذِ اَنْ تَعْمِدَ اِلَى اَلْمَعْنَى فَتَتَنَاوَلَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ اَوْ اَكْثَرِهِ اَوْ تُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ مُسْتَهْجَنٍ. وَاَلْمَعْنَى اِنَّمَا يَحْسُنُ بِاَلْكُسْوَةِ. اَخْبَرَ بَعْضُ اَصْحَابِنَا قَالَ قِيلَ لِلشَّعْبِيِّ : اِنَّا اِذَا سَمِعْنَا اَلْحَدِيثَ مِنْكَ نَسْمَعُهُ بِخِلَافِ مَا نَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِكَ . قَالَ : اِنِّي اَجِدُهُ عَارِيًا فَاَكْسُوهُ مِنْ غَيْرِ اَنْ اَزِيدَ فِيهِ حَرْفًا . اَيْ مِنْ غَيْرِ اَن اَزِيدَ فِي مَعْنَاهُ شَيْئًا فَمَا اُخِذَ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ وَادَّعَى آخِذُهُ اَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْهُ وَلٰكِنْ وَقَعَ كَمَا وَقَعَ لِلْاَوَّلِ كَمَا سُئِلَ اَبُو عَمْرِو بْنُ اَلْعَلَاءِ عَنِ اَلشَّاعِرَيْنِ يَتَّفِقَانِ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ وَمَعْنًى . فَقَالَ : عُقُولُ اَلرِّجَالِ

تَوَافَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهَا وَذٰلِكَ قَوْلُ طَرَفَةَ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ   يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ

وَهُوَ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ   يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

فَغَيَّرَ طَرَفَةُ ٱلْقَافِيَةَ . وَقَالَ ٱلْبُعَيثُ :

أَتَرْجُو كُلَيْبٌ أَنْ يَجِيءَ حَدِيثُهَا   بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا كُلَيْبًا قَدِيمُهَا

وَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ :

أَتَرْجُو رَبِيعٌ أَنْ تَجِيءَ صِغَارُهَا   بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا رَبِيعًا كِبَارُهَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ جِدًّا وَٱلْأَخْذُ إِذَا كَانَ كَذٰلِكَ كَانَ مَعِيبًا وَإِنِ ٱدَّعَى ٱلْآخِرُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ ٱلْأَوَّلِ بَلْ وَقَعَ لَهُ كَمَا وَقَعَ لِذَاكَ فَإِنَّ صِحَّةَ ذٰلِكَ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَٱلْعَيْبُ لَازِمٌ لِلْآخِرِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْقَوْمُ فِي قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّ خَوَاطِرَهُمْ تَقَعُ مُتَقَارِبَةً كَمَا أَنَّ أَخْلَاقَهُمْ وَشَمَائِلَهُمْ تَكُونُ مُتَضَارِعَةً وَأَنْشَدَنِي ٱلصَّاحِبُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبَّادٍ :

كَانَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ تَحْتَ أَظَلِّهِ

فَسَبَقَنِي وَقَالَ :

فَغَدَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ

وَكَذٰلِكَ كُنْتُ قُلْتُ : فَعَلَى هٰذَا جَائِزٌ مَا يُدَّعَى لَهُمْ وَٱلظَّاهِرُ مَا قُلْنَاهُ فَهٰذَا ضَرْبٌ . وَٱلضَّرْبُ ٱلْآخَرُ مِنَ ٱلْأَخْذِ ٱلْمُسْتَهْجَنِ أَنْ يَأْخُذَ ٱلْمَعْنَى فَيُفْسِدَهُ أَوْ يُعَرِّضَهُ أَوْ يُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ قَبِيحٍ وَكُسْوَةٍ

مُسْتَرْذَلِهِ . وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ اَبِي كَرِيعَةَ :

قَفَاهُ وَجْهٌ ثُمَّ وَجْهُ ٱلَّذِي قَفَا ... هُ وَجْهٌ يُشْبِهُ ٱلْبَدْرَا

وَإِنَّمَا اَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ اَبِي نُوَاس :

بَزَ حُسْنَ ٱلْوُجُوهِ حُسْنُ قَفَانَا

وَاَخَذَهُ اَبُو نُوَاسٍ مِنْ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ بِقَوْلِهِ لِلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ : اَيُفَاخِرُكَ اَبْنُ جَفْنَةَ وَٱللَّاتِ لَأَمْسُكَ خَيْرٌ مِنْ يَوْمِهِ وَلَقَفَاكَ اَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ وَلَيَسَارُكَ اَسْمَحُ مِنْ يَمِينِهِ . وَلَعَبِيدُكَ اَكْثَرُ مِنْ قَوْمِهِ وَلَنَفْسُكَ اَكْبَرُ مِنْ جُنْدِهِ وَلَيَوْمُكَ اَشْرَفُ مِنْ دَهْرِهِ . وَلَوَعْدُكَ اَنْجَزُ مِنْ رِفْدِهِ . وَلَهَزْلُكَ اَصْوَبُ مِنْ جِدِّهِ . وَلَكُرْسِيُّكَ اَرْفَعُ مِنْ سَرِيرِهِ . وَلَفِتْرُكَ اَبْسَطُ مِنْ شِبْرِهِ . وَلَأُمُّكَ خَيْرٌ مِنْ اَبِيهِ . وَسَمِعَ بَعْضُهُمْ قَوْلَ مَحْمُودٍ ٱلْوَرَّاقِ :

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ ٱللّٰهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ ٱلشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ ٱلشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ ٱلْأَيَّامُ وَٱتَّصَلَ ٱلْعُمْرُ

إِذَا مَسَّ بِٱلسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا ... وَإِنْ مَسَّ بِٱلضَّرَّاءِ اَعْقَبَهَا ٱلْأَجْرُ

وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا لَهُ فِيهِ نِعْمَةٌ ... تَضِيقُ بِهَا ٱلْأَوْهَامُ وَٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ

فَقَالَ وَاَسَاءَ :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ ذُو نِعَمٍ ... لَمْ يُحْصِهَا عَدَدًا بِٱلشُّكْرِ مَنْ حَمِدَا

شُكْرِي لَهُ عَمَلٌ فِيهِ عَلَيَّ لَهُ ... شُكْرٌ يَكُونُ لِشُكْرٍ قَبْلَهُ مَدَدَا

فَهٰذَا مِثَالُ قُبْحِ ٱلْأَخْذِ فَٱعْلَمْهُ . وَاَخَذَ اَبْنُ طَبَاطِبَا قَوْلَ عَلِيٍّ قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ . فَقَالَ :

فَيَالَائِمِي دَعْنِي أُغَالِي بِقِيمَتِي - فَقِيمَةُ كُلِّ ٱلنَّاسِ مَا يُحْسِنُونَهُ

فَأَخَذَهُ بِلَفْظِهِ وَأَخْرَجَهُ بَغِيضاً مُتَكَلَّفاً . وَٱلْجَيِّدُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ : (فَقِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ عِلْمُهُ) فَهَذَا وَإِنْ كَانَ أَخَذَهُ بِبَعْضِ لَفْظِهِ فَإِنَّ بَيْتَهُ أَحْسَنُ مَوْقِعاً مِنْهُ مِنْ بَيْتِ ٱبْنِ طَبَاطِبَا . وَمِمَّا قَصَّرَ فِيهِ ٱلْبُحْتُرِيُّ قَوْلُهُ :

قَوْمٌ تَرَى أَرْمَاحَهُمْ يَوْمَ ٱلْوَغَى مَشْغُوفَةً بِمَوَاطِنِ ٱلْكِتْمَانِ

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

وَٱلضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَبْيَضَ مُرْهَفٍ وَٱلطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ ٱلْأَضْغَانِ

فَإِنَّ قَوْلَهُ (مَجَامِعَ ٱلْأَضْغَانِ) أَجْوَدُ مِنْ قَوْلِهِ : مَوَاطِنُ ٱلْكِتْمَانِ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُطَاعِنُونَ ٱلْأَعْدَاءَ مِنْ أَجْلِ أَضْغَانِهِمْ فَإِذَا وَقَعَ ٱلطَّعْنُ فِي مَوْضِعِ ٱلضِّغْنِ فَذَاكَ غَايَةُ ٱلْمُرَادِ . وَأَنْشَدَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ عَنْ عَمِّهِ :

حَرَامٌ عَلَى أَرْمَاحِنَا طَعْنُ مُدْبِرٍ وَتَنْدَقُّ قِدَماً فِي ٱلصُّدُورِ صُدُورُهَا

مُسَلَّمَةٌ أَعْجَازُ خَيْلِي فِي ٱلْوَغَى مُكَلَّمَةٌ لَبَّاتُهَا وَنُحُورُهَا

أَخَذَهُ أَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ :

أُنَاسٌ إِذَا مَا ٱسْتَحْكَمَ ٱلرَّوْعُ كَسَّرُوا

صُدُورَ ٱلْعَوَالِي فِي صُدُورِ ٱلْكَتَائِبِ

فَأَحْسَنَا جَمِيعاً وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

يَلْقَى ٱلسُّيُوفَ بِنَحْرِهِ وَبِوَجْهِهِ وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ ٱلْمِغْفَرِ

وَيَقُولُ لِلطِّرْفِ ٱصْطَبِرْ لِشَبَا ٱلْقَنَا فَهَدَمْتُ رُكْنَ ٱلْمَجْدِ إِنْ لَمْ يُعْقَرِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ ٱلنَّطَّاحِ :

يَتلَقَّى ٱلنَّدَى بِوَجْهٍ حَيِيٍّ   وَصُدُورَ ٱلقَنَا بِوَجْهٍ وَقَاحِ

وَهٰذَا كُلُّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

لَا يَقَعُ ٱلطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمِ   لَيْسَ لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ ٱلْمَوْتِ تَهْلِيلُ

وَهُوَ دُونَ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ أَتَيْتُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ . فَقِسْ بِمَا أَوْرَدْتُهُ عَلَى مَا تَرَكْتُهُ فَإِنِّي لَوِ ٱسْتَقْصَيْتُهُ خَرَجَ هٰذَا ٱلْكِتَابُ عَنِ ٱلْمُرَادِ وَزَاغَ عَنِ ٱلْإِيثَارِ وَبِٱللهِ ٱلتَّوْفِيقُ

البحث الثالث

في حلّ الشعر

(عن المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٤٤ من علم الادب)

حَلُّ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا وَهُوَ أَدْنَاهَا مَرْتَبَةً أَنْ يَأْخُذَ ٱلنَّاثِرُ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ فَيَنْثُرُهُ بِلَفْظِهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهٰذَا عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَمِثَالُهُ كَمَنْ أَخَذَ عِقْدًا قَدْ أُتْقِنَ نَظْمُهُ وَأُحْسِنَ تَأْلِيفُهُ فَأَوْهَاهُ وَبَدَّدَهُ وَكَانَ يَقُومُ عُذْرُهُ فِي ذٰلِكَ أَنْ لَوْ نَقَلَهُ عَنْ كَوْنِهِ عِقْدًا إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى مِثْلِهِ أَوْ أَحْسَنَ مِنْهُ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا نَثَرَ ٱلشِّعْرَ بِلَفْظِهِ كَانَ صَاحِبُهُ مَشْهُورَ ٱلسَّرِقَةِ فَيُقَالُ : هٰذَا شِعْرُ فُلَانٍ بِعَيْنِهِ لِكَوْنِ أَلْفَاظِهِ بَاقِيَةً لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ وَقَدْ سَلَكَ هٰذَا ٱلْمَسْلَكَ بَعْضُ ٱلْعِرَاقِيِّينَ فَجَاءَ مُسْتَهْجَنًا لَا مُسْتَحْسَنًا .

كقوله في بعض ابيات الحماسة :

وَالَـدَّ ذي حَنَقٍ عليَّ كأنّما تغلي عداوة صدره في مرجلِ
ارجيته عني فابصر قصده وكويته فوق النواظر من علِ

(فيقال) في نثر هذين البيتين : فكم لقي الدَّ ذا حنق كأنّه ينظر الى الكواكب من علٍ وتغلي عداوة صدره فكواه فوق ناظريه واكبّه لفمه ويديه . فلم يزد هذا الناثر على ان ازال رونق الوزن وطلاوة النظم لاغير . ومن هذا القسم ضرب محمود لاعيب فيه وهو ان يكون البيت من الشعر قد تضمن شيئًا لايمكن تغيير لفظه فحينئذ يعذر ناثره اذا اتى بذلك اللفظ . وكذلك الامثال السائرة فانه لا بد من ذكرها على ما جاءت في الشعر . (واما القسم الثاني) فهو وسط بين الاول والثالث في المرتبة وهو ان ينثر المعنى المنظوم ببعض الفاظه ويعبر عن البعض بالفاظ أخر وهناك تظهر الصنعة في المماثلة والمشابهة ومؤاخاة الالفاظ الباقية بالالفاظ المرتجلة فانه اذا اخذ لفظًا لشاعر مجيد قد نقحه وصححه فقرنه بما لا يلائمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة . ولا خفاء بما في ذلك من الانتصاب للقدح والاستهداف للطعن والطريق المسلوك الى هذا القسم ان تأخذ بعض بيت من الابيات الشعرية هو احسن ما فيه ثم تماثله . وساورد ههنا مثالًا واحدًا ليكون قدوة للمتعلم (فاقول) : قد ورد هذا البيت من شعر ابي تمام في وصف قصيدة له :

وَحُدَاءٍ تَمْلَأُ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً   وَبَلَاغَةً وَتُدِرُّ كُلَّ وَرِيــدِ

فَقَوْلُهُ (تَمْلَأُ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً) مِنَ ٱلْـكَلَامِ ٱلْحَسَنِ وَهُوَ أَحْسَنُ مَا فِي ٱلْبَيْتِ فَإِذَا أَرَدتَّ أَنْ تَنْثُرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَلَا بُدَّ مِنِ ٱسْتِعْمَالِ لَفْظِهِ بِعَيْنِهِ لِأَنَّهُ فِي ٱلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى مِنَ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ . فَعَلَيْكَ أَنْ تُؤَاخِيَهُ بِمِثْلِهِ وَهٰذَا عَسِرٌ جِدًّا وَهُوَ أَصْعَبُ مِثَالًا مِنْ نَثْرِ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ لِأَنَّهُ مَسْلَكٌ ضَيِّقٌ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّعَرُّضِ لِمُمَاثَلَةِ مَا هُوَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْجُودَةِ . وَأَمَّا نَثْرُ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ فَذٰلِـكَ يَتَصَرَّفُ فِيهِ نَاثِرُهُ عَلَى حَسَبِ مَا يَرَاهُ وَلَا يَكُونُ مُقَيَّدًا فِيهِ بِمِثَالٍ يُضْطَرُّ إِلَى مُؤَاخَاتِهِ . وَقَدْ نَثَرْتُ هٰذِهِ ٱلْـكَلِمَاتِ ٱلْمُشَـارَ إِلَيْهَا وَأَتَيْتُ بِهَا فِي جُمْلَةِ كِتَابٍ فَقُلْتُ : وَكَلَامِي قَدْ عُرِفَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱشْتَهَـرَ . وَفَاقَ مَسِيرَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَـرِ . وَإِذَا عُرِفَ ٱلْـكَلَامُ صَارَتِ ٱلْمَعْرِفَةُ لَهُ عَلَامَةً . وَأُمِنَ مِنْ سَرِقَتِهِ إِذْ لَوْ سُرِقَ لَدَلَّتْ عَلَيْهِ ٱلْوَسَامَةُ . وَمِنْ خَصَائِصِ صِفَاتِهِ أَنْ يَمْلَأَ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً . وَيَجْعَلَ فَصَاحَةَ كُلِّ لِسَـانٍ عُجْمَةً . وَإِذَا جَرَتْ نَفَثَاتُهُ فِي ٱلْأَفْهَامِ قَالَتْ : أَهٰذِهِ بِنْتُ فِكْرَةٍ أَمْ بِنْتُ كَرْمَةٍ . فَٱنْظُرْ كَيْفَ فَعَلْتُ فِي هٰـذَا ٱلْمَوْضِعِ فَإِنِّي لَمَّا أَخَذْتُ تِلْكَ ٱلْـكَلِمَاتِ مِنَ ٱلْبَيْتِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلْتَزَمْتُ بِأَنْ أُوَاخِيَهَا بِمَا هُوَ مِثْلُهَا أَوْ أَحْسَنُ مِنْهَا فَجِئْتُ بِهٰذَا ٱلْفَصْلِ كَمَا تَرَاهُ . وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُفْعَلَ فِيمَا هٰذَا سَبِيـلُهُ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ أَعْلَى مِنَ ٱلْقِسْمَـيْنِ ٱلْأَوَّلَيْنِ فَهُوَ أَنْ يُؤْخَذَ ٱلْمَعْنَى فَيُصَاغَ بِأَلْفَاظٍ غَيْرِ أَلْفَاظِهِ . وَثَمَّ يَتَبَيَّنُ حِذْقُ ٱلصَّائِغِ فِي صِيَاغَتِهِ وَيُعْلَمُ مِقْدَارُ تَصَرُّفِهِ

فِي صِنَاعَتِهِ فَإِنِ ٱسْتَطَاعَ ٱلزِّيَادَةَ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتِلْكَ ٱلدَّرَجَةُ ٱلْعَالِيَةُ وَإِلَّا احْسَنَ ٱلتَّصَرُّفَ وَاتْقَنَ ٱلتَّأْلِيفَ لِيَكُونَ اوْلَى بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى مِنْ صَاحِبِهِ ٱلْاَوَّلِ . وَٱعْلَمْ انَّ مِنْ ابْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا يَتَّسِعُ ٱلْمَجَالُ لِنَاثِرِهِ فَيُورِدُهُ بِضُرُوبٍ مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ . وَذٰلِكَ عِنْدِي شَبِيهٌ بِٱلْمَسَائِلِ ٱلسَّيَّالَةِ فِي ٱلْحِسَابِ ٱلَّتِي يُجَابُ عَنْهَا بِعِدَّةِ اجْوِبَةٍ . وَمِنَ ٱلْأَبْيَاتِ مَا يَضِيقُ فِيهِ ٱلْمَجَالُ حَتَّى يَكَادَ ٱلْمَاهِرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ انْ لَا يَخْرُجَ عَنْ ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ وَإِنَّمَا يَكُونُ هٰذَا لِعَدَمِ ٱلنَّظِيرِ . . . وَإِذَا ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْكَلَامُ إِلَى هَا هُنَا فِي ٱلتَّنْبِيهِ عَلَى نَثْرِ ٱلشِّعْرِ وَكَيْفِيَّةِ نَثْرِهِ وَذِكْرِ مَا يَسْهُلُ مِنْهُ وَمَا يَعْسُرُ . فَلْنُتْبِعْ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ كُلِّيٍّ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ فَنَقُولُ : مَنْ احَبَّ انْ يَكُونَ كَاتِبًا اوْ كَانَ عِنْدَهُ طَبْعٌ مُجِيبٌ فَعَلَيْهِ بِحِفْظِ ٱلدَّوَاوِينِ ذَوَاتِ ٱلْعَدَدِ وَلَا يَقْنَعْ بِٱلْقَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ . ثُمَّ يَأْخُذْ فِي نَثْرِ ٱلشِّعْرِ مِنْ مَحْفُوظَاتِهِ . وَطَرِيقُهُ انْ يَبْتَدِئَ فَيَأْخُذَ قَصِيدًا مِنَ ٱلْقَصَائِدِ فَيَنْثُرَهُ بَيْتًا بَيْتًا عَلَى ٱلتَّوَالِي . وَلَا يَسْتَنْكِفْ فِي ٱلْاِبْتِدَاءِ انْ يَنْثُرَ ٱلشِّعْرَ بِالْفَاظِهِ اوْ بِاكْثَرِهَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ إِلَّا ذٰلِكَ وَإِذَا مَرَنَتْ نَفْسُهُ وَتَدَرَّبَ خَاطِرُهُ ٱرْتَفَعَ عَنْ هٰذِهِ ٱلدَّرَجَةِ وَصَارَ يَأْخُذُ ٱلْمَعْنَى وَيَكْسُوهُ عِبَارَةً مِنْ عِنْدِهِ . ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَنْ ذٰلِكَ فَيَكْسُوهُ ضُرُوبًا مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ لِخَاطِرِهِ بِمُبَاشَرَةِ ٱلْمَعَانِي لِقَاحٌ فَيَسْتَنْتِجُ مِنْهَا مَعَانِيَ غَيْرَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي وَسَبِيلُهُ انْ يُكْثِرَ ٱلْادْمَانَ لَيْلًا وَنَهَارًا وَلَا يَزَالُ عَلَى ذٰلِكَ مُدَّةً طَوِيلَةً حَتَّى يَصِيرَ لَهُ مَلَكَةً . فَإِذَا كَتَبَ كِتَابًا اوْ خَطَبَ خُطْبَةً تَدَفَّقَتِ ٱلْمَعَانِي فِي

اَثناء كَلَامِهِ وَجَاءَتْ الْقَاطِرَةُ مَغْسُولَةً مَغْسُولَـةً وَكَانَ عَلَيْهَا حِدَّةٌ حَتَّى تَكَاد تَرْقُصُ رَقْصًا . وَهٰذَا شَيْءٌ خَبَرْتُهُ بِالتَّجْرِبَةِ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ

تم بعونه تعالى



فهرس

المقالات